د. وحيد قدورة

الاستاذ المساعد بالمعهد الاعلى للتوثيق

بجامعة تونس

بداية الطباعة العربية في استانبول وبلاد الشام:

تطور المحيط الثقافي

(1706 - 1787)

تقديم

د. عبد الجليل التميمي

الاستاذ بكلية العلوم الانسانية والاجتماعية

بجامعة تونس

Le Début de l'Imprimerie
à Istanbul et en Syrie :
Evolution de l'Environnement
Culturel (1706-1787)

بداية الطباعة العربية في أستانبول وبلاد الشام : تطوّر المحيط الثقافي

(1706 - 1787)

منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات (سيرمدي)

المدير المسؤول

أ. د. عبد الجليل التميمي

من نشاط المركز :

أنشئ هذا المركز منذ ست سنوات بمدينة زغوان من طرف د. عبد الجليل التميمي، الأستاذ بكلية العلوم الإنسانية والإجتماعية لجامعة تونس الاولى . و من أهدافه :

- إنشاء مركز معلومات تاريخية عثمانية وموريسكية وتوثيق ومعلومات وقاعدة بيانات للارشادات البيلوغرافية بالموضوعات السالفة الذكر.
- إنشاء مكتبة متخصصة ، وهي المكتبة التي افتتحت في مارس 1989 وتقدم الخدمات المكتبية للباحثين والمستفدين .
- القيام بالدراسات و البحوث و النشر في مجال الدراسات السالفة الذكر (راجع قائمة منشورات المركز ص 263 - 264)
- إرساء تعاون علمي بين الباحثين العرب والاتراك و الفرنسيين و الإسبان و كل المتخصصين الدوليين الذين يشاركوننا هذه الاهتمامات المعرفية .
- يشرف المركز على نشر دورتين أكاديميتين مما : **المجلة التاريخية المغاربية** التي بدأ صدورها منذ سنة 1974 و صدر منها 64 عددا. و **المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية** وقد صدر منها لحد الآن ستة اعداد (1992)

نظم المركز احدى عشر مؤتمرا عربيا ودوليا جمعت أهم المتخصصين العرب و الدوليين حول الدراسات العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات.

تمّ تصفيف هذا الكتاب على الوحدة الاعلامية ابل ماكنتوش التابعة لسيرمدي. اما السحب فتم بطبعة بابيريس - نابل ، في شهر جوان 1992 .

عنوان المركز : ص ب 50 زغوان 1118 الجمهورية التونسية

الهاتف : من تونس 0 2 76 446

من الخارج 00 216 2 76 446

الفاكس : 00 216 2 76 710

I.S.B.N 9973-719-20-4 ر.د.م.ك

د. وحيد قدوره
الاستاذ المساعد بالمعهد الأعلى للتوثيق
بجامعة تونس

بداية الطّباعة العربية في استانبول وبلاد الشام :
تطوّر المحيط الثقافي
(1706 - 1787)

تقديم

د. عبد الجليل التميمي
الاستاذ بكلية العلوم الانسانية والاجتماعية
بجامعة تونس

منشورات
مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات
ومكتبة الملك فهد الوطنية

جوان - 1992

تقديم

د. عبد الجليل التميمي

ما من شك أن دور الطباعة مع بداية عصر النهضة الأوروبية، يشكل احد المنعرجات الحاسمة للتطور الحضاري والفكري للبشرية جمعاء . اذ بفضل الطباعة أمكن للابداع المعرفي والفكري والحضاري ان تتعدد قنواته وأدواته لتصل كل المراكز والهيئات والأفراد الراغبين في اقتنائه ، بعد أن كان ذلك حكرا على فئة قليلة من المتعلمين بالاديرة والكنائس والجامعات بالنسبة للعالم اللاتيني والزوايا والمدارس والمساجد وقصور الأمراء بالنسبة للعالم الإسلامي .

وعلى الرغم من أن ساحة العالم العربي-الإسلامي عرفت سرعة سريان المعلومات عن طريق نسخ المخطوطات النادرة ، إلا أن تداولها يبقى هو الآخر محدودا في الزمان والمكان، اذا أخذنا بالاعتبار مدى ارتفاع نسبة المتعلمين والقارئين في العالم العربي الاسلامي الوسيط والذي يمثل أوج اشعاع المعرفة ، ثم مدى تلهف الرأي العام يومئذ على اقتناء الجديد فيها. إلا انه استحال عليه ذلك، لندرتها وعدم تداولها بسرعة ويسر ، وهذا على الرغم من دور النساخ الذي يبقى هو الآخر ضئيلا ومحدودا، امام ضخامة وأهمية وتنوع التراث الحضاري المكتوب لأمتنا عبر عصورها المختلفة .

واذا اخذنا بالاعتبار وجود حوالي ثلاثة ملايين عنوان لمخطوط ، شملت مختلفة الميادين الفكرية والحضارية ، فكيف السبيل إلى تعميم الاستفادة منها، اذا لم تتوفر يومئذ طريقة جديدة مثل الطباعة لتداول هذا الرصيد الحضاري وتعميم الاستفادة منه . ولا شكّ أن الطباعة ، هذه المغامرة الثورية للانسان ، استطاعت ان تمنح للفرد ، فضلا عن المجموعات والهيئات، أحقية التمتع والتملك بالانتاج الفكري للإنسان من خلال الكتاب المطبوع .

واذا كانت الدراسات العلمية الغربية قد درست بداية الطباعة الأوروبية في العالم اللاتيني ، وظهرت، نتيجة لذلك ، مئات الدراسات والبحوث الشيقة حول هذا الموضوع، فإنّ دراسة بداية الطباعة العربية على مستوى العالم العربي الاسلامي، لم تحظ باي دراسة

علمية مستفيضة حتى يومنا هذا، على الرغم من اهمية وحيوية هذا الموضوع الدقيق ومدى تفاعله المباشر مع حركة النهضة والاصلاح والتنظيمات.

وكم يسعدني اليوم أن أقدم في نطاق منشورات مركزنا بحث د. وحيد قدورة، الاستاذ المساعد **بالمعهد الاعلى للتوثيق** عن : **بداية الطباعة العربية باستانبول وبلاد الشام 1707 - 1787**، في لغة الضاد، بعد ان ناقشه بجامعة باريس الأولى كرسالة دكتورا حلقة ثالثة.

ود. وحيد قدورة يعد من الباحثين المختصين في مجال الدراسات المكتبية والاعلامية، فعديد الدراسات والبحوث المكتبية التي توفق في نشرها حتى اليوم، في لغة الضاد أولا ثمّ في الفرنسية، جعلت منه أحد الباحثين المختصين المتميزين والواعدين بكل خير، من أجل اثراء مجال الدراسات الاعلامية والمكتبية ليس فقط على مستوى تونس والمغرب العربي بل أيضا على مستوى الوطن العربي. فقد أتيحت له بادئ الأمر فرص التردد على أهم المكتبات الفرنسية غوصا وبحثا في ارصدتها من الكتب العربية، وقام بحصر ذلك والتعرف عليه عن قرب. وقد مكنته تلك المعرفة ان يهتدي الى دراسة بداية الطباعة العربية في المجتمع العثماني. ولا أكتم القارئ سرّا إن بحتّ له بأن البحث الذي بين يديه الآن، يعد بحثا أكاديميا توفق فيه المؤلف لدراسة اشكاليات وخلفيات تحرك المجتمع العربي العثماني من اجل تبني الطباعة، محللا العوائق التي جابهها الرواد الأوائل، ثم مساعيهم الجبارة والمتواصلة التي تبنوها لاقناع المسؤولين وخصوصا شق العلماء المحافظين بجدوى وأهمية تبني الطباعة كأسلوب لإدخال روح جديدة على الثقافة والعلوم واثراء الحضارة العربية والاسلامية ودخول عصر النهضة الفكرية الشاملة باعتبار أن الطباعة تمثل عنصرا هاما في التحول الاجتماعي والسياسي والعقلي للأمة العربية - الإسلامية.

هذا وسوف يغوص القارئ في هذا البحث الشيق ذي المراجع العديدة المتنوعة في خصوصيات هذا الصّراع الديني المشرقي والذي كان وراء ادخال الطباعة. كما سيتعرف على أسباب اختيار عناوين الكتب العربية ومدى اهتمام العرب المسلمين عموما باهمية الطباعة ودورها الحاسم في نشر الوعي وكل هذا قبل حملة نابليون بونابرت. ويكفي دلالة على ذلك عشرات الكتب المطبوعة في كل من بلاد الشام واستانبول خلال القرن الثاني عشر.

ولا شك لدي أيضا ان هذا الكتاب المرجعي ونشره في لغة الضاد، في نطاق منشورات مركزنا المهتم بتاريخ الولايات العربية اثناء العهد العثماني ، سيساهم في اثراء مكتبتنا التاريخية العربية . فشكرا للباحث الدكتور وحيد قدورة على مجهوده الكبير وتفانيه واخلاصه دوما في خدمة المعرفة التاريخية والمكتبية، مؤملين أن تكون هذه الطبعة العلمية ، قد وفّرت نموذجا متميزا لما يجب أن تكون عليه المنشورات الاكاديمية العربية في المستقبل . كما أنتهز هذه الفرصة لأرفع تحية تقدير وشكر للهيئة المديرة لمكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض والتي لولا تشجيعها وموافقتها على النشر المشترك ، لما رأى النور هذا الكتاب اليوم . والله يوفقنا لخدمة المعرفة والعلم ، أنه سميع مجيب.

زغوان في 24 ماي 1992 — د. عبد الجليل التميمي

قائمة المحتويات

الصفحة

1 - القسم العربي

- القسم الفرنسي

المقدمة

يتناول هذا الكتاب بالدرس المشاكل التي طرحت عند ظهور المطبعة العربية في المشرق وتأثير هذا الحدث على الحياة الثقافية داخل الإمبراطورية العثمانية في القرن 12 هـ / 18 م . ففن الطباعة بالاحرف العربية لم يبرز في المشرق إلا بعد مرور قرنين ونصف على اكتشافه بأروبا وقد حافظ المخطوط العربي في الاثناء على مكانته المتميزة لدى المتعلمين باعتباره الوعاء الرئيسي لنقل المعلومات والمعارف . إلى أن ظهرت أول مطبعة عربية سنة 1118 هـ / 1706 م بمدينة حلب عند مسيحيي الطائفة الأرثودكسية الملكية. ثم أسست مطبعة ثانية لدى المسلمين بإستانبول سنة 1140 هـ / 1726 م وتبعتها بعد ذلك ورشتان للطباعة لدى المسيحيين بجبل لبنان أي بالشوير سنة 1147 هـ / 1734 م ، وبيروت سنة 1165 هـ / 1751 م .

وتعتبر ظاهرة تأسيس أربعة مطابع عربية في ظرف نصف قرن علامة بارزة في عملية التحول التي أقدم عليها المجتمع العثماني في القرن 12 هـ / 18م . والتي كان يتوق من خلالها إلى الانتقال إلى مرحلة جديدة من تاريخه وهي مرحلة الإصلاح والنهضة والتي سيلعب فيها الكتاب المطبوع دورا بارزا . وحيث لا يمكن نقل الآراء الجديدة والمعارف العصرية في ذلك العهد بسرعة والتعريف بها على نطاق واسع إلا عبر الكتاب المطبوع . ان أفكار الإصلاحيين التي برزت في هذه الفترة تعبّر عن رغبة جديدة في تغيير المجتمع بداية من تطوير أدوات الثقافة وهذا ما يفسر إقدام المثقفين على إعطاء شكل جديد لوعاء المعلومات الرئيسي وهو شكل الكتاب المطبوع.

وعليه فإنه من الضروري البحث في البداية عن أسباب " التأخير " المسجل في إدخال المطبعة العربية بالمشرق . ذلك لأن المسلمين ترددوا في استعمال فن الطباعة رغم أنهم كانوا على دراية تامة ومبكرة بظهور أحرف الطباعة المنفصلة بأروبا في القرن 9 هـ / 15 م ، بل أكثر من ذلك انهم كانوا على علم " بفن الكتابة الجديد" الذي اكتشفه الصينيون في القرن 5 هـ / 11 م . ولا يختلف الامر كذلك بالنسبة للمسيحيين العرب الذين كانوا مطلعين على ورشات الطباعة الموجودة عند الاقليات الدينية بالدولة العثمانية من يهود وأرمن ويونانيين منذ القرنين 9 - 10 هـ / 15 - 16 م . وهنا نتساءل ما هي أسباب التحفظ إزاء استعمال فن الطباعة؟ وما هي أسباب المخاوف التي أبديت إزاء تعويض المخطوط بالكتاب المطبوع واستبدال الناسخ بالمطبعي ؟

كان من المهم عند دخول المطبعة العربية إلى إستانبول وبلاد الشام التعرف عن تصور المتعلمين لمفهوم المطبعة ومزاياها وماذا ينتظرون منها وذلك بغرض التعرف عمليّا على مدى استجابة الكتاب المطبوع هناك من خلال محتواه لهذه التصورات والآمال . إلا أنه يجب الإشارة منذ البداية

إلى أن وظيفة الطباعة العربية في المشرق على المستويين الثقافي والاجتماعي ، لا يمكن أن تكون مشابهة لدور الطباعة في أروبا في نفس الفترة نظرا إلى أن هذه الأخيرة قد سبقت المشرق في استخدام هذا الفن بأكثر من قرنين ونصف. ان منافعُ فن الكتابة الجديد لم تكن أمرا بديهيا حتى لدى الأروبيين في البداية إذ كانوا ينظرون إليه عند ظهوره على أنه اكتشاف عجيب وأنه أجمل من الكتابة بخط اليد لا غير. إلا أنه فيما بعد وعلى ضوء نتائج استعمال المطبعة، اتضحت للغرب مزايا وفوائد هذه الآلة (1)

وبالمقابل لم تكن لاهل المشرق نفس النظرة تجاه المطبعة نظرا لطبيعة مجتمعهم وطريقة حكمهم على الظواهر التي تحدث عندهم. وبالتالي فإن نظرتهم للمطبوعات كانت مصطبغة بتصورات ومفاهيم مختلفة عن الأروبيين ولنا أن نتساءل فيما إذا تم فعلا تسخير الكتاب المطبوع في إستانبول وبلاد الشام لتبادل الآراء ونشر العلوم الحديثة وإثارة نقاشات فكرية ثرية ، أم أنه تم توظيفه لمهام أخرى ؟ وكذلك هل ان النقاشات التي دارت بين المثقفين حول فوائد المطبعة ومستقبل الحضارة الإسلامية كانت تمهيدا للتيارات الفكرية الكبرى التي نشطت حركة النهضة والتي ظهرت في القرن 13 هـ / 19 م خاصة وأن الأداة الأساسية في نقل الآراء والمعلومات كانت الصحافة والكتاب المطبوع ؟ ذلك لأن الباحثين المعاصرين درجوا عند دراستهم لحركة النهضة على الاقتصار في تناولها على فترة وقوعها دون التأمل في بدايتها. وهنا يجدر بنا أن نتساءل ثانية هل يمكن تحديد بداية النهضة العربية مع دخول الطباعة العربية للبلاد العثمانية أي في مطلع القرن 12 هـ / 18 م ؟ لهذا كان لزاما علينا عدم عزل اكتشاف المطبعة وعدم الاقتصار على اعتبارها مجرد آلة صناعية بل إقحامها في الإطار الاجتماعي والتاريخي للمجتمع العثماني وتنزيلها في خضم التحولات الاجتماعية التي بدأت تغير العالم الإسلامي في الفترة التي كانت أروبا تعد فيها لثورتها الصناعية .

ان دراسة فترة التحول هذه أساسية للتعرف على بداية ظهور المجتمع العثماني الحديث وما القرن 12 هـ / 18 م الا نقطة اتصال بين عهدين : عهد جمود وعهد يقظة العالم الاسلامي . ان اختيار الفترات الزمنية في مثل هذه الدراسات يمكن ان يكون غير دقيق، هذا على الرغم من أهمية التأريخ في البحث التاريخي . ان الحوار الذي أثير حول موضوع الطباعة قد بدأ قبل سنة 1118

---

(1) ذكر الرحالة الفرنسي فولني في أواخر القرن 12 هـ / 18 م بعض الفوائد التي جنتها أروبا من الطباعة ، فقال انها مصدر الثورات التي اندلعت في المجتمع الاروبي على امتداد ثلاثة قرون باعتبار أن آلة الطباعة استطاعت بفضل نشرها للكتاب بين عامة الناس أن تبلغ جملة من المعارف بين مختلف الطبقات الاجتماعية .
Volney (C.F.C. De) ., Voyage en Egypte et en Syrie ; Paris , La Haye , Mouton , 1959 p. 396 (1 ère édition, Paris, 1787)

هـ / 1706 م. تاريخ تأسيس أول مطبعة عربية ببلاد الشام كما تواصل في القرن 13 هـ / 19 م . إلا أنه يمكن تحديد نهاية أول مرحلة من ظاهرة التحديث في المجتمع العثماني في حدود سنة 1202 هـ / 1787 م مع ارتقاء السلطان سليم الثالث العرش وإعلان برنامجه الإصلاحي " نظام جديد " .

إن اهتمامنا بمسألة الطباعة والكتاب العربي قد بدأ منذ أن كنّا ندرس علم المكتبات والمعلومات بالمدرسة الوطنية العليا للمكتبات بمدينة ليون الفرنسية وحيث اخترنا مسألة المطبعة العربية بأروبا في القرنين 10 - 11 هـ / 16 - 17 م لتكون موضوع رسالة ختم الدروس بتلك المدرسة عنها. ثم حرصنا على مواصلة البحث في موضوع المطبعة العربية، وكان اختيارنا لفترة لا تزال غامضة حول فن الطباعة وهي بدايته في المشرق العربي والتي لا توجد عنها سوى دراسات متفرقة فكان هذا موضوع رسالة الدكتوراه (حلقة ثالثة) التي قدمناها أمام جامعة السربون، باريس الرابعة، سنة 1403 هـ / 1983 م .

وقد تمثل أول عمل لنا في ضبط ببليوغرافية للكتب العربية المطبوعة في القرن 12 هـ / 18 م وقد اعتمدنا في ذلك على ببليوغرافيات عربية وفهارس المكتبات الكبرى في العالم . وقد عثرنا على جلّ هذه الكتب في المكتبة الوطنية بباريس. وهي التي تعد من أثرى المكتبات في العالم فيما يتعلق بأوائل الكتب العربية المطبوعة. واستكملنا المجموعة بالعودة إلى بعض المكتبات السورية . كما أننا درسنا الوثائق الأصلية المتعلقة بنشاط المطابع باستانبول والشوير وكنا قد عثرنا عليها في بعض مراكز الأرشيف وكذلك وجدنا البعض منها منشورا في كتب ومجلات علمية .

ثم بدأنا بدراسة وتحليل محتوى أوائل الكتب العربية المطبوعة والتي تمثل مصدرا أساسيا لهذا البحث ، إذ احتوت على معلومات ثمينة حول تأسيس المطابع والدوافع التي أدت إلى تأسيسها وقدمت تعريفا بأصحابها ومشاريعهم والصعوبات التي اعترضتهم ووجهة هذه الكتب وبصفة عامة ذكرت عدة مظاهر من حياة ورشات الطباعة .كما اعتمدنا في عملنا على كتب الرحالة الأروبيين الذين سافروا إلى المشرق في تلك الفترة نظرا لأهمية شهاداتهم ، رغم أنها لا تخلو من انحياز في كل مرة يحللون فيها بعض مظاهر حياة المسلمين إذ لم يتخلص جلّهم من الأحكام المسبقة عن العثمانيين بسبب تأثرهم بجو الصراع الذي كان قائما بين المسلمين والمسيحيين . كما أنهم كانوا يسردون ما يشاهدون من زاوية خارجية دون أن ينفذوا إلى داخل المجتمع الشرقي وتعتبر اللغة عائقا بالنسبة لأغلبهم للاحتكاك بالسكان الأصليين . كما أنهم كانوا يجهلون نمط تفكيرهم لذلك اقتصر الرحالة الأروبيون على ذكر ملاحظات عامة ، غافلين بذلك عن الحوار الذي كان يدور بين القوى التقليدية والمجددة حول مشروع المجتمع الجديد .

نشير إلى أننا لا ننوي تقديم أجوبة نهائية عن الأسئلة التي طرحناها ولا ندعي بأننا سنقول كلمة الفصل في قضايا الطباعة العربية التي طرحناها، بل اننا سنسهم في تقديم بعض عناصر الجواب مع اثارة القضايا ووضعها ضمن الإطار التاريخي للقرن 12 هـ / 18 م . وينقسم هذا العمل إلى جزئين أساسيين : يتناول الجزء الأول بالدرس التمهيد لإدخال المطبعة العربية للشرق ، في حين أن الجزء الثاني يتعلق بظهور أربع مطابع عربية . خصص الجزء الأول للبحث في التحضيرات التي سبقت إنشاء المطابع العربية من خلال تحليل مواقف المسلمين والمسيحيين تجاه فن الكتابة الجديد، فكان أن تعرضنا للحوار الذي دار بين المسلمين حول منافع كلّ من المخطوط والكتاب المطبوع وكذلك تناولنا بالدرس الصراعات التي دارت بين المسيحيين حول المطبعة ومحتوى الكتب . كما تناولت هذه الدراسة بالتحليل مسألة المطبعة العربية بأروبا في القرنين 10 - 11 هـ / 16 - 17 م، وذلك لمعرفة مدى تأثيرها وصداها بالمشرق . أمّا الجزء الثاني فقد بحث في عملية تأسيس المطابع العربية باستانبول وبلاد الشام والظروف والملابسات التي أحاطت بهذا الحدث والصعوبات التقنية والمالية التي اعترضت اصحاب هذه الورشات. الا أن المسألة التي استأثرت بالاهتمام في هذا الجزء، فقد تعلقت بدراسة مدى إسهام المنشورات العربية في إثراء وتنشيط الحياة الثقافية والاجتماعية في البلاد العثمانية وذلك بالاعتماد على بعض المؤشرات نذكر منها : محتوى الكتب ووجهتها وتوزيعها وصداها لدى المتعلمين . كلّ ذلك لمعرفة الصورة التي يحملها هؤلاء عن الطباعة وما ينتظرون منها للإسهام في تغيير المجتمع العثماني . وأخيرا نشير إلى أننا أرفقنا هذه الدراسة ببيليوغرافية شاملة للكتب العربية المطبوعة في القرن 12 هـ / 18 م في المشرق .

*****

وفي هذا الاطار ، فاننا نلفت انتباه القارئ أننا نقصد بالمطبعة العربية كل ورشة تستخدم الأحرف العربية لطباعة كتب عربية بالأحرف العربية والغرض من هذا التوضيح هو التمييز بين هذه المطابع والمطابع الأخرى التي تطبع كتبا فارسية وتركية بأحرف عربية .

إلا أننا مع ذلك تعرضنا لمطبعة قوزحية التي أسسها المارونيون بجبل لبنان رغم أنها طبعت كتابا واحدا فقط بالحرف الكرشوني والسرياني وسبب ذلك هو الأهمية البالغة لهذه الورشة التي تعكس أول مبادرة للمسيحيين العرب للتعامل مع فن الطباعة . .

أما عن اهتمامنا بمطبعة استانبول التي لم تطبع سوى بضعة كتب باللغة العربية والبقية بالفارسية والتركية، فيعزى إلى مكانة هذه المطبعة الأولى ألتي حظيت بموافقة السلطان العثماني والعلماء مما يبرز التحول الجذري في موقف المسلمين تجاه آلة الطباعة وبصفة عامة تجاه

الاكتشافات الثقافية والعلمية القادمة من أروبا وكذلك نظرا لمكانة وصدى منشورات هذه المطبعة في أوساط المتعلمين.

نلفت انتباه القارئ الكريم أخيرا إلى أن بعض الجوانب من تاريخ مطبعة بيروت، مازال غامضا رغم المجهود الذي بذلناه ويعود سبب ذلك إلى فقدان الوثائق الأصلية لهذه الورشة عندما انهار المبنى الذي كان يأويها سنة 1179 هـ / 1766 م. وللتغلب على هذا العائق، التجأنا إلى مصادر من القرن 13 هـ / 19 م أين استقينا معلومات حول هذه المؤسسة.

الجزء الأول : التمهيد لإدخال المطبعة العربية بالمشرق :
مواقف المسلمين والمسيحيين من اكتشاف الطباعة

الفصل الأول :

المسيحيون العرب والمطبعة : المنشورات العربية بأروبا وصداها لدى مسيحيي المشرق في القرنين 10 - 11 هـ/16-17 م

من المفارقات أن نجد النشر العربي قد عرف بدايته في بلدان غريبة عن هذه اللغة، فكان الأروبيون هم السبّاقون لطبع الكتب العربية منذ القرن 10 هـ / 16 م. وبعد مرحلة المحاولات والتجارب أثناء ذلك القرن، ازدهرت المطبعة العربية عندهم في القرن 11 هـ / 17 م. وقد اهتمت عدة مدن أروبية بطبع الكتب العربية وخاصة في إيطاليا وفرنسا وهولاندا وألمانيا وانقلترا . إن هذه المعطيات جعلتنا نتساءل عن الأهداف والحوافز التي حدت بالأروبيين إلى نشر الكتب العربية في وقت مبكر . وقد حاولنا التعرف على الصعوبات التي لاقوها للحصول على الأحرف العربية ومراقبة عملية النشر والمواضيع التي عالجوها في المطبوعات الأولى . وعلى ضوء الإجابة سنتمكن من تحليل وضع الدراسات العربية بأروبا طيلة القرنين 10 - 11 هـ / 16 - 17 م ودور الكتاب العربي المطبوع في التعريف بالحضارة الإسلامية بأروبا .

إن المنشورات العربية بأروبا كانت موجهة جزئيا إلى المشرق وقد تم توزيع عديد النسخ في بلاد الشام، فكانت ردود فعل المسلمين والمسيحيين تجاهها مختلفة وأيضا متناقضة وسنقتصر في هذا الفصل على تحليل مواقف المسيحيين العرب أولا من مبدإ استعمال فن الطباعة وثانيا من استخدام النصوص المطبوعة بالمدن الأوروبية. فكيف كانوا ينظرون إلى هذا الاكتشاف ؟ وكيف تعاملوا معه وهل حاولوا إدخال هذا الفن إلى سوريا ؟

1 - المطبعة العربية بأروبا 920 هـ/1514 م - 1112 هـ / 1700 م :

1-1 الدراسات العربية بأروبا : لقد شعر المسيحيون بأروبا بضرورة التعرف على الشرقيين وخاصة المسلمين منهم منذ فتح الأندلس عن طريق طارق بن زياد في القرن 2 هـ / 8 م . وحرص رجال الدين عندهم على معرفة عقلية هؤلاء الفاتحين الجدد، فعملوا على تعلم آدابهم وعلومهم بداية من القرن التاسع. وتحولوا لهذا الغرض إلى المراكز الجامعية بقرطبة واشبيلية وطليطلة وغيرها . ثم انكبوا منذ أواخر ذلك القرن على ترجمة المؤلفات الإسلامية الكبرى إلى اللغة

اللاتينية . فمثلا قام البابا سلفستروس الثاني (3 هـ / 10 م) الذي درس بالأندلس بترجمة كتب في الفلسفة والرياضات والعلوم الطبيعية (1) .

وقد كرس عدد كبير من الرهبان حياتهم لدراسة اللغة العربية رغم معارضة الكنيسة وترجموا عديد المؤلفات الإسلامية الكبرى إلى اللغة اللاتينية من ذلك الإيطالي جيرار دي كريمون (Gérard de Crénone) والالماني ألبرت الأكبر (Albert le Grand) والإيطالي توماس الاكويني (Thomas d'Aquin) . وشعرت عندها الكنيسة بالمكانة الهامة التي صارت إليها الثقافة العربية وأحست أيضا بقوة المسلمين في جميع الميادين خاصة بعد الاحتكاك بهم أثناء الحروب الصليبية. فقررت تركيز اهتماماتها على معرفة منجزاتهم العلمية وتعلم لغاتهم . وقد كرّس المجمع الكنسي الملتئم بفيانا سنتي (1311 - 1312) هذا الاتجاه الجديد حيث أوصى بتخصيص دروس لتعليم اللغات الشرقية لطلاب الجامعات والاديرة وخاصة منها العربية والعبرانية والكلدانية (2). وذلك بهدف تكوين رهبان قادرين على دفع المسلمين واليهود لاعتناق المسيحية (3) . وهكذا يقرر الغرب مواجهة العالم الإسلامي وذلك بشنّ " حملة صليبية فكرية " (4) قبل العودة لمقارعته بالسلاح .

لقد درست اللغة العربية في الجامعات الأروبية كذلك بقصد تمكين العلماء من قراءة كتب ابن سيناء وابن رشد وغيرهما في لغتها الأصلية. وقد انتشرت هذه اللغة تدريجيا في المدن الإيطالية إلى درجة أن تجار البندقية وجنوة وبيزا كانوا يتكلمونها في تجارتهم مع موانئ المشرق . ولا بد من التوقف قليلا عند حدثين هامين في تاريخ الاستشراق في القرن 9 هـ / 15 م. أولهما: سنة 844 / هـ 1445 م تاريخ اكتشاف المطبعة بأروبا ، ثمّ سنة 857 هـ / 1453 م عندما فتح الأتراك العثمانيون بيزنطة . إن اكتشاف غوتنبرغ (5) الذي جاء في فترة التحولات الفكرية التي عرفت باسم النهضة دفع بالأروبيين إلى طبع المؤلفات الأغريقية والرومانية القديمة ونشر الكتب العبرية والعربية. كما أنّ تقدم العثمانيين في أروبا الشرقية. أزعج كثيرا الملوك الاروبيين ، أما البابوات فقد

---

(1) أحمد سمايلوفتش ، **فلسفة الإستشراق وأثرها في الادب العربي المعاصر.** القاهرة ، دار المعارف، 1980 ص 63 - 64.

(2) Guignes, Joseph De, " Essai historique sur la typographie orientale et grecque de l'imprimerie royale " in, **Notices et extraits,** T1, 1887 pp. XI - XII.

(3) سمايلوفتش ، **فلسفة** . نفس المصدر ، ص 75 .

(4) Raphael, Pierre, **Le rôle du Collège maronite romain dans l'orientalisme aux XVIè et XVIIIè siècles,** Beyrouth, Université ST. Joseph, 1950 p. 24.

(5) اكتشف العالم الصيني بي شينغ في سنة 1041 م الطباعة بالاحرف المنفصلة وبعد أربعة قرون توصل الالماني غوتنبرغ إلى نفس الاكتشاف باوروبا، بعد أن أضاف إليه المعصر وبعض الادوات الاخرى . فهل كان اكتشاف غوتنبرغ معزولا عن اكتشاف الصينيين كما يراه عديد المؤرخين ؟ انظر Dahl, Svend, **Histoire du Livre** Paris, Poinat, 1967, P. 92.

حرصوا على إرسال مبعوثين لهم للشرق قصد ترصد كل المشاريع العسكرية للسلاطين الاتراك العثمانيين في البلاد المسيحية . ان كل هذه التحولات أعطت للدراسات العربية مكانة ذات بال بالقياس مع بقية اللغات الشرقية في جامعات روما وباريس وليدا والبندقية ولندن وبراسلو وغيرها.

وفي هذه الظروف برز أول كتاب عربي مطبوع سنة 920 هـ / 1514 م وذلك في فانو (6) وهي مدينة إيطالية صغيرة تقع جنوب البندقية (7) .

2.1 - المطبوعات العربية الأولى :

كتاب الصلاة ، فانو 920 هـ / 1514 م

يحتوي الكتاب على صلوات حسب الطقس الشرقي البيزنطي الملكي والعنوان الكامل هو : «**كتاب صلاة السواعي**» (8) كتب النص كاملا باللغة العربية وطبع باللونين الأحمر والأسود . ولم تكن الحروف جيدة ، وكذلك الأمر بالنسبة للأشرطة الرابطة . أمّا الحركات فلم تكن كلّها في مواضعها والبعض منها كان ملطخا بالحبر ، يضم الكتاب مائة وثماني عشرة ورقة من النوع الجيد ويوجد في الورقة الأخيرة ذكر لتاريخ الطبع: «وكان الفراغ من هذه السواعي المباركة نهار الثلاثاء ثاني عشر شتمبريو سنة ألف وخمسمائة وأربع عشر سيدنا يسوع المسيح لذكره المجد الأمين وهي ختم المعلم غريغو يوس بيت غريغوريوس من مدينة البندقية ختمت في مدينة فانو تحت حكم قداسة البابا لهون ماسك كرسي القديس ماربطرس الرسول بمدينة روما» من وجد فيه غلطة يصلحه يصلح الله شأنه بشفاعة السيد آمين» . أمّا عن تصفيف الحروف ومراقبة عملية النشر فإنه لا يستبعد كما

---

(6) لعبت مدينة فانو دورا هاما في تاريخ الطباعة الشرقية وخاصة العبرية بفضل المطبعي جرشون صنصينو (Gershon Soncino)

(7) لقد طبعت الهجائية العربية لأول مرة بلوحات خشبية في كتابين لاتينيين ، نشر الأول منهما سنة 1486 وهو من تاليف الرحالة Bernard de Breydenbach, Opusculum Sanctarum peregrination ad spenlcumchristi, Mayence, 1536 وهو كتاب يتحدث عن رحلته إلى البقاع المقدسة بفلسطين ، وقد ظهرت حروف الهجاء العربية في ورقة 81 مع نقحرة بالحروف اللاتينية . أما الكتاب الثاني فقد طبع في غرناطة سنة 1505 وهو من تاليف الاسباني Pedro de Alcala, Vocabulista aravigo en letra castellana وهو عبارة عن دروس في النحو العربي موجهة إلى المبشرين الإسبان المكلفين بدفع الموريسكيين لاعتناق المسيحية . أنظر كميل أبو صوان : «بيت الكلمة» = de l'imprimerie arabe " à Grenade et à Gênes ; au XVIe siècle, les premiers pas in Le livre et le Liban, Paris Unesco, Agecoop, 1982 p. 119.

(8) تحتفظ المكتبة الوطنية بباريس بنسخة من هذا الكتاب تحت رقم Res, B 3597 أنظر :
- SCHNURRER, C.F, Bibliotheca arabica, Haloe . ad -Salam 1811, réedité à Amsterdam, Orientale Press, 1966. n- 235
- Bibliotheque de Sylvestre De Sacy par Daunou, Paris 1843 - 1847, T1, 1351
- ZENKER J,Y, Bibliotheca Orientalis, Leipzig, 1846 n- 1566
- BLAGNA, Josée, L'Imprimerie Arabe en Occident XVI, XVII et XVIII siècles Paris, Maisonneuve et Larose, 1984, pp. 18 - 20
- " Le fonds des imprimés arabes à la Bibliothèque Nationale les XVIè, XVIIè et XVIIIè siecles " In, Bulletin de la Bibliothèque Nationale, n-2, Juin, 1979 p.66.

يرى المستشرق كراك (9) أن يكون قد أوكل أمر ذلك إلى علماء مسيحيين شرقيين كانوا قد جاؤوا من المشرق لحضور أعمال المجمع الكنسي الخامس الملتئم بلطران (1512 - 1517) والذي شهد تأدية الصلوات في مختلف اللغات قصد تشجيع حركة اتحاد الكنائس الشرقية مع كنيسة روما .

إن أصل الحروف العربية التي استعملت في الطباعة بقي مجهولا . فمدينة فانو (10) لم تترك لنا حسب علمنا كتبا عربية أخرى . ولكن يلاحظ أن كتاب الصلاة يمثل في حد ذاته تطورا في عملية النشر العربي وهذا ما يجعلنا نتصور أنه وقعت من قبل ، محاولات لطبع نصوص عربية .

كتاب المزامير المتعدد اللغات ، جنوة 921 هـ / 1516 م .

نشر الكتاب العربي الثاني في جنوة سنة 921 هـ / 1516 م وعنوانه : « مزامير عبراني يوناني عربي قصداني بترجمة لاتيني وتفسيرهم » (11) وهو مكتوب في خمس لغات ومن عمل القس أغسطينوس (1470 - 1536) وهو عالم أنسي قابل (humaniste et kabbaliste) (12) من مواليد جنوة ، متضلع في اللغات الشرقية، عهد إليه بمراجعة كل نصوص التوراة والانجيل في اللغات الشرقية ولكنّه لم يتمكن إلا من نشر مجموعة المزامير. وقد استعمل في الطباعة الحروف المغربية وهي كوفية مبسطة ، كانت تستعمل آنذاك في المراسلات بين المغرب وجنوة (13) .

كتاب القرآن الكريم البندقية 944 هـ / 1537 - 1538 م .

ذكرت عديد المصادر أن القرآن الكريم طبع لأول مرة باللغة العربية في البندقية في مطلع القرن 16 م من طرف باغانينو دي باغانينو (14) وابنه ألسندرو وهما مطبعيان أصيلا مدينة براسيا Brescia. إلا أنه لم يعثر على أي نسخة من هذه الطبعة في المكتبات العالمية الكبرى إلى أن اكتشفت الباحثة الإيطالية أنجيلا نيوفو مؤخرا، نسخة فريدة من هذا الكتاب في مكتبة الدير

----

(9) in,Juillet, KREK, Miroslov, " The enigma of the first arabic book printed from movable types" **Journal of Near Eastern Studies,** 1970, vol 38. pp. 206 - 207.

(10) يرى كراك أن فانو لم تنشر البتة هذا الكتاب وكل ما في الامر هو أن المطبعي غريغوريوس قد استعار عنوان هذه المدينة عوضا عن المدينة الحقيقية التي نشرت الكتاب وهي البندقية ، والسبب في ذلك يعود إلى وجود حق امتياز لطبع الكتب الشرقية في البندقية كانت قد تحصلت عليه عائلة أخرى وهي ديموقرا يطو طراسينا . انظر مقالته المصدر السابق ، ص 210 - 212 .

(11) تحتفظ المكتبة الوطنية بباريس بنسخة منه تحت رقم Rés. A 490

(12) SECRET, François, Les Kabbalistes chrétiens de la Renaissance, Paris, 1963 ; p 100

(13) 5 sé- BONOLA, BEY " Note sur l'origine de l'imprimerie arabe en Europe. " in **Bulletin de l'Institut Egyptien,** rie, T3, 1er Fasc, déc. 1909, pp. 75 - 76

(14) من بين المصادر نذكر : ROSSI, J. B De, De Corano Venetinus, Paganini types : impressio, Parma, 1805 ; SACY, Bibliothèque ... op. cit, T.1, p.414

الفرنسيسكاني للقديس ميخائيل بالبندقية (15) وقد قدمت هذه الباحثة معلومات ثمينة حول أول طبعة لكتاب القرآن الكريم . ففي خصوص الأسباب التي دفعت عائلة باغانيني إلى طبع هذا الكتاب، فتتمثل في أنها أرادت أن تبيع كتبا شرقية في السوق العربية والتركية خاصة، وأن هذه العائلة كانت لها علاقات تجارية مع الشرق من خلال صنع وترويج الورق . إلا أنّ إقدامها في بداية مشروعها على طبع القرآن الكريم، يعد مجازفة نظرا للجو المشحون بالصراعات بين المسلمين والمسيحيين وهذا الأمر قد يكون وراء ظهور رواية اتلاف هذه الطبعة كما سيتبين فيما بعد .

كذلك استفادت مطبعة باغانيني من وجود جالية عربية إسلامية بالبندقية (16) ساعدتها في عملية الطباعة بالحرف العربي خاصة في مرحلتي التنضيد والمراجعة .

أمّا عن تاريخ صدور هذه الطبعة فقد تضاربت الآراء حوله إذ ذكرت عديد الدراسات تواريخ مختلفة تراوحت من 904 هـ / 1499 م إلى 944 هـ / 1538 م ومما زاد الأمر تعقيدا عدم ذكر تاريخ الطبعة في النسخة التي اكتشفت حديثا، إلا أن الباحثة أنجيلا نيوفو قدمت اعتمادا على مراسلات بين المستشرقين البونيزي و بوستال تاريخا دقيقا : فيما بين 9 أوت 1537 و9 أوت 1538 م (17) .

إن الغموض لا يزال محيطا بهذه الطبعة للقرآن الكريم. فمثلا ما هو صداها في أوروبا المسيحية وفي العالم الإسلامي ؟ وأيضا ما هو مصيرها ؟ إذ ذكرت عديد الروايات أن هذه الطبعة قد أتلفت بأمر من البابا، إلا أن بعض الباحثين شككوا في صحة هذه الرواية بل أن أنجيلا نيوفو تدحض هذه الرواية للأسباب التالية : (18)

- إن أول من روّج الرواية هم البروتستان وذلك في نطاق صراعهم مع الكاثوليك وإن كان هؤلاء الأخيرين قد روجوا فيما بعد نفس الرواية .

- تأشيرة كاهن محكمة التفتيش في كريمون لطبع القرآن والمثبتة في الكتاب وهذا يعني أن الكنيسة موافقة على نشر هذا الكتاب .

---

(15) نيوفو آنجيلا ، ظهور النسخة العربية للقرآن الكريم 1537 - 1538 ،، تقديم د. عبد الجليل التميمي ، ترجمة المنجي الرنادي في **المجلة التاريخية المغربية** ، عدد 53 - 54 . جويلية 1989 ص 179 - 204 . النص الانقليزي لهذا المقال بنفس العدد من المجلة ص 123 - 140 .

(16) ان المعلومات المتعلقة بحضور جالية عربية إسلامية بالبندقية ستثير بدون شك اهتمام الباحثين لدراسة الدور الذي كانت تلعبه البندقية في العلاقات بين أروبا والعالم الإسلامي تجاريا وثقافيا .أنظر : د. عبد الجليل التميمي، تقديم لمقال ظهور النسخة العربية ، **نفس المصدر** ص 179 - 180 .

(17) نيوفو ، **ظهور** ... **نفس المصدر**، ص 202 .

(18) **المصدر السابق** ، ص 185 - 190 .

- ان البابا لم يعارض طبع ترجمة القرآن الكريم إلى الإيطالية سنة 953 هـ / 1547 م من طرف A. Arrivabena رغم أن النص يفهمه المسيحيون بأروبا وقد يحدث أضطرابا في بعض الأوساط.

- ان الكتاب طبع بالعربية وهو موجه للمسلمين وليس للاروبيين، ولهذا افتقدت هذه النسخ من السوق الاروبية.

انه من المهم معرفة ما إذا كانت نسخ الكتاب قد وزعت في العالم الإسلامي أم لا وفي صورة ترويجه ما هو صداه لدى المسلمين ؟ وتبقى هذه التساؤلات وغيرها مطروحة في انتظار اكتشاف وثائق ومصادر أخرى. ومهما يكن من أمر فان المطبوعات العربية الاولى (القرآن الكريم ، صلاة السواعي، المزامير) لم تكن سوى نوادر في ميدان الطباعة وهي تكشف عن المحاولات الأولى في النشر العربي بأروبا وتترجم عن اهتمام الغربيين بالدراسات العربية بأروبا .

1 . 3 - المطابع العربية في المدن الإيطالية :

اهتمت روما منذ القرن 10 هـ / 16 م بالنشر في مختلف اللغات الشرقية وخاصة منها العربية وقد أسست الكنيسة عدة مطابع لتعمل تحت إشرافها . كان البابوات يعمدون - وهم المعادون للمسلمين - إلى تشجيع حركة اتحاد الكنائس الشرقية المستقلة مع روما والتي بدأت بالتئام المجمع الكنسي بفلورنسا (1439 - 1445) . ولم يكتف الباباوات بإرسال المبعوثين والمبشرين إلى البطاركة بالمشرق ، بل أسسوا في روما معاهد دينية ومطابع للغات الشرقية في القرنين 10 - 11 هـ / 16 - 17 م (18مكرر) كانت اهتماماتها موجهة بالخصوص نحو النشر العربي .

روما - مطبعة اليسوعيين 973 هـ / 1566 م :

حرص البابا (Pie IV) منذ سنة 1564 على توفير الحروف الشرقية لمطبعة معهد روما (Tipographia del Collegio Romano) قصد نشر نتائج أعمال التجمع الكنسي بترانت (Concile de Trente) (1554 - 1563) في الشرق (19) وكلف الأب اليسوعي يوحنا باتيستا اليانو (Eliano) (1530-1589) باقتناء حروف عربية خاصة وأن هذا المبشر يحذق اللغة العربية وقد

(18 مكرر) NASRALLAH, J, L'imprimerie au Liban, Beyrouth, Harissa, 1949 pp. 5-12, Voir pp. également RAPHAEL, P. Le rôle ... op. cit, 79 -97

(19) أولغا بنتو ، « الدراسات العربية وفن الطباعة في إيطاليا :
PINTO, Olga, Studi arabistici e Arte tipografia araba in Italia dal XV al XX Secolo , In, Levante n 1 - 2, 1964, p. 2.

بعث عدة مرات من طرف البابا إلى الشرق قصد تعزيز العلاقات بين روما والكنائس المستقلة (20) وقد أعد الحروف العربية بمعونة المطبعي لوتشا (Lutcha) والحفار قرانيي (Granier) (21) ولكن الحروف لم تكن جيدة وسرعان ما أتلفت مما حدا بالمطبعيين إلى تجديدها (22) ورغم ذلك فإن هذه المطبعة سرعان ما اختفت ولكن تم تعويضها بمطبعة الفاتيكان (23) ثم حلت محلها بالخصوص مطبعة الميدتشي ومطبعة مجمع نشر الإيمان المسيحي .

محتوى طبعات اليسوعيين :

وصلتنا ثلاثة كتب من هذه المطبعة وهي دينية اثنان لتعليم المسيحية وواحد للدفاع عن المسيحية. كان الكتاب الأول من تأليف البابا (Pie IV) وهو مطبوع بالعربية واللاتينية سنة 973 هـ/ 1566م وعنوانه العربي : «اعتقاد الأمانة الأرثودكسية كنيسة رومية » وقد ترجمه عن اللاتينية الأب اليانو الذي فعل نفس الأمر للكتاب الثاني للأب برينو المطبوع سنة 988 هـ / 1580 م وعنوانه : «التعليم المسيحي » وقد عدد مؤلفه المبادئ الأساسية للعقيدة الكاثوليكية في شكل أسئلة وأجوبة وهي موجهة للمسيحيين الجدد . أما الكتاب الثالث الذي يفند تعاليم الإسلام، فقد نشره الأب اليانو سنة 973 هـ / 1566 م وعنوانه : «هذا مصاحبة روحانية بين العالمين واسم واحد منهما شيخ سنان وإسم الآخر أحمد العالم التي كانت في رجوعهما من الكعبة » . ان هذه المطبوعات تستجيب لأهداف الرهبانية اليسوعية التى ترمي إلى توفير الكتب الضرورية للمبشرين العاملين بالمشرق كي تكون عونا لهم في مهمتهم التبشيرية لدى المسيحيين المنشقين عن روما والمسلمين .

روما- مطبعة الميدتشي - 992هـ / 1584 م

كان الكاردينال فرديناند دي ميدتشي (Ferdinand De Medicis) مولعا بالفنون والعلوم وكان أيضا راعيا للفنانين والعلماء ، وقد اقتنى من الشرق مخطوطات عربية وسريانية وفارسية، ولما عهد

---

(20) لقد أرسل البابا الاب اليانو إلى مصر سنة 1561 م قصد تكريس التقارب بين الكنيسة القبطية والكنيسة الرومية ، ثم رحل في مهمة ثانية إلى جبل لبنان للاتصال بالمارونيين سنتي 1578 - 1579 ثم مرّة أخرى سنتي 1580 و1582 أنظر لويس شيخو ، « الطائفة المارونية والرهبانية اليسوعية في القرنين السادس عشر والسابع عشر» في : المشرق عدد 17، 1914 ، ص 445 - 447: أنظر أيضا- ROSA, M. Eliano in- **Dictionnaire d'histoire et de géographie ecclesiastiques (DHGE)** Paris Letouzey, 1963, T5, col 161 - 162.

(21) NASRALLAH, **L'imprimerie... op.cit,** P. XVIII.

(22) VERVILIET , H.D.L, Granjon à Rome 1578 - 1589 : Notes préliminaires de la typographie romaine à la fin du XVI siècle, Amsterdam, Hertzberger, 1967, p. 42.

(23) لم تنشر مطبعة الفاتيكان التي كانت تحت إدارة دومينيك بازا (Dominique Basa) حسب معلوماتنا إلا كتابا عربيا واحدا بواسطة الحروف التي حفرها ڤرانجون وهو كتاب جغرافيا صدر سنة 1585 من تاليف سلامش بن غدى الصالحي وعنوانه « كتاب البستان في عجائب الارض والبلدان » أنظر : BONOLA BEY **" Note... op. cit "** pp. 74 - 75.

عهد إليه البابا غريغوريوس الثالث عشر برعاية بطريركيات أنطاكية والاسكندرية ، قرر تأسيس مطبعة للغات الشرقية بروما . وفي الحقيقة كانت عائلة الميدتشي مهتمة من قبل بنشر الكتب الشرقية . من ذلك ما قام به البابا ليون العاشر (Leon X) وهو من أفراد هذه العائلة من نشر لكتاب صلاة السواعي بمدينة فانو .

لذلك حرص الكاردينال فرديناند على جعل مطبعته في مستوى عال من حيث جودة وجمال المنشورات الشرقية ، وأوكل إدارتها إلى المستشرق ريموندي (Raimondi) (1540 - 1614) كما استدعى أحد النقاشين الفرنسيين المشهورين وهو روبرت ڤرانجون (Robert Granjon) (1513 - 1589) الذي لعب دورا أساسيا في تاريخ الطباعة الشرقية وخاصة العربية منها بأروبا . فقد كانت الحروف العربية التي نقشها على غاية من الجمال ونالت إعجاب علماء عصره ، ولم تضاهها أية حروف أخرى في ذلك الزمان . وقد حفر ڤرانجون خمسة أحجام من الحروف العربية التي تحمل أسماء معينة : الأحرف العربية ذات السطرين والقانون الصغير وأحرف كتاب البستان والعربي الكبير والعربي الصغير (24) .

وقد خصص الكاردينال مرتبا شهريا هاما لڤرانجون بمقدار عشرة ريالات ذهبية وأسند له كذلك ريالا ذهبيا على كل حرف من الهجائية العربية . أما البابا غريغوريوس الثالث عشر فقد كافأه أيضا بمبلغ ثلاثمائة ريال بالنسبة لكل هجائية (25) ونظرا لجهله للغة العربية فإن ڤرانجون استعان بعلماء مستعربين وبتلاميذ المعهد الماروني. ان الأحرف العربية التي صنعها ڤرانجون ، قد سببت مشاكل مستعصية إذ ساهمت في الصّراع الديني القائم بين الكاثوليك والبروتستان فقد حرصت كنيسة روما على أن تكون الكنائس الشرقية حكرا لها ، وبذلت كل ما في وسعها لسد الطريق أمام تسرب البروتستان للشرق . فمنع البابا خروج أحرف ڤرانجون من روما خوفا من ان تستعمل في طبع كتب بروتستانية ، علما بأن ڤرانجون قد تلقى عروضا للعمل مع مستشرقين بروتستان ألمان وهولانديين حتى قبل تحوله لروما (26) . أغلقت المطبعة أبوابها بعد موت مديرها ريموندي سنة 1614. وبعد تحول أبرز تلاميذه ايتيان بولينوس (Etienne Paulinus) (27) للعمل بمطبعة عربية

---

(24) VERVLIET, Granjon.. op. cit; pp 42 - 47. Voir également Biographie universelle ancienne et moderne, Dir. Michaud, Paris, 1801, T17, p. 355 article Granjon Robert.

(25) المصدر السابق .

(26) « أصبح ڤرانجون بيدق في الصراع السياسي والديني الذي تخوضه الكاثوليكية والبروتستانية من أجل الغزو الروحي للشرق الاوسط »
VERVLIET, Granjon.. op. cit., p 39.

(27) أولغا بنتو ، « الدراسات ... نفس المصدر » ص 3 - 4 .

أخرى وهي سافاريانا بروما ثم باريس (28) .

محتوى طبعات الميدتشي:

نشرت مطبعة الميدتشي تسعة كتب فيما بين سنتي 1590 و1610 . وكانت المواضيع متنوعة فهناك كتابان مسيحيان : **الانجيل المقدس** ، وأربعة كتب نحوية منها « **الاجرومية** » لابن أجروم و« **كتاب التصريف** » للشيخ الإمام و « **الكافية** » لإبن الحاجب وأيضا كتاب في الطب لإبن سيناء عنوانه « **كتاب القانون الثاني في الطب** » وكتاب في الجغرافيا للإدريسي وهو «**نزهة المشتاق في ذكر الامصار والاقطار والآفاق** » وكتاب في الهندسة : « **كتاب تحرير أصول الأوقليدس** » ترجمة نصر الدين الطوسي .

يعتبر « **كتاب القانون الثاني في الطب** » لابن سينا ، من أبرز معالم الطباعة العربية في أروبا ، من حيث إخراجه وتقديمه وهو مطبوع بأحرف ڤرانجون . ويحتوى الكتاب على قانون الطب، وأيضا ثلاث رسائل في علم المنطق وعلم الطبيعة وعلم الكلام . وهذا دليل على الاهتمام الذي يوليه الأروبيون لهذا العالم والفيلسوف المسلم ، حيث نشروا كتابه بالعربية مبكرا في طبعة جيدة وذلك بعد أن كانوا قد أصدروا ترجمته اللاتينية منذ سنة 1462. أما كتاب النحو الذي ألفه الكاتب المغربي ابن أجروم (1262 - 1323) ، فقد طبع بالعربية سنة 1592 . وقد عرف صيتا واسعا في الشرق والغرب ، وأعيد طبعه عدة مرات في القرن السابع عشر مع ترجمته اللاتينية ، وذلك في مطابع باريس وليدا وبراسلو . ونذكر أخيرا كتابا هاما وهو « الاوقليدس » الذي طبع سنة 1594، بحجمين من أحرف ڤرانجون مع عدة أشكال هندسية .

إن كل منشورات مطبعة الميدتشى صدرت باللغة العربية فقط ، ما عدا كتاب الإنجيل الذي كان ثنائي اللغات (عربي - لاتيني) . وكان إخراجها على غاية من الإبداع الفني ، هذا إلى جانب أنها من حيث المحتوى لا تتضمن نصوصا للتعليم أو الدفاع عن الدين المسيحي ماعدا الإنجيل وهو أمر مغاير لرغبة البابا غريغوريوس الثالث عشر الذي يرى في الطباعة العربية بروما وسيلة لنشر المذهب الكاثوليكي وإثارة الجدال ضد المسلمين . وهكذا كانت مطبعة الميدتشي هي الوحيدة التي طبعت كتبا عربية علمية في روما وذلك طيلة قرنين من الزمان .

مطبعة سافاري في روما 1022 هـ / 1613 م

تنسب المطبعة لمؤسسها سافاري دي براف (Savary De Bréves) وهو رجل سياسة

---

(28) عرفت حروف ڤرانجون رحلة كبيرة بعد توقف مطبعة الميدتشى. فقد انتقلت أولا إلى مطبعة مجمع نشر الإيمان بروما ثمّ إلى فلورنسا. وفي سنة 1811 وبأمر من نابليون تحولت الحروف إلى المطبعة الإمبراطورية بباريس وعادت بعدها إلى فلورنسا سنة 1818 ، حيث حفظت في مكتبة (Mediceo - Laurenziana) . أنظر بنتو : « الدراسات ... نفس المصدر » ص7 .

فرنسي (29) أنشأ مطبعة للغات الشرقية سنة 1022 هـ - 1613 م ، لمّا كان سفيرا لبلاده بروما ، ثمّ نقلها إلى باريس بعد مضي ثلاث سنوات على ذلك . وقد أوكل مهمة تسييرها إلى ايتيان بولينوس الذي كان يعمل عند الميدتشى ، وهذا دليل على الارتباط المتين بين مطبعة الميدتشى ومطبعة سافاري ، وهو ما يفسر تعويض الأولى بالثانية سنة 1613 ، ولأن بعض عمال ريموندي قد التحقوا بالمطبعة الجديدة . وهذا ما حدا بالباحث ديفرديي إلى القول بأن مطبعة سافاريانا متصلة فنيا وربّما روحيا بمطبعة الميدتشي (30) . أصدرت هذه المطبعة أربعة كتب عربية فيما بين سنتي 1613 و1619 ، وتتمثل في كتاب إنجيل وكتابين للمزامير وآخر لتعليم الدين المسيحي . وهذا الأخير هو من تأليف بالارمان (Bellarmin) . وقد تحول المطبعي ايتيان بولينوس بعدها إلى ورشة باريس لمواصلة العمل في المطبعة الشرقية هناك بإشراف سافاري .

مطبعة المعهد الماروني، روما 1030 هـ / 1620 م :

أسس هذه المطبعة تلاميذ مارونيون بإعانة البابا بمقر معهدهم بروما . وقد شعرت الكنيسة بالفراغ الحاصل في النشر العربي بعد توقف مطابع الميدتشي والفاتيكان والسافاريانا . وقد أشرف على هذه الورشة المطبعي ايتيان بولينوس الذي عاد من باريس وطبع على آلات المعهد فيما بين سنة 1030 هـ / 1620 أو 1034هـ / 1625 خمس كتب ثنائية اللغة عربية الاتينية وهي مخصصة لاستعمال التلاميذ المارونيين حيث تتضمن أربعة كتب نحوية وكتابا في الفلسفة . ومن أهم المطبوعات كتاب من تأليف الماروني نصر الله شالاق وعنوانه «مبادئ اللغة العربية » وآخر لنفس المؤلف فيه تقديم للحروف الهجائية العربية ثم كتاب ثالث من عمل تلميذ ماروني هو بطرس المطوشي (Institutiones linguae Arabicae) أما كتاب الفلسفة فعنوانه « إيساغوجي أو مدخل لعمل المنطق » . لم تواصل مطبعة المعهد الماروني حركة النشر العربي حيث توقفت عند ظهور مطبعة شرقية أخرى ضخمة بداية من سنة 1035 هـ / 1626 م .

مطبعة مجمع نشر الإيمان ، روما 1035 هـ / 1626 م .

تأسس مجمع نشر الإيمان سنة 1032هـ / 1622 ويتمثل هدفه الأساسي في بث المذهب الكاثوليكي في الطوائف المنشقة أو الطوائف غير المسيحية ، وتشجيع وتوجيه البعثات التبشيرية البعيدة (31) . ولتحقيق هذه الأغراض فإنها اعتمدت على معهد وعلى مؤسسة لمراجعة الكتب الدينية

---

(29) أنظر الفقرة المتعلقة بالمطبعة العربية بفرنسا .

(30) DUVERDIER, G." Les caractères de Savary " In**L'Art du livre à l'imprimerie nationale,** Paris, Imprimerie Nationale, 1973, p. 75.

(31) Dictionnaire de théologie chrétienne, T3, Col. 113 article Propagande

الشرقية وعلى مطبعة. وقد أسست ورشة الطباعة سنة 1035 هـ / 1626 (32) بعدما حصلت على هبة من الإمبراطور فرديناند الثاني لها بسبورغ (1578 - 1637) الذي كان يرغب في طبع كتب مسيحية في عدة لغات سواء كانت تتعلق بالطقوس أو النصوص المقدسة أو المذهب الكاثوليكي.. وقد استعارت المطبعة في البداية الحروف العربية من مطبعة الفاتيكان وأيضا من ايتيان بولينوس.

مساهمة مجمع نشر الإيمان في النشر العربي بأروبا :

نشرت المطبعة اثنين وعشرين كتابا من بينها ستة عشر تتعلق بالديانة والبقية تعالج مبادئ اللغة والآداب العربية. تتوزع الكتب الدينية بين النصوص المقدسة والتعليم المسيحي والدفاع عن المسيحية وكتب الصلوات والجدال.

إن كلّ هذه الكتب تدخل في إطار سياسة كنيسة روما الدائبة على نشر المذهب الكاثوليكى في أوساط المسيحيين الشرقيين الذين اتحدوا مع البابوية، حيث احتوت هذه المؤلفات على دروس عقائدية وعلى الطقوس والصلوات إلى جانب كيفية مواجهة الشعوب غير المسيحية. وقد اهتمت مطبعة نشر الإيمان بتعليم المبشرين اللغة العربية قبل إرسالهم إلى المشرق، فوفرت لهم كتبا دراسية في النحو العربي مثل الاجرومية التي طبعت سنة 1041 هـ/1631 مع تعليق باللاتينية أو كتاب إبراهيم الحاقلاني «**خلاصة اللغة العربية**» الصادر سنة 1037 هـ / 1628 وأيضا المعجم اللغوي من تأليف سيلازيا « **بناء اللغة العربية** » الصادر سنة 1045 هـ / 1636 ثمّ أعيد طبعه 1049 هـ / 1639 .ان هناك مدنا ايطالية اخرى اهتمت بالنشر العربي نذكر منها :

ميلانو ، المطبعة الامبروزية 1042 هـ/1632م (Imprimerie ambrosienne)

أنشأ الكاردينال فريدريك بروميو (Frederic Borromeo) المكتبة الأمبروزية التي كانت أول مكتبة عمومية وقد أضيفت إليها مطبعة كبيرة اشتهرت خاصة بحروفها الشرقية (33) التي استقدم بعضها من مطبعة الميدتشي، ولا نعرف عنها سوى كتاب عربي واحد صدر في القرن 11 هـ / 17 م السابع عشر عنوانه : « **كنز اللغة العربية** » للفيروز آبادي مع ترجمة لاتينية من عمل جيجاى (Antonio Giggeo) طبع سنة 1042 هـ / 1632، في أربعة مجلدات ضخمة. ويعتبر هذا الكتاب أول معجم لغوي عربي لاتيني وحيث عد أداة عمل أساسية في دفع الدراسات العربية بأروبا والتقدم بها أشواطا.

---

(32) FUMAGALLI, Lexicon... op.cit, P. 354.

(33) المصدر نفسه، ص 219.

بادوا ، مطبعة السيمنار 1098 هـ / 1687م

(Padoue, l'imprimerie du Séminaire)

أسس الكاردينال غريغوريوس باربريغو أسقف مدينة بادوا ، مطبعة شرقية سنة 1096 هـ / 1684 (34) وكان راعيا للدراسات الشرقية بإيطاليا . وقد أصدرت هذه المطبعة أربعة كتب عربية في نهاية القرن 11 هـ / 17 م، منها كتاب لتعليم المسيحية وآخر للنحو العربي وثالث للشعر العربي وبالخصوص كتاب القرآن . أمّا عن الكتاب الأول فهو من تأليف طيمطاوس كرنوك (Timotheo Karnuk) أسقف ماردين بالعراق وعنوانه « كتاب الاختصار المختصر في الكمال المسيحي » وقد طبع سنة 1099 هـ / 1688 م وصدر لنفس المؤلف بعد ثلاث سنوات « ديوان مناجاة الحبيب ونصائح القريب لضعفى الدياربكرى» (35) أمّا كتاب القرآن (36) الذي طبعه الراهب مراشي (Ludovico Marracci) سنة 1110 هـ / 1698 ، فقد كان الغرض من وراء نشره، الجدل الديني حيث خصص الجزء الثاني منه لدحض الإسلام .

1 - 4 المطبعة العربية بفرنسا :

إن المطبعة الوحيدة التي اهتمت بالنشر العربي في فرنسا هي مطبعة سافاري (Savary De Breves) التي تأسست سنة 1024 هـ / 1616 م بباريس. وهذا على الرغم من وجود محاولة لطبع الكتب العربية كان قد قام بها المستشرق الفرنسي بوستال (Postel) .

باريس ، الحروف العربية الخشبية لبوستال 944 هـ / 1538 م :

عمل ملك فرنسا فرانسوا الأول الذي يعتبر أب الحركة الأدبية وباعثها بفرنسا ، على جلب القس أوغسطينوس جيستنيانوس ناشر كتاب المزامير بجنوة وذلك لدى رجوعه من إيطاليا سنة 1516 ، قصد تدريس اللغة العبرانية . وفي سنة 1530 أسس معهد فرنسا (College de France) وعين أساتذة لتدريس اللغتين اليونانية والعبرانية ، ولم يتقرر تدريس العربية بالمعهد، إلا في عهد الملك هنري الثالث سنة 995 هـ / 1587 م، حيث انتصب للتدريس عدد من الأطباء الذين كانوا اقتنعوا بأهميتها في تقدّم مهنتهم (37) . ولم تعرف الطباعة العربية طريق النجاح في فرنسا

---

(34) المصدر نفسه ، ص 274 .

(35) Schnurrer n- 263, Zenker n- 1605.

(36) كتب في جزئين من الحجم الكبير . انظر Zenker n- 1631 Schnurrer n- 377. Sacy, I, 1463

هناك مدينة إيطالية أخرى كان دورها غير هام في النشر العربي بأوروبا وهي نابولي التي لا نعرف عن مطبوعاتها سوى كتيب صغير في 32 ص عنوانه (Alphabetum arabicum) أصدره مرميش سنة 1582 انظر Zenker n- 1, Schnurrer n-39 Ellis 451

(37) GUIGNES, De, **Op. cit.,** p. XV.

إلا في عهد لويس الثالث عشر بفضل مجهودات سافاري دي براف وريشليو (Richelieu) والمطبعي أنطوان فيتراي (Antoine Vitré) هذا على الرغم من وجود محاولة لطباعة الكتب العربية بباريس منذ القرن 10هـ / 15 بمبادرة من بوستال حيث تمكن هذا المستشرق القابل (Kabbaliste) من طبع أول كتاب له سنة 1538 بعنوان Alphabetum linguarum characteribus differetium alphabetum وهو كتاب يهتم بقواعد النحو لعدة لغات شرقية وقد طبع بأحرف من خشب . أما كتابه الثاني فقد طبع بباريس سنة 1543 تحت عنوان : (Grammatica arabica) (38) .

باريس ، مطبعة سافاري 1024 هـ / 1616 م :

شغل فرانسوا سافاري دي براف منصب سفير فرنسا في استانبول (1591 - 1606) ثم في روما (1608 - 1614) . وقد أقام قبل ذلك في الشرق مدة اثنتين وعشرين سنة ، تمكن خلالها من تعلم اللغة التركية . واستطاع أثناء سفارته لدى الباب العالي ، من إمضاء معاهدة سنة 1012 هـ / 1604 م بين ملك فرنسا هنرى الأكبر والسلطان العثماني أحمد الأول . وتؤكد هذه المعاهدة على الامتيازات التي كانت قد تحصلت عليها فرنسا منذ عهد سليمان القانوني ، وتضيف إليها امتيازات تجارية جديدة . رغم ذلك، لم يكن سافاري يخفي حذره وعداءه تجاه العثمانيين . ولم يكن يرى في كل المعاهدات المضاة معهم سوى تحالف تكتيكي موجه ضد أعداء فرنسا وبالخصوص ضد الاسبان (39). وهو تحالف وقتي في انتظار تنفيذ المشاريع الصليبية الرامية لتحطيم الدولة العثمانية(40) .

وقد ألف السفير كتيبا عرض فيه مشاريعه ومنها إمكانية استغلال قوة المسيحيين بالشرق لإزعاج الدولة العثمانية (41). ولذلك حرص على القضاء على كل الخلافات بين مسيحيي الشرق والبابوية بروما، وساهم في تدعيم مجهودات الفاتيكان لتحقيق الوحدة معهم . وعلى غرار ما قام به اليسوعيون ، فإنه قرر أن يؤسس مطبعة شرقية لنشر الكتب المسيحية قصد توزيعها بالشرق .

وقد عمل على حفر الحروف الشرقية منذ اقامته باستانبول (42) وتحسينها في روما موكلا

---

(38) SECRET, F "Guillaume Postel et les études arabes à la Renaissance " In **Arabica,** T9, 1963, P. 31.

(39) DUVERDIER, G,"Les caractères de Savary De Brèves" In **l'Art du livre à l'Imprimerie Nationale,** Paris , Imp. nat, 1973 p. 72.

(40) المصدر نفسه ، ص 72 .

(41) BREVES, Savary De, Discours abrégé, assurer les moyens d'anéantir et ruiner la monarchie des princes ottomans, In Cologne, **Recueil historique contenant diverses pièces curieuses de ce temps,** Van Dyck, 1666.

(42) « عملت منذ إقامتي بهذه المدينة (القسطنطينية) على إعداد أحرف عربية وفارسية وكلدانية بعناية كبيرة وذلك بهدف الطبع بثلاث لغات »

المهمة هناك إلى الناقش لوبى (Le Be) (43) . ولكن ديفردي يشك في إمكانية وجود حفارين بالشرق لأنه حسب رأيه لا توجد هناك أدوات العمل اللازمة في ذلك العصر ، ويرى أن القوالب قدسبكت في روما (44) . ولكن يبدو لنا أنه ليس من المستحيل وجود صائغين ماهرين في استانبول قادرين على حفر القوالب والحروف العربية . وإذا علمنا أن حفارين أروبيين يجهلون اللغة على غرار قرانجون قد نجحوا في نقش حروف عربية جميلة لأدركنا سهولة هذا العمل لحفارين عرب ، بما أن لغتهم الأم هي العربية . ومن الممكن أن يعمد سافاري للحصول على الحروف العربية إلى الاقليات الدينية باستانبول . التي أنشأت مطابعها في هذه المدينة منذ أواخر القرن 9 هـ / 15 م (45) . وأخيرا نذكر شهادة لأحد المطبعيين الفرنسيين المعاصرين للأحداث والتي يؤكد أيضا فيها أن الحروف الشرقية قد جاءت من الشرق (46) .

تنقسم الحروف العربية التي جلبها سافاري إلى ثلاثة أحجام : العربي الصغير والعربي المتوسط والعربي الكبير ، وهي لا تقل جودة وجمالا عن أحرف قرانجون . وعند عودته من باريس سنة 1023 / 1615 قادما من روما ، اصطحب سافاري معه أستاذين مارونيين ، هما جبرائيل الصهيوني ويوحنا الحصروني وأيضا المطبعي بولينوس للعمل بفرنسا . وقد أحضر معه من مطبعته التي أسسها بروما القوالب والحروف قصد تأسيس مطبعة جديدة بباريس أوكل فيما بعد مهمة تسييرها إلى بولينوس ، وحرص هذا الأخير على تكوين عمال قصد تعويضه فيما بعد . وبالفعل ، فقد عاد إلى روما مصطحبا آلات لصب الحروف استعملها - كما رأينا - لطبع كتب عربية .

المطبعي أنطوان فيتراى (Antoine Vitre) :

لم تنشر مطبعة سافاري بباريس في عهد مؤسسها سوى كتابا واحدا تحت عنوان : كتاب في صناعة النحو يشتمل على خمس أجزاء ، وهو من تأليف جبرائيل الصهيوني ويوحنا الحصروني ولم يكن يشتمل إلا على جزء واحد من الأجزاء التي أعلن عنها في العنوان وهو ثنائي اللغات أي بالعربية واللاتينية . وبعد وفاة سافاري دي براف سنة 1037 / 1628 ، تواصل النشر العربي

---

(43) **Le Livre et Le Liban** Paris , Unesco, 1982, p. 222.

(44) DUVERDIER, op. cit., P. 75.

(45) أسس اليهود الذين أطردوا من إسبانيا مطبعة عبرانية باستانبول سنة 1494 تحت رعاية السلطان بايزيد الثاني أنظر :
LEWIS , Bernard, The Emergency of Modern Turkey, Oxford University Press, 1961, p. 42.

(46) بين ذلك أنطوان فيتراى مدير المطبعة الشرقية بباريس منذ 1630 في كتابه التالي :
VITRE, ANTOINE, **Histoire du procés qu'on renouvelle de temps en temps à A.Vitre à cause de l'achat que le roi l'a oblige de faire des poinçons, des matrices et des manuscrits turcs, arabes et persans que feu M.De Breves avait (apporte du Levant,** Paris, A. (1656) PP. 1 - 4 (Bibliotheque Nationale de Paris, Mss, Latins 1717 pp. 28 - 36)

بفضل نشاط وحماس أنطوان فيتراي وهو المطبعي الذي عينه الملك للتخصص في اللغات الشرقية حيث حصل على هذا الامتياز سنة 1630 ، وقام بشراء الأحرف الشرقية من ورشة سافاري . وكان ريشليو قد كلفه خفية بشرائها لحساب الملك بعدما أظهر بعض المطبعيين البروتستان من أنقليز وهولانديين الرغبة في شرائها (47) . ويمكن أن يكون الملك قد تخوف من أن " أشياء جميلة وفريدة من نوعها يمكن أن تباع إلى أشخاص لتتحول خارج مملكته . وقد تسيئ إذاك كثيرا إلى الديانة " (48) وهكذا يبرز للعيان أن حروف سافاري قد أقحمت على غرار حروف ڤرانجون في الصراع الذي تدور رحاه بين الكاثوليك والبروتستان، بقصد التغلغل في أوساط مسيحيي الشرق ، ونظرا أن الملك لم يسدد ثمن الحروف كاملا إلى فيتراي، فإن هذا الأخير تعرض إلى عدة محاكمات بعد ما رفع ورثة سافاري القضية للعدالة . وقد حرص فيتراي على تجديد الأحرف وأوكل المهمة إلى متخصصين ماهرين أمثال جبرائيل الصهيوني وجاك دي صولاك الذين أعدوا الأحرف العربية لطباعة الكتاب المقدس المتعدد اللغات سنة 1054 هـ / 1645 م .

محتوى النشر العربي بباريس :

لم تنشر المطبعة الشرقية بباريس سوى أربعة عشر كتابا عربيا في القرن 11 هـ / 17 م وهي موزعة كالآتي : أربعة كتب مسيحية مقدسة ، كتابان للتعريف بالمسيحية . أربعة كتب في النحو العربي ، ثلاثة كتب في التاريخ وكتاب واحد في الفلسفة .

ومن بين الكتب المسيحية المقدسة يوجد " كتاب المزامير " الذي نشر سنة 1679 تحت عنوان **سبعة مزامير التوبة** ، وهو إعادة لطبعة روما سنة 1614 والذي كان قد ترجمه جبرائيل الصهيوني ونصر الله شالاق . وكذلك توجد " رسالة يوحنا " مطبوعة بالعربية واللاتينية سنة 1630 ثمّ 1672 . أمّا عن أهم كتاب صادر عن المطبعة فهو الكتاب المقدس المتعدد اللغات الذي أصدره لوجاي (Lejay) سنة 1645 ، في سبع لغات هي العربية والسمارية (Samaritain) والكلدانية واليونانية والسريانية واللاتينية والعبرية . ويحتوي على عشرة مجلدات ويعتبر تحفة المطبعة الشرقية بفرنسا، وفي نفس مرتبة الطبعات التي كان قد أصدرها كلّ من الكالا (Alcala) وكسيمنس (Ximenès) للكتاب المقدس المتعدد اللغات . ومن الملاحظ أن مشاريع هذا الصنف من الطبعات لم تكن جديدة بل ان المنافسات بين مختلف البلدان الكاثوليكية والبروتستانية كانت على أشدها وترمي كلها الى اصدار الكتاب المقدس في لغات متعددة.

---

(47) إن الحروف والمخطوطات التي جمعها سافاري ، كادت أن تحمل من طرف بروتستانيين أجانب كانوا ينوون إعداد كتب مقدسة وأخرى متعلقة بالدين (المسيحي) قصد نشر مذهب كلفان إلى جانب المسيحية في هذه البلدان (الشرقية) ، VITRE, A, op. cit., pp 4.

(48) المصدر نفسه ، ص 1 .

ويعود مشروع إصدار الكتاب المقدس بباريس إلى سنة 1615 . وقد أعده كل من الكاردينال دي برون (Du Perron) وجاك دي تو (Jacques de Thou) وسافاري دي براف ولكنهم فشلوا في تحقيقه . فأخذ المحامي لوجاي (Lejay) ذلك على عاتقه بأن مول المشروع واتصل بعدد من العلماء . وقد أوكل مهمة تحضير النص العربي إلى ثلاثة علماء مارونيين هم : جبرائيل الصهيوني وإبراهيم الحاقلاني ويوحنا الحصروني (49) .

وقد تم إهداء الكتاب المقدس الذي طبعه فيتراي إلى مازاران ويبدأ النص العربي الذي طبع بأحرف سافاري من الجزء الخامس ، وبه كلّ الحركات ولكنّه يحتوي على أغلاط كثيرة . إن الكتاب المقدس لم يكن معدا للدراسة بقدر ما هو معد للافتخار ، وذلك بسبب حجمه الكبير الذي لا يسهل بالمرة مهمة القارئ . ومن جملة الكتب الدينية الأخرى التي أصدرتها مطبعة باريس سنة 1635 ، يوجد كتاب " **التعليم المسيحي** " لبالارمان الذي كان قد طبع في روما سنة 1613 ، وأيضا كتاب لريشليو بنفس العنوان صادر سنة 1640 من ترجمة جيست دي بوفي (Juste de Beauvais) وهو رئيس الكبوشيين ببغداد .

نشرت مطبعة سافاريانا أيضا كتيبا صغيرا بعنوان «العهد والشروط التي شرطها محمد رسول الله لأهل الملة النصرانية» باللغتين العربية واللاتينية ويتضمن العهود التي قد يكون التزم بها الرسول صلى الله عليه وسلم لأهل الذمة عند تأسيس الدولة الإسلامية (50) . ويبدو أن الهدف الذي ترمي إليه فرنسا من نشر مثل هذه العهود هو التقرب إلى مسيحيي الشرق لحمايتهم بفضل وضعها المتاز في الإمبراطورية العثمانية . وقد يكون الهدف من نشر الكتاب هو بعث الطمأنينة لدى تجار مرسيليا الذين انضموا تحت راية ملك فرنسا في بداية القرن السابع عشر وذلك بابراز عقلية التسامح الديني الموجودة لدى المسلمين وحتى يقدم هؤلاء على الاتجار في موانئ الشرق. وقد يكون الغرض نفسه هو الذي حدا بمدن تجارية لطبع الكتيب مثل ليدا سنة 1655 وهامبورغ سنة 1690 .

كما اهتمت المطبعة الشرقية بباريس أيضا بكتب اللغة العربية وحتى كتب الفلسفة . فأصدرت سنة 1632 المعجم العربي لديفال Dictionnaire arabe de Duval وأيضا كتاب النحو لاربنيوس سنة 1638 وأخيرا كتابا موجزا في الفلسفة بعنوان « **مختصر مقاصد حكمة فلاسفة العرب** » صدر سنة 1642 باللغتين العربية واللاتيني. وقد قام بالترجمة إبراهيم الحاقلاني وهذا الكتاب يمثل

---

(49) Voir RAPHAEL, P, **Le Rôle... op, cit,** PP.78 - 84

(50) لم تقع الإشارة إلى هذا النص إلا في القرن 3 هـ / 9م وذلك عن طريق النساطرة في حين لم يذكره أي مؤرخ مسلم وهذا من شأنه أن يشكك في صحة هذا النص .. أنظر: Encyclopédie de L'Islam, Nouvelle édition, T2, P. 234 article **DHIMMA**

جزءا من كتاب في الفلسفة بالفارسية عنوانه « جام كيتى نما » (مرآة العالم) ويحتوى على رسائل فلسفية .

إنه من الغريب أن تقدم فرنسا هذا الإنتاج الضئيل من الكتب العربية رغم أن كلّ الإجراءات التي اتخذت من طرف سافاري وريشليو وفيتراي تنبئ بحصيلة مرتفعة . فقد ظهرت اللامبالاة تجاه المطبعة العربية إذ انصرف العلماء المستعربون إلى ترجمة المؤلفات العربية الكبرى للفرنسية أو اللاتينية.

وقد أكد ذلك الكاتب دي غويني (De Guignes) حين قال : « كان العلماء الفرنسيون يحبذون الكتب المترجمة للتعريف بالشرق » (51) وحتى السلطات لم تواصل عمل ريشليو فأهملت المطبعة وفضلت إرسال الشبان لتعلم اللغات في الشرق (Les jeunes de langues) (52) . ونتج عن ذلك ركود الدراسات العربية بفرنسا نظرا للنقص في الكتب النحوية والمعاجم اللغوية وهذا الأمر كان قد تفاداه العلماء الهولانديون منذ فترة في بلدهم .

5.1 - المطبعة العربية بهولاندا :

أنشئت ثلاث مطابع للغات الشرقية بهولاندا أي في التراخت وأمستردام وخاصة في ليدا . وكانت تعمل بإشراف جامعات تلك المدن . ونظرا لوجود عقلية التسامح الديني في هذه المدن البروتستانية ، فإن هذه الجامعات قد انصرفت للدراسات العلمية إلى جانب دورها في تكوين الرعاة البروتستانيين، فاستقبلت كثيرا من الأجانب أمثال الفيلسوف الفرنسي دي كارت ، وقد تميزت المطابع العربية بهولندا عن مثيلاتها بفرنسا وإيطاليا بمحتوى النشر العربي المتنوع . فالمستشرقون الهولانديون ، خدموا فعلا الإصلاح الديني ولكن مع ذلك اعتنوا كثيرا بالمؤلفات العلمية للمسلمين.

وسوف نتوقف بالخصوص عند نشاط أهم مطبعة عربية وهي موجودة بمدينة ليدا ، والتي نشرت ثمانية وثلاثين كتابا في القرنين السادس عشر والسابع عشر في حين لم تنشر مدينتا امستردام والترخت مجتمعتين سوى ستة كتب .

ليدا ، مطبعة بلانتان - رافلانج 1003 هـ / 1595 م Plantin -Rapheleng

منذ تأسيس جامعة ليدا سنة 982 هـ / 1575 ، تم تعيين تسعة أساتذة في مختلف مجالات

---

(51) " Essai historique " op. cit.. P. XXI

(52) حافظ فيتراي على الأحرف العربية إلى حد وفاته 1674 . وبعد ذلك اختفت لمدة قرن من الزمن واتهم فيتراي خطأ بأنه أعدمها ولكن دي غويني يكتشف سنة 1778 هذه الأحرف في أحد مخازن المطبعة الملكية . توجد هذه الأحرف حاليا في قسم الطوابع بالمطبعة الوطنية بباريس ، Imprimerie Nationale de Paris

المعرفة علاوة على علماء الدين. وخصصت كرسيا لتدريس العبرانية وآخر للعربية وقد قررت الجامعة منذ تأسيسها تعيين أحد علمائها من ذوي الخبرة في ميدان الطباعة والنشر ليشغل منصب مطبعي عام (53) . ومن أبرز العلماء الذين عينوا في هذا المنصب فرانسوا رافلانج (1539 - 1597) أستاذ اللغات الشرقية الذي دعي لتعويض صهره المطبعي الفرنسي فرانسوا بلانتان ، وكان رافلانج يدرس العبرانية ويحذق اللاتينية واليونانية والسريانية والعربية والفارسية واشتغل بإصلاح الأخطاء المطبعية في مؤسسة صهره (54) . ثم قام بحفر الحروف العربية بتشجيع من العالم الفرنسي سكاليجار (Scaliger) وذلك في سنة 1593 حيث أحضر القوالب والطوابع لأحرف العربية حسب مثال ڤرانجون (55) لطبع الكتب . وبعد وفاته واصل ابنه هذا العمل .

ونشرت أول مطبعة عربية بهولندا ثمانية كتب ثنائية اللغة أي بالعربية واللاتينية ، ومن بينها ثلاثة تهتم بالكتب المقدسة . أمّا البقية فتعالج مواضيع نحوية وأدبية عربية . ويعتبر معجم رافلانج (Lexicon arabicum) أول منجد نشر بالعربية بأوربا ، وذلك منذ سنة 1613 ، أمّا كتاب النحو (Grammatica arabica) (56) الصادر أيضا في نفس السنة، فقد كان ثمرة عمل جدي للعالم الهولاندي أربنيوس ويتكون من خمسة أجزاء : الرسم والصرف والاعلام والنحو والأدوات . وهذا الكتاب الذي تهافت عليه الطلاب ، كان السبب في شهرة مؤلفه . وتمت إعادة طبعه في ليدا بسنتي 1636 و1656 مع بعض الإضافات .

كما نشرت مطبعة رافلانج ، بلانتان أيضا كتاب الأمثال سنة 1614 الذي يحتوي على مائتي مثل عربي مع ترجمة لاتينية . وهو يبرز متانة علاقة التعاون بين المستشرقين الفرنسيين والهولانديين الذين قاموا بترجمته في باريس وهم كازبون وسكاليجار واربنيوس .

ليدا ، مطبعة أربنيوس 1022 هـ / 1613م :

يعتبر توماس فان أرب المعروف باسم أربنيوس (1584 -1624) من أشهر المستشرقين الهولانديين. وقد تعلم العربية بليدا واشتغل بتدريس اللغات الشرقية بجامعة المدينة منذ سنة 1613 . وحرص على مواصلة عمل رافلانج وأسس مطبعة في بيته الخاص (57) كان يشرف عليها بنفسه

---

(53) WILLEMS, **Les Elzevier,** Nieuwkoop, Graaf 1962 P. X.

(54) **Biographie de Michaud,** article Rapheleng, T3 P. 192.

(55) ذكر رافلانج في مقدمة أول كتاب نشره سنة 1595 تحت عنوان: **Specimen characterum arabicum**
أنه أعد الأحرف العربية حسب نموذج أحرف الميدتشي .

(56) إن الغرض من نشر هذا الكتاب هو مرافقة معجم رافلانج .

(57) WILLEMS, les Elzever **op. cit,** P. XLII.

حتى مماته . وقد كلف أحد الأخصائيين بحفر الحروف العربية حسب نموذج سلفه ولكن ثمنها كان باهضا (58). وقد حصل على أحرف جميلة لا تفوقها من حيث الإبداع إلا أحرف فرانجون .وقد طبع أربنيوس ثلاثة عشر كتابا لها محتويات متنوعة : أربعة كتب مقدسة ، سبعة كتب نحوية وأدبية ، وكتابان في التاريخ .

أما النص البروتستاني للعهد الجديد، فقد صدر بالعربية سنة 1616 (59) ، كما تم طبع نص سورة يوسف من القرآن الكريم سنة 1617 (60) مع ترجمة لاتينية، ونشر أيضا نصين أدبيين من محاضرات أربنيوس، كان قد ألقاها عند بداية دروسه سنتي 1613 و 1620 (61) وقد مدح فيها ثراء اللغة العربية وعراقتها وذكر منافعها. كما أصدر أربنيوس أيضا كتاب « **أمثال لقمان الحكيم** » سنة 1615، وكان هذا الصنف من الأدب ملائما كثيرا لذوق ذلك العصر بهولندا (62) . أمّا عن أول كتاب تاريخ نشر بليدا فهو « **تاريخ المسلمين** » (63) لجرجس المكين بن العميد (64) وهو منتخبات تاريخية تبتدئ من ظهور الإسلام حتى الدولة الأيوبية .

ليدا ، مطبعة الزفير 1037 هـ / 1628 م Elzevier :

حرصت جامعة ليدا بعد موت أربنيوس على المحافظة على الأحرف العربية وعملت على منع تسريبها إلى الأجانب حتى تبقى دوما على ذمتها ، فتقدم إسحاق الزفير (Isaac Elzevier) وهو مطبعي الجامعة ، لشرائها سنة 1620 من عند أرملة أربنيوس . وقد حيّى مجلس الجامعة هذا العمل واعتبره « وطنيا » (65) باعتبار أن الأحرف العربية لم تغادر المدينة ، رغم محاولات الكاثوليك لشرائها . وهكذا ومرة أخرى ، وقع إقحام هذه الأحرف في خضم الصراع الديني الذي تدور رحاه بين الكاثوليك والبروتستان .

وقد واصل المطبعيون من عائلة الزفير عملية نشر الكتب العربية طيلة القرن السابع عشر برعاية

---

(58) **Ibit.** P. XLII.

(59) Voir SCHNURRER n- 326, ZENKER n- 1539, BALAGNA, J " **Le fonds... op. cit.,** p. 74.

(60) SCHNURRER N- 368, ZENKER N- 1380

(61) **Oratio de linguae arabica,** Leyde, 1613.

(62) BALAGNA, Josee, **"Le fonds... op. cit. "** P. 74

(63) SCHNURRER N- 155, ZENKER N- 740

(64) مؤرخ مسيحي مصري (1205 - 1273) اعتمد على كتب الطبري وابن البطريق

(65) WILLEMS , **op. cit.** P. XLII.

أساتذة جامعيين ، ومن أبرزهم يعقوب غوليوس (Golius) (1596 - 1667) (66) وكذلك فابريسيس (Fabricius) ونسال (Nissel) وبتراي (Petrai). أصدرت مطبعة الزفير سبعة عشر كتابا من بينها سبعة كتب مقدسة إسلامية ومسيحية وستة كتب أدبية عربية وكتابان في التاريخ وواحد في الفلك وآخر في الفلسفة .

وقد نشر غوليوس سنة 1629 منتخبات أدبية بعنوان « شذرة الأدب من كلام العرب » ويحتوي على أمثال للإمام علي بن أبي طالب ولامية الطغرائي وبعض القطع الشعرية العربية ورسالة الفلسفة لإبن سيناء . كما أصدر غوليوس معجما ضخما عربي - لاتيني بعنوان (Lexicon arabico- latinum) (67) ، وقد استعان في إنجازه بمعجم الصحاح للجوهري ، ويعد عمله أفضل من معجم جيجاي الذي صدر بميلانو. وكان من جملة أسباب تقدم الدراسات العربية بأروبا ويعتبر أضخم إنجاز لمطبعة ليدا حيث دامت عملية طبعه عدة سنوات (68) بإعانة عالم من أرمينيا وشماس من حلب وعالم من بلاد فارس (69) .

ومن جملة كتب التاريخ نذكر « **عجائب المقدور في أخبار ابن تيمور** » لأحمد ابن عربشاه الذي نشر سنة 1636 أما كتاب الفلك فعنوانه « **كتاب في الحركات السماوية** » للفرغاني سنة 1669 . من الملاحظ أن العلماء المستعربين في ليدا لم يوجهوا النشر العربي نحو الجدل الديني ضد المسلمين أو الكاثوليك إلا قليلا ، إذ انصرفت عنايتهم لتوفير كتب النحو العربي والمعاجم وهي أدوات أساسية لتطوير الدراسات العربية لدى البروتستان . ومن أبرز هذه الأدوات يوجد كتاب النحو العربي لاربنيوس ومعجم غوليوس وهي إذن من إنجاز علماء متبحرين في اللغة العربية كانوا محل تقدير وإعجاب من طرف كل علماء أروبا . ان النزعة العلمية في الاستشراق العربي في القرن السابع عشر كانت أكثر وضوحا في هولاندا .

6.1 - المطابع العربية في المدن الالمانية :

بعد بداية محتشمة في أواخر القرن السادس عشر، عرف النشر العربي تطورا كبيرا في المدن الألمانية ، إذ بلغت حصيلة الإنتاج تسعة وأربعين كتابا موزعة على سبعة عشر مركزا طبيعيا هي التالية : أوغسبورغ، برام، سيزا، فرانكفورت، غريفسوالد ، هامبورغ ، هيدلبارغ ، اينا ، لايبزغ،

---

(66) **Nouvelle biographie générale,** Paris, Didot, 1857, T. 21, P. 119.

(67) Voir **Bibliothéque orientale d'Herbelot,** Paris, 1697, préface d'Antoine Gallant F. 14.

(68) WILLEMS **op. cit.** P.723.

(69) ZUMTHOR, P., **La vie quotidienne en Hollande au temps de Rembrandt,** Paris, Hachette, 1959, P. 139.

لايبزغ ، روستوك ، شلاشفيق ، تيبنجن ، ويتنبرغ ، براسلو (حاليا وراكلو في بولونيا) ، التدورف وزوريخ (في سويسرا) وايبسالا (في السويد) .

اهتمت الجامعات الألمانية كثيرا بدراسة اللغات الشرقية، إذ منذ أواخر القرن الخامس عشر، بدأ تدريس اللغة العبرانية. وبعد ذلك جاء دور العربية لتشد إليها إنتباه العلماء الألمان، حيث خصصت الجامعات كراسي لها منذ منتصف القرن السادس عشر وذلك قبل أن تهتم بنشر كتب عربية بداية من سنة 1583 . وقد ظهر أول كتاب عربي مطبوع في ذلك التاريخ بمدينة هايدلبارغ بعنوان « **رسالة بولس الرسول**» . وقد قام بنشرها العالم الألماني سباي (Spey) وقدم الترجمة العربية مع النص اللاتيني. إن الحروف العربية كانت محفورة على خشب ، وهذا ما يفسر الصعوبات التي لاقاها الألمان في الحصول على قوالب وطوابع للأحرف العربية، بعد أن ضرب البابا وملك فرنسا الحصار على أحرف ڤرانجون وسافاري . وهذا ما حدا ببعض المستشرقين الألمان لنشر كتبهم لدى الهولانديين (70) . ومن هنا كان التعاون وثيقا بين المستعربين في المدن البروتستانية . فمثلا التقى العالم (Hottinger) (1620 - 1667) بغوليوس الذي مده بنصائح ثمينة للتقدم في دراسة العربية (71) .

تمكن في نهاية الأمر عدد من الأساتذة مِن حفر الأحرف العربية على حسابهم الخاص، حتى أنهم كانوا ينتقلون بها من جامعة لأخرى (72) . ولذلك كانت معروفة بإسم الأستاذ الذي أعدها أكثر من إسم المطبعة. وهكذا كانت أحرف هوتنجار في هايدلبارغ وزوريخ وأحرف فابرسيس في روستوك وأحرف كِرستن في براسلو . وقد نجح هذا الأخير على سبيل المثال في حفر أحرف عربية جميلة منذ سنة 1608 وهو الطبيب والمستشرق الذي كان يقضي وقته بين ممارسة مهنة الطب ودراسة الأدب العربي لأنه « كان مبهورا بهذه اللغة ويريد أن يكون داعية لتدريسها ويعتبرها ضرورية لفهم الطب واللاهوت والفلسفة والقضاء » (73) وحين كلف بتدريس العربية بجامعة براسلو قرر أن ينشر كتبا في هذه اللغة على حسابه الخاص ، طلب من أحد الحفارين وإسمه بيتر فان سلو أن ينقش له حروفا عربية حسب نموذج ڤرانجون (74) وتوصل إلى طبع عشرة كتب ثنائية اللغة أي

---

(70) نذكر على سبيل المثال جون الشمان الذي طبع كتاب فلسفة في ليدا سنة 1640 وعنوانه « لغز قابس صاحب افلاطون » .

(71) **Nouvelle biographie,** 1858, T. 25, p36 article: **Hottinger**

(72) كلف هوتينجار أحد الأخصائين بحفر حروف عربية على حسابه الخاص في زوريخ ثم حملها معه إلى هايدلبارغ .

(73) BALAGNA, Josée, **op. cit.,** p. 62.

(74) VERVLIET, **Granjon... op. cit.,** p. 41.

عربية لاتينية وذلك فيما بين سنتي 1608 و 1611 (75) وسوف نكتفى نظرا لضخامة الإنتاج المطبعي بدراسة بعض المنشورات العربية الهامة .

المنشورات العربية بالمدن الالمانية :

تعالج أغلب الكتب العربية المطبوعة مواضيع لغوية وأدبية ودينية . ومن أبرز المنشورات نذكر كتاب القرآن الكريم الذي طبع لأول مرة (76) بأكمله في هامبورغ سنة 1106 / 1694 بإشراف المستشرق البروتستاني إبراهام هنكلمان (1652 - 1695) (Abraham Hinckelman) ولحد ذلك التاريخ، كان المستعربون الألمان يكتفون بنشر بعض السور القرآنية مع إيضاحات عن مبادئ الإسلام (77) . وقد نشر هنكلمان القرآن بأكمله دون ترجمة لاتينية لأنه « لم يجد أي شخص قادر على القيام بهذه المهمة أو على الأقل يريد تحملها » (78) . ومع ذلك فقد بدأ الكتاب بمقدمة جدلية في ثمانين صفحة باللاتينية، ذكر فيها أنه لا ينوي نشر الدين الإسلامي في أوساط البروتستانيين، بل ان هدفه الوحيد هو معرفة العربية والإسلام (79) ويوضح " بأنه من المفيد معرفة العربية ولكي نتقن هذه اللغة وجب معرفة القرآن " (80) . ويحتوي الكتاب على جدول التصويبات وبالرغم من ذلك فإنه مملوء أخطاء في الرسم علاوة على نقص في بعض الآيات .

اهتم المستعمرون الألمان كثيرا بنشر كتب النحو العربي ومن ضمن الخمسة عشر كتابا في النحو التي طبعت يوجد كتاب النحو العربي لمادار (Madar) الذي نشره في أوغسبورغ سنة 1617 (81) وفيه يشرح المستشرق الألماني قواعد هذه اللغة ويمدحها ويبين منافعها . كما صدر كتاب عن مستشرقين قابلين (Kabbalistes) هما شيكارد وجرهارد بمدينة إينا (Iena) سنة 1617، يبين فيه الكاتبان طريقة تدريس اللغات الشرقية خاصة منها العبرانية والكلدانية والسريانية والعربية والأثيوبية وخصصا فقرة لدراسة التناسق في التصريف مرفوقة بجدول بياني عن مطابقة الأشكال

---

(75) نشر كرستن كتاب الاجرومية سنة 1610 وثلاثة منتخبات أدبية وكتاب « القانون في الطب » لإبن سيناء سنة 1609 . لم يتم استغلال أحرف كرستن بعد سنة 1611 فقد انتقلت إلى السويد حيث استعملت بعد قرن من الزمن لطبع فهرس الكتب والمخطوطات الشرقية سنة 1706 في ايبسالا . انظر **Biographie de Michaud** T. 21, PP. 649 - 650.

(76) إذا استثنينا كتاب القرآن المطبوع بالبندقية سنة 1518 والذي لم يعثر له على أثر في المكتبات العالية الكبرى فإن كتاب القرآن في هامبورغ يعتبر أول مطبوع موجود حاليا إلى اليوم SCHNURRER n- 367, **ZENKER** n- 1362

(77) تم طبع السورة الاولى والثانية للقرآن في بادوا سنة 1698 .

(78) BALAGNA, Josée, **op.cit.**, P. 64.

(79) ÁUCAGNE, Jean " La préface d'Abreham Hinckelmann ou la naissance d'un nouveau monde " in, **Le Livre et le Liban .. op. cit.**, pp. 138 - 143

(80) المصدر نفسه ، ص 140 .

(81) SCHNURRER n-6, **ZENKER** n- 183

اللغوية ومرسوم على هيئة دائرة لزيادة توضيح ذلك البحث (82) .

ونشر العالم سنارت (Sennert) في ويتنبارغ كتابا في النحو سنة 1658 مرفوقا برسالة قصيرة فيها مقارنة لمختلف لغات الإنجيل (83) « إنها أيضا من أعمال علماء لاهوت بروتستان متبحرين يدرسون الكتب المقدسة في لغاتها الأصلية مع مقارنة بين اللغات السامية وخاصة منها العربية والعبرانية ، ويطمح البعض منهم إلى رسم صورة عن تناسق الخلق من خلال التعمق في دراسة هذه اللغات » (84) .

7.1 - المطابع العربية بانقلترا :

تأخرت المطبعة العربية بانقلترا في الظهور، إذ لم تبتدئ إلا سنة 1637. وقد نشطت في مركزين تابعين لجامعتي أكسفورد ولندن وذلك طيلة القرن 11 هـ / 17 م. وبالرغم من تقدم الانقليز في ميدان النشر باللغات الأروبية، إلا إنهم وجدوا صعوبات لتطوير الطباعة العربية على عكس ماتوصل إليه الألمان والهولانديون .أما عن أسباب هذا «التأخير» فتبقى مجهولة على حد علمنا. ولكن من المؤكد أن الأسباب الفنية ساهمت في عرقلة انطلاقة المطبعة. ويبدو أن غياب حفارين قادرين على صب القوالب والطوابع للأحرف العربية، قد دفع بأساتذة العربية إلى طبع كتبهم بالأحرف العبرانية (85) .

مطابع أكسفورد 1049 هـ / 1639 م ولندن 1061 هـ / 1650 م :

تأسست مطبعة أكسفورد بإيعاز من المستشرق والعالم الديني ادوارد بوكوك الذي نشر بمفرده عشرة كتب عربية . ولد بوكوك باكسفورد سنة 1604 (86)، وقد درس اللغات الشرقية قبل أن يدخل النظام الأنقليكاني، ليعين كاهنا للوكالة التجارية بحلب . هناك قضى ست سنوات مكنته من حذق اللغة العربية. وفي سنة 1636 عين أستاذا للعبرانية والعربية بجامعة أكسفورد. وقد طلب آنذاك من الجامعة الترخيص له بطبع كتب عربية. فأرسلت هذه المؤسسة سنة 1637 المطبعي صمويل براون إلى ليدا ، لشراء قوالب وطوابع للأحرف الشرقية بما فيها اليونانية والعبرانية والعربية (87) ، وهذا

---

(82) BALAGNA, **op.cit.**,p. 63

(83) عنوان الكتاب : **Arabiamus h.e. proecepta arabicoe linguoe in harmonia abroe, eadem universalia...**,Wittenberg, typis Finceelianis, 166 p. in 4-

(84) BALAGNA, **op.cit.**,p. 60.

(85) مثال ذلك كتاب ابن ميمون الذي تضمن فقرات عربية مطبوعة بأحرف عبرانية :
IBN MAIMUN, Mose, **Porta mosis,** Oxford University, 1655.

(86) **Nouvelle biographie de Didot,** article pococke, T. 40 p. 530.

(87) CARTER, H. A. **History of the Oxford University Press,** Oxford, Clarendon 1975, vol.1, p. 33.

دليل على أن الانقليز لم يجدوا لحد ذلك التاريخ، أخصائيين ماهرين لحفر الأحرف الشرقية. وقد طرح نفس المشكل لجامعة لندن التي استعارت أحرف أكسفورد لطبع كتب عربية ، وقد اتخذها المستشرق جون قريفس(1602 - 1652) سنة 1648 كنموذج لصب أحرف لجامعة لندن، ثم أرجعها بعد سنة واحدة. وبعد ذلك تم حفر أحرف عربية بلندن استعملت لأول مرة في طبع الكتاب المقدس المتعدد اللغات سنة 1657 . وتختلف هذه الأحرف عن مثيلاتها بأكسفورد من حيث كبر الحجم إلى جانب جودتها وتضمنها للحركات والعلامات. وقد تم إعدادها بطلب من توماس رويكريف وهو مطبعي الملك المتخصص في اللغات الشرقية وبريان والتون ناشر الكتاب المقدس المتعدد اللغات، اللذان استدعيا مجموعة من العلماء المستعربين بقصد ترجمة وطبع النص العربي للتوراة وهؤلاء هم توماس قريفس وصمويل كلارك وألكسندر همش وتوماس هيد وتوماس بيرس وهنري هموندا .

وبالنسبة لمحتوى الكتب العربية بانقلترا ، فهو متنوع إذ من جملة واحد وعشرين كتابا هناك ستة في الجغرافيا والتاريخ وخمسة في اللغة العربية وستة في الديانة وإثنين في الفلسفة وواحد في الهندسة وآخر في علم الفلك . ومن خصائص النشر العربي بانقلترا احتواؤه على عدد هام نسبيا من كتب التاريخ والجغرافيا وهكذا أصدر بوكوك وسلدن منذ سنة 1659 في مدينة أكسفورد « **كتاب نظم الجوهر** » أي حوليات سعيد بن البطريق (876 - 931) ، وهو طبيب ومؤرخ مسيحي من مصر. كما نشر بوكوك أيضا سنة 1663 "تاريخ مختصر الدول" لابن العبرى أو غريغوريس أبو الفرج وهو مؤرخ عربي وفي نفس الوقت بطريق يعقوبي بالإسكندرية (1225 - 1286). كما صدر لنفس المؤلف سنة 1650 « **لمع من أخبار العرب** » . من جملة كتب الجغرافيا نذكر كتاب أبي الفداء (1273 - 1331) « **تقويم البلدان** » (88) وهو منتخبات من مؤلفات ابن حوقل والبيروني وغيرهما ...

لقد نشر الانقليز منتخبات تاريخية وجغرافية متأخرة تعود إلى القرنين الثالث عشر والرابع عشر، حيث فضل العلماء المستعربون استعمال منتخبات لكتاب من العرب والمسيحيين لتعويض المجلدات العربية القديمة الضخمة والتي من النادر وجودها بأروبا. «ان هذه الكتب قد عوضت في الشرق المصادر الأولية ولهذا السبب، فإنها وصلت قبل غيرها (89) » أمّا بالنسبة للكتب الدينية فهي تحتوي على نصوص من التوراة وعن كتاب في التعليم المسيحي والطقوس ويعتبر كتاب التوراة المتعدد اللغات أهم كتاب ديني صدر في لندن وذلك في سنة 1657 (90) .

---

(88) فيه وصف للمقاطعات 25 و20 الموجودتان في تركستان .

(89) BARTHOLD, V.V,La découverte de l'Asie : Histoire de l'orientalisme en Russie ssie, traduit du russe par B Nikitine, Paris, Payot, 1947, p. 130.

(90) في ستة مجلدات من الحجم الكبير .

من جملة كتب الآداب العربية نجد معجما كبيرا في سبع لغات شرقية بعنوان (Lexicon hepta-glotton) من نشر المستشرق أدموند كستال (Edmond Castel) سنة 1669 « هو عمل علمي رائع صمّم لإكمال التوراة المتعددة اللغات (91) » . بقي أن نذكر كتاب الفلسفة العربي حي بن يقظان لابن طفيل الذي نشره بوكوك في أكسفورد سنة 1671 ، ثمّ أعاد ابنه طبعه سنة 1701 .

8-1 ملاحظات عامة عن النشر العربي بأروبا :

لا توجد مطابع متخصصة فقط في النشر العربي ولكن هناك مطابع مهتمة بعدة لغات شرقية وأهمها العبرانية واليونانية والعربية والسريانية والتركية. وبما أن الأحرف العربية كانت نادرة فإنها اقترنت في عدة حالات بإسم الناقش والأستاذ أو راعي الآداب الذي أشرف على إعدادها أكثر من اقترانها باسم المطبعة. وقد استعملت هذه الأحرف أحيانا في أكثر من مطبعة ، نظرا لتنقل صاحبها من مدينة إلى أخرى ، وهذا ما فعله سافاري دي براف وهوتينجر وغيرهما . على أن أغلب المطابع الشرقية كانت مرتبطة بمعاهد أو جامعات ويقوم فيها الأساتذة وعلماء الدين بدور الناشر العلمي للكتب العربية، وهذا لم يمنع أصحاب النفوذ الديني والدنيوي من التدخل المباشر في شؤونها خاصة بروما وباريس وذلك بهدف إملاء التوجهات الرئيسية للنشر واختيار النصوص ومراقبتها عند الطبع ، وهذا ما قام به بالفعل البابا غريغوريوس الثالث عشر بروما وأيضا الكاردينال ريشليو بباريس .

إن انطلاقة المطبعة العربية بأروبا كانت صعبة بسبب غياب الناقشين القادرين على إعداد قوالب للأحرف العربية هذا فضلا عن المشاكل الفنية الخاصة بالأبجدية العربية. ورغم ذلك،فقد وفق إلى ذلك كل من قرانجون ولوباي وكرستنو والتون واربنيوس في حفر هجائية عربية سليمة حتى أن الأحرف البديعة لقرانجون التي بقيت لمدة قرنين دون مضاهاة أحرف أخرى لها، اعتبرت مركز استقطاب النشر العربي بأروبا ، فقد نقل عنها ناقشون ألمان وهولانديون . ان نجاح الناقشين الأروبيين رغم جهلهم للغة العربية ، يمكن أن يكون نموذجا لأبناء المشرق لدفعهم لطبع كتب عربية ببلادهم . لقد أقحمت أحرف قرانجون إلى جانب أحرف سافاري وأربنيوس في الصراع الديني الدائر بين الكاثوليك والبروتستان ، حيث أن كليهما يريد نشر مذهبه بالشرق بواسطة الكتاب العربي المطبوع.

إنتاج الكتاب العربي في القرنين 10 - 11 هـ / 16 - 17 م :

نشرت المطابع العربية بأروبا في هذه الفترة مائة وواحد وتسعين كتابا من بينهم أربعة وعشرين كتابا صادرة في القرن 10 هـ / 16 م . ان توزيع هذا الإنتاج بين مختلف مراكز النشر

---

(91) BALAGNA, Josée, Le Fonds ... op. cit., p. 116.

غير متزن فهناك مركزان في المقدمة تجاوزا في نشرهما الخمسة والثلاثين كتابا وهما روما وليدا وإثنين آخرين متوسطي الإنتاج أي في حدود الخمسة عشر كتابا وهما باريس وأكسفورد . وهناك مدن أخرى طبعت أكثر من أربعة كتب وهي إمستردام ولندن وبراسلو ، وأمّا بقية المطابع فلم تتوصل إلى نشر أكثر من كتاب أو اثنين ومن بينهم نذكر البندقية وميلانو وشلاشفيق ولايبزغ.الخ ..

إن المدن الإيطالية كان لها قصب السبق في نشر أول الكتب العربية وأيضا كان لها النصيب الاكبر في الإنتاج بفضل السبعين كتاب التي أصدرتها في ظرف قرنين من الزمن . وفي المرتبة الثانية تأتي المدن الهولاندية التي أنتجت خمسة وأربعين كتابا ثم المدن الألمانية والانقليزية والفرنسية التي انتجت على التوالي اربعين وواحد وعشرين وخمسة عشر كتابا .

وإذا شهد القرن 10 هـ / 16 م نشأة النشر العربي بأروبا، فإن القرن 11 هـ / 17 م، عرف ازدهار المطبعة العربية هناك إذ ازداد عدد المطابع التي نشرت في الجملة مائة وسبعة وستين كتابا. ويصل معدل الإنتاج في كل عقد ستة عشر كتابا ولكن في بعض العقود وصل الإنتاج إلى خمس وعشرين كتابا وذلك فيما بين السنوات 1611 - 1620 و 1631 - 1640 و1651 - 1660 .

وقد بلغ النشر العربي ذروة نشاطه في النصف الأول من القرن السابع عشر، حيث تم طبع مائة وأربعة عشر كتابا، إذ وصلت أغلب المطابع إلى قمة إنتاجها خاصة بفضل نشاط مراكز ليدا وأكسفورد وباريس وروما . ثمّ أخذ الإنتاج في التضاؤل بداية من سنة 1661 ، وهذا بسبب توقف مطبعة سافاري بباريس وتقلص نشاط الزفيربليدا دون أن يتمكن الألمان من سد هذا الفراغ . إن أغلب الكتب كانت ثنائية اللغة أي بالعربية واللاتينية . أما عن الكتب الأحادية اللغة أي بالعربية فقط، فهي في أغلبها من نشر الإيطاليين إذ أن نصف منشورات روما هي من هذا الصنف (92) .

1 . 9 - التوجهات الرئيسية للدراسات العربية بأروبا :

سنحاول من خلال دراسة محتوى الكتب المطبوعة، رسم مشاغل وأهداف العلماء المستعربين وتحليل أهم التوجهات المتوخاة في الدراسات العربية بأروبا في ذلك العصر .

وإنه من الصعب تقديم أرقام مدققة حول تصنيف الكتب حسب المواضيع لأن هناك كتب تعالج أكثر من موضوع نفس الوقت . ولكن يمكن أن نلاحظ بأن أكثر من ثلث الإنتاج المطبعي يتعلق بكتب النحو وتعليم اللغة العربية وكذلك ثلث آخر يعالج الديانة وخاصة المسيحية منها بما فيها النصوص

---

(92) نشير إلى أن بعض الكتب نشرت في ثلاث لغات واكثر من عربية ولاتينية وعبرية وسريانية وغيرها ... مثلا معجم سيليزيا المطبوع في روما سنة 1639 (عربي لاتيني إيطالي) ، رسالة فلسفة قابس بليدا 1640 (عربي لاتيني يوناني) سفر المزامير المتعدد اللغات بجنوه 1516 ، التوراة المتعددة اللغات بباريس 1645 وبلندن1657 ومعجم كاستيل المتعدد الفات بلندن 1669.

المقدسة ونصوص في التعليم والدفاع عن المسيحية وكتب الطقوس والصلوات . أما البقية فهي موزعة بين العلوم الأساسية مثل الطب والفلك والرياضيات والعلوم الإنسانية مثل التاريخ والجغرافيا والفلسفة.

إن نسبة توزيع المحاور لا تنطبق بنفس الدرجة على كل المطابع . فالكتب الصادرة عن المدن الإيطالية والفرنسية تعالج في الغالب مواضيع دينية على غرار مجمع نشر الإيمان الذي نشر بمفرده ثمانية عشر كتابا دينيا، مقابل أحد عشر كتابا في اللغة والآداب العربية . ان هذا المجمع قد سخر كل طاقاته مثل بقية المطابع الكاثوليكية لخدمة كنيسة روما فالبابا غريغوريوس الثالث عشر وخلفاؤه كانوا عاقدي العزم على تطبيق مقررات المجمع الكنسي بفيانا وفلورنس ولاتران الخامس وترانتا بخصوص الشرق ، وتتمثل في توفير كلّ الإمكانيات اللازمة للتصالح مع الكنائس المستقلة بالشرق ومجابهة المسلمين ومنع التسرب البروتستاني إلى تلك الأصقاع. ولذلك فإن عملية طبع الكتب المسيحية العربية حسب رواية كنيسة روما تعتبر أنجح وسيلة حسب البابا لمعاضدة عمل المبشرين بسوريا .

وهكذا نشرت المطابع الست الموجودة بروما ثلاثة وثلاثين كتابا كاثوليكيا موزعة كما يلي : سبعة كتب مقدسة بها النصوص الكاملة أو أجزاء منها مثل المزامير والأناجيل ، اثنا عشر كتابا لتعليم المسيحية وأهمها كتاب بلارمان ، ثمانية كتب في الدفاع عن الدين المسيحي وفي الجدال ضد الإسلام وأبرزها كتاب كوادانولوس للرد على فقيه فارسي. وأخيرا ست كتب عن الطقوس المسيحية.

إن سياسة فرنسا شبيهة بسياسة روما نظرا إلى أن سافاري دي براف وريشليو ولويس الثالث عشر كانوا يرون المطبعة من زاوية دينية .وهكذا كرس النشر العربي في المدن الإيطالية والفرنسية انتصار الاستشراق الكاثوليكي (93).

أما المطابع البروتستانية فقد اهتمت بالكتب العلمية العربية أكثر من الكتب الدينية وهذا يعود إلى أن جلها تأسس في رحاب الجامعات، مثل ليدا وأكسفورد وهامبورغ ولندن وروستوك وإبسلا وغيرها . إذ نشر المستعربون الهولانديون والانقليز والألمان انطلاقا من عقلية بعيدة نوعا ما، عن الجدل الديني أدوات العمل الأكثر طلبا في الدراسات العربية بأروبا من معاجم وكتب نحو ومنتخبات شعرية وأدبية عربية . لقد حرص هؤلاء العلماء على نشر كتب التعليم والآداب العربية، لأنهم يرون أنهم إذا أجادوا اللغة فإنهم سيتمكنون من قراءة المؤلفات العربية في لغتها الأصلية والتعمق في معرفة الحضارة الإسلامية .

---

(93) DUVERDIER, G, "l'Orientalisme chrétien." In: Le Livre et le Liban, p. 238.

إن المطابع الشرقية بليدا أنتجت كتبا في اللغة والآداب العربية أكثر من كتب الدين فمثلا نشرت مطبعة أربنيوس سبعة كتب في اللغة مقابل أربعة في الدين واثنين في التاريخ . أما مركز أكسفورد فقد كرس جهده لكتب العلوم الإنسانية، ستة كتب في التاريخ والجغرافيا واثنين في الفلسفة وثلاثة في اللغة وأربعة في الدين وواحد في الفلك :

وقد توصل العلماء البروتستانت إلى طبع معاجم عربية هامة وذلك خلال القرن 11 هـ / 17 م مثل المعجم اللاتيني ليعقوب غوليوس بليدا سنة 1653، والمعجم المتعدد اللغات لكستال بلندن سنة 1669 والمعجم العربي لرافلانج بليدا سنة 1613 . وقد شعر العلماء المستعربون بضرورة نشر مثل هذه المعاجم قصد التعمق في فهم اللغة العربية (94) وقد غابت مثل هذه الأداة على اهتمامات المشرفين على مطبعة فرنسا (95) .

وإلى جانب المعاجم توجد كتب النحو العربي التي هي جد مطلوبة من طرف الطلاب بأروبا، ومن أهم هذه الكتب المدرسية نذكر الأجرومية التي أعيد طبعها تسع مرات في عدة مدن أروبية وكذلك كتاب النحو العربي لاربنيوس الذي كان محل تقدير معاصريه، لوضوح وجدية عمله وقد تمت إعادة طبع الكتاب خمس مرات طيلة القرن 11 هـ / 17م .

وتضاف إلى هذه الأدوات المنتخبات الأدبية والشعرية العربية التي استعملت كأمثلة لدراسة اللغة. وأن النصوص المختارة كانت مشوقة ومعبرة عن ذوق العلماء : شعر ونثر وأمثلة عربية . وهذا الصنف الأخير مطلوب بكثرة مثل أمثال لقمان المطبوعة في ليدا سنتي 1615 و1636 وأيضا ثلاثة كتب عن أمثال العرب منشورة في ليداو ويتنبرغ . ان هذه الأمثال التي كانت قصيرة وسهلة الحفظ قد مكنت الأروبيين من الاطلاع على حكم العرب ونمط تفكيرهم .

ونشير أيضا إلى طبع المنتخبات التاريخية الجغرافية لمؤلفين عرب متأخرين، يعودون إلى القرنين 7 - 8 هـ / 13 - 14 م، ذلك أن المستشرقين الذين لم يكن بحوزتهم مخطوطات كتاب العرب الأوائل اقتصروا على نشر منتخبات لسعيد بن البطريق وابن العبرى وأبي الفداء وغيرهم .

لقد بنى العلماء المستعربون في القرن 11 هـ / 17 م الركائز الأساسية للدراسات العربية بأروبا، وذلك باستعمال أحرف المطبعة العربية وبنشرهم لكتب النحو والمنتخبات والمعاجم العربية

---

(94) إن علماء اللاهوت الإيطاليين قد نشروا من جهتهم " كنز اللغة العربية " لانطوان جيجاي في ميلانو سنة 1632 وأيضا معجما لسيلازيا في روما سنة 1639 بعنوان «بناء اللغة العربية» Fabrica linguae arabica

(95) إن المستشرق الفرنسي أنطوان ڤالان لاحظ هذا النقص حين قال في أواخر القرن السابع عشر : " كيف يمكنهم الانتفاع بذلك في الوقت الذي لا يوجد فيه لا كتاب نحو ولا معجم في هذه اللغة والذي يمكن أن يستغل بكل نجاعة " Bibliothèque Orientale d'herbelot, Paris, 1697. préface de Galland.

وكانت تحدوهم احيانا النزاهة العلمية التي ظهرت بالخصوص في ليدا وأكسفورد وبراسلوا . وبخصوص النزعة الدينية والجدلية، فإنها طغت على المنشورات الإيطالية والفرنسية وبدرجة أقل على الكتب الألمانية والهولاندية والانقليزية. وهكذا بفضل أدوات العمل العلمي التي نشرت بالعربية في القرن السابع عشر، فإن الأمور كلّها رتبت لتمكين المستشرقين في القرن الموالي لإكتشاف واستقصاء المؤلفات الأدبية والعلمية للكتاب المسلمين.

بقي أن نتساءل الآن هل ان المنشورات العربية بأروبا كانت موجهة للعلماء المستعربين والطلبة الأروبيين فقط أم للمشرقيين كذلك ؟ وهل تم توزيعها فعلا في الشرق وفي حالة الإيجاب كيف كان موقف المسيحيين العرب منها ؟

2 - صدى النشر العربي الأروبي في المشرق :

1.2 - وجهة الكتب :

ليس من السهل انطلاقا من دراسة اللغات التي طبعت بها الكتب إلى جانب العربية، معرفة لمن هي موجهة ؟ إلا أن دراسة اللغة مؤشر أولي للإجابة عن السؤال . إن جل الكتب كانت ثنائية اللغة عربية ولاتينية في حين ان عدد الكتب أحادية اللغة والمقتصرة على العربية كان ضعيفا. ان الكتب من النوع الأول كانت موجهة بالدرجة الأولى للأروبيين من علماء مستعربين وطلاب الدراسات العربية والتجار والمبشرين لدراسة العربية وذلك بالاستعانة بالترجمة اللاتينية لفهم النص العربي ويستبعد إذن أن تكون هذه الكتب الثنائية اللغة، قد وجهت لأهل المشرق الذين يجهلون اللاتينية . إلا أن الكتب أحادية اللغة أي بالعربية فحسب فقد كانت موجهة في الغالب إلى بلاد الشام. وهناك شهادات تؤيد ذلك مثلما ذكره مؤسس مطبعة روما وباريس سافاري دي براف، من أنه قد أرسل خمسمائة اوستمائة نسخة من كتاب "**التعليم المسيحي**" لبلارمان إلى مسيحيي الشرق سنة 1033 هـ / 1623 م وأنه لا توجد بالكتاب ترجمة لاتينية، لأنها غير ضرورية في هذه البلاد (96) والجدير بالذكر أن بعض المطابع الكاثوليكية بروما وباريس، كانت تصدر نفس الكتاب في طبعتين واحدة باللغة العربية وأخرى باللاتينية بحسب وجهتها أي إما لمسيحيي المشرق أو للأروبيين ونذكر مثالا آخر لهذا النوع من الكتب وهو كتاب « الانجيل » الذي نشرته مطبعة الميدتشي سنتي 999 - 1000 هـ / 1590 - 1591 م في طبعتين.

ان الكتب الأحادية اللغة أي المقتصرة على العربية كانت أيضا موجهة للعلماء المستعمرين الذين

---

(96) رسالة بتاريخ 3 أوت 1613 محفوظة بدار الكتب الوطنية بباريس (BN. mss. Coll. Dupuy, 812 p 267)
سلك سافاري نفس الخطة بالنسبة لكتاب مزامير داوود عليه السلام الذي طبع بروما في سنة 1023 هـ / 1614 م وذلك ، كما ورد في مقدمة الكتاب بنية توزيعه في بيت المقدس " لتشتهر في تلك الأماكن المباركة للطالب والراغب ".

كانوا يحرصون على شراء كلّ ما يصدر عن المطابع العربية مثل العالم سكاليجار (97) أما الطلاب فقد كانوا يطلعون أيضا على هذه المنشورات التي تعتبر بالنسبة لهم بمثابة الكتب المدرسية (98) ، ان أصحاب المطابع الشرقية بإيطاليا وفرنسا كانوا ينوون توزيع منشوراتهم بالمشرق وهناك وثائق تؤكد هذا التوجه. من ذلك أن مطبعة مجمع نشر الإيمان بروما التي أصدرت قرارا سنة 1038 هـ / 1629 م، يقضي بتوزيع الكتب مجانا بالشرق رغم أنها سمحت فيما بعد ببيع بعض النسخ (99) وبالفعل ظهرت إشارات في مقدمة الكتب التي طبعها المجمع تؤكد هذا التوجه من ذلك ما ذكر حول إهداء كتاب جدلي صدر بروما سنة 1106 هـ / 1694 م، بعنوان «مضمون المجمع الخلقيدوني المقدس الأرتودكسي ... المهدي إلى أنبايوحنا المعظم المفخم خليفة الانجيلي مارمرقس أول وأشرف بطاركة الكنيسة الإسكندرية وإلى جميع أصحاب الكهنوت المصريين والحبشيين وإلى ملك الحبش العالي ... وكافة طوايف القبط والحبش المباركين القاطنين في الديار المصرية والأقاليم الحبشية " (100) .

وقد توخت فرنسا نفس السياسة حين منح الملك لويس الثالث عشر في 1040 هـ / 1630 م " حق امتياز الطبع " باللغات الشرقية مشترطا على أصحاب المطابع " إصدار العهد الجديد وكتب التعليم المسيحي وكتب النحو باللغات الشرقية وتسليم عدد من النسخ منها مجانا للمبشرين العاملين بالشرق وهؤلاء يتولون توزيعها لكلّ من يريد معرفة الدين المسيحي " (101) ، وهذا ما حرص على تطبيقه أنطوان فيتراي الناشر الفرنسي المتخصص في اللغة العربية حيث ذكر على سبيل المثال على صفحة أحد كتبه : " هذ الكتاب يوزع مجانا " (102) .

----

(97) لقد وصلنا إلى هذه المدينة (روما) ومعنا الكتب التي اشتريناها وهي الاوقليدس وكتاب القانون الثاني لإبن سينا ، التي لا تباع منفصلة عن بعضها وكتاب القداس العربي الذي طلبته في شهر أغسطس الماضي والذي تم طبعه منذ خمسة عشر يوما " رسالة من شاستانيي إلى سكاليجار 12 اكتوبر 1595 .

Epistres Françaises des personnages illustres à M.Joseph Juste de la Scala; Haderwyeq, H. Laurens, 1624, p 376.

(98) مثل كتاب شذرة الادب من كلام العرب الذي طبع بليدا في 1629 م ، وأمثال لقمان الحكيم الذي طبع في 1615 م وكذلك الكتب العربية للميدتشى التي نشرت دون نص لاتيني مثل الاجرومية والكافية وكتاب التصريف .

(99) Fumagalli Lexicon... op. cit., P. 354

(100) Schnurrer, n- 265 ورد أيضا في كتاب اخر أصدره المجمع في 1104 هـ / 1692 م بعنوان " ذكر حساب السنة وأعيادها " إنه قد " طبعه لاجل منفعة الاخوة المسيحيين القسوس والشمامسة والشعب الأرثوذكسيين " SCHNURRER, n- 246

(101) وردت هذه الجملة في نص "امتياز الطبع" لكتاب مختصر مقاصد حكمة فلاسفة العرب الذي نشره إبراهيم الحاقلاني بباريس 1051 هـ / 1641 م ورقة 2 - 3 .

(102) هو كتاب " التعليم المسيحي " لريشليو ترجمة جيست دي بوفي باريس 1050 هـ / 1640 م.

وهكذا تتضح جليّا سياسة المطابع الكاثوليكية بأروبا في طبع وترويج الكتب المسيحية العربية لدى الطوائف المسيحية بالمشرق وهذه السياسة لم تكن واضحة لدى المطابع البروتستانية، إذ لا توجد وثائق تبين ذلك باستثناء الحادثة التي وقعت بإستانبول بسبب توزيع كتاب بروتستاني والتي سنتعرض إليها في الفصل الثاني. بقي الآن التعرف على الأسلوب الذي اتبعه الأروبيون لتوزيع الكتب المسيحية والجدلية في المشرق ، في عصر لا يزال الصراع بين الإسلام والمسيحية قائما على أشده .

2 . 2 توزيع الكتب :

تولى توزيع هذه الكتب الديبلوماسيون والتجار وبالخصوص المبشرون (103) فمنذ سنة 988 هـ / 1580 م ، تولى الأب اليسوعي أليانو القيام بمهمة بتكليف من البابا غريغوريوس 13 لدى المارونيين وقد حمل معه نسخا عديدة من كتابه (104) تولى توزيعها لدى القسيسين والرهبان وبعض أبناء الطائفة (105) في مجمع قنوبين (106) وكذلك في أثناء تنقلاته في القرى المارونية . وعمل على تسفير بعض النسخ قبل إهدائها للكنيسة المارونية (107) .

وقد قام بنفس العمل الأب اليسوعي دانديني مبعوث البابا إلى جبل لبنان سنة 1003 هـ / 1595 م إذ تولى توزيع مائتي نسخة من كتاب القداس الذي طبع فيما بين سنتي 1001 - 1003 هـ / 1592 - 1594 م.

كما ساهم الديبلوماسيون في عملية التوزيع من ذلك قنصل فرنسا بمصر الذي قام في سنة 1026 هـ / 1618 م، بتكليف من سافاري دي براف بتوزيع عدد من نسخ كتاب بالارمان " التعليم المسيحي " بين أقباط الإسكندرية (108) وتواصل إرسال الكتب إلى المشرق بصفة منتظمة طيلة القرن 11 / 17 م، بواسطة المبشرين الكاثوليك والفرنسيسكان واليسوعيين والكبوشيين . وقد ساهم إلى جانب هؤلاء التلاميذ المارونيون بمعهد روما في عملية توزيع كتب مطبعة مجمع نشر الإيمان وذلك عند عودتهم إلى بلادهم ، إلا أن هذه العملية، كانت محدودة نظرا لصعوبة النقل ومضايقات السلطات العثمانية .

---

(103) وصلت الكتب إلى المشرق أيضا في شكل هدايا بين الأمراء المسلمين والمسيحيين ، من ذلك أن الامير فخر الدين الثاني أرسل أقمشة من حرير إلى الكردينال ميدتشي ردّا على هديته المتمثلة في كتب مطبوعة .

. Chebli, M, Fakhreddine II Maan, Beyrouth, 1946 p 136

(104) اليانو ، يوحنا ، إعتقاد الامانة الأرثوذكسية كنيسة رومية ، روما ، المطبعة اليسوعية ، 1566 .

(105) Nasrallah, **L'imprimerie ... op. cit.,** P. XVIII

(106) شيخو ، لويس، الطائفة المارونية والرهبانية اليسوعية في المشرق ، عدد 18 ، 1920 ، ص. 303 - 304 .

(107) المصدر نفسه ، ص 304 .

(108) DUVERDIER, **" Les impressions orientales..." op. cit.,** P. 172 Note 14

ولا يمكن معرفة حجم هذه الكتب نظرا لافتقاد الوثائق حول الموضوع. إلا أنه بالإمكان الإحاطة بمحتوى هذه الكتب بصفة عامة إذ كانت جلها دينية : كتب الصلاة والانجيل والمذهب الكاثوليكي وهي تكرس أهداف البابا ومقررات مجمع ترانت .

إن كتاب الاب برينو " التعليم المسيحي" (109) كان مخصصا لتفنيد المذاهب المسيحية بالمشرق والتعريف بالمذهب الكاثوليكي كما تراه كنيسة روما، وكان الاب اليانو قد وزعه في جبل لبنان (110) ولم يكن الكتاب الوحيد في هذا الصدد إذ أن كتاب " التعليم المسيحي " لريشيليو الذي أرسل إلى المشرق كان يرمي كذلك حسب تعبير سافاري (111) إلى " تخليص المسيحيين من أخطائهم وعيوبهم" إن هذا الصنف من الكتب قد جعل للتبشير ولنشر الكاثوليكية في أوساط المسيحيين العرب ولم يكن موجها للمسلمين (112) . وقد إهتم البابا والمبشرون كثيرا بالكتاب المقدس " حيث كانوا يريدون نصا عربيا موحدا لجميع المسيحيين العرب . وقد قام المطبعيون بنشر بعض الأجزاء منه بالعربية (113) لكن بصعوبة كبيرة . ان فكرة نشر النصوص الكاملة للتوراة والانجيل قد خامرت ذهن البابا غوريغوريوس 13. لكن المشروع كان ضخما وصعبا ليس فقط بسبب الترجمة بل كذلك بسبب صعوبة اختيار "أفضل رواية "، فكان أن قرر البابا طبع النص الرسمي للكتاب المقدس كما حدده المجمع الكنيسي بترانت إلا أن الفرنسيين فضلوا الرجوع إلى المخطوطات العربية الموجودة " للكتاب المقدس" . فنتج عن هذا الاختلاف ظهور طبعتين مختلفتين الاولى بباريس سنة 1054 هـ / 1645 م، وهي للكتاب المقدس المتعدد اللغات والثانية للكتاب المقدس الثنائي اللغة (عربي لاتيني) الذي صدر بروما سنة 1081 هـ / 1671 م . وإذا كان الغرض من الطبعة الأولى هو الابهة والافتخار كما رأينا في الفقرة السابقة، فإن الطبعة الثانية قد أرسلت إلى المشرق حيث جوبهت بالرفض لدى المسيحيين (114) .

وإلى جانب هذين النوعين من الكتب ظهرت بالشرق عناوين أخرى أقل أهمية مثل التقاويم : "ذكر حساب السنة وأعيادها" الذي أصدرته مطبعة مجمع نشر الإيمان بروما سنة 1104 هـ/1692م

---

(109) برينو ، التعليم المسيحي ، ترجمة الاب اليانو ، روما ، المطبعة اليسوعية ، 1580 .

(110) Dandini, Jérôme, **Voyage du Mont Liman,** . Trad .R. Simon, Paris , L BILLaine, 167 1675 p. 342 (Commentaire de Simon).

(111) " رسالة سافاري دي براف" في **Le Livre et Le Liban ...op. cit., p.** 163

(112) Duverdier, **"Les impressions..." op. cit., P.** 161

(113) مثل سفر المزامير الذي طبع في جنوة عام 921 هـ / 1516 م وكتاب الانجيل الذي طبعه الميدتشي في 998 هـ / 1590 م ، وسفر المزامير الذي أعيد طبعه في روما مرتين في 1021 هـ و1027هـ / 1613 م و1619م.

(114) أنظر الفقرة القادمة المتعلقة بموقف المسيحيين العرب من الكتب المطبوعة بأروبا

ويتعلق بذكر الصنوات عند الشرقيين" (115) كما ظهر كتاب جدلي في القرن 11 هـ / 17 م وعنوانه : " **مضمون المجمع الخلقيدوني في علة هرطقة أوطاخي المنافق** " وهو موجه للطوائف المسيحية الشرقية كما ذكر في المقدمة من " طائفة القبط المكرمين وطوائف الحبش الموقرين وغيهم (كذا) من طوايف الشرقيين المغرورين بحيلة حزب أوطاخي وديوسقروس السالفين يبلغوا معرفة أصول إجتماع هذا المجمع العام القاثوليقي وينكشف عندهم غش الأوطاخين السالفين ويتفقوا بودة حقيقية (كذا) مع الكنيسة الرسولية الرومانية (116). إن هذه الكنيسة كانت تخطط لتحقيق الاتحاد مع كنائس الشرق وكانت تسعى من خلال هذه المنشورات إلى " رومنة" الطوائف الشرقية (117) .

إلا أن هذا المجهود المبذول من طرف البابوية كانت تشوبه أحيانا بعض المشاكل بسبب مزاحمة البروتستانيين لها، إذ عمل هؤلاء بدورهم على توزيع كتبهم بالمشرق فكان أن أدى هذا الصراع الديني إلى وقوع حادثة سياسية تدخل فيها البابا العالي وسفراء الدول الأروبية لديه للوقوف أمام تسرب المذهب الكالفيني في المشرق (118) . إن هذه الحادثة شغلت كثيرا بال البابا وملك فرنسا، ذلك لأن كنيسة روما كانت ترى في تسرب الكتب البروتستانية خطرا يهدد سلطتها الروحية التي بدأت تتدعم في المشرق وينذر بفشل كل المجهودات التي بذلتها في هذه البلاد التي كانت بعيدة عن الإصلاح البروتستاني .

2. 3 - مواقف المسيحيين العرب إزاء الكتب المطبوعة بأروبا:

تبين مما سبق أن الكتب العربية المطبوعة بأروبا كانت موجهة جزئيا للمشرق العربي، وأنه قد تم توزيعها في اوساط المسيحيين بالخصوص فكيف كان رد فعل هؤلاء تجاه ما وصلتهم من منشورات وتجاه فن الطباعة بالذات ؟ وماذا كانوا ينتظرون من الكتب المطبوعة ؟

سيتم التركيز على دراسة مواقف أبرز الطوائف المسيحية العربية التي تفاعلت مع هذه المنشورات وهما اثنتان : الطائفة المارونية والطائفة الأرثوذكسية وكلاهما كانت لها علاقة معيّنة مع كنيسة روما .

----

(115) نذكر أيضا كتاب برونيوس ، "كتاب التواريخ البيعية" الذي نشر بروما في 1063 هـ / 1653 م

(116) Schnurrer, n- 265

(117) يمكن إضافة عناوين أخرى مثل "كتاب يشتمل على أجوبة أهل الكنيسة المقدسة الكاثوليكية لاعتراضات الهراطقة ضد الكاثوليكيين" من تاليف ميخائيل لوفيير طبع بروما في 1091 هـ / 1681 م وكذلك "كتاب في الدفاع عن الإيمان المسيحي" من تاليف جرمانوس دي سيليزيا نشر بروما في 1047 هـ / 1638 م .

(118) انظر الفصل الثاني من الكتاب ، ص 88-89 .

2. 3 1- مواقف المارونيين :

الحالة الدينية والثقافية لدى المارونيين :

توطدت العلاقات بين الطائفة المارونية والبابوية نتيجة مجهودات المبشرين الفرنسيسكان الذين دفعوا بالبطريرك الماروني موسى العكاري (931 - 974 هـ / 1524 - 1567 م) إلى "تجديد" الاتفاقية حول اتحاد طائفته مع كنيسة روما سنة 959 / 1553 (119) . إلا أن الإتصالات بين الطرفين كانت صعبة ، نظرا لبعد المسافة واختلاف اللغات مما أ دى إلى صعوبة إقامة حوار بينهما (120). أضف إلى ذلك الوضع المتردي للحياة الثقافية عند المارونيين . من ذلك حالة الجهل المنتشرة بين أبناء الطائفة وندرة المدارس والمتعلمين وحتى الكهان عندهم كانوا يكتبون ويقرؤون بصعوبة (121) ولم تكن توجد لديهم مكتبات إلا في الاديرة . اما المخطوطات فقد كانت نادرة وباهضة الثمن وكانوا يجهلون فن الطباعة (122) .

وقد أرسل اليهم البابا غريغوريوس 13 مبعوثا سنتي 985 - 986 هـ / 1578- 1579م ليطلع على حالة معتقداتهم وهو الاب يوحنا اليانو الذي رفع تقريرا للبابا يقترح فيه ادخال اصلاحات على الكنيسة المارونية، وتعليم شبان من هذه الطائفة بمدارس روما وانشاء مطبعة لاصدار كتب دينية بالعربية والسريانية لتحل محل المخطوطات " المليئة بالاخطاء " (123). وقد عمل البابا عل تنفيذ بعض ما جاء بالتقرير من اقتراحات فانشا في سنة 989 هـ / 1582م، مأوى لاستقبال الشبان المارونيين الذين بدأوا يتوافدون على روما والذين بلغ عددهم في ظرف سنتين العشرين . ثم اسس في 992 هـ / 1584م المعهد الماروني وكلف الآباء اليسوعيين بالاشراف عليه (124). وقد عبر رجال الدين المارونيون والتلاميذ الجدد القادمون من جبل لبنان على موقفهم إزاء فن الطباعة وإزاء الكتب العربية والسريانية التي صدرت في تلك الفترة بروما .

---

(119) Raphaël, P. Le rôle ... op. cit., P. 53

(120) تلقى البطريرك ميخائيل الرزي رسالة من البابا غريغوريوس 13 في مارس 1577 إلا انه لم يستطع الاطلاع عليها نظرا لعدم وجود مترجمين قادرين على ترجمة النص اللاتيني إلى العربية إلى أن وصل الاب اليانو في 1579 ، شيخو ، لويس ، " الطائفة " نفس المصدر في المشرق عدد 17 ، 1914 ص 415 .

(121) Dandini, Voyage ... op. cit ; P. 49 يقول ايضا الاب كارلفسكي أن الكهان المارونيين كانوا جاهلين ويمتهنون حرفة النسخ في حين أن المبشرين الكبوشيين واليسوعيين يقومون بالطقوس في كنائسهم بالتناوب " Karalevsky, C
Dictionnaire d'histoire et de géographie ecclésiatiques (Dhge) , Paris, Letouzey, 1914, T.2, ent 108.

(122) Dandini, Voyage ... op. cit., PP. 94 - 95

(123) شيخو ، الطائفة ... نفس المصد ، عدد 17 . 1914 ، ص 762 . Raphaël, Le rôle... op.cit., P.56

(124) Ibid, P. 58

استحسان فن الطباعة :

لم يخف البطريرك الماروني ميخائيل الرزي ورهبانه اعجابهم بفن الطباعة منذ ان تسلموا نسخا من الكتب الاولى المطبوعة بروما عن طريق مبعوثي البابا سنة 987 هـ/1580م وهما الآباء اليانو وبرينو ، بل انهم طلبوا المزيد من النسخ (125) . اما الاب يوحنا بن ايوب الحصروني الذي قدم الى روما سنة 991 هـ/1583 م، بطلب من الكاردينال كارافا حامي المارونيين المساهمة في نشر الكتب الدينية ،وقد كان مبهورا ايضا بآلة الطباعة فكتب سنة 993 هـ/1585م، الى الاب اليانو " متحدثا عن البابا : " وعمل لنا اسطنبا (اي مطبعة) بالحرف السرياني الكبير الرب يجازيه في ملكوته السماوي " (126)

ويتأكد من خلال الوثائق، ان المارونيين قد قبلوا مبدأ الطباعة منذ الوهلة الاولى بل انهم اعتبروا المطبعة اكتشافا ثمينا فهي" توفر لهم نسخا كثيرة من الكتب الضرورية لديانتهم . وقد كتب جبرائيل الباني، اول تلميذ يدرس بالمعهد الماروني للاب اليانو سنة 993 هـ / 1585 م، معترفا بجميله " اننا معتازين (محتاجين) هؤلاء الكتب الذين اساميهم مكتوبين بورقة الاب يوحنا فمن كل بد (كذا) وسبب يا ابونا نريد انك ترسلهم " (127) . بل ان حرص بعض الرهبان على الحصول على كتب من اليسوعيين بروما دفعهم الى معاتبة الاب اليانو لعدم ارساله نسخا كافية من الكتب. ففي رسالة محررة من طرف ثلاثة كهنة مارونيين من طرابلس الى الاب اليانو بتاريخ 10 سبتمبر 1586م، ورد ما يلي : " وباين رجع الينا وهو يقول انه جاء من رومية ميت من الجوع بلا زواده وجاب معه بعض اوراق كتب نويسات واشبينات ايش نريدهم كان لنا خاطر ان تنطبع كتب الكنيسة على يدك كما يريد الله وكما تعرف انت .." (128).

ان تهافت المارونيين على طلب منشورات روما يدل على استحسانهم منذ البداية لآلة الطباعة، وقبولهم تعويض مخطوطاتهم بهذه الكتب المطبوعة . ويكفي ان هذا الفن الجديد تستعمله كنيسة روما التي تربطهم بها علاقة روحية، حتى يطمئنوا الى هذا الاكتشاف . هذا وان كانت كنيسة روما ذاتها قد ترددت في استخدام آلة الطباعة عند ظهورها قبل ان تعتمدها وتسخرها لنشر المذهب الكاثوليكي(129) .

اذن تعرف المارونيون على فن الطباعة عند اتصالهم بالبابوية، وقبلوا المنشورات العربية

---

(125) شيخو ، الطائفة ... نفس المصدر، المشرق ، عدد 18 ، 1920 ، ص 303 .

(126) شيخو ، لويس الطائفة المارونية والرهبانية اليسوعية ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، 1923 ، ص 82 .

(127) المصدر نفسه ، ص 81 .

(128) المصدر نفسه ، ص 84 .

(129) رفضت البابوية استخدام فن الطباعة لمدة عشرين سنة بعد اكتشاف غوتنبرغ .

والسريانية من روما بل انهم اكثر من ذلك طلبوا من البابا طبع مخطوطاتهم الدينية وقد استجاب البابا لهذا الطلب وطبع لهم كتاب المزاميرسنة 1023 هـ / 1614 م، وفق مخطوط قنوبين (130) الذي أرسله اليهم البطريرك الماروني (131) . كما طلب يوحنا مخلوف (1018- 1043هـ / 1609-1633م) من البابا عن طريق المطران الرزي، طبع كتب دينية (132) وكذلك الحال بالنسبة للبطريرك : يوسف حليب الذي رجا من البابا اينوصان 10 اصدار "الشحيمة" وهو كتاب صلاة السواعي عند المارونيين واعادة كتاب النحو بالسريانية الذي ألفه جرجيس عميرة (133) . كما ارسل البطريرك اسطفان الدويهي (1040- 1116 هـ / 1630- 1704م) الى مجمع نشر الايمان بروما في سنة 1107هـ / 1695م مخطوطا دينيا بعد مراجعته بغرض طبعه (134) هذه الامثلة تبرز عزم المارونيين وعلى راسهم البطاركة على طبع كتبهم الدينية . وكانو يرون في هذه المنشورات حلا ناجعا لتوحيد نصوصهم الدينية ومراجعتها بعدما تعددت الروايات واختلفت في المخطوطات المتوفرة في الاديرة اللبنانية والسورية. بل انهم اكثر من ذلك كانوا يعتقدون بان الكتاب المطبوع سيعمل على جمع شتات المارونيين حول بطريرك الطائفة ويترجم كذلك عن رغبتهم في تدعيم الروابط مع روما .

لقد بد أت المطبعة في تحويل أنظار المارونيين من الشرق الى الغرب وتشجعهم على التخلص من ضغط الطوائف المسيحية الاخرى وكذلك المسلمين . الا ان المارونيين شعروا بان أية محاولة لتدعيم الطائفة داخليا لا بدّ وان تصحبه عملية سياسية. فكانوا ان اتحدوا مع الامير فخر الدين المعني الثاني في القرن 11 هـ / 17 م، قائد حركة استقلال جبل لبنان عن الباب العالي، فانضموا باعداد غفيرة الى صفوف جيش هذا الامير الدرزي (135) . في حين أصبح التلاميذ المارونيون القدامى بروما ، سفراءه لدى الامراء الاروبيين (136) . وهكذا يتضح ان الملامح الجنينية لاستقلال

---

(130) يقع دير قنوبين شرقي طرابس (بذ ن) وهو مقر بطريرك الطائفة المارونية .

(131) طبع النص العربي لانه لا يتعرض البتة مع النص الرسمي أو النص العبراني أو الاغريقي " رسالة من سافاري بتاريخ 24 اغسطس 1612 وردت في كتاب **Le Livre et Le Liban ... op. cit.,** PP. 199 - 200

(132) Nasrallah, **L'imprimerie ... op. cit.,** P. 10 وقد طبع بالفعل احدى الكتب التي طلبها وهو :
Officium simplex semptem dierum hebdomadae, Rome, 1624, Voir : Gemayel N ... " Les imprimeries libanaises de Rome " in: **Le Livre et le Liban ... op. cit., P 192**

(133) Nasrallah, **L'imprimerie ... op. cit.,** P. 10

(134) **Ibid .,** P. 12.

(135) ضو ، بطرس ، **تاريخ الموارنة الديني والحضاري** ، بيروت ، 1970 ، ج 3 ، ص 216 .

(136) كان العالم الماروني إبراهيم الحاقلاني مبعوثا له لدى الدوق الاكبر بفلورنسا وكان فخر الدين قد كلفه بانتداب فنيين ومدنيين وعسكريين والقيام بعمليات تجارية وغير ذلك من المهام أنظر : Raphaël, **Le rôle ... op. cit.,** P. 87.

الطائفة المارونية بجبل لبنان قد بدأت تتضح منذ تلك الفترة . ورغم فشل محاولة فخر الدين الثاني، فقد واصل المارونيون تدعيم علاقاتهم مع روما وباريس وطلب منشورات مطابعها هذا على الرغم من اختلافهم معها حول محتوى الكتب الدينية .

معارضة محتوى المنشورات :

لم تحظ كل المطبوعات العربية التي حملها التلاميذ المارونيون والمبشرون الى جبل لبنان بالقبول، والسبب هو ان المراقبين بمطابع روما المكلفين بمراجعة المخطوطات الدينية الشرقية قبل طبعها، سعوا الى تغيير محتواها بغرض " رومنتها" غير مراعين في ذلك خصوصيات الطقوس المارونية .. ومن هنا نشبت "ازمة ثقة" لدى الطرفين. فكنيسة روما ترى بعض " المبالغة " في طقوس مسيحيي المشرق والطائفة المارونية ترى ان نصوصها الدينية، قد "حرفت" اثناء الطبع ورفضت بذلك استخدام بعض الكتب المطبوعة بالعربية والسريانية .

ولقد برزت هذه الخلافات منذ ان قام الاب اليانو بمهمته الاولى بجبل لبنان سنة 987 هـ / 1579م ، حيث تحدث عن الاخطاء التي تضمنتها المخطوطات المارونية ذاكرا في تقريره الموجه للبابا غريغوريوس 13 : " على انه بتمادي الزمان وبسبب اختلاطهم مع الامم والطوائف المخالفة لدينهم، قد تسربت الى كتبهم بعض الاضاليل ودخل في طقوسهم ورتبهم بعض الشوائب التي سببها قلة المعلمين الذين يعنون بارشادهم وليس نقصا في استعدادهم لقبول تعاليم الكنيسة الرومانية. وقد دونا هذه النصوص المضادة للحقائق الكاثوليكية في كتاب منفرد ليطلع عليه قداسة الحبر الاعظم ... بيد ان هذه الاضاليل وغيرها ايضا التي وجدناها في كتبهم، لاتدل على معتقدهم الصحيح وانما كان كتبتهم ينقلونها دون ان يعيروها بالا. وإذا سألتهم عن ايمانهم اجابوا ان ايمانهم ايمان رومية " (137) .

وقد حرص الاب اليسوعي اثناء تواجده بجبل لبنان على تفحص المخطوطات الدينية وإبراز "الاخطاء" الموجودة بها وتوضيحها للبطريرك ميخائيل الرزي . ونصحه بضرورة "اصلاحها" او إتلافها. وبالفعل فقد اشترى عددا من المخطوطات تولى فيما بعد حرقها ووعد الرهبان بارسال كتب مطبوعة من روما (138) . بعد عملية "تطهير" وإتلاف المخطوطات، حرص الاب اليانو على

---

(137) ذكر لويس شيخو هذا التقرير في مقاله عن الطائفة المارونية في المشرق ، عدد 17 . 1914 ص 759 .

(138) المصدر السابق ، ص 454 . يذكر شيخو أنه عثر على مخطوط سرياني بالمكتبة الوطنية بباريس يعود إلى سنة 1467 م وقد ذكر اليانو بخط يده بأن هذا الكتاب يتضمن عديد الانحرافات وانه من الواجب حرقه . المشرق ، عدد 18 ، 1920 . ص 678 - 679 .

(139) طبع بالعربية في سنة 974 هـ / 1566 م من طرف مطبعة اليسوعيين بروما .

تعويضها فقدم للمارونيين في مهمته الثانية سنتي 987 - 989 هـ / 1580-1582م، نسخا من كتابه : **اعتقاد الامانة الارتودكسية كنيسة رومية** " الذي طبعه بروما (139) وعند عودته حمل معه جملة من المخطوطات الشرقية لطبعها بعد مراجعتها (140).

إن المنشورات العربية بروما قد وجهت للمشرق المسيحي ليس بغرض سد الفراغ الحاصل في نقص الكتب ولكن لتعويض النصوص الدينية المارونية الاصلية بنصوص دينية جديدة حتى تتم "رومنة" طقوس هذه الطائفة المسيحية . ولهذا لم يتوقف البابا عن ارسال الكتب المطبوعة الى جبل لبنان مع مراقبة ما يحدث عندهم من تطورات والتعرف على درجة تطبيقهم لتعليماته بخصوص المسائل الدينية، وفي هذا الاطار ارسل البابا مبعوثا الى الطائفة المارونية في سنة 1004 هـ / 1596م وهو الاب دانديني لمواصلة مهمة سلفه الاب اليانو. يقول دانديني : لقد ذكر المارونيون بالسوء منذ مدة واتّهموا بارتكابهم عدة اخطاء وبمروقهم عن الدين. وقد حاول المارونيون الموجودون بروما تكذيب هذه الاقاويل (141) .

إلا ان هذه " الاشاعات " تاكدت لدى المبعوث البابوي عند معاينته لما يحدث بجبل لبنان حيث يقول : "مازالت عندهم ممارسات مبالغ فيها ... وكان بامكان المجمع الكنسي بترانت، ان يقدم حلا ناجعا لو انهم قبلوه (142). لذلك واصل الاب دانديني نفس العمل الذي بدأه اليانوفكان يتفحص المخطوطات العربية والسريانية، ولكنه كان اكثر اعتدالا في تعامله مع المخطوطات "المريبة" فكان يحفظها في ارشيف البطريركية بدل القائها في النار . وكان دانديني قد حمل معه مائتي نسخة من كتاب القداس المطبوع باللغة الكلدانية (143) وقد تضمن فقرات بالعربية لكن مطبوعة بالحرف الكرشوني . وقد كانت لهذا الكتاب قصة منذ ان تقرر طبعه ، حيث تاخر كثيرا عن الصدور بسبب ما تضمنه من اشكاليات دينية، فبعد ان انطلقت مطبعة الميدتشي في طبعه وفق المخطوط الماروني برزت مشاكل تتعلق بمدى مطابقته للنص اللاتيني . فكان ان تدخل دي بارون Du Perron حامي المارونيين للحسم لفائدة النص الاصلي ذاكرا نبذة عن حياة القديس مارون في مقدمة الكتاب وموضحا ان النص لا تشوبه اية شائبة (144). الا انه عند توزيعه لدى الطائفة المارونية حامت

---

(140) مثل مخطوط العهد القديم الذي يعود إلى القرن 12م والانجيل ، وتعليم المسيحية ليوحنا دمشق وغيرها، أنظر شيخو ، لويس ، الطائفة ... في المشرق عدد 17 ، 1914 ، ص 679 .

(141) Dandini, Voyage ... op. cit ., p. 4

(142) المصدر السابق ، ص 121 .

(143) **Missale chaldaicum** Rome ; typographie Medicis, 1594 in 4

(144) Duverdier, " **Les impressions** ..." op . cit., PP. 167 - 168

الشكوك حول مدى مطابقته لمذهبهم (145) فكان ان رفض البطريرك اعتماده لمدة قبل ان يقنعه دانديني بقبوله . وقد بقيت قضية مراجعة النصوص الدينية المارونية نقطة سوداء في علاقات الطائفة بكنيسة روما ، فالمارونيون يريد ون الارتباط بالبابوية مع التمسك بخصوصيات مذهبهم .. وكانوا يرون في الكتاب المطبوع ، وسيلة ناجعة لتكريس هويتهم ازاء الطوائف المسيحية وبصفة عامة للحفاظ على شخصيتهم واستقلالهم عن المسلمين .

وقد تواصلت سياسة " المقاومة الثقافية " للكتاب الروماني طيلة القرن 11هـ / 17 م، فكان ان رفض المارونيون " الكتاب المقدس " المطبوع سنة 1087 هـ / 1671م الذي هو عبارة عن ترجمة للنص اللاتيني الرسمي. وكذلك الامر بالنسبة لكتاب الصلاة الذي نشر سنة 992 هـ/ 1584 م بالحرف الكرشوني والذي رفضه حتى التلاميذ المارونيون القدامى الموجودون بروما(146).

2.3.2. موقف الأرثودكس الملكيين :

هذا بالنسبة للمارونيين اما عن الارثودكس الملكيين، فموقفهم من مبدإ الطباعة مشابه للطائفة المارونية، منذ ان تمت الاتصالات الاولى بينهم وبين روما في نهاية القرن 10 هـ / 16م، حيث ارسل البابا ، غريغوريوس 13 اليهم مبعوثا سنة 991 هـ / 1583 م وهو ليونارد ابل (Leonard Abel) قسيس صيدا ، لدفعهم لاعلان اتحادهم مع روما وتبني اصلاحات غريغوريوس 13 (147) الا ان البطريرك يواكيم بن ضو، لم يستجب لطلبه ذاكرا بانه لا يمكنه اتخاذ اي قرار دون الحصول على موافقة بطريركي استانبول والاسكندرية (148) . ثم اخذت هذه النداءات تتكرر وبدأت تجد شيئا فشيئا اذانا صاغية حتى اصبح لانصار هذه الدعوة حزب كاثوليكيا في سوريا في مطلع القرن 12 هـ /18 م ، وقد ساهم الكتاب المطبوع في تدعيم هذا المذهب .

الثناء على المطبعة :

عبر اصحاب المذهب الكاثوليكي من الملكيين عن ارتياحهم في البداية عند تسلمهم للكتب المطبوعة بروما ، حيث اعجبوا بفن الكتابة الجديد الذي ينسخ الكتب بسرعة وباعداد وافرة. فقد كتب البطريرك مكار زعيم سنة 1072 هـ / 1662 م في خصوص كتاب الصلوات: "طبع هذا الكتاب

---

(145) لم يكن اساقفة روما راضين من جهتهم على هذا الكتاب إذ لاحظوا أن مراقب الطبعة قد غفل عن كثير من الاخطاء ، المصدر السابق ص 194 .

(146) لاحظ ريتشارد سيمون حول هذا الموضوع في سنة 1086 / 1675 م " اعتقد ان هذه الصلوات المستعملة عندنا لم يقبلها المارونيون بجبل لبنان إلا منذ وقت قصير " Simon, R, Le **Voyage de Dandini** op. cit., PP. 301 - 302

(147) Karalevsky, "Antioche " **D.H.G.E.** T III , col . 639

(148) المصدر السابق .

بمدينة روما في عهد مكار بطريرك انطاكية من جودة واحسان سيدنا البابا اسكندر السابع ذو الفضائل الكلية ثبت الله وجود احسانه ونعمه للانام" (149) . رحب الملكيون بفن الطباعة ووقفوا على مزاياه ورأوا انه انجع اداة لتدعيم مبادئ مذهبهم ونشرها بين ابناء الطائفة .

معارضة محتوى المنشورات :

سار الملكيون على منهاج جيرانهم المارونيين فارسلوا بمخطوطاتهم الى روما بغرض طبعها، بعد ان تمت مراجعتها حسب الاصل اليوناني . ولم تكن لديهم لا الامكانيات المادية ولا الكفاءات البشرية لاقامة مطبعة عندهم، فكان ان توجهوا الى روما لهذا الغرض. ولكن مطبعة مجمع نشر الايمان، لم تكن لتستجيب لمطالبهم بهذه السهولة بل كانت لها شروط تتفق مع سياسة كنيسة روما . ومن ابرز هذه الشروط هو ان يعلن بطريرك انطاكية عن اعتناقه للمذهب الكاثوليكي وكذلك ان تتولى البابوية مراجعة النصوص الدينية الملكية قبل طبعها . وتعتبر المطبعة بالنسبة لروما وسيلة لتحقيق "الاتحاد" مع الكنائس الشرقية، ولذلك لم تكن تسمح البتة بان تدعم هذه الكنائس استقلالها. وانطلاقا من هذا المبدإ، شرع مجمع نشر الايمان المقدس في اتصالاته منذ نشأته في سنة 1032 هـ / 1622م، مع رئيس الاساقفة عبد الكريم كرمي الذي عين فيما بعد بطريركا لانطاكية (1043-1044 هـ / 1634-1635م) ثم مع خلفائه .

- عبد الكريم كرمي وخلافاته مع مجمع نشر الايمان :

قام عبد الكريم كرمي (150) باتصالات مع روما للحصول على كتب مطبوعة ، وهذا ما دفع بعض المؤرخين الى الاعتقاد بانه يميل الى " الاتحاد " او حتى انه اعتنق المذهب الكاثوليكي (151) . وقد لعب دورا على غاية من الاهمية في الحياة الادبية للكنيسة الملكية بانطاكية، اذ قام بمراجعة الكتب الدينية اليونانية واكمل ترجمة هذه النصوص الى العربية بعد ان كانت متفرقة

---

(149) إن كتب الصلوات الذي يتحدث عنه البطريرك لم يطبع بروما فعلا إلا في القرن 19 م ذلك لان مجمع نشر الإيمان تباطا في نشره لان النص اليوناني لا يتطابق تماما مع النص اللاتيني ويرى الاب نصر اله ان البطريرك إنما كتب هذه المذكرة في مقدمة المخطوط فذلك يقينا منه بان المجمع سيسرع في طبع الكتاب Nasrallah, J, **Notes et documents pour servir a l'histoire du patriarcat melchite d'Antioche ; Jerusalem** 1965 T1, PP. 132 - 133

(150) ولد عبد الكريم كرمي في حدة سنة 1572 ودخل حياة الرهبنة منذ صغره ثم عين رئيسا لاساقفة حلب سنة 1621 م تحت إسم ميلوس ثم انتخب بطريرك على انطاكية سنة 1634 م تحت إسم إثنيموس

NASRALLAH, J, **Histoire du mouvement littéraire dans l'Eglise Melchite** Paris , chez l'auteur , 1979 , vol IV . P. 70, CHARON (Karalevsky) "Antioche " IN D.H.G.E TIII, col 640 - 642.

(151) يعتقد نصر الله وشارون أن عبد الكريم كرمي كان قد استعد لإعلان اعتناقه رسميا المذهب الكاثوليكي لولا أن باغتته المنية سنة 1044 هـ / 1635 م. ويرى نصر الله أن عدم حصول هذا الإجراء لا يغير في الامر شيئا وأن كرمي كان فعلا كاثوليكيا (المصدران السابقان .

(152) وكان ينوي طبعها بروما ثم توزيعها بين رهبان الطائفة وابنائها لتعويض المخطوطات "المشوهة والمليئة بالاخطاء" (153) . فكتب الى الكاردينال بورجيا في 1041 هـ / 1631 م : "قمنا بترجمة كتاب الصلوات من اليونانية الى العربية ... وكذلك كتاب السواعي وكذلك كتابين او ثلاثة اخرين مما تحتاج اليهم كثيرا كنيستنا، ونريد منكم ان تتولوا طبعها" (154) . الا ان مجمع نشر الايمان لم يسارع بالاستجابة لهذا الطلب، اذ انصرف الى ترجمة هذه الكتب الى اللاتينية وتفحص محتواها ثم اشترط على عبد الكريم كرمي في سنة 1045 هـ / 1635 م، الاعلان عن اعتناقه للكاثوليكية (155) . لقد تمسكت روما بسياستها المتمثلة في تسخير المطبعة لتحقيق مشروع " الاتحاد" مع الكنائس الشرقية المستقلة، فحرصت على التأكد اولا من ملاءمة النصوص الدينية الملكية لمذهبها ، لذلك كلف مجمع نشر الايمان المارونيين اسحاق الشدراوي وابراهيم الحاقلاني بترجمة كتاب الصلوات من العربية الى اللاتينية ثم اوكل المهمة الى ماثيونيروني لاتمام العمل سنة 1085 هـ / 1674 م (156) .

لقد تعطلت عملية نشر الكتب الملكية كثيرا وطال انتظار كرمي وخلفائه من بعده، لان كل طرف أصرّ على موقفه في هذه المسالة فبطاركة انطاكية رفضوا تحوير نصوصهم الدينية ورفضوا ايضا الارتباط بكنيسة روما في حين رفضت مطبعة نشر الايمان سنة 1079 هـ/ 1668 م اصدار كتبهم مثل كتاب الصلوات حسب الرواية اليونانية رغم نداءات خليفة كرمي البطريرك مكار زعيم (1044-1082 هـ / 1635-1672م) .

وعلى الرغم من فشل كل محاولات الطائفة الملكية لطبع كتبها الدينية بروما فقد كانت مقتنعة بفوائد المطبعة . ولم تدخر جهدا في البحث عن سبيل لتحقيق هذا الهدف حتى كانت بداية القرن 12 هـ / 18 م، لما وجدت في احد أمراء بوخاريست وهو قسطنطين برانكوفان بساراباء الاستعداد والتحمس لتمويل مطبعة عربية في حلب كما سنرى فيما بعد .

3- مساهمة المسيحيين العرب في طبع الكتب العربية بروما وباريس:

لم يكتف المسيحيون بالتعبير عن اعجابهم بفن الطباعة وتشجيعهم للاروبيين لطبع الكتب العربية بل ساهموا فعليا في عملية النشر الى حد ان هذا التعاون اصبح لاغنى عنه. وقد كان

---

(152) Charon (Karalevsky), Histoire des patriarcats melkites ; Rome - Paris 1909 - 1911, T3 PP 54 - 57.

(153) المصدر السابق ، ص 49 .

(154) Nasrallah, Notes ... op. cit., T1 P. 131

(155) المصدر السابق ، ص 131 .

(156) المصدر السابق ، ص 132 .

لمساهمة المارونيين في مجال الطباعة، اشكال مختلفة من ترجمة الكتب الى حفر الحروف العربية الى مراقبة عملية النشر وصولا الى تسيير ورشات الطباعة .. واغلب هؤلاء المارونيين هم من التلاميذ القدامى بمعهد روما الذين لم يعودوا الى جبل لبنان وقد طلبت منهم السلطات الدينية والسياسية بروما وباريس البقاء في هاتين المدينتين ، بعدما وقفت على كفاءة بعضهم وتبحرهم في العلوم . فكلفتهم بتدريس العربية والسريانية بالجامعات وبترجمة الكتب الشرقية الى اللاتينية وبالخصوص بنشر الكتب العربية .

اما الملكيون فقد ساهموا باحتشام في هذا المجهود وذلك بالمقارنة مع المارونيين . ومرد ذلك خلافاتهم المذهبية مع كنيسة روما . اما الحزب الكاثوليكي عندهم فلم يشتد عوده بعد ولم يتعلم ابناء الطائفة بمعهد روما الابداية من 1071 هـ / 1661 م ولم يعملوا في المطابع الاروبية الا في القرن 12 هـ / 18م .

1.3 - المطبعيون المارونيون بروما :

1.1.3.- يعقوب بن هلال : 1004هـ/1595م :

اشتغل يعقوب بن هلال الذي يدعى ايضا قمر (157) في مطبعة الميدتشي وتخصص في طبع الكتب العربية والسريانية قبل ان يساهم في انشاء مطبعة بروما سنة 1004 هـ / 1595م اسمها : Tipographia Linguarum externarum

ولد يعقوب بن هلال سنة 976 هـ / 1568 م، وكان من أوائل التلاميذ المارونيين الذين تخرجوا من معهد روما وعمل إلى جانب مدير مطبعة الميدتشي رايموندي فيما بين 998 - 1003 هـ / 1590 - 1594م، حيث ساهم في إصدار سبعة كتب من جملة تسعة . إن المعلومات تعوزنا حول ورشة الطباعة من حيث ظروف تأسيسها وطريقة تسييرها. إلا أن الأكيد هو أن يعقوب بن هلال قد أصدر خمسة كتب دينية بالسريانية . وقد اشتغل أحد أقاربه كذلك في الطباعة وهو يوسف بن هلال وهو الذي نشر سنة 1052 هـ / 1642 م، على سبيل المثال كتاب فيليب كوادانولوس : Arabicae Linguae institutiones

3 .1 .2. - مطبعة المعهد الماروني ، 1030 هـ / 1620 م :

أنشئت مطبعة شرقية كما رأينا سابقا في مبنى المعهد الماروني بروما سنة 1030 هـ / 1620 م ، وقد تم تجهيزها بآلات الطباعة والقوالب وطوابع الحروف العربية والكلدانية والسريانية

---

(157) GEMAYEL (Nasser) ; " Les imprimeries libanaises de Rome " in. **Le Livre et le Liban**, p. 190

بأمر من البابا (158) . وكانت مساهمة التلاميذ المارونيين في تأسيسها وتسييرها كبيرة، فعملوا إلى جانب مدير المطبعة إيتيان بولينوس على طبع جملة من الكتب الدراسية الدينية المفيدة للطائفة المارونية وهي خمس كتب ثنائية اللغة (عربية - لاتينية) وثلاث كتب سريانية وكلدانية (159) .

3 . 1 . 3 - مطبعة ميخائيل المطوشي ، 1108 هـ / 1696 م :

درس ميخائيل المطوشي بروما الفلسفة والعلوم الدينية ثم عاد إلى جبل لبنان حيث عين قسيسا في كفريه (160) ثم أرسله البطريرك الدويهي إلى روما سنة 1108 هـ / 1696م، رفقة قسيسين اخرين هما إلياس بن جرجيس الهدناني وابراهيم الجزيري (161) . تولى ميخائيل المطوشي تأسيس مطبعة في جبل فيسكون Viscon سماها " مطبعة ميخائيل المطوشي " وقام صحبة رفيقيه بحفر حروف عربية وكلدانية وطبعوا ثلاثة كتب دينية : المزامير وشبيه ودياكونيكون .

3. 2 - العلماء المارونيون :

ساهم العلماء المارونيون في نشاط المطابع العربية بروما وباريس وعملوا على دفع الدراسات العربية بروما. من أهم هؤلاء نذكر : جبرائيل الصهيوني وإبراهيم الحاقلاني وجرجيس عميرة وسركيس الرزي ويوحنا الحصروني .

3. 2. 1 - جبرائيل الصهيوني (984 - 1057 هـ / 1577 - 1648 م) :

ولد في اهدن بشمال جبل لبنان. درس بالمعهد الماروني بروما قبل أن يشتغل أستاذا في بعض الجامعات الإيطالية والفرنسية، ترجم كتاب المزامير من العربية إلى اللاتينية وفق مخطوط قنوبين، كما ترجم من اللاتينية إلى العربية كتاب بالارمان: **"التعليم المسيحي"** وألف المعجم العربي اللاتيني الذي نشر بباريس سنة 1042 هـ / 1632م وهذه الأعمال تمت بالتعاون مع الماروني شالاق. أما كتاب **"في صناعة النحوية"** المطبوع في 1024 هـ / 1616م فقد ألفه بالتعاون مع يوحنا الحصروني . ترجم من العربية إلى اللاتينية كتاب " العهد والشروط " الذي نشر بباريس

---

(158) Gemayel, N, " **Les imprimeries ... op. cit.,** " P. 191

(159) عناوين هذه الكتب كالآتي هي : 1 - شالاق، نصر الله مبادئ اللغة العربية: Introduction and grammatica روما، إيتان بولينوس، 1662، 26 ص -

2 - Martelotto, Francesso, Institutiones lingae arabicae tribus distributae, Rome, s, Paulinus, 1620, 483 p.

3 - Shalak, N, Totum Arabicum alphabetum; Rome : s, Paulinus, 1624.

4 - Mtushi, Butrus, Institutiones linguae arabicae, Rome, s. Paulinus, 1624, 256 P.

5 - عم المنطق إيساغوجي ، روما ، بولينوس 1625، 44 ص.

(160) الدويهي ، إسطفان ، تاريخ المدرسة المارونية في روما في : شيخو ، الطائفة ، **نفس المصدر** ، ص 131 .

(161) كان الجزيري تميذا بروما حتى سنة 1057 هـ / 1648 م ثم أصبح كاهنا في رشمية بلبنان ثم عاد إلى روما سنة 1098 هـ / 1686 م حيث استقر هناك ، المصدر السابق ، ص 129 .

في 1040 هـ 1630م. كما ساهم في نشر " الكتاب المقدس " بباريس في 1054 هـ / 1645 م وذلك رغم المشاكل التي حدثت له مع صاحب هذا المشروع المحامي لوجاي (162). وقام بحفر حروف عربية وسريانية لفائدة مطبعة فيتراي بباريس (163) . وقد جلب هذا العمل الدائب لصاحبه الاحترام والتقدير من طرف كثير من العلماء الأروبيين (164) .

3. 2. 2. - إبراهيم الحاقلاني :

ولد في قرية حقل بجبل لبنان وتوفي سنة 1075هـ / 1664م . حصل على الدكتوراه في الفلسفة والعلوم الدينية بمعهد روما (165)، ثم درس اللغات الشرقية بالجامعات الأروبية . وعمل مترجما بمطبعة مجمع نشر الإيمان وساهم في نشر " الكتاب المقدس" بها . تحول إلى باريس حيث اشتغل مترجما للملك وأستاذا بالمعهد الملكي . ترجم كتبا عربية إلى اللاتينية (166) ونشر كتاب : " مختصر مقاصد حكمة فلاسفة العرب " بباريس سنة 1051 هـ / 1641 م (167) وألف كتاب "خلاصة اللغة العربية " الذي صدر بروما سنة 1037 هـ / 1628 م .

3 . 2 . 3 - جرجيس عميرة :

تحول إلى روما في 992 هـ / 1584 م، لتدريس اللغة السريانية وفي نفس الوقت لدراسة الفلسفة والعلوم الدينية . تولى تأليف كتاب النحو السرياني الذي نشره المطبعي يعقوب بن هلال سنة 1004 هـ / 1596 م . وساهم في مراجعة كتاب القداس الذي أصدرته مطبعة الميدتشي في 1002 هـ / 1594 م (168) . انتخب بطريركا للطائفة المارونية في 1042 هـ / 1633 م .

---

(162) وقع هذا الخلاف بين الصهيوني ولوجاي وتسبب في تأخر صدور " الكتاب المقدس " طيلة 17 سنة ويتمثل الخلاف في أن لوجاي وعد الصهيوني بأن يدفع له مبلغ 000 30 ليرة مقابل مساهمته في إصدار الكتاب ، إلا أن المحامي الفرنسي لم يف بتعهداته بل انه اكثر من ذلك توصل إلى إقناع الملك بسجن الصهيوني سنة 1640 ، لمدة سنتين قبل أن يحكم البرلمان لفائدته ويجبر لوجاي على دفع مبلغ 000 20 ليرة لجبرائيل الصهيوني . Raphaël, **Le rôle... op. cit**; PP. 78-84.

(163) المصدر السابق ، ص 79 - 80 .

Vitré, A, **L'histoire ... op. cit.**, P. 13

(164) نشير إلى أن جبرائيل الصهيوني ألف عدة كتب باللاتينية والسريانية والعربية دون أن تعرف طريقها إلى النشر وتوجد قائمة كتبه في **Le Livre et le Liban**, PP. 225-258 Raphaël, **Le rôle... op. cit**; PP. 84 - 85

(165) RAPHAEL, **Le rôle... op. cit.**, PP. 87

(166) Gemayel, N, " Essai de Bibliographie des premiers orientalistes libanais en France " PP. in: **Le Livre et le Liban**, 225-258

(167) هذا الكتاب مقتبس من كتاب فارسي آخر عنوانه جام كيتي نما (مرآة العالم) والذي هو عبارة عن استنتاج من كتاب فلسفي عنوانه تحفة السلطان . " طبع كتاب مختصر حكمة فلاسفة العرب" باللغتين العربية واللاتينية في 83 صفحة وأعيد طبعه في إينا سنة 1082 /1672.

(168) شيخو ، لويس ، الطائفة ... نفس المصدر ، ص 87 .

3. 2. 4 - سركيس الرزي :

ولد في بكفاية سنة 979 هـ / 1572 م، درس بروما . اهتم بالنشر العربي والسرياني وساهم في إصدار ثلاثة كتب. وقد كلفته مطبعة مجمع نشر الإيمان المقدس بمراجعة عديد المخطوطات العربية " للكتاب المقدس " ومقارنتها بالنص اللاتيني الرسمي .

3. 2. 5 - يوحنا الحصروني :

درس بالمعهد الماروني بروما بداية من 1011 هـ / 1603 م ثم تحول إلى باريس حيث اشتغل كمترجم للملك . قام بترجمة كتب عربية وسريانية وتركية إلى اللاتينية من ذلك كتاب " التعليم المسيحي " لبلارمان الذي طبع عديد المرات وألف بالاشتراك مع جبرائيل الصهيوني كتاب " النحو لعربي " .

وقد قام العلماء المارونيون بمجهود كبير في مجال الطبع العربي وذلك نتيجة اقتناعهم بفوائد المطبعة ونتيجة المناخ الديني الملائم بين كنيستي روما والطائفة المارونية الذي شجع على إقامة علاقات دينية وثقافية قوية وهذا المعطى لم يتوفر للطائفة الأرثودكسية الملكية مما يفسر مساهمتها المحتشمة في عملية النشر العربي بأروبا .

3 . 3 - مساهمة محتشمة للارثودكس الملكيين :

إن الخلاف الديني الذي حصل بين البابا وبطريرك أنطاكية أثر بصفة سلبية على النشاط الثقافي لدى الأرثودكس، إلا أن هؤلاء شاركوا رغم ذلك بصفة غير مباشرة في دفع الطباعة العربية بأروبا. من ذلك الرسالة التي بعثها عبد الكريم كرمي إلى الكاردينال بورجيا في 1039 هـ / 1629 م، ويقدم فيها جملة من النصائح حول طريقة طبع " الكتاب المقدس "(169) . وفي رسالة ثانية موجهة إلى البابا والكاردينالات في 1041 هـ / 1631 م بعنوان :" بيان طبع الكتب كيف يكون " (170) . أبدى عبد الكريم رأيه في طريقة استخدام فن الطباعة لطبع كتابين : السواعي والصلوات وتحدث كذلك عن اختيار الورق والحبر وحجم الحروف وغيرذلك . وهذه الرسائل تدل على رغبة هذا البطريرك في المساهمة ولو عن بعد في النشر العربي بروما. إلا أن معرفته لهذه الفنون لا تعدو أن تكون سطحية ويستشف ذلك من النصائح العامة الذي ذكرها وربما يكون قد سمع الكثير عن طرق استعمال آلات الطباعة أو أنه قد زار مطبعة اليهود بدمشق . ويقول نصر الله بأن كرمي يرى أن الطباعة عملية يسيرة إلى حد أنه طلب من روما طبع كتابيه وإرسال نسخ منها

---

(169) Nassrallah, **Histoire ... op. cit.**, T IV P. 71

(170) المصدر السابق . ص 71 .

بسرعة (171) .

وباستثناء هذه المشاركة المحتشمة من لدن الملكيين في عملية النشر بأروبا، لا توجد على حد علمنا مساهمات هامة في القرن 11 هـ / 17 م . ان مناخ الريبة والشك الذي ساد العلاقات بين كنيستي روما وأنطاكية ، حال دون تطور التبادل الثقافي والتعاون العلمي والفني بينهما (172) .

4 - محاولات لانشاء مطابع عربية في بلاد الشام في القرن 11 هـ / 17م :

اقتنع المسيحيون العرب منذ البداية بفوائد المطبعة وهذا ما دفعهم في البداية الى طلب المنشورات الدينية العربية من أروبا. الا انهم اكتشفوا ان هذه الكتب لا تتفق في مضمونها مع النصوص المعتمدة في كنائسهم ، اذ طغت عليها النصوص الكاثوليكية التي تنوي كنيسة روما نشرها في تلك الربوع. ولهذا تصدوا جميعا لمحاولات "رومنة" طوائفهم ولم يتخلف المارونيون رغم ارتباطهم بكنيسة روما عن اتخاذ نفس الموقف (173) بل تجاوزوه للقيام بمحاولات لتأسيس مطابع ببلادهم . ان المحاولة الوحيدة الناجحة نسبيا هي تلك التي أفضت الى ظهور مطبعة قوزحية سنة 1018 هـ / 1610م . أما بقية المحاولات فلم تتجاوز حد المشاريع دون أن تعرف طريقها للانجاز.

4. 1 - المطبعة المارونية بقوزحية 1018 هـ / 1610م :

اكتسب العلماء المارونيون تجربة كبيرة في مجال النشر بروما وباريس، بعد ان عملوا طويلا بمطابع الفاتيكان والميدتشي ويعقوب بن هلال وغيرها . وفكر احدهم وهو سركيس الرزي لدى عودته الى جبل لبنان في تأسيس مطبعة لفائدة أبناء الطائفة . ان المصادر لا تفيدنا كثيرا في موضوع هذه المطبعة، فهي لا تشير الى ظروف تأسيسها واسباب توقفها المبكر على النشاط . ان المصدر الأساسي لدراسة هذه المؤسسة هو الكتاب الوحيد الذي طبع بها سنة 1018هـ/ 1610م

---

(171) المصدر السابق ، ص 71 .

(172) تشير إحدى الوثائق الاصلية في القرن 11 هـ / 17 م إلى مساهمة الطائفة الكلدانية بالمشرق في حركة الطباعة العربية بأروبا الى جانب الطائفتين المارونية والارثودكسية الملكية من خلال ذكر اسماء اثنين من الكلدانيين توليا تمويل وطباعة كتاب " ذكر حساب السنة وأعيادها " بروما سنة 1104 هـ / 1692 م دون تقديم تفاصيل أكثر عن موقف طائفتهما من فن الكتابة الجديد وعن حجم مشاركتها في مجهود الطباعة فقد ورد في مقدمة الكتاب المذكور أعلاه ما يلي " قد طبعه من ماله ورزقه القسيس إيلياس باسم خوري البغدادي ابن قسيس حنا الموصلي من نسل البطاركة المشرفين من طائفة الكلدانيين من عيله بيت عمون ... وقد وقف على طبع هذا الكتاب لمبارك أحقر عبيد الله أندراوس من مدينة حلب بإسم كوالير ابن مقدسي عبد الله الكلداني الموصلي " Schnurrer , n- 264.

(173) ..؟اثار البطريرك يوسف الرزي (1581 - 1597) سخط عدد كبير من المارونيين لما تبنّى عديد الممارسات من كنيسة روما ، لهذا حرص البابا بولس الخامس على تهدئة الخواطر فطلب من البطريرك الجديد في 10 مارس 1610 الرجوع الى الممارسات القديمة انظر : Dib; " Les Maronites" in Dictionnaire de Théologie Catholique (D.T.C) T, X, col 64.

في قرية قوزحية وهو " سفر المزامير" .

4. 1. 1. - اختيار قوزحية :

ان اول سؤال يطرح هو لماذا تم اختيار هذه القرية لايواء اول ورشة مسيحية للطباعة في بلاد الشام؟ ان هذا المنسك القريب من طرابلس، يعتبر مكانا مقدسا للمسيحيين (174) اذ يوجد به دير القديس انطوان الذي يقصده المسيحيون باعداد غفيرة (175) ، ويشرف على هذا الدير افراد من عائلة الرزي منذ القرن 9 هـ / 15م وهذا ما يفسر اختيار احد أبناء هذه الأسرة لهذا المكان لتنفيذ مشروعه .اضف الى ذلك الهدوء والأمن الذي تتميز به هذه القرية الجبلية البعيدة عن انظار الأتراك العثمانيين.

4. 1. 2. - مؤسسو المطبعة :

ورد ذكر أسماء مؤسسي وعمال المطبعة في ذيل سفر المزاميز الذي طبع بها وأولهم سركيس الرزي قسيس دمشق، الذي قام بتمويل المشروع وتنفيذه وقد وضع اختامه في الصفحة الأولى من الكتاب ليبين انه ابرز عنصر في المشروع . اما عن مصدر آلات الطباعة فيرجح بعض المؤرخين ان يكون قد جاء بها سركيس الرزي من روما، اثناء اسفاره اليها صحبة ثلاثة من المارونيين وردت اسماؤهم في ذيل سفر المزامير باعتبارهم من معاونيه في عملية الطبع وهم : الشماس يوسف بن عميمة ، والكاهن الياس بن الحاج حنا ويوسف بن يونان (176) . وهناك رواية اخرى تقول ان الأب اليانوقد يكون أهداهم تجهيزات المطبعة اليسوعية بروما بعد توقفها عن العمل (177) الا ان بعض الأدلة، تجعلنا نستبعد هذا الرأي . من ذلك أنه من الصعب ان يستغني اليسوعيون عن تجهيزات مطبعتهم وخاصة حروفها الشرقية لفائدة المارونيين في الوقت الذي تعاني منه روما من نقص فادح في حروف الطباعة الشرقية . ولذلك نرجح ان يكون قد تسلمها صاحب مطبعة الفاتيكان دومينيك بازا. أضف الى ذلك، ان شكل الحروف السريانية التي نقشها اليسوعي اليانو تختلف عن الحروف السريانية لمطبعة قوزحية (178). ولا يمكن كذلك ان تكون حروف مطبعة اليسوعيين قد أهديت إلى جبل لبنان، لأنه لو تم ذلك لما تحمل سركيس الرزي مصاريف باهضة لتأسيس مطبعة، فقد استقدم

---

(174) Aggoula, Basile, " Le livre libanais de 1585 à 1900" in: le Livre et le Liban p 297.

(175) Nasrallah, l'imprimerie ... op. cit., p.1.

(176) - الرجي، ميخائيل ، سفر المزامير بالسريانية في : المشرق ، 1934 ، ص 350 ، انظر أيضا :
Nasrallah, l'imprimerie... op. cit., p. 6.

(177) - حسب رأي الاب نصر الله وميخائيل الرجي .

(178) - شيخو ، لويس ، الطائفة في المشرق ، 3 ، 1900 ، ص 254 ، قدم سركيس الرزي باعداد حروف سريانية جميلة خاصة بنص الكرشوني .

أحد المختصين الإيطاليين الماهرين لحفر الحروف السريانية وهو باسكال الي (Pasquale Eli) من مدينة كميرينو، وقد عاضده سركيس الرزي ومعاونوه المارونيون المذكورين في عملية التنضيد والطبع.

4. 1. 3 - سفر المزامير بالسريانية :

يتضمن مائتين وتسعين صفحة وكل صفحة موزعة على عمودين واحد مكتوب بالحرف السرياني والآخر بالحرف الكرشوني . اي الأول لنص المزامير باللغة السريانية والثاني للنص العربي. الا انه كتب بالحرف الكرشوني . ولكن لماذا وقع اختيار هذا الحرف عوضا عن الحرف العربي؟ . يبدو ان السبب ثقافي بالدرجة الأولى(179). ان اللغة السريانية هي لغة الدين عند المارونيين الا انهم يتخاطبون في حياتهم اليومية باللغة العربية العامّية . ولكن الرهبان كانوا يرفضون كتابتها بالحرف العربي مفضلين استخدام الحرف السرياني والكرشوني لتدوينها حفاظا على قداسة السريانية التي لا تزال تقاوم في تلك الفترة العربية كلغة الثقافة . ويمكن إضافة سبب آخر لذلك وهو ان المسيحيين العرب قد اختاروا هذه الهجائية لاخفاء كتبهم الدينية المطبوعة عن انظار جيرانهم المسلمين .

4. 1. 4 - توقف مطبعة قوزحية :

صدر سفر المزامير عن مطبعة قوزحية سنة 1018هـ/ 1610م، في فترة توقفت فيها المطابع العربية بروما عن العمل وشعر المارونيون فيها بالحاجة الى الكتاب المطبوع. الا ان هذه المطبعة سرعان ما توقفت وأهملت تجهيزاتها . ولا تتحدث المصادر عن اسباب هذا التوقف المبكر، الا ان المؤرخين يقدمون بعض الاحتمالات لتفسير ذلك . فنصر الله يرى ان السبب يكمن في رحيل مؤسسها سركيس الرزي الى روما، وتشتت المجموعة التي كانت تعمل معه(180) .اما جميل فيعتقد ان الوضعية المالية الصعبة هي السبب في توقف المطبعة فالمشروع كان باهض الثمن وصاحبه اغرق في الديون ، اننا نتساءل، اذا كان السبب كذلك ، كيف يمكن ترك الورشة بهذه السهولة بعد كل المجهودات التي بذلت لذا يبدو ان كنيسة روما كان لها دور في القضية فما هو موقفها من هذه المطبعة ؟ وبصفة عامة ما هو رأيها في أي مبادرة مماثلة ؟ يمكن فهم هذا الموقف من اقوال الأب دانديني، مبعوث البابا الى جبل لبنان ، اذ ذكر في كتابه انه من حسن الحظ ان المسيحيين في المشرق ، لا يملكون مطبعة لسببين : الأول يتمثل في غياب علماء متخصصين في الميدان. والثاني وهو الأهم يتعلق بالخوف من نشر كتب دينية "محرفة" (181). ان هذا الرأي يعكس الحذر الذي كان

---

(179) Aggoula, B, " le livre libanais"... op.cit., p. 297.

(180) Nasrallah. L'imprimerie...op. cit., p. 8.

(181) Dandini, Voyage... op. cit., pp 95-96.

يشوب العلاقات بين كنيسة روما والطوائف المسيحية الشرقية وخاصة المارونية التي ارتبطت روحيا بالبابوية والخوف من أن تطبع هذه الأخيرة في جبل لبنان كتبا غير كاثوليكية . ان عدم تحمس البابوية لمثل هذه المشاريع وربما وقوفها ضدها يفسر توقف مطبعة قوزحية .

4. 2 - مشاريع اخرى لانشاء مطابع :

بعد توقف مطبعة سركيس الرزي (182) ، عاد المارونيون من جديد الى جلب الكتب المطبوعة في اوربا. وفي الأثناء ظهر مشروعان لتأسيس مطبعتين في جبل لبنان : الأول بمبادرة من أحد المبشرين الكبوشيين الفرنسين العاملين بسوريا وهو الأب جوزيف (Joseph De Tremblay) والثاني لاحد العلماء المارونيين وهو ميخائيل المطوشي .

4. 2. 1 - مشروع الأب جوزيف 1035 هـ / 1626م :

في سنة 1034 هـ / 1625 م ارسل مجمع نشر الإيمان الأب جوزيف دي ترومبلاي على رأس بعثة من المبشرين الكبوشيين الفرنسيين للعمل ببلاد الشام . وقد عاين هذا الأخير الحالة الدينية والثقافية المتدهورة التي يوجد عليها المسيحيون العرب، وكذلك الجهل السائد بين ابناء الطائفة من نقص المدارس وندرة الكتب الدينية . وقد شعر " بالخطر" الذي يهددهم نتيجة نشاط البروتستان المتنامي والذين سعوا الى توزيع كتب بروتستانية مطبوعة بهولندا .

وامام هذا الوضع، فكر الأب جوزيف في تأسيس مطبعة للغات الشرقية بجبل لبنان (183) لتوفير الكتاب الكاثوليكي والتصدي لتسرب الآراء الكلفينية، وما اختيار جبل لبنان إلا دلالة واضحة على رغبة الكبوشيين في نقل المطبعة الى قلب الإمبراطورية العثمانية (184). وهؤلاء يرون ان عهد ارسال الكتب المطبوعة من اوربا قد ولى، بعد ان انتقل البروتستانت الى العمل على ارض الميدان . وان عاصمة الخلافة العثمانية لا يمكن ان تكون المكان المثالي لمثل مشروعهم ، لانه سيخضع لمراقبة مباشرة من السلطات العثمانية في حين يتميز جبل لبنان جغرافيا بعزلته وبخضوعه لسيطرة الأمير فخر الدين، صديق المارونيين والأوروبيين والذي سيتسامح لا محالة مع مشروعهم . ويعتقد الكبوشيون كذلك ان جبل لبنان يمكن ان يكون نقطة انطلاق ممتازة للإشعاع والتأثير بواسطة الكتاب على المشرق وحتى بلاد فارس. ولا يستبعد ان يكون الأب جوزيف قد طلب المعونة الفنية من العلماء المارونيين لتسيير مطبعته .

---

(182) عرفت قوزحية مطبعة جديدة اخرى في أوائل القرن 19م اسمها سيرافيم حوقا البيروتي انظر: شيخو، قزحيا، في المشرق، 1900، ص 251-257 .

(183) Fagniez, G, " le P. Joseph et Richelieu; Paris, 1894 Vol 1, pp 335-336.

(184) Duverdier, " les imprimeries." . op. cit, " p 269

لم يجد المشروع التشجيع الكافي من طرف ريشيليو ومجمع نشر الإيمان فلم يحصل الأب جوزيف على الحروف العربية والسريانية من سافاري دي براف ولا الحروف اليونانية من جامعة باريس (185) . ثم صدر القرار الحاسم الذي تبخرت معه كل امال الكبوشيين وهو قرار مجمع نشر الإيمان المقدس بتاريخ 4 فيفري 1628. والقاضي بمنع الأب جوزيف انشاء مطبعة شرقية بجبل لبنان (186) . وهذا الرفض يفسر برغبة كنيسة روما في الحفاظ على " امتياز" النشر باللغات الشرقية . فكان ان أسست مطبعة شرقية بمجمع نشر الإيمان قبل سنتين من اصدار هذا القرار.

4. 2. 2. - مشروع ميخائيل المطوشي 1112 هـ / 1700م :

أسس هذا العالم الماروني كما سبق ان رأينا مطبعة بروما تحمل اسمه وقد تولى نقل تجهيزات هذه المطبعة الى مالطة في مرحلة اولى قبل تحويلها الى جبل لبنان (187) . وكان ينوي طبع كتب دينية في بلده وتسخير خبرته في مجال النشر لخدمة الكنيسة المارونية. ولم يكن الوحيد من ابناء الطائفة ، كما رأينا الذي اكتسب خبرة في هذا الميدان. وكان يوجد الى جانبه عند عودته الى الجبل سنة 1112 هـ / 1700 م الجزيري الذي عمل معه في مطبعته بروما .

وقوبل مشروع ميخائيل المطوشي بالترحيب من طرف البطريرك اسطفان الدويهي (188) وهو من التلاميذ القدامى بالمعهد الماروني بروما وممن ساهموا في عملية مراجعة المخطوطات قبل نشرها بروما . فكان ان حرص على مساعدة المطوشي في تنفيذ مشروعه . فأرسل جبرائيل ح وامطران قبرص الماروني (189) لاستقدام آلات الطباعة والحروف والقوالب من جزيرة مالطة . إلا أنه فشل في مومته وبقيت المطبعة بالجزيرة أين استغلها اثنان من الآباء اليسوعيين: البادرى الياس والشدياق يوسف (190) . وهذا الأخير اصر على الاحتفاظ بها، رغم تكرار النداءات من البطريرك يعقوب عواد سنة 1121 هـ/1708م ذاكرا بأنّ المطبعة هي على ملكه الخاص . وفشل بذلك هذا المشروع ولا تعرف لحد علمنا الاسباب الحقيقة لرفض الاب اليسوعي إرسال تجهيزات المطبعة الى جبل لبنان نظرا لغياب الوثائق. ولا يستبعد أن تكون روما قد أوعزت إلى اليسوعيين بإبقاء آلات الطباعة بمالطة، متمسكة بذلك بموقفها الذي أبدته تجاه مطبعة قوزحية ومشروع الاب جوزيف .

---

(185) Vaumas, G, L'éveil missionnaire de la France, Lyon ; impr. express, 1942, p. 142.

(186) Ibid., p. 142.

(187) Nasrallah, l'imprimerie ... op. cit., p 12.

(188) Dhge, T 10. article Marouite, col. 70 - 71

(189) Nasrallah, L'imprimerie ... op. cit., pp. 12 - 13

(190) Ibid ., P. 13

خاتمة الفصل الأوّل :

اذا ساهم الكتاب العربي المطبوع باروبا في التعريف ببعض المؤلفات العلمية والأدبية للمسلمين في الأوساط الجامعية الغربية، فانه ساهم اكثر في تغذية الصراع والجدال الديني على ثلاث مستويات. الصراع بين الإسلام والمسيحية ، والصراع بين الكاثوليك والبروتستان والصراع بين الكاثوليك والمذاهب المسيحية الأخرى بالمشرق . وقد استأثر هذا المستوى الأخير بأكبر قسط من محتوى الكتب اذ سخرت له كنيسة روما امكانيات ضخمة في نطاق خطتها المتمثلة في تحقيق "الإتحاد" مع الكنائس الشرقية المستقلة والتصدي " للتحريف" الموجود في مذاهبهم حسب رأيها .

ان الكتاب العربي المطبوع باروبا ، قد صبغ الاستشراق العربي في القرنين 10 و 11 هـ / 16 و 17م صبغة دينية اذ طغت المواضيع الدينية على محتواه بصفة عامة : فصدرت العديد من كتب التعليم المسيحي ، واسفار من " الكتاب المقدس" وكتب الجدال الديني والدفاع عن المسيحية .

وقد رحب المسيحيون العرب بفن الطباعة لما وقفوا على منافعه من خلال ما وصلهم من كتب مطبوعة باروبا ، وراوا انه الى جانب فوائدها الثقافية تعتبر وسيلة ناجعة للحفاظ على هويتهم في خضم العالم الإسلامي الشاسع وتدعيم الروابط بين ابناء طوائفهم، اذ ستساهم في توحيد استعمال النصوص وجمع شتات الطائفة حول كنيستهم . الا أن ثناءهم لآلة الطباعة لم يمنعهم من رفض محتوى الكتب المطبوعة التي ارسلت بها روما وباريس، لانها غير مطابقة لمخطوطاتهم الدينية بل تضمنت اكثر من ذلك، نصوصا للتعريف بالمذهب الكاثوليكي وكانت كنيسة روما تسعى الى "رومنة" المذاهب المسيحية بالمشرق لتقريبها الى طقوسها وخصوصها الكاثوليكية حتى تحقق " الإتحاد" مع هذه الكنائس .

لم يكتف المارونيون بالترحيب بفن الكتابة الجديد بل ساهموا في عملية النشر العربي بايطاليا وفرنسا ، وذلك بترجمة ومراجعة النصوص والعمل بالمطابع . وتحملوا كذلك مسؤولية تسيير بعض ورشات الطباعة بروما ، بعد ان اكتسبوا خبرة كبيرة في هذا المجال، وهذا ما دفعهم الى محاولة تأسيس مطابع بجبل لبنان. الا انهم لم ينجحوا إلا في اقامة مطبعة واحدة بقوزحية سنة 1018 هـ / 1610م، وهذه الورشة لم توّفق الا في طبع كتاب واحد قبل ان تتوقف عن العمل. اما المشاريع الأخرى المماثلة للمارونيين والمبشرين فقد فشلت .

أما الطائفة الأرثودكسية الملكية، فكانت مساهمتها في مجهود النشر العربي بأروبا متقلصة بسبب خلافاتها العقائدية مع كنيسة روما ، ولم توفق في اقامة اول مطبعة لها بسوريا الا في فترة متأخرة أي في القرن 12 هـ / 18 م، حيث كانت الظروف ملائمة للاستفادة من هذا الاكتشاف الثقافي .


بسم الله الرحمن الرحيم
القرآن
وهي
شريعة الاسلامية
محمد
ابن عبد الله

كتاب القرآن الكريم المطبوع بمدينة هامبورغ سنة 1694 .



كتاب النحو العربي المطبوع بمدينة ليدا (هولندا) سنة 1617 .

الفصل الثاني

المسلمون والمطبعة

الحوار حول هذا الاكتشاف

1 - معطيات الحوار حول مسالة المطبعة :

1. 1 - غياب المطبعة العربية في البلاد الإسلامية قبل بداية القرن 12هـ / 18م :

اذا استحسن المسيحيون العرب طبع كتبهم الدينية منذ بداية القرن 17م، فان المسلمين رفضوا استخدام فن الطباعة حتى بداية القرن 12هـ / 18م . ولم تظهر اذن مطابع عربية عندهم قبل سنة 1140هـ / 1728م (1). ان عديد المصادر تؤكد هذه الظاهرة من ذلك كتب الرحالة والمبشرين الأروبيين، الذين زاروا الشرق قبل تلك الفترة مثل الأب الكبوشي لوفيير الذي استقر ببلاد الشام في النصف الثاني من القرن 17م. والذي ذكر انه" لا توجد البتة مطابع للكتب فهي تنسخ جميعها بخط اليد" (2). اما الإيطالي مارسيغلي الذي زار استانبول في نهاية القرن 11 هـ/17م، فقد لاحظ ان الأتراك لا يطبعون البتة كتبهم (3) وكذلك الامر بالنسبة للرحالة شاردين الذي اكد في سنة 1123 هـ/ 1711م ان فن الطباعة لا يوجد عند الفرس ولا عند بقية الشعوب الشرقية (4). ويبدو ان هذا الأخير لم يكن على علم الى حد ذلك التاريخ، بوجود مطابع عند الاقليات غير الإسلامية . ومن المصادر الإسلامية التي تؤكد غياب المطبعة العربية عند المسلمين وثيقة تعود الى مطلع القرن 12 هـ/ 18م، وهي " الرسالة المسماة بوسيلة الطباعة" التي حررها ابراهيم

---

(1) لا تؤخذ مطبعة قوزحية هنا بعين الإعتبار لانها ليست مطبعة عربية ولانها ليست من عمل المسلمين .

(2) LE Febvre, Michel Sieu, L'Etat présent de la Turquie, Paris, Courterot, 1675, p 199.

(3) Marsigli , Le Comte De, l'Etat militaire ottoman, ses progrès et sa décadence, La Haye, 1732, p. 313.

(4) Chardin, Jean, Voyage de Monsieur le Chevallier Chardin en Perse et autres lieux d'Orient, Amsterdam, De Lorme, 1711, vol 2, p 108.

هناك شهادات اروبية اخرى حول غياب المطبعة العربية لدى المسلمين مثل تلك التي اوردها المستشرق الفرنسي قالان: Galland
Préface de la Bibliothèque orientale d'Herbelot, Paris, 1697 F 14;
وكذلك شهادة امين مكتبة السربون شوفيليي Chevillier, A. l'origine de l'imprimerie de Paris, Paris, Laulne,1694, p . 270, De Belleforest, Francois, Cosmographie universelle, Paris, Sonnius, 1575, T11, p 593.

متفرقة اول مدير لمطبعة استانبول الذي لاحظ في مقدمتها النقص الفادح للكتب بسبب غياب المطبعة عند المسلمين مما جعل هذه الأمة تعاني من ظلمات الجهل (5) . ولئن أجمعت هذه الشهادات على ذكر نفس الظاهرة، فان ذلك لم يمنع من ظهور بعض المحاولات لدى المسلمين لادخال مطابع الى بلادهم مثل بلاد فارس وربما المغرب .

بلاد فارس : كان المسلمون (6) في اصفهان ينوون طبع كتبهم بالحرف العربي منذ القرن 11 هـ/17 م . جاء ذلك في رواية الرحالة الفرنسي جان شاردين (7) الذي ذكر بان العلماء المسلمين بادروا بتقديم اقتراح لادخال المطبعة باصفهان الى الشاه عباس الثاني 1052هـ/ 1642 -1077هـ / 1666م، الذي استحسن الفكرة وبدأ في تنفيذها . الا ان المشروع سرعان ما توقف بعد وفاته وانتقال السلطة الى ابنه صافي سليمان الذي أهمل المشروع ولم يعره أي اهتمام. أضف الى ذلك عدم استعداد المثقفين الأغنياء لدفع الأموال اللازمة لاقامة المطبعة حسبما ورد عن شاردين .

ان الشاه عباس الثاني سعى فعلا الى تأسيس ورشة للطباعة بالحرف العربي، اذ كلف احد الأرمنيين ويدعى جاك جان (Jacques Jean) من نور جولا (Nor Jula) (8) بشراء القوالب والطوابع للاحرف العربية من اروبا الا ان هذه القوالب لم تستعمل البتة، بل انها ضاعت نتيجة الإهمال (9). وقد فشل المشروع بسبب عدم تحمس خليفة الشاه عباس الثاني، حسب رأي الرحالة شاردين. الا اننا نتساءل لماذا تقاعس المثقفون عن تمويل المشروع؟ فهل كانوا جميعا موافقين على استخدام فن الطباعة أم أن الشق المحافظ منهم، قد تصدى للمبادرة، ومهما يكن من أمر فان المطبعة لم تر النور في بلاد فارس الا سنة 1243 هـ / 1828م .

---

(5) "Mémoire sur l'utilité de l'établissement de l'imprimerie à Constantinople par Ibrahim Mutafarri-ka, In " Documents sur l'imprimerie à Constantinople" publiés par H. Omont, in Revue des Bibliothèques, 1895 p 200.

يشار الى هذا المصدر لاحقا بعنوان الرسالة الاصلي : رسالة وسيلة الطباعة.

(6) حاول المبشرون الكرمان Carmes ادخال المطبعة الى بلاد فارس في مناسبتين اي في 1039هـ / 1629م و1079هـ / 1669م لكن دون جدوى انظر : Flour,W.M, " The first printing press in Iran in: Zeits chrift der Deutschen Margenlandischen Gesellschraft, Band 130, Heft 2, 1980, pp 369-371.

(7) Voyage en Perse, op. cit ., p. 110.

(8) بدات الطبعة الارمينية في نور جولا سنة 1047هـ / 1638م انظر : Richard, François, "Un Témoignage sur les débuts de l'imprimerie à Nor Jula " in: Revue des études arméniennes, T XIV, 1980, pp. 483-484.

(9) Toderini, A. G, De la littérature des Turcs, Paris, Poinçot, 1789, TIII p. 12.

المغرب : هل وجدت حقا مطبعة عربية بالمغرب الاقصى في القرن 17م ؟ هناك شهادة واحدة للسفير الفرنسي لدى ملك المغرب تدفعنا لدراسة هذا الموضوع ويبدو أن دي سان اولون الذي تعرض في تقريره عن مهمته الى الحالة الثقافية بالبلاد ذاكرا " ان الكتب نادرة وغريبة خاصة وانه لم تعد بالبلاد تقريبا اي مطبعة" (10).

ان الديبلوماسي الفرنسي يلمح الى وجود مطابع بالمغرب قبل نهاية القرن 17م. الا انه لا يقدم اي توضيح حول مؤسسيها واللغات المستخدمة والكتب المطبوعة او حتى إسباب توقفها. وهذا خلافا لما دأب عليه في تقريره من حرصه على الا يهمل اي شاردة ولا واردة عن الحالة السياسية والإقتصادية والإجتماعية والثقافية بالمغرب. فكيف به يلوذ بالصمت عندما تعلق الأمر بمؤسسة كبيرة وعجيبة في ذلك العهد ألا وهي المطبعة ان وجدت حقا في الدولة السعدية ؟

الا انه لا يستبعد أن يتعلق الأمر بمطابع اسبانية أو برتغالية موجودة على السواحل المغربية حسب رأي احد المعاصرين للسفير (11) .ان هذا الاحتمال وارد اذا علمنا ان سان اولون لم يوضح "جنسية " المطبعة ولا اللغات المستخدمة بها . كان الاسبان والبرتغاليون يحتلون السواحل المغربية ومن الممكن ان يقيموا مطابع بالحرف اللاتيني لاصدار كتب وأوراق رسمية لفائدة جالياتهم هناك. وقد يقصد السفير في اشارته الأندلسيين المهاجرين الذين استقروا بشمال افريقيا. وهؤلاء، شهدوا ظهور المطبعة وربما عملوا بها باسبانيا قبل هجرتهم . الا أنه من الصعب على ضوء معلوماتنا الحالية التاكيد ان كان الأندلسيون قد أقاموا مطبعة بالمغرب وهم المعروفون بحذقهم لعديد الفنون والأساليب الصناعية(12) .

كما ان " الكتب النادرة والغريبة" التي تحدث عنها السفير قد يعني بها الكتب العربية المطبوعة بأروبا والتي وصلت الى المغرب، وهذا أمر وارد اذا علمنا على سبيل المثال ان المستشرق الهولاندي يعقوب غوليوس، قد أهدى لملك السعديين مطبوعات عربية عند زيارته للمغرب سنة 1032هـ /1622م (13). ان الموقع الجغرافي للمغرب القريب من اروبا والعلاقات التي تربطه بعديد البلدان الغربية ، تجعل امكانية توزيع منشورات اروبا محتملة جدا .

إلا انه من الصعب في غياب مصادر عن الموضوع التأكد من ان فن الطباعة بالحرف العربي

---

(10) Saint-Olon, Pidou De, Etat présent de l'Empire du Maroc, Paris, 1694, p 79.

(11) Chevillier, A, L'Origine de l'imprimerie ...op. cit ., p 270.

(12) سنعود الى هذه النقطة عند الحديث عن فن الطباعة بالالواح الخشبية عند المسلمين .

(13) Balagna, J, " le fonds" ...op. cit; N 2, 1979, p 76.

قد وجد بالمغرب قبل منتصف القرن 19م(14) وكذلك الحال بالنسبة لجل الشعوب الإسلامية باستثناء الأتراك الذين كانوا اول من بادر من المسلمين لتأسيس مطبعة في1139هـ/1726م (15).

1. 2 - غياب المطبعة العربية داخل الامبراطورية العثمانية قبل القرن 12هـ / 18م.

تؤكد مصادر اسلامية انه لا وجود لمطابع عربية لدى المسلمين قبل 1139 هـ / 1726م. من ذلك شهادة أحد العلماء المسلمين اسحاق زادة افندي قاضي استانبول سابقا، الذي يتحدث عن أول مطبعة عربية بالعاصمة العثمانية وقد أكد فيها ان فن الطباعة جديد لدى أمته ويتوجه بالشكر للسلطان: " نعمت الصنعة المطبوعة غير مرئية في ديارنا ومسموعة فوائدها مجزومة مقطوعة فيها فاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، شكرا لله سعي صانعها ووفق فيما بعد بامثالها كان الزمان بخل بها واحباها في حجلة الإخفاء وكشف عن وجهها حجاب الإستغناء بميامن سلطاننا السلطان الأعظم أحمد خان". (16) كما ان احدى المصادر الفرنسية بتاريخ 1133هـ / 1721م، تذكر بان المسلمين " ينتفعون من الكتب التي يكتبونها بخط اليد لانه لا توجد أي مطبعة لا بالقسطنطينية ولا ببقية البلاد التركية(17). اذن لا يوجد اي اثر لمطابع عربية لدى مسلمي البلاد العثمانية، حسب المصادر والوثائق المتوفرة حاليا، قبل سنة 1139هـ / 1726م، التي صدر فيها قرار السلطان احمد الثالث بالترخيص في اقامة مطبعة باللغات التركية والعربية والفارسية. الا ان هذا الوضع لم يمنع الأقليات الدينية بالامبراطورية من الاستفادة من فن الكتابة الجديد.

مطابع الاقليات باستانبول :

لم تكن استانبول غريبة عن هذا الفن، فقد شهدت جملة من المطابع اقامتها الأقليات غير الإسلامية بها قبل القرن 12 هـ/ 18م، وكانت المبادرة للجالية اليهودية التي اسست مطبعة عبرانية منذ نهاية القرن 15م، وقد استفادت من جو التسامح الديني السائد داخل الامبراطورية

---

(14) انشئت اول مطبعة بالمغرب فيما بين 1859 و 1873 انظر : Ayache, G, " l'apparition de l'imprimerie au Maroc " in Hesperis Tamuda, vol V, 1964, p. 143.

(15) المطابع العربية التي ظهرت في البلاد الإسلامية فيما بعد كانت مطبعة كلكتا التي اسسها الإنقليزي ويلكنز سنة 1781 ومطبعة بومباي سنة 1801 انظر :
Partington, D.H, " Arabic Printing" In : Encyclopedia of Library and Information science, New-York, Dekker, 1978, T XXIV, pp. 71-72.

(16) "التقاريض على الرسالة المسماة بوسيلة الطباعة" في : جوهري، ابو نصر اسماعيل بن حماد الفارابي، الصحاح، ترجمة محمد بن مصطفى الواني، القسطنطينية، 1728، جزء 1، ورقة 6.

(17) Nouvelle description de la ville de Constantinople, Paris, 1721, p. 45.

للقيام بعدة انشطة دينية وثقافية وسياسية برعاية الباب العالي. حتى عرف القرنان 9و10 هـ / 15 و 16م بالعصر الذهبي لهذه الجالية. وكان السلطان بايزيد الثاني (1481 - 1512) قد سمح ليهود المطرودين من اسبانيا بالاستقرار ببلاده ووفر لهم كل الإمكانيات الضرورية لعمل الثقافي والعلمي لفائدة جاليتهم (18) . من ذلك انه رخص لهم اقامة مطبعة سنة 899 هـ 1494 (19) على الا يصدروا كتبا بالحروف العربية والاقتصار على الحروف العبرانية واللاتينية (20) . كما اسس اليهود على اثر هذا القرار مطبعتين بكل من استانبول وسالونيك في نهاية القرن 9 هـ / 15م. اي قبل قرنين كاملين من ظهور اول مطبعة عربية بالعاصمة العثمانية (21).

أما الأرمن فقد نسجوا على منوال اليهود ، حيث أقاموا اول مطبعة لهم بالحروف الأرمينية في سنة 974 هـ / 1567م بمدينة سيفا (Sivas) باشراف ابكار (Apkar) (22). اما اليونانيون فكانو على موعد مع هذا الفن باستانبول في سنة 1036هـ / 1627م بمبادرة نيكو دميس ماتكساس (Nicodemus Metaxas) (23).

وقد أقيمت المطابع العبرانية داخل الامبراطورية العثمانية في نفس الفترة التي ادخل فيها الفن المطبعي الى فرنسا وانقلترا وبقية البلدان الأروبية (24) . وهذا يدل على ان الباب العالي كان

---

(18) The Jewish Encyclopedia, New-York, Funk and Wangalls Compagny, 1903; vol IV, pp. 238 - 244, article Constantinople.

(19) اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ تاسيس اول مطبعة عبرانية في القسطنطينية فمثلا قدم قيس سنة 692 هـ / 1488م في : Bull. Inst. Egyptien, 1907, p. 134.

وذكر الاب لويس شيخو سنة 895هـ / 1490م في المشرق، 1900، ص 175. اما برنيغتون فقد ذكر سنة 909 هـ / 1503م في : Encycl. of. library, TXXIV, p. 59

(20) أكد ذلك الرحالة نيكولا دي نيكولا الذي زار تركيا في 957 هـ / 1551م وتحدث عن اليهود الذين اطردوا من اسبانيا والبرتغال فقال " انهم اسسوا لاول مرة في تلك الربوع مطبعة وطبعوا كتب بحروف جميلة في لغات عدة منها اليونانية واللاتينية والإسبانية وحتى العبرانية التي هي لغتهم العادية ولكن لم يسمح لهم بالطباعة باللغة التركية والعربية - Les navigation, peregrinations et voyag-es, faits en la Turquie, Antwerp, 1576, p 246 Cite in LEWIS, Bernard,The Emergency of Modern Turkey, Oxford University Press,1961, p. 42.

(21) ظهرت مطبعة عبرانية في دمشق سنة 1018 هـ / 1610م

(22) Safadi , Y. H, Arabic printing and book production in: Arabic islamic bibliographie, London, harvester, 1977, p .225.

(23) المصدر السابق ، ص 225 .

(24) طبع غوتنبرغ الالماني كتابه الاول وهو الكتاب المقدس باللاتينية سنة 859 هـ / 1455 م ورغم الاحتياطات التي اتخذها لبقي اكتشافه سرا في مدينة ميانز، فان الطباعة انتشرت بسرعة بعد تعرض هذه المدينة الى الغزو فظهر فن الطباعة في روما سنة 1465 والبندقية في1469 ، وباريس في1470 وليون في 1473 وبرشلونة في 1471 واشبيلية في سنة1480 كما انتشر هذا الفن في......

على دراية مبكرة بهذا الاكتشاف ولكنه لم يسمح باستعماله الا للاقليات غير الإسلامية وبشرط عدم استخدام الحرف العربي. والغريب في الأمر ان هذا الموقف هو امتداد لموقف مشابه اتخذهالمسلمون منذ ان علموا بظهور فن الطباعة بالأحرف المتنقلة " البدائي" عند الصينيين.

1 . 3 - أساليب الطباعة المعروفة لدى المسلمين قبل غوتنبرغ :

اطلع المسلمون على اكتشاف الصينيين للمطبعة في القرن 5 هـ / 11 م (25). وسهلت لهم علاقاتهم التجارية مع الشرق الاقصى مهمة التعرف بالتفصيل على هذا الفن الجديد. ويتحدث الوزير رشيد الدين (26) في كتاب جامع التواريخ سنة 711 هـ / 1310 م ، عن المطبعة الصينية ولم يخف اعجابه بجمال حروف الكاتاي Khatai (27) التي حفرت من طرف ناقشين ماهرين على لوحات وانبهر كذلك بدقة النص الذي قام بمراجعته اكبر العلماء ، وذكر ان اللوحات المكتوبة تحفظ في علب مغلقة وتخزن في المكتبات تحت حراسة مشددة ويقع استخراجها عند كل طلب لطبع نسخ جديدة من الكتاب وذلك بمقابل مالي (28) .

وبالرغم من اعجاب الوزير رشيد الدين بفن الطباعة الصيني فانه لم يسمح باستعماله في بلاده رغم النفوذ الذي يتمتع به في الدولة المغولية، ولم يفكر في طبع كتابه بل ذهب أكثر من ذلك إذ " انه أوصى قبل وفاته بكتابة نسختين كاملتين من كل مؤلفاته بخط اليد، واحدة بالعربية وأخرى بالفارسية وأوقف الأموال الكافية حتى تتوفر نسخة منها في جامع كل مدينة كبيرة من مدن العالم الإسلامي " (29).

ان هذه الشهادة تؤكد ان المسلمين كانوا مطلعين على فن الطباعة الصيني. الا انهم لم يهتموا به ولم يستفيدوا منه لتنشيط الحياة العلمية والثقافية عندهم ، ولا يوجد اي اثر على حد علمنا لكتب

.../... اروبا الوسطى مثل بوهيميا في 1476 وبولونيا في 1473 والمجر في 1473 انظر: Labarre, Albert, Histoire du livre, Paris, PUF, 1970, pp. 57-58.

(25) Dahl, S, Histoire... op. cit, p. 102.

(26) فضل الله ابن عماد بن علي رشيد الدين (1247 - 1318) ولد في همذان، طبيب ومؤرخ ورجل سياسي فارسي، عين وزيرا في عهد المغول كتب "جامع التواريخ" او تاريخ غزاني الذي تضمن تاريخ المغول والفرس والصينيين.

(27) تحدث رشيد الدين عن الطبعة في ذكر الكتب التي اطلع عليها بمكتبة تاريخ ملوك الكاتاي.

(28) وردت ترجمة رسالة الطبعة لرشيد الدين من الفارسية الى الفرنسية في كتاب:
Klaproth, J. V, lettre à M. le Baron A. De Humboldt sur l'invention de la boussole, Paris Dondey-Dupre, 1834, pp. 131-132.

(29) Carter, The invention of printing in China, New-York, Ronald press, 1955, pp. 152-153; Voir aussi Demeersemann, A,"Les données de la controverse autour du problème de l'imprimerie" in IBLA, no 65, 1954. p.1.

مطبوعة بالأحرف المنفصلة ولم تتحمس السلطات الإسلامية لادخال اسلوب الطباعة الصينية الى بلادها رغم علمها بها، فهي لم تبادر على غرار الوزير رشيد الدين باستخدامه ولم تشجع العلماء والمثقفين على ذلك ايضا وهذا الموقف يتكرر تقريبا عند ظهور الطباعة باوروبا اذ لم تظهر اية مبادرة عثمانية طيلة اكثر من قرنين من اكتشافه، باستثناء ما قامت به الاقليات الدينية في حين واصل المسلمون توريق كتبهم عن طريق الناسخين. والغريب في الأمر أن أسلافهم كانوا قد أخذوا في عهد الدولة العباسية من الصينيين ذاتهم فنا آخر هو الطباعة بحروف خشبية (xylographie) التي اكتشفوها منذ القرن 2م واستعارها منهم المسلمون في القرن 2 هـ / 9 م (30)، واستفادوا منها في طباعة القماش والأوراق وتفننوا فيها الى حد جعل المؤرخين يتساءلون هل توصل المسلمون الى فن الطباعة بالأحرف المنفصلة قبل الأوروبيين ؟

فن الطباعة بالاندلس :

هناك مصدران عربيان يعودان الى القرن 8 هـ / 14 م يشيران الى هذه القضية وهما لابن الخطيب (31) وابن الأثير (32) اللذان اشارا بصفة غامضة الى اساليب الطباعة التي تستعمل في دواوين الملوك والأمراء المسلمين ويرى المستشرق قراينفو بان الأمر يتعلق بفن الطباعة الا انه يتساءل هل انه يقتصر في استخدامه على القماش أم أيضا على الورق والكتب (33). اما المستشرق قايس فيعترض على هذا الرأي ويرى ان كلمة طبع ليست لها نفس المدلول المعروف اليوم (34) ويعتقد فيليب حتي انه توجد بالفعل مطبعة بدائية الا ان اسلوبها بقي مجهولا (35) ويعتقد ابو الفتوح رضوان ان هذين المصدرين لا يكفيان للتأريخ لفن الطباعة، وانما يصحان للتأريخ لفن

---

(30) Bonola BEY, F, "Note sur l'origine de l'imprimerie arabe en Europe" in, Bulletin de l'Institut Egyptien, 5 serie, decembre 1909, p 76 ; Voir aussi Carter, The invention... op. cit., p. 168.
نشير الى ان فن الطباعة بالحروف الخشبية لم يظهر بفرنسا الا في 771 هـ / 1370 م مما يدل على أن هذا الفن لم يكن معروفا باروبا الا قبل قرن من اكتشاف غوتنبرغ .

(31) ابن الخطيب ، **الإحاطة في اخبار غرناطة** ، اورد المؤلف ذلك عند تقديم ترجمة ابوبكر القلوسي .

(32) ابن الاثير ، **الحلة السرية** ، طبعة دوزي ، ص 137 .

(33) Hammer - Purgstall, J, "Sur un passage curieux de l'Ihatet sur l'art d'imprimer chez les arabes en Espagne" in Journal Asiatique, 1852, n 2, 4 serie, TXX, pp. 252-255

(34) Geiss, A, " Observations à la suite de la note de Bonola-Bey" in Bulletin de l'Institut Egyptien, 5 serie, T III, 1er fascicule, décembre 1909, p 85.

(35) HITTI, Ph. Précis d'histoire des Arabes, trad. Palaniol, Paris, Payot, 1950, p 47;
يرى ديمرسمان كذلك ان الامر يتعلق بشكل جنيني للمطبعة انظر **IBLA** عدد 65، 1954 ص 21 .

على الطين والخشب (36) .

ان محتوى الوثيقتين غامض فعلا ولا يمكننا على ضوئهما الجزم بوجود مطابع بالاحرف المنفصلة عند الأندلسيين، ولا يمكن ان يغفل هذان المؤلفان عن الحديث باطناب عن الفن الجديد الذي ان وجد يعتبر اعجوبة في ذلك الزمن وان يستخدمه المسلمون في طبع اهم مؤلفاتهم أو ينقلوه الى أروبا المسيحية المجاورة للأندلس. وهذا امر لم يحدث البتة فلا أثر لكتب عربية مطبوعة بالأندلس ولا أثر في المصادر الأروبية عن استعارة الغربيين لمبدإ الاحرف المنفصلة من العرب. لذا يمكن ان نقتصر على القول في ضوء المعلومات المتوفرة حاليا، أن الامر يتعلق باسلوب متطور للطباعة بالألواح الخشبية وهذا ليس بالغريب على الأندلسيين الذين عرفوا بمهارتهم في جل الصناعات ومن بينها النقش على الخشب والمعدن .

1. 4 - موقف غريب :

من خلال كل المعطيات التي ذكرت، يتبين ان المسلمين كانوا على علم بوجود فن الطباعة بالأحرف المتنقلة بالشرق الأقصى أولا ثم باروبا ثانيا. ولم يستعمل الإكتشاف الصيني الا الأتراك الويغور (Uygurs) الذين طبعوا بالحرف الصغدي (Sogdian) (37) . اما بقية الشعوب الإسلامية فلم يستعملوه ولم يتحمس له. ان هذا الموقف غريب اذا علمنا ان المسلمين قد عرفوا بتفتحهم على الإكتشافات والأساليب التقنية الموجودة بالشرق الأقصى. من ذلك استعارتهم من الصينيين لوعاء الكتابة وهو الورق في سنة 133 هـ / 751م، والذي طوروه كثيرا (38) .كما عرف عن بلاد الإسلام انها الوسيط القار بين الشرق الأقصى والغرب، اذ تولى مهمة تبادل البضائع بينهما ونقل عدة فنون وصناعات الى اروبا المسيحية . فهل شكلت البلاد الإسلامية "حاجزا أكثر منها جسرا" لنقل

---

(36) رضوان أبو الفتوح . **تاريخ مطبعة بولاق**، القاهرة . المطبعة الاميرية، 1953 ، ص 1-2 .

(37) طبع الاتراك الويغور كتب بلغتهم الاصلية في واحة طرفان بتركستان الصينية منذ القرن 5 هـ / 11 م الا انهم لم يستعملوا الحرف العربي في الطبعة بل الحرف الصغدي وهو قريب من السرياني وقد ذهب بعض الباحثين الالمان الى ان الويغور قد سبقوا الصينيين في اختراع فن الطباعة بالاحرف المنفصلة الا ان المجال لا يسمح في الدخول في تفصيل أكثر ونقتصر على القول بان هذه المحاولة كانت محدودة على المستوى التقني والثقافي لان هذا الشعب كان يستخدم حروف خشبية وليست معدنية وهذا من شانه ان يعيق عملية نسخ الكتب . يضاف الى ذلك عدم استخدامهم للحرف العربي مما يحول دون توزيع الكتب لدى الشعوب الإسلامية الاخرى وبالتالي الى عدم اشعاعهم الثقافي على البلاد المجاورة .

CARTER, T.F, The invention op. cit; pp 140-144, voir aussi GERCEK, Selim Nushet, Turk matbaciligi (l'imprimerie turque), Istanbul, Derletbasimeri, 1939, pp 14-16.

(38) كانت سمرقند اول مدينة اسلامية تستخدم الورق بعد ان استفادت من خبرة الصينيين الذين وقعوا في الاسر اثر معركة اطلاخ بين جيش المسلمين وجيش الفرغ نين أحلاف الصينيين وذلك في سنة 133 هـ / 751م ثم انتقلت صناعة الورق الى بغداد وقد امر هارون الرشيد بتعويض الرق بالورق في الإدارة لان الجنود كما يقول القلقشندي في صبح الاعشى تقبل المحو والإعادة فتقبل التزوير بخلاف .../...

آلة الطباعة الى اروبا ؟ (40).

أما عن الغرابة في موقف المسلمين تجاه اكتشاف غوتبرغ باروبا فتكمن في ان هذه الأمة قد استفادت من عدة اختراعات أروبية وخاصة العسكرية منها نظرا لحاجاتهما لمواصلة الجهاد دون ان تعير اهتماما " للاكتشاف الثقافي " فمثلا اخذ العثمانيون عن الغرب منذ القرن 9 هـ / 15 م الأسلحة النارية والمدفعية المتطورة كما اتبعوا نفس الأساليب الهندسية المتبعة في بناء دور الأسلحة والمنشآت البحرية ، كما كان السلطان محمد الثاني الفاتح قد استدعى مجموعات من العلماء والمهندسين الفنانين الأوربيين للاستفادة من خبرتهم في بناء دولته كما ان العلماء الأتراك كانوا يتابعون النشاط العلمي والفني في اروبا من ذلك ان امير البحر بيري رايس قد رسم على خريطة العالم سنة 918 هـ / 1513 م مكتشفات كريستوف كولومب معتمدا على كتب جغرافية اروبية (41) . ويؤكد أحد الأوروبيين ظاهرة تفتح العثمانيين على العلوم الحديثة بأروبا وهو بيسباك سفير الأمبراطور الألماني فرديناند الأول لدى السلطان سليمان القانوني اذ لاحظ في تقريره سنة 968هـ / 1560م " انه لا توجد اية امة في العالم تضاهي الأتراك في استخدامها للاكتشافات الأجنبية المفيدة " (42) .

كيف يمكن تفسير موقف المسلمين من آلة الطباعة وهم المعروفون بتبحرهم في العلوم والآداب ومساهمتهم الحضارية الضخمة في تقدم الإنسان ؟ ان تصرفهم يبقى غير مفهوم اذا علمنا سرعة انتشار فن الطباعة بأروبا والفوائد التي حصلت لهم منه، كذلك استعارة هذا الفن من طرف الأقليات الدينية داخل الأمبراطورية .

** الورق فانه متى محي منه فسد وان كشطه ظهر كشطهوبسرعة تعددت المصانع وظهرت عدة انواع من الورق مثل السليماني والطلحي والنوحي والفرعوني والجعفري وغيرها ورغم الانتشار الواسع للورق في البلاد الإسلامية فان الاوروبيين لم يستخدموه الا في القرن 6 هـ / 12 م بعد ان نقله المسلمون اليهم عن طريق الاندلس وصقلية ويقول شمه الورق من أجل الخدمات التي أسداها الإسلام الى اوروب

* انظر الحنوجي، عبد الستار. المخطوط العربي منذ نشأته الى قرن الرابع الهجري، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود، 1978، ص 23-33 . انظر ايضا دائرة المعارف الإسلامية Encyclopédie de l'Islam, nouv. ed, T .IV, p437-438 article Kaghad.

(39) Cartier, The inve... op. cit; pp. 140-144.

(40) Ibid., p. 150.

(41) كتب هذا القائد كتاب " بحرية " وقدم للسلطان سليم الاول خريطة كريستوف كولمب التي غنمها من احدى معاركه البحرية مع الإسبان والبرتغاليين انظر: Adnana, A, La Science chez les Turcs ottomans, Paris, Maisonneuve, 1939, p. 59-64.

(42) Busbeco, O. G. DE, Ambassades et voyages en Turquie et Amasie, trad. s. A., Gaudon, Paris, David, 1946, p 343.

كان بيسباك شاهد عيان على الحركة الفكرية والعلمية النشيطة في عهد سليمان القانوني .

ان الوثائق والمصادر تبين ان الأمر لا يتعلق بلامبالاة المسلمين بل ان هناك رفض واع لهذا الفن الجديد لدى شق من المتعلمين وبالمقابل تحمس لاستخدامه لدى شق آخر من المتعلمين المسلمين وان كل فريق يقدم حججا وبراهين لتدعيم رأيه وهذا يدل على أن هؤلاء قد أعاروا المسألة ما تستحق من اهتمام وابدوا مواقفهم منها وهذا سيكون محور الاهتمام الرئيسي في هذا الفصل ولكن قبل ذلك سنقدم المصادر ألتي تتعلق بالموضوع .

5.1 - المصادر والدراسات :

تمثلت في مصادر اروبية وهي كتب الرحالة ومصادر اسلامية لبعض علماء القرن 12 هـ / 18م .وقد تعرضت كتب الرحالة الأروبيين الى هذه المسألة ولاحظت غياب المطبعة لدى المسلمين وقدمت حججا مختلفة لتفسير هذه الظاهرة الا ان هؤلاء الرحالة وجدوا صعوبة في فهم موقف المسلمين : فالمستشرق بلفوراست يثير في كتابه هذه القضية سنة 983 هـ / 1575 م ويقول : " لا يوجد فن الطباعة البتة في تركيا ، ويقول العلماء الأتراك انه لا يجوز طبع الكتب ومن يفعل ذلك يرتكب اثما كبيرا واذا سألتهم عن سبب ذلك اجابوك بان هذا الفن ممنوع وانه يكفي أن تنسخ بخط اليد " (43) ان رفض المحافظين ليس مدعما دائما بالقرائن، وكانوا أحيانا يقدمون جوابا غامضا وهذا لم يساعد الرحالة الأروبيين على فهم الظاهرة اضف الى ذلك الحاجز اللغوي الذي يمنعهم من اثارة حوار ثري مع العلماء المسلمين للتعرف على مواقفهم، ولهذا فان جل الرحالة اكتفوا بالدوران حول هذه لظاهرة من الخارج وهذا مما انجر عنه" اسقاط" مفاهيم غربية في وسط شرقي دون معرفة الإطار التاريخي الذي يعيش فيها المجتمع، فكان ان قدموا احكاما مسبقة عن المسلمين مثل التعصب والتحجر والعداء للمعرفة (44) .

وفي نفس الوقت حاول بعض الرحالة التخلص من هذه الأحكام المسبقة وسعوا الى تقديم أسباب موضوعية حول امتناع المسلمين عن استعمال المطبعة ونقلوا بعض الآراء المتداولة بين المثقفين المسلمين بأكثر تجرد وبدون اصدار احكام قاسية عليها ومن بين هؤلاء يوجد بيسباك

---

(43) Belleforest, F, De, Cosmographie...op.cit., T II, p 593.

(44) من الغريب ان تصدر هذه الأحكام عن علماء اروبيين عاشوا في آخر القرن 18 ، اي بعد نصف قرن من ادخال المطبعة بالحرف العربي الى استانبول وبعد معايتتهم لموقف المسلمين المتحمس لاستخدام فن الكتابة الجديد. فمثلا يتحدث فولني عن مطبعة شوير بجبل لبنان سنة 1198 هـ / 1784م ويقول " لو ان الباشا الجزار علم بوجودها. لحطمها وهدمها .ويكون مدفوعا في ذلك بنزعة التعصب التي يغذيها رجال الدين، دون ان يدركوا حقيقة ما يضيرهم من المطبعة حتى يرفضوها وكأن الحماقة لها غريزة طبيعية قادرة على التنبه لمخاطر المطبعة ". ويقول المستشرق بيانكي أيضا في سنة 1236 هـ / 1821م " ان الامة التركية عبيدة الأحكام المسبقة وعدوة لدودة لكل تجديد قامت أخيرا بتأليف وطبع اول كتاب بالتركية عن التشريح" BIANCHI, T.X, Notice sur le premier ouvrage d'anatomie... suivi du catalogue.., Paris, Cellot, 1821,pp. 1-2.

ومارسيفلي وستوكوف وغيرهم . أما عن المصادر الإسلامية، فلعل ابرزها رسالة وسيلة الطباعة التي كتبها ابراهيم متفرقة اول مدير لمطبعة استانبول، ليبين فيها للسلطان العثماني والعلماء منافع هذا الاكتشاف (45) ، وهي مصدر أساسي في هذه الدراسة نظرا ، لثراء محتواها فهي تصور بدقة جملة الآراء التي يحملها أنصار المطبعة في مطلع القرن 18 ، وخلفية الخلافات الموجودة حول هذه المسألة . كما اعتمدنا في بحثنا على دراسات بعض المؤلفين المعاصرين ومنهم من أصدر احكاما قاسية على موقف المسلمين من الطباعة دون تحمل عناء تقديم القرائن التي تدعم رأيه أو المراجع التي استقى منها حكمه فابراهيم عبدو (46) يتحدث عن تعصب علماء استانبول في محاولة لتفسير اسباب رفضهم المطبعة دون ان يحلل هذا الحكم ومبرراته وهناك بعض المؤرخين وعلماء الإجتماع ممن تناولوا المسألة بأكثر حياد وموضوعية الا انهم تطرقوا اليها بسرعة دون تقديم معلومات كافية ونذكر منهم هوب (47) وشواب (48) وصابات (49) ورضوان (50). وهذا الأخير ذكر على سبيل المثال : " اتجهت رغبة بعض الرجال الى انشاء مطبعة قبل ذلك التاريخ (القرن 12 هـ / 18 م) ولكن رجال الدين لم يوافقوا على ذلك بدعوة انها مخالفة للدين ولم يجرؤ أحد على انشاء مطبعة بعد هذه الفتوى (51).

ورد لاول مرة ذكر فتوى أصدرها العلماء الا ان ابو الفتوح رضوان لا يعطي اي تفاصيل عن هذه الفتوى ولا عن المصدر الذي استقى منه هذه المعلومة ولا يوضح الطريقة التي توخاها الفقهاء لتأويل النصوص الشرعية لاستصدار هذه الفتوى .

أما عن شواب فقد قدم ثلاثة أسباب عن تأخر المطبعة في بلاد الاسلام وهي " امتناع الشرقيين عن تداول اي كتاب لا يكتب بخط اليد وسبب تقني يتمثل في صعوبة حفر الحروف العربية

---

(45) نشر ابراهيم متفرقة هذه الرسالة سنة 1141 هـ / 1728 م في مقدمة اول كتاب تصدره مطبعة استانبول وهو ترجمة صحاح الجوهري لوانقولي وقد ترجمت هذه الرسالة الى الفرنسية ونشرت في مجلة المكتبات الفرنسية . n 5, Revue des bibliotheques, 1895, pp. 193-200.

(46) عبدو، ابراهيم . تاريخ الطباعة والصحافة في مصر خلال الحملة الفرنسية ، القاهرة ، مكتبة أدب ، 1949 . ص 22.

(47) HOPP, 1, " Ibrahim Muteferriqa: fondateur de l'imprimerie turque" in Acte Orientalia Hung, n 29, 1975 ; p. 108.

(48) SCHWAB,M, les incunables orientaux et les impressions orientales au commencement du XVIe siecle, Paris, 1883.

(49) صابات خليل . تاريخ الطباعة في الشرق العربي ، القاهرة ، دار المعارف ، 1958 .

(50) رضوان ابو الفتوح . نفس المصدر .

(51) المصدر السابق ، ص 12 .

وربطها فيما بينها واخيرا حالة الجمود والركود التي يعيشها العرب في تلك الفترة (52) ، إن هذه الحجج رغم جديتها تبقى عامة وغير كافية ، إذا ما لم يرفقها الباحث بتحليل ولم يدعمها بمصادر وأمثلة.

هناك باحثون آخرون انكبوا على دراسة الموضوع بأكثر عمق وكانوا حذرين في اصدار أحكامهم مثل وايل (53) وديمارسمان (54) ، الذين قدما دراسات معمقة حول المسألة. فديمارسمان مثلا الذي استفاد من مقال الباحث الأول ، يرى في الجدال حول المطبعة مرحلة حاسمة في الثقافة والنفسية الاجتماعية للمسلمين (55).

لفهم أسباب التأخير في اقامة مطابع عربية عند المسلمينانه من الضروري فانه نضع القضية في اطار بروز وعي تاريخي وديني لدى المثقفين المسلمين لاعطاء دفع جديد لحضارتهم وعليه فان النقاش حول مسألة المطبعة قد تجاوز النظر في مجرد استعمال آلة ليشمل المستقبل الحضاري لمجتمعهم . فالطباعة ستغير عدة معطيات ثقافية وستساهم في نقل وتبادل الاراء وادخال حركية في الحياة الثقافية والاجتماعية، وهذا ما جعل النقاش يحتد بين معارضي وانصار المطبعة ويأخذ وقتا طويلا قبل ان تتحرك عملية التطور .

ان دراسة أطوار هذا النقاش وملابساته تمكننا من النظر في مسألة المطبعة من الداخل ومعرفة خلفية كل طرف في هذا الصراع الفكري من خلال الأدلة والبراهين التي يقدمها لتأييد موقفه من استخدام المطبعة في بلاد الإسلام (56) . واننا نقترح في الفقرات الموالية ، تقديم بعض الإشارات التي تساهم في تفسير اسباب هذه الظاهرة .

---

(52) SCHWAB, les incunables... op. cit, p. 6.

(53) Weil, G, "Die ersten Drucke der Turken" in Wentralblant Bibliothekewesen (Z.B), Fevrier 1907, T XXIV, pp 49-61.

نلاحظ ان المستشرق فيكتور شوفان تناول المسألة مكتفيا باعادة اقوال الرحالة الاروبيين ولم يدل برأيه في هذا الموضوع

Chauvin,Victor, " Notes pour l'histoire de l'imprimerie à Constantinople" In Z.B., 1907,TXXIV, . pp. 255-262.

(54) Demeersemann, A, " les données..." in IBLA, 1954, n 65, pp 1-48 ; n 66, 1954,pp 113-140.

(55) Ibid p 1.

(56) حدث نفس السيناريو في اروبا عند ظهور المطبعة الا ان موقف الرفض لم يدم طويلا ففي فرنسا رفض رجال الكنيسة هذا الإكتشاف خوفا من ان يفقد كتاب الإنجيل اذا ما طبع قدسيته .وقد تحالف الناسخون مع الكنيسة لمجابهة المطبعة التي تهدد مورد رزقهم الا ان الملك لويس الحادي عشر تحمس لانتشار الطبعة وشجع المطبعي الالماني فوست على الاستقرار بباريس سنة 870 هـ / 1466م ، بعد ان رأى في المطبعة وسيلة ناجحة لنشر الثقافة الفرنسية بسرعة ونسجت الكنيسة على منواله بعد ان اطلعت على فوائد هذا الاكتشاف وحدث نفس الامر في اسبانيا وانقلترا بعد فترة قصيرة من التردد، ولكن بقي بلد اروبي واحد رافضا لاستخدام فن الكتابة الجديد الى حد نهاية القرن وهو روسيا.

2 - حوار حول المطبعة:

2. 1- الحوار الطويل :

استمر هذا الحوار الذي جمع مناصري ومناهضي المطبعة مدة طويلة، وقد بدأ قبل القرن 12هـ/ 18م، اذا اعتمدنا على ما قاله ابراهيم متفرقة في " رسالة وسيلة الطباعة"حيث قال : " كان هذا الموضوع (فن الطباعة) محل جدال وقد انعقدت عدة اجتماعات لمناقشة جدواه وانتهت بالإعتراف بفوائدهواقرار الحاجة الاكيدة اليه وقد أيد العديد من الشخصيات ذات الصيت العلمي الكبير هذا المشروع وأوكلوا مهمة دراسته وتنفيذه الى أشخاص متعلمين وماهرين وبعد طول تفكير أقر هؤلاء الفوائد التي تنجر عن اقامة مطبعة ولكن المشروع توقف اما بسبب المصاريف التي تطلبها او بسبب صعوبة ايجاد التجهيزات اللازمة لهذه المؤسسة، فكان ان اهمل المشروع الى اليوم الذي اعطى فيه الله العلي القدير دفعا جديدا للعلم لتجاوز كل العراقيل باختياره السلطان أبو الفتوحات والمغازي أحمد خان الذي وفق في انجاز ما لم يقدر عليه سابقوه، فأعطى دفعا قويا لفن الطباعة العجيب ووفر كل الإمكانيات لتأسيس المطبعة " (57).

تؤكد هذه الوثيقة مرة أخرى ان المسلمين كانوا واعين بأهمية فن الطباعة ولم يهملوه البتة والأهم من كل ذلك هو ان المثقفين والعلماء ناقشوا فعلا هذه المسألة في اجتماعات ولقاءات عديدة جمعت معارضي ومؤيدي مشروع ادخال المطبعة، اي بين المحافظين والمجددين وانتهت بالإعتراف بمزايا فن الكتابة الجديد، اي انتصار الشق الذي ينادي بادخال آلة الطباعة من الغرب الا انه رغم هذا التأييد فان المشروع توقف وأهمل واسباب ذلك حسب متفرقة هي فنية ومالية. الا اننا نتساءل هل تمثل هذه الأسباب عوائق حقيقية تحول دون مواصلة المشروع فالأروبيون مثلا لم تمنعهم الصعوبات الفنية من طبع الكتب العربية ، حيث نجح حفارون أروبيّون غريبون عن اللغة العربية منذ القرن 10هـ / 16مـ في حفر قوالب وطوابع لحروف هذه اللغة واذا كان الأمر كذلك في اروبا فكيف سيكون بالنسبة للمسلمين أبناء تلك اللغة والمعروفين بمهارتهم في النقش على المعدن (58) هذا من حيث الحروف. أما من حيث الآلات فليس من الصعب كذلك صنعها في المشرق وفي اقصى الحالات يمكن استيرادها من اروبا. ان الصعوبات الفنية والمالية لا يمكن بأي حال ان تعيق لوحدها اقامة المطبعة في بلاد الإسلام ، ولا بد من ان تكون هناك معوقات اكبر من هذه لم يتعرض اليها

---

(57) رسالة وسيلة الطباعة ، ص 199 - 200 .

(58) ان الحروف العربية التي استعملها سافاري في مطبعته بروما وباريس في القرن 16 م ، كانت قد اعدت في استانبول انظر فقرة : " مطبعة سافاري" ص 31 .

متفرقة. اضف الى ذلك ان هذا العالم قد أطنب في رسالته في ذكر فوائد المطبعة بالنسبة للمسلمين ولم يكن في حاجة الى كتابة مثل هذه الرسالة، لو ان النفوس كانت مهيأة لقبولها. وهذا يدل على انه الى حد بداية القرن 12 هـ / 18 م، لم يتوقف الحوار ولم يقتنع كل العلماء القريبين من الباب العالي بجدوى المشروع.

انه من الواضح ان الشق المعارض من العلماء والمثقفين كان له من النفوذ ما جعله يمنع تأسيس مطبعة عربية وأنه لا محالة وجد دعما غير مشروط في الأوساط الشعبية خاصة الأمية منها التي ترفض الجديد وقد تكون المواجهة بين المعارضين والمؤيدين غير متوازنة في البداية، لان عدد الأخيرين كان ضعيفا، وهذا ما تطلب وقتا طويلا لتغيير العقول واقناعها بأهمية " الاكتشاف الثقافي ".

لقد دارت الاجتماعات قبل عهد السلطان أحمد الثالث حسب رسالة ابراهيم متفرقة، وهذا ما يجعلنا نطرح السؤال التالي : متى بدأ الحوار ؟

2.2 - بداية الحوار :

هناك وثيقة أصلية يمكن ان تجيب عن هذا السؤال وهي نص فرمان أصدرهالسلطان العثماني مراد الثالث سنة 966 هـ / 1588 م، يقضي بالسماح للتجار الأروبيين ببيع الكتب الأروبية المطبوعة بالحرف العربي داخل امبراطوريته.

ان هذا القرار له اهمية بالغة اذ أنه يشير الى أن ملامح التحول في موقف المسلمين تجاه فن الطباعة، قد بدأت تبرز منذ نهاية القرن 10 هـ / 16 م. فالباب العالي لم يسمح بعد باقامة مطبعة ببلاده الا انه رخص في ادخال كتب عربية مطبوعة بأروبا الى دولته. ان قرار 996 هـ / 1588 م فتح الباب لكي يطلع العلماء على عينة من انتاج المطابع الأروبية ليقفوا على مدى فائدتها للمتعلمين بالمشرق.

ان فرمان السلطان مراد الثالث، قد يكون سبقه حوار بين انصار ومعارضي آلة الطباعة، ولا يستبعد ان يكون هذا القرار حصيلة اتفاق بينهم، يقضي كما رأينا بالقيام بتجربة تجعلهم يتأكدون ويطمئنون الى جدوى هذا الاكتشاف، وهذا من شأنهان يدفع الحوار الى الأمام. الا ان الأمر توقف عند هذا الحد، فالمحافظون كما تدل بعض الوثائق أصروا على معارضة استخدام فن الكتابة الجديد وان شهادة أحد العلماء المسلمين بمصر سنة 1040 هـ / 1630 م، هامة في هذا الصدد، وقد اوردها الرحالة ستوكوف الذي تحدث مع هذا العالم بالقاهرة وذكر له جملة من فوائد الطباعة الا ان هذا الأخير أصرّ على معارضته لهذا الإكتشاف وابرز له عكس ذلك وقدم له عدة

حجج تبّين ليس فقط انها غير ضرورية بل انها ضارة (59).

بدأ الحوار اذن تقريبا مع نهاية القرن 10 هـ / 16 م، وتواصل الى ما بعد القرن 12 هـ / 18 م. ويمكن دراسة بداية الطباعة عند المسلمين عبر ثلاث فترات، تبدأ الفترة الاولى من ظهور اكتشاف غوتنبرغ الى نهاية القرن 10 هـ / 16 م، وقد سيطر عليها التيار المحافظ المعارض لأي تجديد في الأدوات الثقافية ، أما الفترة الثانية فتبدأ من 996 هـ / 1588 م وتنتهي الى سنة 1140 هـ / 1726 م، وهي التي شهدت حوارا عميقا انتهى باصدار قرار انشاء أول مطبعة بعاصمة الامبراطورية. أما الفترة الثالثة فتبدأ مع صدور أول كتاب بالحرف العربي باستانبول الى نهاية القرن 12 هـ / 18 م، وتعكس صدى المنشورات الأولى للمطبعة والصعوبات التي لاقتها المؤسسة.

3 - الاسباب السياسية : السلطة العثمانية والمطبعة .

3. 1 - تحجير الطباعة :

هناك ارادة سياسية منعت استخدام المطبعة ، وهذا ما ذكره الرحالة اندري تيفي (60) الذي اورد في سنة 991 هـ / 1584 م ان السرايا أعلنت انها ستسلط عقوبة القتل على كل من يستعمل كتبا مطبوعة، واوضح ان السلطان بايزيد الثاني هو الذي اصدر هذا القرار في سنة 888 هـ / 1483 م ، ثم اكده من بعده سليم الاول سنة 920 هـ / 1515 م (61).

ان تيفي يقدم هذه المعلومة دون اعطاء توضيحات او تفاصيل أكثر، وخاصة الأسباب التي دفعت بالباب العالي الى اصدار مثل هذا القرار القاسي، ولا تتعرض المصادر الإسلامية الى مثل هذا الإجراء (62) . ممّا لا يساعد على ازالة الغموض حول هذه المسألة . وقد تعرض الرحالة تيفي الى هذه المسألة بعد ان لاحظ ظاهرة غياب المطبعة عند الشعوب الشرقية بما فيها الصينيين، ويقول " أن هناك من ذكر بان الصين والكاتاي هم أول من اخترعوا المطبعة وهذا خطأ" (63) . ان هذه المعلومات غير المتاكدة والتي انفرد بها تيفي تدفعنا الى دراسة روايته بحذر فهو يؤكد أن السلطانين بايزيد الثاني وسليم الأول هما اللذان اصدرا هذا القانون القاسي،الا أن المعلومة تبقى

---

(59) Stochove, Vincent Sr de ste Catherine, Voyage du levant, Bruxelles, Velpius, 1650.P. 139

(60) قام تيفي برحلة الى الشرق سنة 955 هـ / 1549 م ثم عيّن مؤرخا وجغرافيا للملك من طرف كاترين دي ميدتشي .

(61) Thevet, Andre, Histoire des plus illustres et savants hommes de leurs siècles, Paris, Manger, 1671, T VII, p .111, article sur Gutenberg.

(62) اكتفى بعض المؤرخين الاروبيين بذكر هذا الإجراء المنسوب الى السلطانين العثمانيين نقلا عن تيفي دون مناقشتهاو نقده.
Chevillier, A, l'origine... op cit., p.271; GUIGNES, Joseph Dc, "Essai... op. cit"; p XXVII.

(63) Thevet; A, " Histoire ..."op. cit., p. 111.

غير دقيقة باعتبار أنها لا تستثني مثلا الأقليات الدينّية الا انه يتبّين كما رأينا ان السلطان الأول هو الذي رخص لليهود اقامة مطابع عبرانية و بالتالي استعمال كتب مطبوعة، وكان ذلك بعد أحد عشرة سنة من تاريخ اصدار "القرار" الذي تحدث عنه تيفي اي سنة 899 هـ / 1494 م .

ان قرار منع أستخدام كتب مطبوعة صدر في فترة مبكرة عقبت اكتشاف غوتنبرغ بأربعة عقود من الزمن فقط ولم تكن كافية لمعرفة نتائج تأثير المطبعة في المجتمعات الأروبية، فهي في طور التجربة عندها ولم تبرز سلبياتها بدرجة تدعو العثمانيين الى التصدي لها بعنف . وهذا ما يجعل رواية تيفي ضعيفة. واذا أضيف إلى كّل هذا ما عرف عن السلطانين العثمانيين المعنيين من تفتح على الآداب والعلوم وتشجيعهم للعلماء يصبح مثل هذا القرار متناقضا مع طبيعة الحاكمين، فبايزيد الثاني تلقى معارف واسعة في كل فروع الآداب وكان يحيط نفسه برجال الأدب (64) ويبني عديد المدارس والمكتبات إلى حّد أنه عرف بلقب "أمير العلوم" (65). أما سليم الأول فلم يكن اقل تفتحا على عالم المعرفة من أبيه بايزيد الثاني فهو متبحر في العلوم ويحذق ثلاث لغات هي التركية والفارسية والعربية (66) وامام هذه المعطيات تفقد رواية الرحالة تيفي كل مصداقية، ولا يعدو أن يكون قد اقتصر على نقل بعض الإشاعات المنتشرة بأروبا حول غياب الطباعة بالبلاد العثمانية، وهي اشاعات يفندها الرحالة الإيطالي مارسيغلي الذي زار المشرق في نهاية القرن 17 م ، ولاحظ " ان الأتراك لا يطبعون فعلا كتبهم ولكن ليس كما هو شائع عندنا بسبب ان المطبعة ممنوعة او ان كتبهم لا تستحق الطبع ..." (67) .

ان رواية تيفي مجانية ولا تستند الى أي دعامة منطقية او تاريخية وهذه ليست الفقرة الوحيدة الغامضة التي نوردها من كتابه، بل هناك الكثير منها حتى عرف عنه ان كثيرا من مشاهداته خيالية (68) لهذا فانه من الأجدى ألا نعتمد على هذه الرواية في تحليلنا .

---

(64) يذكر المستشرق هربولو ان بايزيد الثاني كان يغدق في العطاء على العلماء ويقدم لهم الملابس والمنح المالية.. Herbelot Bibliothèque orientale, Paris, 1697, pp. 177-178.
Cantemir, A.D, Histoire de l'Empire Ottoman, trad. Joncquieries, Paris Barois,1743, T.1, pp 137.

(65) المصدر السابق ، ص 138.

(66) D'ohsson, M., Tableau général de l'Empire Ottoman, Paris, 1787, vol 1, p 294; Herbelot Bibliothèque... op. cit., p 802; Adnan, A la science... op. cit., p. 57.

(67) Marsigli, LE Comte De, l'Etat militaire Ottoman: ses progrès et sa décadence La Haye, Goose, 1732, p. 313.

(68) Biographie universelle de Michaud, TXXXXI, p 330 article Thevet.

ان مسالة المطبعة قد شدت رغم هذا انتباه السلطات السياسية باستانبول فقد تدخل السلاطين شخصيا للنظر في امكانية استعمال فن الطباعة مثل احمد الثالث الذي أصدر قراره المعروف في سنة 1140هـ / 1726م، وكان قد استعان في ذلك بمستشاريه وهم الصدر الأعظم وموظفان من الباب العالي . وهناك سلاطين اتخذوا أيضا قرارات في نفس الموضوع مثل مراد الثالث(69) وعبد الحميد الاول (70).

ان السلطان العثماني مثله كمثل كل الحكام الذين حكموا بلاد الإسلام، يتمتع بنفوذ كبير خاصة وان الإسلام لا يفصل الدين عن السياسة. وقد احتفظ منذ سليم الاول بلقب خليفة الذي استلمه بصفة رمزية من آخر أمير عباسي، وله بالتالي النفوذ الكامل في البت في كل المسائل المتعلقة بالاسلام والثقافة. ولهذا لا يمكن ان تغيب قضية المطبعة عن اهتماماته دون ان يقرر بنفسه الترخيص باقامتها في دولته، وهذا طبعا بعد أخذ رأي العلماء وشيخ الإسلام. وقد كانت المسالة من الحساسية بمكان الى حد جعلت الباب العالي يتصرف بحذر شديد، فقرار بايزيد الثاني الذي يسمح لليهود بالإستفادة من فن الطباعة بشرط عدم استخدام الحرف العربي، يدل على حيطة كبيرة ورغبة في عدم احداث اضطراب أو صدمة لدى المتعلمين المسلمين، وقد يكون فيه مؤشر ايجابي لدعوة هؤلاء الى التفكير في الاستفادة ايضا من هذا الاكتشاف .

3. 2 - قرار مراد الثالث سنة 996هـ / 1588م :

صدر هذا القرار بعد ان تقدم تاجران اوروبيان بشكوى ضد أشخاص اعتدوا عليهما في احدى اسواق استانبول وقاموا بإتلاف بضاعتهما وحجز كتبهما العربية والفارسية والتركية التي احضراها من اوروبا، تعبيرا عن غضبهم لوجود هذه الكتب بحوزتهما وقد ادان السلطان هذا الاعتداء والذي سلط على أجانب هم في حماية الدولة ويتعاطون التجارة في حدود الشريعة الإسلامية، فأصدر امرا الى الولاة والقضاة والقواد لتطبيق القانون ضد كل من يهدد أمن التجار الأوروبيين الذين يبيعون كتبا علمية ومطبوعة بالحرف العربي بأوروبا (71). وهذا ما تم تطبيقه فعلا خاصة بالنسبة لمنشورات الميدتشي بروما، فهي كتب علمية باللغة العربية وقد أرفق في أحد كتبها

---

(69) قرار بترخيص بيع الكتب المطبوعة باروبا داخل الامبراطورية العثمانية .

(70) قرار باعادة فتح مطبعة استانبول سنة 1199 هـ / 1784م: من الملاحظ ان حكام المسلمين في الولايات العثمانية هم الذين قرروا وأشرفوا على ادخال المطابع بولاياتهم مثل محمد علي باشا بمصر الذي أسس مطبعة بولاق في 1237هـ/ 1821م والصادق باي بتونس سنة 1274هـ / 1859م .

(71) Inalcik, H, The Ottoman Empire: The Classical Age 1300-1600, London, Weidenfeld, 1973, p. 174.

(72) نص فرمان مراد الثالث لكي يبرز رغبة أصحاب مطبعة الميدتشي في بيع كتبهم باستانبول . ولتبرير هذه العملية حتى يتخلصوا من كل أشكال الرقابة العثمانية .

ان مساندة السلطات العثمانية لاستعمال الكتب المطبوعة، يؤكد ان الباب العالي تدخل في عدة مناسبات في قضية المطبعة ، وان له ضلع في التوفيق بين انصار ومعارضي هذا الفن كما رأينا بالقيام بتجربة تداول الكتب المطبوعة باروبا . ان الدولة العثمانية كانت تتابع عن قرب كل التطورات التي تهم المطبعة وهذا ليس فقط للمسلمين بل وكذلك للاقليات الدينية، كما رأينا حتى وان تطلب الأمر التدخل بشدة مثلما هو الشأن في حادثة الاعتداء على تجار الكتب الأروبيين، وكذلك في حادثة توزيع كتب بروتستانية مطبوعة بأروبا في أوساط المسيحيين بالمشرق .

3.3 - تدخل الباب العالي لإيقاف عملية توزيع الكتب البروتستانية :

ان هذه الحادثة رغم انها لا تهم مباشرة المسلمين، فان اهميتها تكمن في معرفة موقف الباب العالي من فن الطباعة بصفة عامة وفن الطباعة لدى الأقليات بصفة خاصة .

بدأت القضية سنة 1030هـ / 1620م ، لما قام البروتستان بطبع أجزاء من الإنجيل بالعربية واليونانية بهولندا (73) حسب المذهب البروتستاني، وتولوا ارسال نسخ كثيرة منها عن طريق سفير هولندا الى بطريرك استانبول كيريل لوكار (Cyrille Lucar) الذي اعتنق مذهب لوثر . وقد تولى لوكار توزيعها مجانا بين المسيحيين مما أحدث اضطرابا في صفوفهم. ولم يكتف البروتستان بذلك بل سعوا الى تأسيس مطبعة بالحرف اليوناني باستانبول، وأوكلوا مهمة تسييرها الى أحد المطبعيين اليونانيين وهو ميتاكساس (Metaxas) ولم يبق سفراء الدول الكاثوليكية مكتوفي الأيدي ، بل تدخلوا لمنع تسرب الكتب البروتستانية بالمشرق وأبلغ السفير الفرنسي (75) تخوفاته الى الباب العالي الذي

---

(72) يوجد نص القرار في آخر صفحة من كتاب تحرير اصول الأوقليدس، ترجمة نصر الدين الطوسي، روما، مطبعة الميدتشي ، 1594 .

(73) هذه الكتب نشرها الهولانديان رافلانج وأربنيوس في مدينة ليدا في القرن 11 هـ / 17 م وهي : رسالة القديس يوحنا طبعت سنة 1021هـ / 1612م ، ورسالة القديس بولس 1024هـ / 1615م ، والعهد الجديد 1025هـ / 1616م .

(74) كتب سفير فرنسا في استانبول في 27 جوان 1628 : قام البطريرك كيريل عدو اللآتينية بنشر البدع في كنائس الشرق وذلك بتوزيع كتب البدع المطبوعة باليونانية في كل مكان وقد تسلم سفير انقلترا ثلاثين صندوقا مليئة بالأحرف اليونانية لطبع كل كتب البدع التي يمكن ان يتخيلها الإنسان. وفي الغد تناول البطريرك كيريل العشاء علنا مع سفير هولاندا ببيت سفير انقلترا (وثائق المكتبة الوطنية بباريس. B. N. Mss. Fr. 16153F. 48)

(75) كان رد فرنسا ضد تصرفات البطريرك كيريل لوكار عنيفا وقد تدخلت لدى السلطان العثماني تحت غطاء قانوني يخول لها حماية المسيحيين في الأماكن المقدسة كما تنص على ذلك بنود اتفاقية " الإمتيازات" التي امضتها مع سليمان القانوني. ان شدة معارضة فرنسا للدعاية البروتستانية كان سببها خوفها من تقلص نفوذها كحامية للمسيحيين بالمشرق مما قد يكون له تاثير سلبي على مصالحها الإقتصادية بالإمبراطورية العثمانية .

لم يتردد في إقالة البطريك لوكار وايقاف توزيع الكتب (76) ، كما أمر بحجز آلات الطباعة والكتب من منزل ميتاكساس (77) ، فكان ان ردّ سفراء هولندا وانقلترا الفعل بدورهم وكشفوا للسلطات العثمانية نشاط المبشرين اليسوعيين وخاصة فيما يتعلق بتوزيع كتاب جدلي ضد الاسلام وتدخل الباب العالي مرة اخرى فحجز أيضا هذا الكتاب وكل محتويات مكتبة اليسوعيين قبل أن يعيدها مرة أخرى لهم بعد تدخل السفير الفرنسي (78).

ان تحفظات الباب العالي تجاه المطبعة ، لم تكن الا لتتأكد بعد هذه الحادثة التي أعطت للاكتشاف الثقافي " بعدا سياسيا هاما. ان الإكثار من الكتب بواسطة أساليب الطبع بيّن للسلطات العثمانية الخطر الذي ينجر عن نشر وتوزيع الكتب التي تحمل آراء جديدة بسرعة مثلما هو الحال للكتب البروتستانية التي اضحت تهدد التنظيم الداخلي للأقليات . فالمطبعة تنذر بضرب روح التعايش والتسامح الديني السائدة بين المسلمين والأقليات الدينية من جهة، وكذلك بين الطوائف المسيحية فيما بينها من جهة أخرى ولكن هل يقتصر الخطر بالنسبة للباب العالي على هذا الجانب فقط ام ان هناك جوانب أخرى ؟ " .

3. 4 - مخاوف الباب العالي :

ان السلطان لا يريد تغيير الهياكل السياسية والادارية والاجتماعية داخل الإمبراطورية بعدما اثبتت نجاعتها منذ تأسيس الدولة . فالمؤسسات القائمة مكنت الدولة من الحفاظ على سيطرتها على كامل ممتلكات الدولة ومراقبة كل الرعايا . ولهذا فان المكتشفات الحديثة القادمة من اروبا تهدد بتغيير هذا الوضع المتميز. من ذلك ان المطبعة كما يرى المجري دي سوسير سنة 1144هـ/ 1732م تنسخ الكتب بسرعة وبكثرة مما يتسبب في الإضرار "بالأمن العام" وبالديانة الإسلامية (79) . وفي نفس السياق يذهب الباحث المعاصر خليل صابات الذي يرى " أن المطبعة يمكنها ان تخفض أثمان الكتب فتجعلها في متناول أكبر عدد ممكن من الناس. فيحل العلم محل الجهل على

---

(76) Vitre, Histoire...op. cit, pp. 11-12; Voir aussi DUVERDIER, Abrégé de l'histoire desTurcs, Lyon, 1665, T 2 p 585; Chevillier, A, l'origine.. op.cit, p 299.

(77) Lettre du baile de Venise à Constantinople de 22 Juin 1628 in RABBAT, Documents... op. cit, T 1 p. 3

(78) رسالة بتاريخ 14 ماي 1628 (وثيقة بمكتبة الوطنية بباريس Mss. Fr. 16150F 48)

هذا الكتاب الجدلي قد يكون كتاب الاب الباتو : هذا مصاحبة روحانية الذي يتهجم على الدين الإسلامي وقد طبعه اليسوعيون بروما سنة 973هـ / 1566م.

(79) SAUSSURE, Cesar De Lettres de Turquie (1730-1739), Budapest, Academie Hongroise des Sciences, 1909, p 94.

أنه غير خاف على أحد ان الأمة المتعلمة تأبى الضيم ويصعب حكمها حكما استبداديا" (80).

ان هذه الآراء تتفق على ان خطر المطبعة يكمن في انها ستدخل الاضطراب على هياكل الدولة العثمانية التي تخنق كل الحريات. ذلك أن الكتاب المطبوع سيساهم في تعليم الشعوب ونشر آراء تدعو الى الحرية وتشكك في شرعية سلطة الباب العالي، وهذا الأمر يخيف السلطان ويجعله لا يقدم على استخدام هذا الفن، ويحمل هؤلاء المؤلفين مسؤولية تأخر المطبعة على الباب العالي لوحده. الا ان هذا الرأي وان كان فيه نصيب من الصحة، لا يمكننا من ان نقر بأن السلطة العثمانية هي المسؤولة الوحيدة عن عدم استعمال المطبعة. فظاهرة رفض الاكتشافات العلمية الحديثة ورفض التجديد بصفة عامة، توجد ايضا في أوساط أخرى داخل الامبراطورية خاصة منها المتعلمة كما سنراه فيما بعد. وكذلك الجيش الإنكشاري الذي تصدى بعنف الى كل مظاهر التجديد في القوات المسلحة مثلما حدث ازاء محاولة الإصلاح العسكري التي اقدم عليها السلطان عثمان الثاني التي رفضها الجيش العثماني وانتهى الأمر الى قتل السلطان.

ولهذا فان الباب العالي لم يسارع في اتخاذ موقف مناصر للمطبعة مراعاة لمصلحته ومراعاة كذلك للمناخ الثقافي السائد في المجتمع الذي لا يقبل بسهولة التغيير، وفضل انتظار بروز حاجة لدى المتعلمين الى مثل هذا الاكتشاف الثقافي قبل ان يتخذ اجراء في هذا الشأن. ان صدور قوانين في مسائل علمية ثقافية دون ان تستعد لها العقول، يؤدي الى عزلها وبالتالي الى عدم التأثير في المجتمع وهذا ما يفسر الى حد ما، تأخر الباب العالي في اتخاذ قرار لفائدة ادخال المطبعة العربية الى الامبراطورية الى حد القرن 12 هـ / 18م.

3. 5 - قرار أحمد الثالث في 1140هـ / 1726م:

كانت المطبعة في بدايتها في ارض الإسلام مشروعا سياسيا قرره وأعد له وتعهد به أصحاب السلطة بمعية رجال علم موالين للباب العالي. كان ذلك في سنة 1139هـ / 1726م، حين سمح السلطان أحمد الثالث ووزيره بتأسيس ورشة للطباعة بالحرف العربي في استانبول. وكان الصدر الأعظم ابراهيم باشا داماد قد بذل جهدا كبيرا لتذليل كل الصعوبات واقناع من تبقى من العلماء القريبين من الباب العالي والمعارضين لهذا المشروع بأهميته وفوائده، كما انه تدخل لحماية المطبعيين الأوائل.

وقبل هذا التاريخ لم يكن المتعلمون يقدمون على اتخاذ مبادرة باعداد مشروع او الحديث عن

---

(80) صابات خيل، تاريخ نفس المصدر، ص 21. يقول كذلك الاب ديمرسمان "ان السبب الذي يدفع مختلف الحكومات الى تأخير ادخال المطبعة هو الحفاظ على سلطتها في شكلها القديم" انظر مقاله في: IBLA, n 66, 1954, p 136.

اصلاحات اما اذا تجرأ احدهم وتقدم باقتراحات ووجدت اهتماما وآذانا صاغية من طرف رجال السلطة وتمكن من اقناعهم وخاصة منهم الصدر الاعظم والمفتي فان المشروع يعرف طريقه الى الإنجاز والحال انه كان يتراءى في البداية مستحيلا (81).

وفي بداية القرن 12 هـ/ 18م، بادر احد الموظفين لدى الباب العالي وهو في نفس الوقت رجل علم وأدب ويدعى ابراهيم متفرقة بتحرير كتيب حول منافع المطبعة بعنوان " رسالة وسيلة الطباعة" وعرضه على الصدر الاعظم وشيخ الإسلام فوجد قبولا حسنا من طرفهما وحتى من طرف السلطان الذي اصدر قرارا يسمح للمسلمين داخل الامبراطورية باقامة مطبعة بالحرف العربي وقد تبنى في القرار نفس الآراء التي اوردها متفرقة وبالخصوص ما يلي :

" عند وصول هذا الأمر الشريف ستعلمون بأنه من الضروري لكي نضمن دوام قوانين الدين وندعم نظام الملك ونحفظ التواريخ والأخبار ونوسع دائرة المعارف البشرية اللجوء الى الكتابة وهي الوسيلة الوحيدة لسرد كل ما وقع عبر مختلف العصور ونسخ الكتب باعداد وافرة حتى تصل الى الأجيال القادمة " (82).

ان هذا القرار يضع علامة تحول بارزة في موقف السلطة العثمانية تجاه المطبعة فقد وردت فوائد هذه الآلة والخدمات التي ستقدمها للدين الإسلامي وللدولة وللعلوم والآداب (83).

4 - الاسباب الثقافية :

تناول المحافظون والإصلاحيون طيلة حوارهم نقطة هامة تتعلق بتجديد أدوات العمل الفكري ، أي الانتقال من المخطوط الى الكتاب المطبوع ومن الكتابة العربية بخط اليد الى حروف الطباعة المنفصلة، ومن مهنة الناسخ الى مهنة المطبعي. وقد استعرضوا مدى تأثير هذه الادوات الثقافية في تطور الحضارة الإسلامية عبر العصور . انه من المهممعرفة آرائهم وطريقة تقييمهم لدور المخطوط ومفهومهم للكتاب المطبوع ولآلة الطباعة ؟ وكيف يحكمون على الخط العربي وعلى حروف المطبعة وكيف ينظرون الى مهنتي الناسخ والمطبعي ؟

4. 1 - المخطوط والناسخ :

حين دخل الكتاب المطبوع الى جمهورية الآداب " للإطاحة " بالمخطوط ، وجد معارضة شديدة من لدن العلماء ولقد كان وعاء المعلومات التقليدي يحافظ الى حد ذلك العهد على امتياز نقل العلوم

---

(81) Saussure, lettres ...op. cit, p 94 ; Ohsson, M.D, Tableau... op.cit., vol 1, p. 295.

(82) خط همايون للسلطان احمد الثالث يسمح بانشاء مطبعة باستانبول في 1140 هـ / 1726 م ، وقد ترجم الى الفرنسية ونشر في Revue des bibliothèques, 1895, p.190.

(83) سنعود اليه والى رسالة متفرقة في هذا الفصل .

وذلك منذ بروز المؤلفات الإسلامية الأولى وخاصة الكتاب العربي الأول وهو القرآن الكريم (84)، الذي احتاج المسلمون الى تدوينه وتوزيعه في مختلف الأصقاع، وكذلك الحال بالنسبة لكل انواع الكتب الأخرى فظهر الخطاطون والناسخون في كل المدن والمراكز الثقافية، وتولوا نسخ هذه الكتب وقد عمل الناسخون او الوراقون بكل جد لتوفير نسخ من الكتب لكل من يطلبها من الجمهور وكذلك لقراء المكتبات وطلاب المدارس. وقد كانت مهنة الوراقة طيلة القرون الأربعة الأولى للهجرة من المهن النبيلة الرفيعة ولا يسمح بتعاطيها الا لمن يشهد له بالكفاءة (85). فكان ان احترفها بعض كبار العلماء المسلمين من أمثال الجاحظ والتوحيدي وكان الناسخ يعمل بشغف في نسخ الكتب (86) خاصة وانها ترفع من مكانة طلاب العلم في عالم المعرفة ، فكلما نسخ مخطوطات كلما حظي بالتقدير.

كما تفنن الناسخون في كتابة الحرف العربي (87) من امثال : ابن مقلة (278هـ - 338م/ 891هـ - 949م) الذي عمل ببلاط سيف الدولة الحمداني بحلب وابن البواب (توفي في سنة 423 هـ / 1031م) الذي عمل بمكتبة البويهيين بشيراز (88).

لم يقتصر اهتمام الوراقين في القرون الأولى للهجرة على التفنن في الخط فحسب بل تجاوزه للإعتناء او الحرص على نسخ النص بكل أمانة. وكان المكتبيون يستعينون بالعلماء للتحقق من مطابقة النسخة الجديدة للنص الأصلي ، وكانوا أحيانا يوكلون مهمة النسخ الى الشخص الذي يعرف جيدا او الذي يمتلك نسخة جيدة، وكانوا يلتجئون الى الناسخ الذي يلازم المؤلفين المشهورين للحصول على النسخة الأصلية (89).

وبالرغم من الركود الذي أصاب الحياة الثقافية والعلمية بعد القرن 5 هـ / 12م، واصل الناسخون عملهم متعلقين دائما بالخط العربي البديع حتى في ظل الدولة العثمانية ، حيث ذكرت

---

(84) الحلوجي ، المخطوط .. نفس المصدر .

(85) المصدر نفسه، ص 125-141 " انظر ايضا يوسف العش"
Eche, Y, les bibliothèques arabes publiques et semi-publiques en Mésopotamie, en Syrie et en Egypte au Moyen âge, Damas, Institut Français d'Archéologie, 1967, p. 283.

(86) الزيات حبيب، " الوراقة والوراقون في الإسلام " في المشرق ، جويلية 1947 ، ظهرت ادبيات كثيرة للوراقين فتحدثوا عن مهنتهم وطريقة عملهم انظر المصرف، ناجي زين الدين، مصور الخط العربي ، بغداد، مكتبة النهضة ، 1974 ولنفس المؤلف كتاب ثان ، بدائع الخط العربي، بغداد مكتبة النهضة ، 1981، القلقشندي، صبح الاعشى .. نفس المصدر، ج 1 و 2 و 3 .

(87) من بين أنواع الخط نذكر الكوفي ، الريحاني المغربي والطليق والديواني والرقاع والنسخي والثلثي وغيرها.

(88) Eche, les bibliothèques ...op. cit., p. 274.

(89) Ibid, p. 275.

بعض المراجع عددا كبيرا من الخطاطين في تلك الفترة (90) . وهؤلاء اهتموا أساسا بالخط الثلثي والنسخي، وتركوا لنا تحفا فنية رائعة. وقد شغف بالمهنة حتى رجال السياسة مثل الامير كركوب (توفي في سنة 918 هـ / 1512م) وهو ابن بايزيد الثاني (91). وبلغ شغف هواة الخط العربي في عهد العثمانيين الى حد انهم كانوا يتهافتون على شراء احسن انتاج للناسخين بأثمان مرتفعة، وكانوا مولعين بالكتابة بخط اليد بشكل يفوق كل تقدير ولم يكونوا ليتحمسوا البتة للكتب المطبوعة بل انهم دافعوا على المخطوط بعض الأحيان وقاوموا عملية توزيع الكتب المطبوعة. ونذكر هنا بحادثة الاعتداء على تاجرين ايطاليين لكتب عربية مطبوعة في سنة 996 هـ / 1588م وما نتج عنها من قرار مراد الثالث ولكن رغم صدور هذا الفرمان، فان موقف المتعلمين لم يتغير كثيرا اذ بقوا يتداولون المخطوط الذي حافظ على مكانته المتميزة في كل الأوساط. وهنا نورد شهادة المستشرق الفرنسي قالان الذي زار المشرق، ولاحظ ان العرب والفرس والاتراك لا " يستسيغون الطباعة ولا يرون جدوى منها وأنهم يفضلون قراءة الكتب المكتوبة بخط اليد وان كانت الكتابة رديئة على قراءة كتب مطبوعة بأجمل الحروف العربية " (92).

ان هذه الظاهرة تتأكد من خلال هذه الرواية الأصلية وانه من الصعب تغيير العادات القرائية لدى شعب له ماض عريق مع المخطوط، وهذا من العوامل التي تسببت في بطء عملية تعويضه بالكتاب المطبوع. وهنا يقدم نفس المستشرق شهادة ثانية توضح تصرف المسلمين تجاه كل من المخطوط والمطبوع. فقد وجد في وراقة باستانبول كتابا لابن سيناء وهو **"القانون في الطب"** الذي طبع بروما من طرف الميدتشي سنة 1002 هـ / 1593م، وعلم ان الوراق لم يتمكن من بيعه رغم عرضه بثمن أقل مما يباع في الغرب، في الوقت الذي كان يبيع فيه نفس الكتاب مخطوطا بثمن باهض جدا (93).

لقد مر على صدور الكتاب الذي يتحدث عنه قالان أكثر من قرن، ورغم ذلك فلم يجد من يشتريه في المشرق رغم أنه طبع بحروف قرانجون وهي جميلة وتضاهي اجمل الخطوط العربية . ان المتعلم المسلم لا يتردد في شراء مخطوط ابن سيناء، ولو كان بثمن مرتفع ويعرض في نفس

----

(90) مثل " مناقب هينزفران" (تراجم الفنانين) الذين كتبه مصطفى دفتري في 995هـ- 1587م، وايضا " قلزار صواب" لنفس زاده الذي أهداه للسلطان مراد الرابع انظر :

Huart, clement Imbault, les Calligraphes et les miniaturistes de l'Orient musulman, Paris leroux, 1908, pp. 6-7.

(91) المصدر السابق ، ص 120 .

(92) Galland, préface de la Bibliotèque Orientale d'Herbelot, f 14.

(93) المصدر السابق.

الوقت عن شراء الكتاب مطبوعا (94). وهذا يدل على ان المسلمين يفضلون الخط العربي المكتوب باليد، على خط الطباعة ، ولم يفكروا في استبدال المخطوط بأي وعاء آخر. فبقي المخطوط بذلك سيد الموقف بعد قرن من ظهور المطبعة. ولم يعرض المسلمون فقط على طبع الكتب بل وكذلك على استعمال الكتب المطبوعة رغم ترخيص السلطان مراد الثالث بذلك. ولم تكن القوانين كافية لتغيير سلوك وعادات القارئ المسلم، اذ لابد من ان يسبقها تمهيد للميدان واعداد للعقول لقبول التغيير بل ان بعض العقول كانت تشك وترتاب في الكتاب المطبوع لانه قادم من بلاد المسيحيين (95). وليس من السهل قبول هذا " الاكتشاف الثقافي" الذي جاء لتحدي المخطوط والقضاء عليه في جو كان يسوده صراع عنيف بين بلاد الإسلام وبلاد المسيحية .

ان المخطوط أداة ثقافية لعبت دورا بارزا في تقدم ونمو الحضارة الإسلامية منذ ظهور المؤلفات العربية الاولى. كما أنه حافظ ولا يزال على التراث الفكري للامة وهو همزة وصل بين الماضي والحاضر ويؤمن التواصل بالنسبة للثقافة العربية الإسلامية . كما يعد أحد ركائز هذه الحضارة المكتوبة ولذلك فان المحافظين يعتقدون ان في اهماله والإنصراف عنه الى المطبوع، تعبير عن عدم اعتراف بمجهود الأجداد وقطيعة مع الماضي الزاهر وليس المخطوط مجرد وعاء معلومات بالنسبة للمسلمين، بل هو أداة حضارية لعبت دورا خطيرا في تقدم الثقافة العربية. لذلك فإن لحوار حوله كان مناسبة للتفكير في مستقبل الحضارة الإسلامية (96) وفي استعارة بعض الأساليب الفنية من عالم معاد لهم وإعطاء في نهاية الامر شكلا جديدا للثقافة. وهو شكل الكتاب المطبوع. ان تواصل العمل بالمخطوط يعني تواصل الشكل القديم للحضارة ولهذا كان موضوع هذا الوعاء من أهم محاور الحوار (97).

ان مهمة أنصار المطبعة في الرّد على هذه الإعتبارات والحجج ليست سهلة وكان عليهم ابراز دور الكتاب المطبوع في تحديث الحضارة الإسلامية فبدأوا بتوجيه نقد لاذع للمخطوط الذي لم يعد قادرا على تأمين التواصل بين ماضي وحاضر ومستقبل هذه الحضارة .

----

(94) تهافت المستشرقون على عكس ابناء الشرق على اقتناء كتاب ابن سينا. بل الاكثر من ذلك أعدوا طبعه في القرن 11 هـ / 17 م مثلما فعل الالماني كيرستن الذي نشر الكتاب في برسلو (بولونيا) في 1018 هـ / 1609 م.

(95) يقول الاب نيكولا بوارسون رئيس بعثة المبشرين اليسوعيين في سوريا وبلاد فارس في هذا الصدد سنة 1063 هـ / 1652 م: تتم كتابة الكتب في هذه البلاد بخط اليد وتجد هذه المخطوطات قبولا حسنا لان الكتب المطبوعة تعتبر افرنجية وبالتالي فهي محل ريبة .
RABBAT, A, Documents ...op. cit., T1 p. 51.

(96) Chenoufi, Moncef, "Le problème des origines de l'imprimerie et de la presse arabes en Tunisie dans sa relation avec la Renaissance "Nahda", Paris, Sorbonne, 1970, F. 19-21 (These dactylographiée); voir aussi DEMEERSEMANN, A, " Les données ...op.cit., " in IBLA, n 65, 1954, p. 32.

(97) CHENOUFI " le problème... op. cit., " F 859.

ان عدد المخطوطات، حسب قول احد المجددين العثمانيين وهو ابراهيم متفرقة، بدأ في التناقص بسبب احداث تاريخية مؤسفة، الى درجة ان خطر اختفاء جل المؤلفات الإسلامية بدأ يحدق بجدية على تراث الأمة. فقد عرفت اكبر المكتبات الإسلامية مصيرا قاتما عند غزو التتار للمشرق الإسلامي والذين أحرقوا الكتب وألقوا الكثير منها في الانهار. وعرفت مكتبات الاندلس نفس المصير المظلم. كما ان الحروب الداخلية التي دارت بين الأمراء المسلمين تسببت في اتلاف أمهات الكتب وعديد المؤلفات الثمينة كما ضاعت نسبة أخرى من المخطوطات بين رفوف المكتبات المهملة(98).

وقد أراد متفرقة ان يبرز بأن الناسخين في عصره غير قادرين على تعويض هذا النقص الفادح من الكتب الذي أضر كثيرا بالعلوم والآداب، فهم عاجزون على نسخ ومضاعفة عدد الكتب في كل المواضيع والتي اصبحت نادرة وباهضة الثمن ، وكذلك على انقاذ التراث الفكري المكتوب من التلف. اضف الى ذلك كله الإستجابة للطلب اليومي للقراء وهذا في عصر كما يقول متفرقة كان فيه الناسخون غير واعين بخطورة الامر وغير نشيطين في عملهم (99).

ولم يقتصر تهجم انصار المطبعة على المخطوط فقط، بل تجاوزوه الى الناسخين الذين لا يقدرون أهمية دورهم في نقل المعرفة والحفاظ على التراث، فهم لا يتحمسون لنسخ المجلدات الضخمة القديمة التي ندر وجودها وحتى عند نسخهم للكتب الاخرى، فانهم يرتكبون اخطاء لا تحصى في الرسم ويغفلون عن كتابة كلمات وفقرات من المخطوط . وهذا ما أشار اليه أحمد الثالث في نص الفرمان الذين اصدره في 1139هـ / 1726م، عند حديثه عن الناسخين : "انهم يتباطؤون في عملهم ولا يعيرونه الانتباه اللازم ويصل جهلهم احيانا الى حد كتابة نسخ مليئة بالأخطاء وبالكلمات المنقوصة "(100). كما علل ابراهيم متفرقة هذا التصرف باهمال الناسخين وعدم معرفتهم لقواعد رسم اللغة(101) . ويبين متفرقة نتائج هذا العمل الردئ وهي ظهور نصوص غير مطابقة للأصل مما ينعكس سلبا على سير الدروس العلمية اذ يضطر المدرس والطلاب الى

---

(98) ابراهيم متفرقة رسالة وسيلة الطباعة " ص 196.

(99) المصدر نفس.

(100) فرمان السلطان احمد الثالث الذي يرخص باقامة مطبعة باستانبول.
Rev. Bib, 1895, n 5 p .198.

(101) متفرقة " رسالة وسيلة الطباعة ، ص 196-197.

يقول في نفس السياق الرحالة دي لافيلا الذي زار سوريا في 1034هـ / 1625م " لا يوجد لدى الشرقيين الا القليل من المخطوطات لان الناسخين يقضون وقتا طويلا لكتابتها. وفي العادة لا يوفقون في تدوين النسخ نتيجة جهلهم واهمالهم واسراعهم الكبير في الكتابة للحصول على المال مقابل العمل " ذكر في : Chevillier, A, L'origine... op. cit., .p 270.

التوقف عن الدرس والانكباب على التحقق من مطابقة النسخ لبعضها البعض واصلاح الأخطاء وهذا الأمر يتسبب في ضياع وقت ثمين لم يكن ليحدث لو اعتمد المثقفون على الكتاب المطبوع. ذلك لانه قبل اعطاء الإذن بسحب الكتاب على آلة الطبع، يقع التثبت واصلاح كل الاخطاء من طرف علماء مقتدرين (102). وقد ركز أنصار المطبعة ردودهم على نقد عمل الوراقين العثمانيين وخاصة على تهاونهم واهمالهم وتباطئهم في العمل ولم يكفهم ان كان المخطوط نادرا في ذلك العصر، بل ان الناسخين اساؤوا الى المثقفين بنسخ كتب مليئة بالأخطاء، نتيجة جهلهم وعدم درايتهم بقواعد اللغة والرسم وهذا على عكس ما كان عليه أسلافهم في الماضي من تفان ودراية عالية في التوريق . ونتيجة لهذا الوضع فان انجع حلّ حسب رأي انصار المطبعة، يكمن في تعويض المخطوط بالكتاب المطبوع .

4. 2 - الكتابة العربية :

ما هي ردود فعل المسلمين تجاه التحولات التي ستلحق بالخط العربي في صورة تعويض قلم الناسخ بحروف المطبعي ؟ وما هي مكانة الخط العربي في المجتمع الاسلامي ؟ .

وللإجابة على هذا السؤال سنتناول بالدرس الجوانب الاجتماعية والفنية للخط العربي .

4. 2. 1 - الجانب الفني للخط العربي :

تعوّد المثقفون على قراءة مخطوطات جميلة مكتوبة بخط عربي بديع، ولم يكن من السهل تحويل الأذواق من قراءة نصوص مكتوبة بخط اليد الى حروف الطباعة (103). ان الكتابة العربية تمثل الى جانب وظيفتها العلمية نشاطا فنيا من الدرجة الأولى. فكيف حدث هذا التطور في تاريخ الخط العربي . وما هي ابعاد هذا الجانب الفني في الحوار الجاري بين معارضي وأنصار المطبعة .

انتشر الحرف العربي في فجر الإسلام بسرعة كبيرة. وساعد على ذلك الفتوحات الإسلامية خارج شبه الجزيرة العربية، وكان مرتبطا بتوسع استعمال العربية التي هي لغة القرآن والثقافة التي تخاطبت بها عدة شعوب غير عربية دخلت الإسلام وتعلمتها لتلقى تعاليم الإسلام والاندماج مع العرب الأصليين والتعامل مع ادارة الدولة التي عربت في عهد الخليفة الأموي عبدالملك. ووصل الأمر إلى حد أن العربية عوّضت بعض اللغات المحلية كما ان الحرف العربي استخدم لرسم لغات غير عربية لبعض الشعوب الإسلامية . ان هذا الحرف له مكانة خاصة لدى المسلمين باعتبار انه استعمل

---

(102) متفرقة رسالة ... "نفس المصدر"، ص 198-200.

(103) يقول سيمان نقري وهو مسيحي من الطائفة الاورثودكسية بسوريا عاش في القرن 12 هـ / 18 م معللا امتناع الشرقيين عن اقامة مطابع . بولعهم الشديد بالكتابة بخط اليد فهم متعودون على استعمال المخطوطات الجميلة وليس لهم أي حافز لاستخدام الكتب المطبوعة Chauvin, V, " Notes ...op. cit., "p. 257.

لرسم الأيات القرآنية .

ان الخط العربي يعني بالنسبة لهذه الشعوب الشعور بالإنتماء الى دين وثقافة وتاريخ مشترك وبالتالي الى الحضارة الإسلامية (105). وقد بذلت كل هذه الشعوب جهدا كبيرا وسخرت كل تجاربها لتحسين الخط العربي وإعطائه رونقا خاصّا وبما أن جلّ الائمة والفقهاء افتوا بتحريم التصوير في بداية الإسلام (106) . فقد سخر الفنانون كل مواهبهم للابداع في رسم الحرف العربي واصبحت هواية كل الفنانين وكذلك العلماء الذين حرصوا على التفاني في كتابة كلام الله بخط جميل ليكون في مستوى قدسيته.

ويخصص ابن خلدون فصلا في المقدمة للحديث عن هذا الموضوع، فأثنى على الكتابة العربية واعتبرها في مرتبة عليا بين العلوم النبيلة، وانها من عمل أهل الحضر (107) وللوصول الى هذا المستوى الرفيع من الإتقان عمل الفنانون على تطوير جملة من فنيات وأدوات الناسخ مثل القلم او القصبة وطريقة مسكه والحبر وكيفية اعداده واختيار الورق واستنباط الخطوط الجديدة وانعكس كذلك على ادبيات بعض الوراقين (108).

وقد شغف المسلمون بفن الخط العربي وتسابق المتعلمون في اقتناء المخطوطات المكتوبة بأجود الخطوط العربية، ولم يكنْ من السهل تغيير مثل هذه التقاليد الفنية والاذواق وتحويلها نحو حروف الطباعة العربية. وقد عبّر احد العلماء المسلمين عن تعلقه بالكتابة المخطوطة وهو استاذ طب بالقاهرة الذي ذكر في 1040 هـ / 1630 م" انه من السهل فهم الكتابة بخط اليد اكثر من الكتابة المطبوعة (109). ان هذه المقارنة البسيطة بين كلا الشكلين في الكتابة، تبين ان هذا العالم لا

---

(105) يقول مكسيم رود نسون " ان الكتابة رمز في نظام اجتماعي، رمز انتماء لحضارة قائمة على ايديولوجية اي بالنسبة للفترة التي تتحدث عنها على ديانة معينة " Rodinson, M, " le Monde islamique et l'extension de l'écriture arabe" In, L'Ecriture et la psychologie des peuples" Paris, Colin, 1963, p. 268.

(106) اختلف الفقهاء في مسالة تحريم او اباحة التصوير فهناك من يرى انه كان مكروها ولم يكن محرما تحريما صريحا وهناك من يقر باباحيته ما دام بعيدا عن الوثنية وعن شبهة منافسة الخالق في حين هناك من استمسك بتحريمه ولمزيد المعلومات يمكن النظر في : الباشا حسن، **التصوير الإسلامي في العصور الوسطى** ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية، 1959، ص 9- 15 ، تيمور احمد، **التصوير عند العرب** ، القاهرة ، اخراج زكي محمد حسن ، ص 128 .

(107) ابن خلدون ، **المقدمة** ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، 1956 ، ص 754 .

(108) كتبت اشعار ورسائل لمدح القلم والحبر والتحدث عن الخط وطريقة الكتابة مثل اقول ابن البواب في الريحاني او رسالة ابي حيان التوحيدي في علم الكتابة وارجوزة النسابة الوضاحة لاصول الكتابة انظر : القلقشندي ابو العباس احمد بن علي ، **صبح الاعشى في صناعة الإنشا** ، القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، جزء 1 و 2 و 3 .
ناجي ، زين الدين ، **مصور الخط ... نفس المصدر** ، ص 338 - 396.

(109) Stochove, Voyages ... op.cit., p. 440.

يعتقد بأن أحرف الطباعة يمكن ان تكون واضحة مثل خط الناسخ ويعبرالاستاذ عن تشاؤمه حول المصير خط العربي اذا ما اصبح يكتب باحرف الطباعة اذ أنها ستشوه الكتابة العربية الجميلة.

ان اطلاع المسلمين على عينات من نصوص مطبوعة جعلهم لا يطمئنون الى فن الطباعة ويرون فيه تشويه للخط العربي الجميل ذلك لان الكتب العربية المطبوعة بأروبا التي وصلت الى المسلمين قد أعطت فكرة سيئة عن " حروف الطباعة" وقد عّبر عن هذه الإشكالية بأكثر تفصيل ابراهيم متفرقة الذي أكد ان المنشورات العربية بأروبا قد تعّرف عليها المسلمون الا أنه اعترف بأنها لم تجد اقبالا من لدنهم، لا لشيء سوى انها طبعت بأحرف عربية رديئة ومليئة بالأخطاء، والسبب في ذلك حسب متفرقة هو افتقاد أروبا لاشخاص قادرين على حفر حروف عربية جميلة (110).

ان هذا التعليل ينطبق فعلا على الكتب الأولى فقط، حيث طبعت بأحرف غير متناسقة وبدت الكتابة غير واضحة الامرالذي لا يقبله ابناء الشرق (111). وفي الحقيقة هناك مشكلة فنية اعترضت الأروبيين عند بداية تعاطيهم الطباعة بالأحرف العربية ، وتتمثل في صعوبة رسم الخط العربي بأحرف مطبعية . ان مبدأ الأحرف المنفصلة الذي اكتشفه غوتنبرغ ينطبق على الهجائية اللاتينية التي تقبل بمبدإ فصل الحروف وهذا لا يتماشى مع طبيعة الكتابة العربية التي تَبقى على ترابط الاحرف في الكلمة الواحدة وبدون ذلك يكون النص متقطعا. ان هذه المشكلة الفنية لم تشجع المسلمين وخاصة المحافظين منهم على طبع كتبهم واعتبروا المطبعة خطرا يهدد الخط العربي ويهدم احد اروع الفنون التي شهدتها الامة الإسلامية. ويلاحظ ديمرسمان في هذا الصدد ان قبول احرف الطباعة يمثل قطعا فائدة عملية ولكنه يعني في نفس الوقت قبول التشويه(112).

امام هذا الموقف المتصلب من طرف انصار المخطوط والكتابة العربية بخط اليد، كيف كان رد فعل انصار المطبوع؟ وما هي الحجج التي قدموها لتأييد مواقفهم في هذه المسالة . لقد سبق ان رأينا ان ابراهيم متفرقة قد نقد عمل المطبعيين الأروبيين الذين اصدروا كتبا عربية واعترف بوجود

---

(110) متفرقة ، رسالة ... نفس المصدر، ص 199.

(111) مثال ذلك كتاب صلاة السواعي وهو كما رأينا اول كتاب عربي مطبوع ، صدر في فانو بايطاليا سنة 919 هـ / 1514م؛ وايضا رسالة بولس الرسول الذي طبع في هايدلبرغ سنة 991 هـ / 1583 م وكل هذه الكتب طبعت باحرف عربية رديئة ومتقطعة وبعيدة عن المخطوطات العربية الجميلة .

(112) Demersemann, " les données ... op. cit, in IBLA n 65, 1954, p. 40.

نشير إلى ان الكتابة بحروف عربية متصلة مع بعضها في الكلمة الواحدة بقيت مستعملة الى اليوم على عكس الكتابة اللاتينية. كما ان محاولات استعمال الحرف اللاتيني عوضا عن الحرف العربي في الكتابة . قد باءت بالفشل مثل محاولة عبد العزيز فهمي الذي اقترح مشروعا في هذا الصدد سنة 1944 ، ولقي كذلك معارضة شديدة . نشير كذلك الى ان مصطفى كمال قد عوض بتركيا الحرف العربي باللاتيني لكتابة اللغة التركية ، الا ان محاولته لم تتوسع الى بقية البلدان المجاورة .

مشكلة فنية، الا انه كان متفائلا بخصوص مستقبل النشر العربي. اذ ليس من الصعب على الأروبيين تجاوز هذه العقبة ويكفي أن توكل المهنة الى حفارين ماهرين قادرين على سبك القوالب وطوابع الأحرف العربية حتى تكون شبيهة بالكتابة بخط اليد (113). من خلال هذا الرأي يمكن ان نستشف بان متفرقة يقصد انه اذا كان بامكان الاروبيين تجاوز هذا العائق، فالأمر يكون أيسر بكثير بالنسبة للشرقيين الذين يحذقون اللغة العربية ويقدرون على سبك احرف جيدة لها تضاهي كتابة المخطوط . نشير هنا ـى متفرقة لم يطلع على التطور الفني الذي عرفته الطباعة العربية بأروبا منذ القرن 11 هـ / 17م، وإلا لما ذكر تلك التخمينات والأمال حول امكانية تحسين عملهم فقد توصل الأروبيون فعلا الى حل المشكل الفني حيث قاموا بإعداد الأشرطة الرابطة بين الأحرف ونقشوا قوالب لأحرف جميلة شبيهة بكتابة المخطوطات وتمكنوا بذلك من طبع نصوص عربية بخط بديع (114).

حرص انصار المطبعة على القيام بتجارب عملية بأنفسهم حتى يقنعوا المعارضين وخاصة السلطات بأنه لا خطر على الكتابة العربية من المطبعة، فتولى احدهم وهو ابراهيم متفرقة اعداد عينة من قوالب واحرف عربية وقدمها مع رسالته الى العلماء ورجال الباب العالي (115). بل انهذهب أكثر من ذلك لطمأنتهم على مصير الخط العربي، فذكر بعض الفوائد للحبر الذي يستخدم في المطبعة من بينها انه لا تؤثر فيهالرطوبة ولا يقع كشطه بسرعة كما هو الحال بالنسبة للمخطوط (116). انه من البديهي انه كما يستخدم المطبعيون هذه المادة يمكن ان يستخدمها كذلك الناسخون ان هذه الحجة غير متينة مثل بقية الحجج .

4. 2. 2 - مكانة الخط العربي عند العلماء المسلمين :

الى جانب ولعهم بفن الكتابة العربية، كان المسلمون يولون للحرف العربي الاحترام الكامل باعتباره الرسم الذي دونت به الآيات القرآنية. فالكتابة العربية كانت الأداة المادية لنقل رسالة الإسلام والحفاظ على نص القرآن ونص الحديث النبوي الشريف. ولذلك كانت محل عناية فائقة من طرف العلماء الذين اهتموا منذ فجر الإسلام بنسخ كتاب القرآن وتسابقوا في اخراج أكبر عدد ممكن من النسخ (117) . ولهذا لم يكن من السهل تعويض هذا العمل اليدوي بآلة قادمة من بلاد

---

(113) متفرقة، رسالة ... نفس المصدر، ص199

(114) مثل : مطبعة الميدتشي بروما.

(115) GERCEK, S. N; Turk... op. cit., p. 46.

(116) متفرقة ، رسالة ... نفس المصدر ، ص 198.

(117) الحوجي، المخطوط ... نفس المصدر .

المسيحيين. ان في طبع الكتب بأحرف عربية كما يراه بعض العلماء اعتداء " على مكانة هذه الهجائية وفي الإعتداء على هذه الكتابة اعتداء على كتاب القرآن نفسه(118). ان هذا الكتاب سيفقد في نظر هؤلاء " قيمته الروحية" اذا كتب " بأحرف من معدن" كذلك ان استعمال فن الطباعة يعني في نظر بعض المؤمنين " خيانة" لأصالة الرسالة المحمدية. انهم يخشون من قيام أناس انتهازيين منافقين بطبع كتب اسلامية محرفة ومشوهة(119). ويكون المسلمون قد خانوا الأمانة التي نقلها لهم أسلافهم الأوائل وهي وبالخصوص كتاب القرآن وكتب الاحاديث التي دونت بأمانة وبدقة متناهية وبعد تحريات كبيرة .

ان هذا الحذر الشديد قد يكون مأتاه ما ورد في القرآن الكريم من اشارات الى حفظ القرآن وصيانته وتاكيد على قيمة الكتابة وأوعية وأدوات الكتابة. لقد أشارت عدة آيات الى أن الله تعهد بحفظ القرآن من كل تشويه يمكن ان يلحقه مثلما حدث للكتب السماوية السابقة.

فقد وردت آيات قرآنية تطمئن المؤمن على مصير كتاب القرآن فالله عز وجل تكفل بحفظه" انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون" (الحجر 9) فقد قرر الله تعالى انه هو الذي انزل الذكر وهو القرآن وهو الحافظ له من التغيير والتبديل(120)، وأكد أن هذا القرآن العظيم هو محفوظ في الملا الأعلى وهو يسهر على حفظه من الزيادة والنقص والتحريف والتبديل(121) " بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ" (البروج، 21-22) وعن طريقة تبليغه الى الناس كافة يأمر الله تعالى رسوله الكريم (صلى الله عليه وسلم) انه اذا جاءها ملك بالوحي ان يستمع له ويتكفل الله بجمعه

---

(118) يقول المستشرق الفرنسي قالان في آخر القرن 17 حول هذا الموضوع : رفض المحمديون النسخ التي جئنا بها خشية أن يقع فيما بعد ادخال كتاب القرآن مطبوعا وهو في نظرهم اكبر انتهاك لحرمة هذا الكتاب . GAL LAND; Préface... op. cit.,F. 14.

كما يقول الرحالة بيسباك في القرن 10 هـ / 16 م :

" لا توجد اي امة اجنبية في تفتحها وقبولها للمكتشفات القادمة من شعوب اخرى (مثل الامة التركية) فهي لم تتردد في استخدام المدافع والجوامع وغيرها من الاشياء العديدة التي تظهر عندنا بل كانت تقبل عليها بشغف كبير. الا انها لم توافق على استعمال الطباعة والساعات العمومية ذلك لان الدين رفض ذلك خوفا من ان يفقد كتابهم المقدس في صورة طباعته قدسيته وان تنقص كذلك الساعات العمومية بعض نفوذ المؤذنين والعلماء" .

Busbec, Ambassades... op. cit, pp 342-343.

(119) صابات خليل، تاريخ نفس المصدر ، ص 21 . انهمن المفيد معرفة ردود فعل المسلمين ازاء طبعات كتاب القرآن باروبا (طبعة هنكلمان بها مبورغ سنة 1106هـ/ 1694 ومارشي في بادوا في 1109 هـ/ 1698م) الا ان المصادر التي اطلعنا عليها لا تشير إلى هذه النقطة بل ربما لم يقع البتة توزيع هذه الكتب بالمشرق .

(120) ابن كثير ، اسماعيل القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم ، بيروت دار المعرفة ، 1969، جزء 2 ، ص 547.

(121) المصدر السابق .

فيصدره وتيسيره لأدائه على الوجه الذي القاه اليه (122) " لا تحرك به لسانك لتعجل بهان علينا جمعه وقرآنه" (القيامة 16-17). اما عن الطريقة التي توخاها الرسول صلى الله عليه وسلم في نقله الى الصحابة فكان لها وجهان: نقل شفاهي (123) ونقل كتابي وكلا الوجهين يتكاملان لحفظ القرآن وتروي كتب السيرة أنهفي كل مرة ينزل الوحي ، كان الرسول يدعو بكتبة القرآن لتدوين الآيات المنزلة في أبانها (124). وهذه العملية بالذات كانت جوهرية للحفاظ على نص القرآن من كل تحريف، لان الإسلام يعطي للكتابة مكانة متميزة لحفظ تعاليم الإسلام ونقلها عبر العصور الى كافة البشر وكذلك لتنظيم العلاقات بين المؤمنين من ذلك كتابة العهود والديون والعقود والحسابات وخاصة لتعليم المسلم ولبث المعرفة والعلوم (125).

لقد أعطى القرآن أهمية بالغة أيضا لأدوات وأوعية الكتابة. من ذلك انه استعمل بعضها للقسم للدلالة على مكانة العلم والقراءة والكتابة في حياة المسلم مثل القلم : "ن والقلم وما يسطرون" (القلم1) وكذلك الرق وهو جلد الحيوان يرقق ليكتب عليه" والطور وكتاب مسطور في رقّ منشور " (الطور 1-3).

لم يفرض الإسلام على المؤمنين استعمال اداة من ادوات الكتابة دون غيرها أو وعاء دون وعاء . فالمهم هو أن يتعلم المسلم ليفهم دينه ويتدبر آيات الله وعظمته ويفيد غيره من اخوانه بعلمه، لذلك سرعان ما عوض المسلمون أوعية المعلومات القديمة بوعاء جديد لا يزال يستعمل الى اليوم وهو الورق الذي عوض بمرور الزمن الرق والبردي وغيره. وحدث تطور كبير في طريقة رسم الحروف العربية ووضعت العلامات والحركات عليها ، واستعمل حبر متطور في الكتابة واستخدم ماء الذهب في بعض الأحيان لنسخ مصحف القرآن وهذا التنوع في الشكل لم يمس النص الأصلي للقرآن بسوء. كان ذلك في عهد ازدهار حضارة المسلمين. الا انه مع تدهور حالهم وجمود حياتهم الثقافية، لم تعد لديهم الرغبة ولا الاستعداد لتبديل أي شيء فيما يتعلق بأمور شكلية. ان تحفظ المسلمين حول تغيير الكتابة المخطوطة بكتابة مطبعية كأن مأتاه الريبة والخشية من تغيير نص القرآن

---

(122) المصدر السابق .

(123) حرص المسلمون على حفظ السور القرآنية عن ظهر قلب مع احترام قواعد القراءة . فظهر علم القراءات والتجويد والتلاوة .

(124) يروي البخاري ان الرسول (صلى الله عليه وسلم) قال لاحد الصحابة " ادع لي زيدا وليجيء باللوح والدواة والكتف او الكتف والدواة " كما يروي عن ام سلمة أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) دعا باديم وعلي بن ابي طالب عنده فلم يزل رسول الله يملي وعلي يكتب حتى ملا بطن الاديم وظهره واكارعه . مرّت عملية تكوين اول كتاب عربي وهو القرآن الكريم بعدة مراحل هي مرحلة التدوين في عهد الرسول(صلى الله عليه وسلم) ومرحلة الجمع في عهد ابي بكر ومرحلة توحيد المصحف في عهد عثمان واخيرا مرحلة ضبط القرآن ووضع العلامات والحركات في عهد الدولة الاموية والعباسية . انظر الحلوجي . المخطوط... نفس المصدر ، ص 67-99 .

(125) المصدر السابق ، ص 67-69.

والحديث وهذا الحذر عبّر عنه بصفة غير مباشرة شيخ الإسلام في عهد السلطان أحمد الثالث، حيث طلب منه الإفتاء في قضية الطباعة ان الالتجاء ذاته الى الإفتاء يدل على أهمية الموضوع الذي لا يتجرأ السلطان نفسه الحسم فيه قبل استشارة العلماء والفقهاء ، رغم أنه يتمتع بالسّلطة الدينية والدنوية فكيف تم عرض المسألة على شيخ الإسلام للبت فيها : " اذا أراد شخص سبك أحرف من معدن لطبع كتب التراث والعلوم مثل المعاجم وكتب الفلسفة والمنطق والفلك وغيرها هل ترخص لهالشريعة باقتناء مثل هذه الكتب لطبعها؟ (126).

ان صاحب هذا السؤال هو من انصار المطبعة وان لم يذكر اسمه ولا يستبعد ان يكون الصدر الأعظم نفسه ابراهيم داماد أو ابراهيم متفرقة أو رفيقه في المشروع سعيد شلبي (127) . واتسم طلبه بالحذر اذ حدد مواضيع الكتب التي يريد طبعها. ويبدو انه يعلم يقينا ان العلماء لن يسمحوا له بطبع كتب الفقه والعلوم الدينية فالعقول غير مستعدة للدخول في " مغامرة" منذ الوهلة الأولى بطبع مثل هذه الكتب ورغم هذا الطلب "المعتدل"، فقد أظهر المفتي بعض التردد الى درجة ان الوزير الأكبر هدد بعزله من منصبه في حالة الرفض (128) .ان شيخ الإسلام لم يكن مستعدا لتحمل مسؤولية اتخاذ قرار خطير مثل هذا ، ويمكن ان يكون غير متحمس للمشروع الا ان ضغط الباب العالي جعله يذعن ويوافق على اقامة المطبعة. وقد جاء في نص الفتوى :

" اذا تمكن احدهم من طبع الكتب المذكورة أعلاه بأحرف معدنية بدون أخطاء، فانه سيسهل العمل ويوفر نسخا كثيرة من الكتب بثمن زهيد وييّسر اقتناء الكتب. إني اقر ان لهذا الفن فوائد عظيمة ويستحق التشجيع ولا ينبغي البتة تأجيل استخدامه بشرط أن يتم اختيار اناس ماهرين لاصلاح الأغلاط قبل الطبع والتثبت من مدى مطابقة النسخ للمخطوطات الأصلية" (129).

. لقد تّم الترخيص من المفتي لاقامة مطبعة اسلامية بالبلاد العثمانية، مع بعض الشروط اولها : عدم طبع كتب عن الشريعة الإسلامية بما ان الفتوى اقتصرت على المؤلفات المذكورة اعلاه" أي في نص طلب الفتوى وهي كتب الآداب والعلوم الأساسية. اما الشرط الثاني فهو اخراج كتب سليمة من الأخطاء ومطابقة للأصل . وقد انتهى الحوار حول مسألة الطباعة الى اتفاق بين الشق المعارض

---

(126) ورد نص فتوى شيخ الإسلام سنة 1139 هـ / 1726 م في مقدمة أول كتاب اصدرته مطبعة استانبول صحاح الجوهري كما وردت الترجمة الفرنسية في Rev. bib, 1895, pp. 191 - 192

(127) انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب .

(128) GERCEK, Turk... op. cit., p. 46.

(129) فتوى شيخ الإسلام .

والمؤيد لها وهو الموافقة على استخدام فن الطباعة دون مس كتب الشريعة الاسلامية (130). ان التيار المحافظ انتصر في هذه النقطة واضطر التيار الإصلاحي الى الرضوخ امام تصلب العلماء الى القرن 19م (131). فقد اكد السلطان عبد الحميد الاول سنة 1198هـ / 1784م رفضه لطبع كتب الشريعة (132) . لقد بقي في نفوس المتعلمين بعض الشك حول مدى قدرة آلة الطباعة على نسخ كتاب القرآن وبقية كتب الشريعة بدون اخطاء . أضف الى ذلك عدم استعدادهم لكتابة آيات الله بأحرف معدنية. كذلك هناك عامل آخر شجع على اتخاذ هذا القرار، وهو أن كتاب القرآن وكتب السنة النبوية بالذات غير معرضة للاندثار، انها غير نادرة فهي مطلوبة بكثرة من طرف المؤمنين وكان الناسخون يستجيبون للطلبات، عكس المؤلفات العلمية والأدبية التي هي في تناقص في ذلك العصر.

ان المطبعة بالأحرف المتنقلة، هي اكتشاف أروبي، الا أنها اصطبغت عند ادخالها الى بلاد المسلمين بخصوصيات المشرق لتصبح " شرقية" (133).

4. 3 - العلماء المسلمون والمطبعة :

من الضروري معرفة المناخ الفكري الذي عاش فيه العلماء المسلمون في عهد العثمانيين فكيف كانوا يرون المطبعة؟ كيف كان تفكيرهم ؟ وما هي آراؤهم وبراهينهم لقبول أو رفض المطبعة ؟

4. 3. 1- حالة الآداب والعلوم في استانبول:

عاش المجتمع العثماني "عصره الذهبي" على المستوى الثقافي والعلمي من فتح بيزنطة الى

---

(130) يقول ابراهيم متفرقة في احدى مذكراته: " أصدر مولانا السلطان خط همايون يسمح بمقتضاه اقامة مطبعة لطبع كل الكتب باستثناء ما يتعلق منها بالدين والفقه مثل المعاجم والمؤلفات الطبية والفلكية والفلسفية والجغرافية وكل الكتب التاريخية والعلمية
" Note de Mutafarrika a " in: Rev. Bib, 1895, p 200.

(131) صدرت في تلك الفترة فتوى باستانبول تجيز طبع كتب الدين والفقه اخذوا بالمذهب القائل " الامور بمقاصدها " رضوان ، تاريخ ... نفس المصدر ، ص 16.

(132) انظر نص فرمان السلطان عبد الحميد الاول لاعادة فتح مطبعة القسطنطينية في Toderini, De la litterature... op. cit., T III? p. 227.

(133) طبع كتاب القرآن لاول مرة من طرف المسلمين خارج حدود الامبراطورية العثمانية وذلك في سان بتسبورغ في 1201 هـ / 1787 م ، بمبادرة من مولاي عثمان ثم في بولاق بمصر في 1248 هـ/ 1833م واستانبول في 1291 هـ/ 1877 م .
يشير أبو الفتوح رضوان في كتابه الى ان علماء الازهر عارضوا في البداية طبع كتاب القرآن قبل ان يسمحوا بذلك سنة 1248 هـ/ 1833م الا أن احدى طبعات المصحف الشريف صودرت ومنع بيعها من طرف عباس الاول سنة 1268 هـ / 1853م ، نظرا لوقوع بعض الاخطاء المطبعية بها تاريخ مطبعة بولاق ، ص 277 - 282 .

وفاة سليمان القانوني (134). وقد عرف هذا العصر نشأة عدة مؤسسات علمية مثل مدارس محمد الثاني وبايزيد الثاني وسليمان القانوني وغيرها. وحظي فيه العلماء والأدباء بالعناية والرعاية من طرف الباب العالي، وظهرت فيه مؤلفات علمية قيمة وخضع التعليم فيه الى نظام صارم في مدارس داخلية وخارجية، كان فيها الأساتذة على مستوى عال من التكوين (135). ومع تراجع القوة العسكرية للعثمانيين بعد موت سليمان القانوني، خفت نور العلم والثقافة وتزامن ذلك مع فراغ خزينة الدولة التي تأثرت بتوقف الحروب والفتوحات التي كانت قد وفرت في السابق للدولة أموالا طائلة.

لقد ضعفت الحركة الثقافية والعلمية اذن بعد " العصر الذهبي" ولم يبدع العلماء العثمانيون كثيرا في مجال الفكر والأدب (136)، ولم يواكبوا ما يحدث بأروبا من تحولات فكرية هامة ولم يطلعوا على الاكتشافات التقنية هناك، حتى ان ابراهيم متفرقة تهجم عليهم لاهمالهم آلة الطباعة (137). بل حدث تراجع عما كان عليه الحال من قبل، اذ تم اقصاء العلوم الأساسية والفلسفية من المدارس في القرن 17 م. وتحدث عن هذا الوضع حاجي خليفة المعروف بكاتب شلبي (1018 هـ / 1609م - 1068هـ / 1657)، وهو أكبر عالم عثماني في القرن 11 هـ / 17 م (138) فتحدث في كتابه ميزان الحق عن الركود العلمي ونقد نقدا لاذعا العلماء الذين لا يعيرون اهتماما للعلوم الأساسية (139).

بدأت فترة الجمود بتحطيم المرصد الفلكي بغلاطيا (Galata) في 988هـ / 1580م وهو المرصد الوحيد من نوعه في البلاد العثمانية، أسسه مراد الثالث سنة 985 هـ / 1577م لدراسة

---

(134) INALCIK, Halil, The Ottoman Empire: ... op. cit., trad. N. Itzkowitz and K. Imber, London, Weidenfeld and Nicolson, 1973 pp. 167-181; ADNAN, A, la Science... op. cit., pp. 21-54 ; Toderini, De la litterature ...op. cit., T II pp. 15-40 ; GIBB, H. A. R. and BOWEN, H. Islamic Society and the West, a Study of the Impact of Western Civilisation on Moslem Culture in the Near East, Londres, New-york, Toronto, Oxford University press, 1959, T II, pp 81-114.

- الحياة الفكرية في الولايات العربية اثناء العهد العثماني، زغوان : مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، 1990، 3 اجزاء.

(135) INALCIK, The Ottoman ...op. cit., pp. 168-172.

(136) BOMBACI, A, Histoire de la littérature turque, Paris, Klinckoreck, 1968, p. 271; MANTRAN, Robert, Istanbul dans la seconde moitié du XVII è : Essai d'histoire institutionnelle, économique et sociale, Paris, Maisonneuve, 1961 pp. 420-421.

(137) يقول متفرقة " لقد تسرب في هذه الامة نوع من الكسل والتواني جعلها لا تهتم بكل ما يتعلق بالعلوم والاداب" رسالة وسيلة الطباعة ص 196.

(138) يعتبره أديفار عدنان " رائد النهضة التركية " انظر : ADNAN, La Science....op. cit., pp. 120.

(139) المصدر السابق ص 105-107. Bombaci, Histoire...op. cit., p. 309

جداول أولغ باغ (Ulugh-Beg) (140) الا أن شيخ الإسلام كان يرى في ذلك شكلا من أشكال السحر وطلب من الباب العالي هدم المرصد (141). ان حالة الركود التي عرفها العهد العثماني ليست من شأنها أن تفسر غياب المطبعة العربية . فاذا لم تقع اقامة مطابع عربية قبل 1139 هـ / 1726 م فليس ذلك بسبب عدم الحاجة الى الكتب . وكذلك فان عملية تأسيس مطبعة في تلك السنة لم يملها طلب متزايد للكتاب وهنا لا ينبغي الخلط بين أسباب ونتائج اقامة المطبعة وما توقفنا عند الحالة الفكرية للعثمانيين، فذلك لان هذا المناخ الثقافي يساعدنا على فهم ما حدث من حوار بين المحافظين والمجددين.

4. 3. 2 - موقف المحافظين من المطبعة :

هناك شهادة ثمينة تعود إلى القرن 11 هـ / 17 م وتصور موقف احد العلماء المعارضين لفن الطباعة وقد جاءت في شكل حوار دار في سنة 1040هـ / 1630م، بين أستاذ الطب بالقاهرة والرحالة ستوكوف حول فوائد ومضار المطبعة.

يبدأ الرحالة هذا الحوار بالتعبير عن استغرابه من رفض المسلمين لفن الكتابة الجديد الذي يفيد كثيرا في نسخ كتب العلم باعداد كبيرة. الا أن العالم المصري ابدى رأيا معاكسا لذلك، وبين ان لا جدوى منها " بل انها ضارة فهي توفر عددا لا يحصى من الكتب التي تتسبب في ادخال الاضطرابات على العقول عوض ان تجعل منا حكماء وان ظاهرة قلة الكتب عندنا لا تعني ان الحكمة تنقصنا ويكفي أن يحصل كل منا على كتب تتماشى مع مهنته ونمط معيشته لا غير، وينبغي الاعتدال في طلب الكتب ولا مجال الى الجشع حتى لا نقع في متاهات . ان النبي سليمان عليه السلام، الذي يعتبره الأتراك والمسيحيون من اكبر الحكماء، قد قرأ وكتب كثيرا ولم يكن يؤيد هذا الشغف بالكتب. كذلك نظرا لسهولة عملية الطبع فسوف يصدر عدد كبير من الكتب الرديئة الامر الذي لا يمكن حدوثه اذا كان النسخ بخط اليد لان هذه المهنة لا يتعاطاها الا أشخاص مؤهلون ذوو عقول نيّرة فلا يضيعون جهدهم وأموالهم في كتابة ونسخ كثير من الكتب السيئة التي تثلب الجمهور الخاص والعام" (142) . وهنا يطمئنهاالرحالة ستوكوف بأن هناك مراقبين يتولون تفحص الكتب قبل اعطاء الإذن بطبعها، ولا يسمحون بطبع " الكتب الرديئة " فكان رده" ان من طبيعة البشر الرغبة في ارتكاب المنوعات وبقدر ما يكون الكتاب ممنوعا ، بقدر ما يكون التهافت عليه كبيرا " (143).

---

(140) اولغ باغ (محمود طرغاي) امير مغولي (1393 م - 1449 م) حكم تركستان عالم فلكي وفقيه وشاعر ومؤرخ جعل من سمرقند آخر أكبر مركز للحضارة الإسلامية في العصر الوسيط. - وفيه اعدت جداول اولغ باغ.

(141) ALCIK, The Ottoman... op. cit., p. 179.

(142) STOCHOVE, Voyage ... op. cit., 139-141.

(143) نفس المصدر ، ص 141.

لم يقتنع العالم المصري بكلام الرحالة الأروبي، وبدأ، في رده جد مقتنعا بالبراهين التي قدمها لتدعيم رفضه لآلة الطباعة وهي تعبّر عن المفهوم الذي يحمله عدد من العلماء عن أداة الكتابة الجديدة فهو يرى أنه لا فائدة من الإكثار من الكتب ويكفي أن تقتصر مطالعة كل عالم ومتعلم على الكتب التي تدخل في اختصاصه واهتماماته دون غيرها. ان نظرته للثقافة ضيقة، فرغم ندرة المخطوطات، فانه يعتقد انها كافية ويقدم هذا الاقتراح المبتور حتى تنقطع الطريق امام الكتاب المطبوع وهذا ليس بالغريب ، فالعصر هو عصر جمود فكري وعدد المتعلمين ضعيف ورغبتهم في المطالعة أضعف .

ان أهم ما يشغل بال الأستاذ المصري هو خطر نشر عدد ضخم من " الكُتب الرديئة" أو "الكتب الممنوعة" الأمر الذي قد يتسبب في ادخال الفوضى في أوساط المثقفين . ولكن ما ذا يعني "بالكتب الرديئة او الممنوعة"؟. يمكن أن تقدم ثلاثة احتمالات أمام غموض الوثيقة فقد يقصد بالكتب الرديئة تلك المؤلفات التي تتناول الفلسفة والصراعات المذهبية بين المسلمين والمسيحيين التي طبعت بالعربية بأروبا. وقد تكون كتبا جدلية بين المسلمين والمسيحيين . فاما عن الاحتمال الأول فهو وارد اذا علمنا ان الفلسفة وبعض العلوم الأخرى قد اقصيت من المدارس، وان الصراع المذهبي في ذلك العصر كان قائما بين أهل السنة والشيعة والذي تبنته الدول القائمة آنذاك وبالذات الدولة العثمانية السنية والدولة الصفوية بايران الشيعية، وتجاوز الصراع فيها المستوى الفقهي بين العلماء ليتحول الى مواجهة عسكرية بين الطرفين . ولم يكن الباب العالي ليتسامح مع دعاة الشيعة داخل دولته، فقد واجه مثلا بعنف حركة الأمير الدرزي فخر الدين الثاني وقضى عليها ليس فقط لانها تطالب باستقلال جبل لبنان بل وكذلك لانها شيعية (144).

أما عن الاحتمال الثاني فهو يتعلق بالكتب المسيحية المطبوعة بالعربية بأروبا والتي وزعت بالمشرق . ولا يستبعد ان يكون صداها قد بلغ الى مسامع هذا الأستاذ. وخاصة تلك الحادثة التي هزت الباب العالي وتتمثل كما رأينا في توزيع كتب بروتستانية والتي حدثت قبل بضع سنين من اجراء هذا الحوار بين الرحالة الأروبي ستوكوف والعالم المسلم.

اما الاحتمال الثالث فهو كتب الجدل بين المسلمين والمسيحيين فالصراع الديني كان على اشده بين الطرفين واستخدمت المطبعة فعلا لتغذية هذا الجدال . فقد اصدرت مثلا مطبعة اليسوعيين بروما كتابا جدليا ضد الإسلام عنوانه"هذا مصاحبة روحانية بين العالمين واسم واحد منهما شيخ سنان واسم الأخر احمد العالم التي كانت في رجوعهما من الكعبة " كتبه احد الاقباط المجهولين

Chevallier, Dominique, La société du Mont-liban à l'époque de la Révolution industrielle en (144) Europe, Paris, Geuthner, 1971, p. 11, note 3.

ونشره الأب اليانو في 974 هـ / 1566 م، ليفنّد تعاليم الإسلام وكان في شكل حوار تخيله المؤلف بين شيخين مسلمين اثر عودتهما من مكة المكرمة أظهرا فيه اقتناعهما بالمسيحية حسب مذهب كنيسة روما .

ان قلق وتحفظ الأستاذ المصري، كان له ما يبرّره . فقد ظهرت عدة كتب مطبوعة بأروبا في القرن 11 هـ / 17 م تتناول مواضيع جدلية ضد الإسلام ولو تم توزيعها فعلا في أوساط المسلمين لحدثت ضجة كبيرة. الا أن الوثائق لا ستير الى انها وصلت الى ايدي المسلمين بل ان توزيعها اقتصر فقط على المسيحيين العرب. فمثلا اصدر مجمع نشر الإيمان بروما كتابا للأب الفابوري موجها الى الكاثوليكيين العرب كما يقول مؤلفه" اعلم أيها المؤمن بالمسيح انه قد يوجد للأمانة الأرثوذكسية في بلاد الشرق ثلاثة اعداء متضادين اي المسلمين واليهود والأراتقة وانت ملزوم بقتالهم ونقض بنيانهم على الدوام " (145).

اما كتاب الجدل للقسيس كوادانولوس فكان للرد على أحد العلماء المسلمين الذي كان قد دحض فيه المسيحية في رسالته" صاقل المرآة" وقدم كوادانولوس لذلك حججا لاثبات صحة الإنجيل " والتثليث" (146). اما عن طبعات كتاب القرآن في هامبورغ وبادوا في القرن 11 هـ / 17م ، فقد خصصت مقدمة كلتا الطبعتين للتهجم على الدين الإسلامي .

ان هذه العينة من منشورات أروبا رغم أنها ظهرت متأخرة عن شهادة الأستاذ المصري ، تمكن من ادراك مدى تخوف العلماء المسلمين من طبع كتب تتناول مسائل الصراعات الدينية والمذهبية او مواضيع فلسفية ونشرها على نطاق واسع، وما ينجر عنها من آثار سلبية. ولهذا فان الأستاذ المصري يفضل الاقتصار على استخدام المخطوط فهو مخصص الى فئة صغيرة من المجتمع ولا يسيء الى الدين ولا الى العقول. اذ أن مهمة نسخ الكتب موكولة الى اناس من ذوي الكفاءات العلمية والمستنيرة التي " تترفع" عن إحداث الفتن. ويعتقد استاذ القاهرة أن الثقافة طالما بقيت في مستوى النخبة، فلن يحدث الاضطراب . ويؤكد هذا الرأي شهادة اخرى لنفس الأستاذ الذي دعى الرحالة الأروبي الى التحاور معه حول مسائل اسلامية وتشريعية، مبينا له أن هذا النوع من المسائل يمكن تناوله مع الجمهور الخاص، الا انه من التهور إثارته مع جمهور العامة . ويبدو من هذا الموقف

---

(145) الفابوري ميخائيل . كتاب يشتمل على اجوبة اهل الكنيسة المقدسة القاتوليقية الجامعة الرسولية لاعتراضات المسلمين واليهود والهراتقة ضد القاتوليقيين. روما . مجمع نشر الإيمان ، 1681 ، ص 1 - 2.

(146) يقول كوادانولوس في مقدمة كتابه الجدلي : " فخذ الان يا قارئي الفقيه احديثك في هذا الكتاب باسرار الله وشريعة المسيح وانكشف اباطيل الغرور لتعرف حق المسيح " اجوبة القسيس فيليب كوادانولوس الى احمد الشريف زين العابدين الفارسي الإسبهاني . روما . مجمع نشر الإيمان . 1637 ص 2 .

ان هناك شبه" احتكار" للمعرفة من طرف أقلية من الناس ترى في نشر المعرفة على مدى واسع تهديدا للنظام الاجتماعي القائم. هذا اذن موقف احد المحافظين المعترضين على استخدام المطبعة ونظرته الضيقة للثقافة ودفاعه عن المخطوط الذي لا يقرأه الا الجمهور الخاص في المجتمع العثماني وتهجمه على الكتاب المطبوع الذي يمكن ان يصل الى فئات عريضة من المجتمع. فكيف كان رد فعل أنصار المطبعة ازاء هذا الموقف ؟.

4. 3. 3 - موقف المجددين من المطبعة :

ان أهم وثيقة تعبر عن موقفهم هي " رسالة وسيلة الطباعة" لمتفرقة الذي يقدم فيها عدة حجج ليبرهن فيها على مزايا فن الطباعة قبل تأسيس اول مطبعة باستانبول. وسنكتفي في هذه الفقرة بتحليل عام للرسالة بعد أن تعرفنا ولا نزال، على بعض آراء متفرقة وردوده على آراء المحافظين في هذا الموضوع.

تنقسم الرسالة الى ثلاثة أجزاء : تعرض الجزء الأول الى لمحة تاريخية عن اختراع الكتابة وكيفية استخدامها من طرف الدولة في القديم لتدوين القوانين على مختلف الأوعية. ثم مع ظهور الإسلام استعملها المسلمون في تأليف كتبهم وفي نسخ المؤلفات العلمية المختلفة. وفي الجزء الثاني اكد متفرقة ان اليهود والنصارى، فقدوا كتب دينهم الأصلية لأنهم لم يكتبوها في الإبان، ولذلك عمدوا الى تأليف كتب اخرى غير مطابقة لرسالتي موسى وعيسى عليهما السلام. الا أن المسلمين تفادوا هذا المشكل لأنهم كتبوا القرآن عند نزول الوحي واكثروا من النسخ المطابقة للأصل وحفظوا السور القرآنية عن ظهر قلب وقد ألفوا طيلة تاريخهم عددا ضخما من الكتب في مختلف فروع المعرفة. الا أن عددا هاما منها اختفى بسبب الحروب وغزو المغول والتتار وفقدان بلاد الأندلس. وذكر أن عصره يعاني من الركود الثقافي بسبب نقص الكتب وانعدام الجدية لدى العلماء والناسخين. أما الجزء الثالث فقد بدأه ابراهيم متفرقة بتعريف للمطبعة ثم ذكر منافعها من ذلك " انها تضاعف إلى ما لا نهاية له من عدد النسخ لنفس الكتاب مع مراعاة الدقة الكاملة في النص، الشيء الذي تعجز عن تحقيقه الكتابة بخط اليد "(147). ويركز ابراهيم متفرقة على اثنين من فوائد المطبعة لا يستطيع المخطوط محاكاتها فيهما الأولى: هي الإكثار من الكتب بفضل آلة الطباعة التي تستطيع سحب مئات من النسخ بل الآلاف، والثانية : دقة النص المطبوع وخلوه من الأخطاء اذ تتم مراجعة النص واصلاحه بورشة المطبعة قبل اعطاء الإذن بالسحب . وللتأكد من عدم نقصان النص ولمساعدة القارىء في قراءة الكتاب يقترح متفرقة في رسالته ادراج فهرس الموضوعات وكشاف بكل كتاب مطبوع. ثم يعدد متفرقة فوائد اخرى للمطبعة منها : احياء المؤلفات

---

(147) رسالة وسيلة الطباعة . ص 197.

الإسلامية التي كادت تنقرض وقدرتها على مضاهاة حروف الكتابة بخط اليد من حيث الجمال والروعة وانخفاض اسعار الكتب المطبوعة وهذا يسهل على كل المسلمين اقتناء نسخ منها مما يسهم في تثقيف الرعية والقضاء على الجهل وان الأمة المتعلمة تقدر كما يقول علي البقاء قوية عسكريا " يتضاعف عدد الكتب كما أشرنا سابقا بفضل المطبعة الى درجة ان مختلف المؤلفات العلمية تحمل الى الولايات العثمانية البعيدة وتؤسس في كل المدن المكتبات العمومية التي يستفيد منها القراء المواظبون وبذلك تنتشر المعارف في كل الأماكن التي لم تصل اليها من قبل" (148). كما اعرب متفرقة عن تخوفاته ان لم يسارع المسلمون باقامة مطابع عندهم. من أن تغرق أوروبا سوق المشرق بالكتب العربية المطبوعة عندها بعد أن توفق في تخطي المشاكل التقنية، فتخرج كتبا دقيقة وبخط جميل. هذا وقد أثار متفرقة هذه النقاط للرد على الحجج التي تقدمها المحافظون ، بل كان في كل مرة يتهجم اما على المخطوط والناسخ أو العلماء ويحملهم مسؤولية الركود الفكري ثم يذكرهم بأن الحل يكمن في تبني المطبعة. فهو يرى أنها أحسن وسيلة لانقاذ التراث الفكري . ولتمكين كل المسلمين من التعلم ولمواكبة العلوم الحديثة. ، وهو يريد أن يؤدي هذا الاكتشاف الثقافي الى نفس النتائج التي توصلت اليها اروبا اي فتح الطريق نحو التقدم والمعرفة.

ويدافع متفرقة بذلك على كل الأميين في بلاد الإسلام المحرومين من وسائل التعليم، وموجها نداء الى " ديمقراطية " المعرفة والثقافة بواسطة هذه" الأداة الثورية" أي الكتاب المطبوع. ان مفهوم المطبعة بالنسبة للمجددين في القرن 12هـ / 18م وبالخصوص لابراهيم متفرقة، لا يختلف عن مفهوم الأروبيين لها في نفس الفترة، اي انها وسيلة لمضاعفة عدد الكتب مع مطابقتها للأصل وانجع طريقة لنشر العلم في كل البلدان، ولدى كل الفئات الإجتماعية واذا حصل ذلك فان البشر سيصبحون أحرارا ومتعلمين.

5 - الاسباب الاجتماعية :

أبدى المحافظون قلقهم عن مصير الناسخين في صورة اقامة المطابع، فهي ستقضي على مهنتهم بسبب مزاحمة الطباعة لها. ولم يعد الامر يتعلق بتقديم تنازلات من طرف المعارضين لفن الطباعة وذلك بالتضحية بأدوات العمل الفكري، بل ان القضية تتمثل الآن في التنكر للناسخين الذين قدموا عبر قرون عديدة خدمات جليلة للعلم والثقافة، وذلك باهمال انتاجهم والانصراف عن المخطوط الى المطبوع بل ان الأخطر من ذلك هو حرمانهم من مورد رزقهم واحالة عدد ضخم منهم على

----

(148) نفس المصدر .

البطالة . لذلك عارض المحافظون ادخال آلة الطباعة نظرا للأضرار الاجتماعية التي ستلحق بالناسخين (149) . ولكن هل يعتبر ذلك عائقا امام استعمال اكتشاف جديد خاصة ونحن نعلم ان اي تطور تقني او صناعة جديدة تضر حتما بأهل الحرفة التقليدية .

ان الامر مرتبط بعدد الناسخين ومكانتهم الإجتماعية وقدرتهم على التصدي لآلة الطباعة. ويبدو ان عددهم هام وله وزن في المجتمع العثماني، الا أنه لا يصل الى العدد الذي قدمه الرحالة الإيطالي مارسيغلي عنهم وهو تسعون ألفا في مدينة استانبول وحدها (150). ان هذا العدد مهول جدا ويدفعنا الى التثبت من مدى صحته بالتعرف اولا على عدد السكان بالعاصمة العثمانية والذي يقدرهروبار منتران في القرن 11 هـ / 17م بحوالي سبعمائة أو ثمانمائة ألف ساكن (151). واذا قمنا بمقارنة مع العدد الذي قدمه مارسيغلي، فان نسبة الناسخين يساوي عشر سكان المدينة وهذه النسبة هي جد مبالغ فيها. على انه من المؤكد ان عدد الوراقين مرتفع وقد يبلغ بضعة آلاف اذا اعتمدنا كلام دي سوسير (152) . الا أنه أبعد ما يكون عن الرقم الخيالي الذي ذكره الإيطالي مارسيغلي حتى وان اعتبرنا كل مهن الكتاب من تسفير ووراقة، صناعة الحبر وغير ذلك (153) . فعدد بائعي الكتب في استانبول على سبيل المثال يقدر بحوالي خمسمائة لا غير (154).

ان عدد الناسخين هام ولا يمكنهم جميعا التحول الى مهنة مطبعي. فورشات الطباعة لا تتطلب يدا عاملة كثيرة، هذا بالإضافة الى أن فن الطباعة يتطلب خبرة فنية لا تنطبق بالضرورة مع

---

(149) De Saussure, Lettres ... op. cit, p. 94 ; GALLAND, Préface ... op. cit., F14.

هناك الكثير من المؤلفين في القرنين 11 - 12 هـ / 17-18 م ممن اثاروا هذه القضية واكدوا على الجانب الاجتماعي فيها. من ذلك سوسير الذي قال " ان الاف الناسخين في استانبول وداخل الإمبراطورية ، سيتعرضون الى الموت جوعا لانه لم يعد بامكانهم كتابة الرسائل ودفاتر الحسابات ومذكرات الخواص وايضا كل الكتب المنتشرة في الإمبراطورية لانه سيقع طبعها جميعا" De Saussure, Lettres ...op. cit., p94.

ويتناول هوسون هذه المسالة بقوله" ان كثرة المخطوطات والخوف من تفقير جمهور كبير من الناسخين هما السببان الاساسيان اللذان ساهما في تاخر ظهور الطباعة عند العثمانيين" D' HOSSON, Tableau ... op .cit, T 1 p 298 ; Voir aussi Marsigli, l'Etat ... op. cit, p 313 ; De Guignes " Essai ... op. cit. " p XXVIII.

(150) يقول مارسيغلي " انهم لا يريدون منع الناسخين وعددهم تسعون الفا لما كنت بالقسطنطينية من الحصول على مورد رزقهم
MARSIGLI, l'Etat ...op. cit ., p. 313 .

(151) كانت اكبر مدينة باروبا والشرق الاوسط في القرن 11 هـ / 17م انظر MANTRAN, Istanbul ... op. cit., p. 47.

(152) انظر ما كتبه سوسير في الهامش عدد 149 .

(153) D'HOSSON, Tableau ... op. cit., T 1 p. 298; MANTRAN Istanbul ... op. cit., pp 495-496.

(154) ان هؤلاء مقسمين على صنفين ، الصنف الاول يشتمل على خمسين حانوتا ويعمل بها ثلاثمائة بائع والصنف الثاني يضم ستون حانوتا ويشتغل بها مائتا بائع انظر روبار منتران ، المصدر السابق ص 496 .

مؤهلات الناسخ وحتى ان توفر هذا الشرط فان الناسخين يعارضون المطبعة ويريدون الإبقاء على امتيازاتهم الاجتماعية، خاصة وأنهم منظمون وقادرون على التصدي الى " خطر الطباعة". ففي العهد العثماني كان صنفهم منظم باحكام مثل بقية الأصناف الأخرى : فهو يجمع رؤساء (الأسطى) والصناع (القلفه) والمساعدين (شيراك) (155) . وكان الأعراف ينتخبون الهيئة المديرة للصنف والتي تدافع عن مصالح الصنف لدى الإدارة وتتركب الهيئة من الشيخ والنقيب والدوعاجي والشاوش ويجيت باشي والكاهية (156) وهذا الأخير له سلطات واسعة ومكلف بتمثيل الصنف لدى الحكومة (157).

ان هذا التنظيم الداخلي يؤهل الناسخين للتصدي الى كل تدخلات الدولة في شؤون مهنتهم : ان كل صنف يتمسك بتقاليد المهنة، ويحافظ بكل شدة على امتيازاته الإجتماعية. وهذا ما يعيق أي محاولة للإصلاح والتقدم، فهو مكبل بهذه الهياكل التنظيمية التي تمنعه من التكيف مع الوضع الجديد (158) . ان تنظيم صنف الناسخين يمثل حاجزا منيعا لكل محاولة لادخال المطبعة وكان بامكانهم أيضا، أن يعولوا على كل العلماء المناهضين لفن الكتابة الجديد. ولكن ما هو موقف أنصار المطبعة وكيف يمكنهم حل هذا المشكل دون اثارة توتر اجتماعي .

لم يتردد المجددون كما رأينا سابقا في مهاجمة الناسخين متهمين اياهم، بانهم مسؤولون عن حالة الجهل السائدة في الدولة العثمانية. فالمخطوطات نادرة وخاصة المجلدات الضخمة وهي مليئة بالأخطاء نظرا لاهمال الناسخين وعدم وعيهم بأهمية مهنتهم. الا أنهم وجدوا حلا مناسبا لذلك وهو أن يقع تقاسم العمل بين الناسخ والمطبعي. فالأول لنسخ كتب القرآن والشريعة والثاني لكتب الآداب والعلوم. وهذا الحل من جهة اخرى يرضي أيضا الفقهاء الذين يرفضون طبع الكتب الدينية. وبذلك يتوفر مجال واسع لعمل الناسخين، وفي نفس الوقت يتوجه مجهود المطبعة في بلاد الإسلام لطبع كتب الآداب والعلوم الأساسية وبهذا تم تطويق المشكل الاجتماعي .

---

(155) المصدر السابق ، ص 368 .

(156) المصدر السابق ، ص 371 .

(157) المصدر السابق ، ص 375 .

(158) يقول منتران " توجد لدى هذه الاصناف " عقلية احتكارية " تمثل الى جانب عقليتها المحافظة حاجزا لكل توسع او تقدم . انه يكاد يكون مستحيلا تغيير الانظمة والقوانين الداخلية للاصناف. لان مثل هذا التغيير يمكن ان يؤدي الى ثورة في مستوى هيكل الصنف والى مراجعة امتيازاتهم حقوقهم ولا توجد في تلك الفترة بصورة جلية معالم تطور مادي او فني او تحسن بسيط للعمل وظروف العمل ".
Mantran, Istanbul ... op. cit, p 388.

6 - الاسباب الاقتصادية :

يرى المحافظون ان مشروع اقامة مطبعة باهض الثمن (159)، فهي تتطلب تجهيزات وآلات متطورة قد تستورد من اروبا، وتتطلب كذلك اعداد أشخاص متخصصين في فن الطباعة. لذلك يفضل هؤلاء ترك المشروع والاكتفاء بما هو موجود اي الإبقاء على حوانيت الناسخين المتواضعة وعلى أدوات عملهم الأساسية وهي متوفرة محليا وثمنها رهيد.

انه من الضروري معرفة حقيقة تكاليف المطبعة وقدرة البنية الاقتصادية في الدولة العثمانية على التكيف مع التطور الصناعي وخاصة مع الاكتشافات التقنية القادمة من اروبا. اذا إنتشرت المطبعة بسرعة داخل اروبا، فذلك يعود الى مجهود البورجوازية التي وجدت فيها صفقة رابحة. ففي ذلك العصر لا تقدر أية فئة اجتماعية اقتصادية غير البورجوازية على استغلال هذا الاكتشاف وتصنيعه. فعملية النشر تتطلب اموالا كبيرة لتمويل المشروع وبعد ذلك الانتظار بضع سنوات لبيع كل النسخ من الكتاب لتغطية المصاريف وجني الأرباح. ولهذا نشأت المطبعة في أوساط صانعي المعادن وأصحاب البنوك (160) واعتبرها احد الباحثين " بنتا للرأسمالية الناشئة" (161) فالعصر الحديث شهد صعود فئة البورجوازية بأروبا وسيطرتها على الاقتصاد .

أما عن الوضع في المشرق، فهو لا يماثل النظام الاقتصادي الأروبي الجديد الذي يرتكز على الرأسمالية. فالهياكل الاقتصادية العثمانية كانت تقليدية بطيئة التحول، فلم تستوعب الصناعات الجديدة التي ظهرت بأروبا. ولم يكن بامكانها بالتالي تبني صناعة الطباعة، ولم تقبل الا بعض البضائع الأروبية المصنعة وحتى الكتاب المطبوع رفضته(162). يقول قالان : " بذلت مصاريف كبيرة بهدف الإتجار بهذه الكتب في المشرق، الا أن المشروع فشل لان المسلمين رفضوا قبول النسخ التي ارسلت اليهم " (163).

حاول الأروبيون توزيع كتبهم المطبوعة بالحرف العربي في أسواق بلاد الإسلام بالمشرق. الا أن المحافظين عارضوا ذلك وأظهروا نوعا من " المقاومة السلبية " برفضهم البضاعة الأروبية خوفا من ان تغزو سوق الكتاب، رغم انهم لا يملكون بضاعة مماثلة قادرة على المزاحمة ورغم ترخيص

---

(159) لهذا السبب تاخر ادخال المطبعة في القرن 10 هـ / 16م حسب اقوال ابراهيم متفرقة في رسالته. الا اننا كما رأينا في اول هذا الفصل ان المؤلف اعطى لهذه الحجة حجما أكبر مما تستحق لاخفاء الأسباب الجذرية .

(160) Martin, H. J, "L'imprimerie: origines et conséquences d'une découverte" in: l'écrit et la psychologie ... op. cit., p. 284.

(161) المصدر السابق ، ص 287 .

(162) متفرقة ، رسالة وسيلة الطباعة ، ص 198 .

(163) GALLAND, Préface ...op. cit ., F 14.

السلطان مراد الثالث لذلك فانهم " قاطعوا " الكتاب العربي المطبوع بأروبا لانه سيقضي على بضاعة تقليدية هي المخطوط. ان هذا الموقف هو رد فعل على التحدي الاقتصادي الذي فرضته اروبا، بعدما حققت تقدما صناعيا وتجاريا كبيرا في الوقت الذي تقلص فيه دور الطرقات البرية بين الشرق الأدنى وأروبا التي يسيطر عليها المسلمون. ان المحافظين انطووا على أنفسهم خوفا من ان تتدفق عليهم منتوجات اروبية أخرى تؤدي الى " هلاك " الصناعات التقليدية. وكرد فعل على هذا الموقف أكد المجددون على الفوائد الاقتصادية للمطبعة، فسعر الكتاب ينخفض فيصبح في متناول كل الفئات الاجتماعية ، فينتشر في كل مدينة وقرية من الإمبراطورية(164). ان ثمن المخطوط مرتفع جدا ولا يقدر على شرائه الا الأغنياء وسيصبح دوره ثانويا في حالة انتشار المطابع. ان الكتاب المطبوع يقدر على شرائه الغني والفقير. وهناك تكمن أكبر فائدة اقتصادية للاكتشاف " وان لم نقتنع بهذا، فان الأتراك يكونون قد اصابوا عندما رفضوا اقامة مطابع في بلدهم خوفا من القضاء على مهنة الناسخين وتكون أروبا المتحضرة قد أخطأت" (165).

ان العامل الاقتصادي يعتبر حاسما في هذا الحوار الحضاري ، لانه لا مجال للمقارنة بين أثمان الكتاب والمخطوط وبين قدرة الإشعاع الثقافي والعلمي لهذا وذاك. ان اكتشاف فن الكتابة الجديد يقدم الحل الناجع للقضاء على الأمية وحالة التدهور الثقافي داخل الإمبراطورية العثمانية . فاذا وضعت المصلحة العامة للمجتمع الإسلامي فوق كل اعتبار ، يحق عند ذلك التضحية بمهنة النسخ(166). كما ذهب المجددون أبعد من هذا في ردهم على المحافظين اذ انتقدوا الموقف السلبي لهؤلاء الذين اكتفوا برفض تداول الكتب المطبوعة بأروبا. وبينوا انه لا ينبغي " مقاطعة" هذا المنتوج الغربي فقط، بل يجب تقديم انتاج محلي منافس، والا فان أروبا ستتمكن آجلا أو عاجلا من اقتحام سوق الكتب داخل الإمبراطورية ويقول متفرقة : " واذا فتحوا فرعا من فروع التجارة لبيع كتبهم عندنا، فانهم سيستفيدون من ذلك ، وفي نفس الوقت سنتضرر نحن اذ ستتحول مبالغ مالية هامة خارج ولايات امبراطوريتنا" (167).

يرى المجددون ان اروبا تنوي فرض سيطرتها على المسلمين بطرق سلمية، فهي تنوي غزو أسواق الدولة ليس فقط بالكتب المطبوعة، بل وكذلك ببضائع واكتشافات أخرى ولذلك يجب التصدي

---

(164) رسالة وسيلة الطباعة ، ص 198 .

(165) EDEN, F. M, State of the poor, Londres, 1797 in: MANTOUX. P, La révolution industruelle au XVIII è, Paris, 1973, p. 171; voir aussi LAURENS, H, " les origines intellectuelles de l'Expédition d'Egypte: l'orientalisme islamisant en France au XVIIIe è, 1698-1789, Paris, Sorbonne IV, 1981 F. F. 307-308. (Thèse de 3è cycle dactylographiée).

(166) رسالة وسيلة الطباعة ، ص 199 .

(167) المصدر السابق .

لهذه المخططات بتبني كل أسباب التقدم ويقول متفرقة " انه من المعقول بما أن المسلمين سبقوا كل الدول الكافرة في كل أصناف العلوم، ان يحولوا دون أن تتقدم عليهم في فن الطباعة باللغات التي يتكلمونها" (168). ويريد ابراهيم متفرقة تجديد العهد مع الماضي الزاهر حيث كانت بلاد الإسلام تحمل مشعل الحضارة والعلوم وذلك بالتصدي لتحدي البلدان غير الإسلامية وسلوك سياسة ديناميكية بمواكبة التقدم الحضاري والسير مع تيار الرقي.

7 . خاتمة الفصل الثاني :

تناول الحوار الذي دار بين المحافظين والاصلاحيين موضوع تجديد ادوات العمل الثقافي والمقارنة بين جدوى المخطوط والكتاب المطبوع. وبين الكتابة بخط اليد والكتابة بحروف المطبعة وبين مهنة الناسخ والمطبعي. واذا دافع المحافظون على المخطوط، فلأنه كان أمينا عبر العصور في نقل قيم الإسلام والعلوم المختلفة كتابيا، وكان وعاء الكتابة التقليدي محل عناية خاصة من طرف الناسخين والعلماء والمسلمين بصفة عامة ، نظرا إلى أنه مكتوب بالحرف العربي الذي يحظى بالاحترام، فهو الرسم المادي للآيات القرآنية الكريمة ، ومن هنا اهتم المسلمون بالخط العربي وابدعوا فيه. اما الكتاب المطبوع فكان المحافظون يرون فيه تهديدا للمخطوط فهو قادم من " بلاد الكفار " للقضاء على الكتابة بخط اليد الجميلة وتعويضها بحروف معدنية كبيرة. وكان محل ريبة لانه قد ينسخ كتبا غير مطابقة للأصل، فيشوهها ويحرفها كما أنه سيدخل افكارا " مشبوهة " ويروجها بشكل واسع لاحداث الاضطراب في العقول اكثر مما ينقل الحكمة والعلوم المفيدة للمسلمين. واخيرا فان فن الطباعة سيحطم مهنة الناسخين ويحرمهم من مورد رزقهم .

اما المجددون فيرون المخطوط من زاوية اخرى، فهو لم يعد قادرا على نقل القيم ومكاسب الحضارة الإسلامية، ولا على انقاذ آلاف المؤلفات العربية المهددة بالفناء بسبب احداث تاريخية مؤسفة، لان الناسخين كانوا جاهلين ومهملين في مهنتهم واساؤوا كثيرا الى ميدان الثقافة والعلوم وكانوا يعملون ببطء ويرتكبون أخطاء كثيرة عند الكتابة. وكان المخطوط نادرا وباهض الثمن ولهذا لم يكن سعره في متناول الجميع . وهذا مما تسبب الى حد كبير في نشر الأمية حسب تعبير ابراهيم متفرقة. وكان المجددون يرون في الكتاب المطبوع وعاء معلومات المستقبل، وهو قادر على مضاهاة الكتابة بخط اليد من حيث الابداع. والأهم من ذلك هو قدرته العجيبة على نشر العلوم والفنون في كل اوساط المتعلمين. فالمطبعة تصدر عددا كبيرا من النسخ للكتاب الواحد. فيصبح الثمن زهيدا ويقبل الجميع على اقتنائه. عبر أنصار فن الكتابة الجديد عن موقفهم هذا من منطلق حضاري ، اذ ابرزوا ان الطباعة ستساهم في تجديد الحضارة الإسلامية وازدهارها بالتفتح على العالم المتقدم.

---

(168) المصدر السابق .

ان التعريف الذي قدمه المجددون للمطبعة كان قريبا من التعريف المتعارف عليه في الغرب يعني انها وسيلة سريعة للإكثار من الكتب وترويج الكتاب العلمي والأدبي على نطاق واسع وبأسعار منخفضة. والفرق الوحيد في هذا التعريف هو ان المطبعة في الشرق لا يمكن لها ان تمس المخطوط الديني . لكن هذا التنازل لم يضر بالمطبعة ، اذ أن لها مجالا واسعا في اصدار الكتب العلمية والأدبية. وهكذا أصبح للمطبعة مفهوم شرقي متفاعل مع المناخ الفكري والحضاري السائد في المجتمع الإسلامي في العهد العثماني .

ان الحوار بين المحافظين والمجددين كان يدور حول قيم الحضارة الإسلامية، لان المخطوط يمثل شكلها القديم ويحافظ على التراث الأدبي الذي خلفه الأجداد طيلة قرون ودافع عنه انصاره بعنوان احترام التقاليد وباعتباره همزة وصل بين الماضي والحاضر، انه التواصل بين الأجيال. أما الكتاب المطبوع فقد جاء ليقترح شكلا جديدا للحضارة، فهو يريد المحافظة على المؤلفات الإسلامية ونقل المعارف الأروبية لينهض بالأمة الإسلامية. انه نظرة جديدة للمستقبل فهو يريد تدشين مرحلة جديدة من تاريخ المسلمين.

بقي ان نعرف مدى استجابة مطبعة استنبول الأولى لهذا المفهوم وهل قدمت نتائج من شأنها ان تفتح عهدا جديدا للمجتمع الإسلامي؟

كتاب

القدسات الثلاثه الالهيه * مع بعض احتياجات
اخر ضروريه للصلوات الارتوذكسيه *
قد طبع الان حديثا في اللغة اليونانيه والعربيه *
بالتماس ومشارفة الاب الطوباني
كير كير اثناسيوس البطريرك
الانطاكي سابقا *
بمصروف السيد الاسعد الرفيع الشان * متقلد
حكم جميع بلاد ونكروفلاخيا * كير كير يوانو
قسطنطين بسارابا ويوضا المكرم
في تقليد رياسة كهنوت الاب المطران الكلي
الغبطه كير تاوضوسيوس للبلاد المذكوره اعلا
في دير سيدتنا والدة الاله المكنا بسيناغوفو *
في سنة الف وسبعمايه واحد مسيحيه

بيد الكاهن في المتوحدين انثيموس الكرجي الاصل

كتاب القدسات الثلاثة الالهية – طبع بمدينة بوخاريست سنة 1701.

الجزء الثاني .

بداية الطباعة العربية بالمشرق

الفصل الأول :

المطابع المسيحية ببلاد الشام : حلب والشوير وبيروت :

أسس المسيحيون ثلاث مطابع عربية في النصف الأول من القرن 18م بحلب في 1118 هـ/ 1706م وشوير في 1147 هـ/ 1734م وبيروت في 1165 هـ/ 1751م، وكان ذلك بمبادرة من الطائفة الملكية بحزبيها الأرثودكسي والكاثوليكي وقد سبقتها محاولات المارونيين لاقامة مطابع بجبل لبنان في القرن 11 هـ/ 17م، والتي فشلت جميعها. وبعدها تمكن الملكيون من ادخال ثلاث مطابع بالمشرق في ظرف نصف قرن، فكيف نفسر توفقهم في هذا المجال؟ ثم كيف كان المناخ الثقافي والديني السائد عند المسيحيين العرب في تلك الفترة ؟ وكيف تغلبوا على الصعوبات الفنية والمالية في بداية مشاريعهم؟ ثم هل حصلوا على دعم مادي أو استفادوا بخبرات من خارج الإمبراطورية العثمانية؟

لم تشتغل ورشات الطباعة بحلب وبيروت الا لفترة قصيرة في حين واصلت ورشة شوير بجبل لبنان عملها طيلة القرن 12 هـ/ 18م . ثم كيف يمكن تفسير ومقارنة ظروف تأسيس المطابع الثلاث وأهداف مؤسسيها ؟ هل كان للكتاب المطبوع لديها نفس المفهوم ونفس الدور الذي لعبه بأوروبا في تلك الفترة ؟ هل تم تسخيره لمواصلة دور الكتاب العربي القادم من روما أي للدعوة الى الإتحاد مع كنيسة روما ولنشر المذهب الكاثولكي؟ أم أنه جعل لخدمة الحياة الفكرية والاستجابة لحاجيات الطلاب وابناء الطوائف المسيحية ؟ هل ساهم أخيرا في تطور المحيط الثقافي بالمشرق ؟

1 - المطبعة العربية بحلب (1118 هـ/ 1706 م - 1123 هـ/ 1711 م) :

شهدت هذه المدينة مولد اول مطبعة عربية بالمشرق وفتحت المجال بذلك لمبادرات [illegible] أخرى، لارساء تقاليد جديدة في العمل الثقافي. انه من المهم البحث عن أسباب [illegible] هذه [illegible] لإيواء أول ورشة طباعة عربية وظروف تأسيسها ومدى مساهمتها في [illegible] [illegible] [illegible] والثقافية لدى الطائفة الأرثودكسية الملكية .

1 . 1 - اختيار مدينة حلب :

1 . 1 . 1 - حلب مركز تجاري كبير بالمشرق (1) :

لئن فقدت الطرقات التجارية الإسلامية بين الشرق الأقصى وأوروبا حيويتها بعد اكتشاف الطرقات البحرية الكبرى في القرنين 9 و 10 هـ / 15 و 16 م ، فان التجارة الإسلامية انتعشت بعد توسع الفتوحات العثمانية وسيطرة الأتراك على عدة طرقات برية كبرى (2) . وقد استفادت بلاد الشام كثيرا من هذه الوضعية وخاصة مدينة حلب الواقعة في مفترق عدة طرقات تجارية كبرى فاستقطبت جزءا هاما من التجارة الدولية . ومع انفتاح الموانئ السورية على التجارة البحرية الأروبية، تمكنت حلب وهي مدينة قارية من جلب التجار الفرنسيين منذ سنة 970 هـ/ 1562م والأنقليز في 991 هـ / 1583م (3) والهولانديين في 1022 هـ/ 1613م وغيرهم ... وهؤلاء التجار أقاموا مصارف وقنصليات في هذه المدينة . وقد ازدهرت التجارة بحلب وبقيت الى أواسط القرن 17م السوق الرئيسية في كل المشرق، حيث انها تفوق في أهميتها الإسكندرية واستانبول (4). وكانت تباع بها كل البضائع القادمة من الشرق الأدنى ومن الغرب مثل الأحجار الكريمة والحرير والتوابل والقماش والورق وغير ذلك (5) . لقد كانت حلب مدينة كبيرة الى درجة ان احد المبشرين اليسوعيين شبهها في القرن 11 هـ / 17 م، بمدينة ليون في سوريا من حيث حجمها وجمالها وتجارتها وعدد سكانها (6) . وقد اغتنمت الأقليات المسيحية بحلب فرصة حضور اخوانهم في الدين من المسيحيين للإستفادة من النشاط التجاري الدائب بالمدينة ، فعملوا كمترجمين ووسطاء لدى الأجانب ، أما التجار الأغنياء منهم فانهم تولوا الإتجار على حسابهم الخاص (7) . وهكذا فان هذه الأقليات قد أولت أهمية كبرى لهذا النشاط التجاري حتى تقيم علاقات مع أروبا وتستفيد من قوتها وتقدمها (8) . ومن أهم نتائج هذا الازدهار التجاري هو دعم الأقليات الدينية بحلب وبيروت

---

(1) GOYAU, Georges, Un precurseur: Francois Picquet, Paris, Geuthner, 1942, p. 28.

(2) Sauvage T, J, Alep: essai sur le developpement d'une grande ville syrienne, Paris, Geuthner, 1941, T 1, p. 200.

(3) كان للانقليز جالية تقدر بستين تاجرا في سنة 1072 هـ/ 1662 م انظر : حتي ، فيليب ، تاريخ ... ج 2 ، ص 319 .

(4) SAUVAGET, Alep, ...op. cit ., T 1, p. 210.

(5) يرى الرحالة بسوني ان حلب تعد في نفس الفترة المدينة الرئيسية بسوريا بفضل ازدهار تجارتها. انظر : Goyau, Un procur-seur ...op. cit ., p. 30.

(6) RABBAT, Documents ... op.cit, p 41 عبر الرحالة الاروبيون عن اعجابهم وتقديرهم لسكان حلب ولكرم الضيافة الذي يتميزون به. انظر على سبيل المثال شهادة الرحالة فولني : Volney, Voyage ...op. cit., p. 275.

(7) Sauvaget, Alep ...op. cit ; T I p. 206.

(8) Chevallier, D, La societe ...op. cit ., p. 13.

وطرابلس وتطور الحركة الأدبية لديهم .

1.1. 2 - حلب مركز ثقافي مسيحي :

تعد حلب من بين المدن القليلة التي حافظت وطورت الى حد ما، تقاليدها الأدبية بعد الفتوحات العثمانية (9). وقد أثر الأروبيون على الحركة الفكرية لدى المسيحيين العرب . فإلى جانب التجار الأروبيين، استقر مبشرون بحلب ارتبطوا بالأقليات المسيحية بهدف تحقيق الاتحاد بين كنائس الشرق وروما . كما أقام بعض العلماء الأروبيين بالمدينة لمدة طويلة مثل المستعرب الهولاندي يعقوب غوليوس الذي مكث بها من 1040 هـ / 1630م الى 1046 هـ / 1636م .

أ- نشاط المبشرين :

أعطى هؤلاء دفعا جديدا للنشاط الأدبي للأرثودكس الملكيين ، وقد توافدوا على حلب منذ نهاية القرن 10 هـ / 16 م . فالفرنسيسكان وصلوا الى المدينة في 978 هـ / 1571 م واليسوعيون والكبوشيون في 1035 هـ/ 1625م والكارم في 1036 هـ / 1626 م . وقد أسس المبشرون مدارس منذ 1050 هـ / 1640 م مثل الأب اليسوعي جيروم كيروت Jerome Queyrot الذي كان يدير مدرسة الأبناء الملكيين وقد وصل عدد التلاميذ بها في سنة 1070 هـ / 1660م زهاء الألف (10). أما الكارم فقد أسسوا مدرسة بحلب يدرسون بها اللغات العربية والإغريقية واللغات الأوروبية (11) وظهرت مدرسة مارونية بنفس المدينة في 1077 هـ / 1666 م بمبادرة من البطريرك اسطفهان الدويهي (12). وساهم مجمع نشر الإيمان في تعليم ابناء الطائفة الأرثودكية حيث استقدم البعض من أصيلي حلب بداية من 1071 هـ / 1661 م الى روما للدراسة بها (13) . وكذلك الامر بالنسبة لمعهد اليسوعيين الذي فتح ابوابه لتلاميذ الطائفة بداية من 1112 هـ / 1700 م (14) . وهؤلاء التلاميذ عادوا بعد انهاء دراستهم الى بلادهم في مطلع القرن 12 هـ / 18 م . وتقلدوا مناصب هامة في صلب كنيسة أنطاكية وتولوا كذلك ترجمة عدة مؤلفات أدبية وساهموا في تنشيط الحياة الثقافية التي ازدهرت لدى المسيحيين بحلب وألفوا عدة كتب. الا انه

---

(9) Encycl. Islam, nouv. ed. article Farhat. Djermanus, T II, p 814.

(10) Vaumas, G, De, L'eveil missionnaire de la France, Lyon, Imprimerie express, 1942, p. 331.

(11) Rabbat, Documents ...op. cit, T 1, p. 51.

(12) Nasrallah, Histoire ... op. cit, p. 58.

(13) Karalevsky, Charon, art. Alep in DHGE col 104; voir aussi Nasrallah, Notes ... op. cit., T 1, pp. 137-138.

(14) Rabbat, Documents ...op. cit ., T 1 , pp. 530-537.

ترجمة كتب واعداد منتخبات ومراجعات للمخطوطات وكان محتواها في الغالب دينيا وحتى الكتب التي ألفوها في التاريخ والشعر فقد كانت تتعلق عن قرب أو بعد بمسائل مسيحية (16).

ب - العربية ، لغة المذهب الارثوذكسي الملكي :

استعمل المسيحيون بالمشرق عدة لغات في كنائسهم منها اليونانية والسريانية والكلدانية والعربية وغيرها . وعرفت الطائفة الأرثوذكسية الملكية حدثا بالغ الأهمية في حياتها الثقافية يتمثل في تعويض السريانية بالعربية خلال القرن 11 هـ / 17 م . لقد بقيت السريانية لغة الدين عند الملكيين منذ القرن 4 هـ / 10 م(17). رغم استعمالهم للغة اليونانية في بعض الفقرات من نصوصهم الدينية. وقد اختفت هذه للغة من أواسط بلاد الشام منذ القرن 6 هـ / 12 م(18). وفي الأثناء بدأت اللغة العربية تستخدم شيئا فشيئا في كنيستهم، بعد ان كانت مقتصرة على التخاطب بينهم في حياتهم اليومية .وكان قد استخدمها لأول مرة في الكتب المقدسة عبد الله بن الفضل الأنطاكي في القرن 7 هـ /11 م، لترجمة بعض الأسفار عن اليونانية وكذلك مؤلفات القديس يوحنا (19) . وفي النصف الثاني من القرن 11 هـ /17 م، لم يعد أبناء الشام يتكلمون السريانية باستثناء اهالي جبل لبنان، بل انها اختفت من بعض المناطق لفائدة العربية منذ القرن 10 هـ/ 16 م(20). ومنذ تلك الفترة اصبحت العربية نهائيا لغة المذهب الأرثوذكسي الملكي باستثناء بعض التراكيب اليونانية في نصوص دينية معينة .

مراجعة وترجمة الكتب الدينية :

شهدت مدينة حلب حركة ادبية نشيطة تمثلت في مراجعة وترجمة كتب الأرثوذكسية الى العربية منذ القرن 11 هـ /17 م. وكان عبد الكريم كرمي ومكار الثالث زعيم وكلاهما شغل منصب رئيس الأساقفة بحلب . كما تقلد على التوالي منصب بطريرك كنيسة أنطاكية وهما من أبرز من قام

---

(15) Nasrallah, Histoire ... op. cit., vol IV, p. 52.

(16) المصدر السابق ، ص 63

(17) Karalevsky, Histoire des patriarcats. op. cit., T III, p 24.

(18) المصدر السابق ص 138 .

(19) ظهرت الترجمات العربية الأولى لكتب المقدسة المسيحية منذ القرن 2 هـ / 8 م وذلك بعد توسع الدولة الإسلامية وانتشار اللغة العربية ببلاد الشام حيث بدأ المسيحيون يستعملون هذه اللغة في طقوسهم

Dictionnaire de la Bible, article Arabes. T 1, col. 845-856.

(20) Karalevski, Histoire ... op. cit, T III, pp 45-46.

بهذه العملية، فالأول تولى مراجعة واصلاح الكتب الدينية (21) والثاني قام بتاليف الكتب وترجمة بعض النصوص من اليونانية الى العربية، مستعينا في ذلك بابنه بولس. ويتمثل هدفهما في ترجمة كل الكتب الدينية الى العربية بعد أن أصبحت لغة التخاطب والادب عند أبناء الطائفة بسوريا في الوقت الذي لم تعد السريانية مفهومة الا في جبل لبنان وبعض القرى المجاورة لدمشق وقد حرصا على ان تكون الترجمات العربية حسب الاصل اليوناني (22).

قام عبد الكريم كرمي بمراجعة واكمال بعض الكتب الملكية ومنها الارولوجيون القنداق وستشراري الترتيل والتلحين وكان ذلك بالاعتماد حسب كارالفسكي على الكتب اليونانية المطبوعة بالبندقية في القرن 10 هـ/ 16م (23) وهذا الرأي عارضه نصر الله الذي يرى أن كارمي استعان ايضا بمنشورات روما ومختلف المخطوطات السريانية على الاقل بالنسبة للارولوجيون القنداق (24).

ان الكتب التي راجعها كارمي هي التي طبعت فيما بعد لفائدة الكنيسة الأرثودكسية الملكية (25). وكان من نتائج تعويض العربية للسريانية كلغة دين، أن المخطوطات من الكتب التي تمت مراجعتها وترجمتها للعربية لم تكن كافية للإستجابة لرغبات القراء الملكيين الارثودكس.

تطور العربية الفصحى :

كان كرمي يستعمل العربية العامية في مراجعاته مما جعل بعض التراكيب اللغوية غير واضحة المعاني (26). وفي تلك الفترة كان المسيحيون العرب لا يتعلمون ولا يتخاطبون الا بالعربية العامية وحتى الشعراء الملكيون لا يكتبون الأزجال الا بهذه اللهجة (27). ونفس الأمر بالنسبة للأدباء

---

(21) يرى نصر الله ان عبد الكريم كرمي مترجم في حين يعارض كارلفسكي هذا الرأي ويعتقد ان كرمي لم يقم الا بمراجعة التراجم العربية للنصوص المقدسة المسيحية ويرى ان كرمي لا يمكن ان يكون مترجما لان عملية ترجمة كتاب مسيحي واحد يمكن ان تشغل حياة شخص باكمله
انظر : Nasrallah, Histoire ... op. cit., vol IV, p. 76.

Karalevsky, d'Histovie...op.cit., T3, p. 47.

(22) كارلفسكي ، نفس المصدر ، ص 47- 48 .

(23) المصدر السابق ، ص 50 .

(24) Nasrallah, Histoire .. op. cit., vol IV pp 85-86.

(25) KARALEVSKY, Histoire ...op. cit., T II, p. 54 سنعود بالتفصيل الى هذه النقطة عند دراسة منشورات حلب والشوير.

(26) Karalevsky, Histoire ... op. cit., T III p. 48.

(27) Nasrallah, Histoire ...op. cit ., vol IV, pp. 237-239.

الذين كتبوا في النثر إلا أنهم شعروا بضرورة تعلم الفصحى نظرا لأهميتها في عملية ترجمة ومراجعة كتبهم الدينية (28). فاقبلوا على تعلمها لدى علماء المسلمين في حلب مثل الشيخ سليمان النحوي الحلبي، الذي تعلمت على يديه مجموعة من التلاميذ المسيحيين في القرن 11 هـ / 17 م مثل فرحات جرمانوس (1080 هـ / 1670 - 1145 هـ / 1737 م) وعبد الله الزاخر (1090 هـ / 1680 م- 1161 هـ / 1748 م) وغيرهم (29).

ج - الجدل الديني :

كانت حلب كذلك ساحة للصّراعات والجدال الديني بين الطوائف المسيحية فيما بينها وكذلك بين المسيحيين والمسلمين. ودارت عدة حلقات نقاش بين المسيحيين بالخصوص (30) كما ظهرت في القرن 11 هـ / 17 م ، عدة مؤلفات جدلية تعبر عن مدى حساسية كل الأطراف لبعض القضايا. من ذلك قضية الاتحاد مع روما التي استأثرت باهتمام كل الطوائف. وقد شن الأرثودكس الملكيون حملة ضد الحزب الكاثوليكي وضد كنيسة روما (31) . مثلما فعل انسطاس ميقالي قس طرابلس الذي كتب في 991 هـ / 1583 م : " جواب على بابا رومية الذي أرسله مع باطشتا تلميذه الى البطريرك يواكيم بمدينة الشام " وفيه تفنيد لآراء اللاتينيين (32). كما ظهرت مؤلفات جدلية بين الكاثوليكيين فيما بينهم وخاصة بين المارونيين والملكيين الكاثوليك. من ذلك رسالة يوسف الحصروني (توفي في 1107 هـ / 1695م) التي ترد على هجومات الملكيين .

ودار جدال ايضا بين المسلمين والمبشرين حول صحة كل رسالة من الرسالات السماوية وقضية التثليث. من ذلك القصيدة التي كتبها الشيخ شمس الدين البكري حول اخطاء المسيحيين فيما يتعلق بالمسيح وقضية التثليث وهذا النقد اثار ردود فعل كثيرة من لدن المسيحيين وخاصة من طرف الماروني بطرس مخلوف وجبرائيل فرحات (33).

---

(28) يقول فولني ان المدارس الإسلامية لم تكن تقبل المسيحيين وحيث ان هؤلاء لا يعرفون الا العربية العامية، فانهم لم يتمكنوا من اتقان فن الجدال ولذلك التجؤوا الى كل الوسائل للتتلمذ على الشيوخ المسلمين من ذلك دفع مبالغ مالية لهؤلاء، وتمكنوا بذلك من حذق اللغة العربية والنحو Volney, Voyage... op. cit ., p. 292.

(29) كان فرحات جرمانوس قسيسا بالكنيسة المارونية بحلب وكان شاعرا وقد الف معجم اللغة العربية وكتابا في النحو العربي . Encycl. Islam. nouv. ed. article FARHAT DJARMANUS, T II, pp. 814-815.

(30) Nasrallah, Catalogue des manuscrits du Liban, Beyrouth, Harissa 1958-1970. T I p.144
Jock,T, Jésuites et Chouérites, Paris, Geuthner, 1937.

(31) مثل الكتب التي تتحدث عن الدين المسيحي للاب اليانو ، وبلارمان وريشليو وغيرهم .

(32) Nasrallah, Histoire ... op. cit., vol IV, pp. 181-182.

(33) المصدر السابق ، ص 204 .

1.1. 3 - حلب مركز ديني كبير :

بلغ عدد سكان المدينة في القرن 11 هـ / 17 م ، حوالي مائتي ألف نسمة منهم أربعون ألفا من المسيحيين حسب شهادة فرمنال في 1041 هـ / 1631 م، الذي بين أن هذا العدد يشمل كلاً من الملكيين والأرمنيين والنساطرة والمارونيين واليعاقبة وقد أقيمت أربع كنائس جديدة في النصف الأول من القرن 11 هـ / 17 م في حي الجديدة الآهل بالمسيحيين (34).

أ - نمو الحزب الكاثوليكي بحلب :

وجد المبشرون في حلب مجالا واسعا لدعوة الكنائس الشرقية للاتحاد مع روما، اذ وجدوا بالمدينة عينة من كل الطوائف النصرانية التي لم يتأخر البعض منها في الاستجابة لدعوة المبشرين. فقد اعتنق عدد كبير من الأرمن المذهب الكاثوليكي سنة 1101 هـ / 1690 م(35). أما عدد أبناء الطائفة الأرثوذكسية الملكية الذين اتحدوا مع كنيسة روما ، فقد بلغ في سنة 1121 هـ / 1709 م الأربعة آلاف (36) . وقد انتخب المبشرون اليعاقبة لهذا الحزب الكاثوليكي الجديد، قسيسا كاثوليكيا منذ 1067 هـ / 1656 م هو اندري أكيدجان وهو أحد تلاميذ معهد روما.

ان نمو الحزب الكاثوليكي بحلب لم يمر بسلام اذ أحدث صدامات مع الأرثوذكس ومع السلطات العثمانية . فالبطاركة الملكيون حاولوا منع حركة العودة الى روما، لأنهم رأوا في انتماء بعض أبناء طائفتهم للكاثوليكية ضربا للمذهب الأرثوذكسي وسببا لفتنة طائفية خطيرة . أما الباشوات الأتراك فقد رأوا في هذه التحولات تدخلا في الشؤون الداخلية للإمبراطورية العثمانية، واعتبروا الكاثوليكيين الجدد بمثابة " أعوان موالين للخارج " (37) . ولهذا قام البطاركة بالتعاون مع السلطات العثمانية في بداية القرن 18 م، بحملة اضطهاد ضد أعضاء الحزب الكاثوليكي ببلاد الشام .

ب - حلب ، أحد مراكز اقامة البطريرك :

لعبت أبرشية حلب دورا رئيسيا في تاريخ الطائفة الأرثوذكسية بداية من القرن 10 هـ/ 16 م، فقد كانت المقر الثاني للبطريرك الى جانب دمشق، أما عن مقر الطائفة بأنطاكية فقد هجره البطاركة منذ 1268 م، واستقروا بدمشق أين يقيم الوالي (38) مع أنهم كانوا يتحولون أحيانا إلى

---

(34) Vaumas, L'éveil ... op. cit ., p. 329.
Goyau, Un précurseur ... op. cit ., pp. 30-31.
(35) Sauvaget, Alep...op. cit., T II, p. 208.
(36) المصدر السابق ، ص 208 .
(37) المصدر السابق ، ص 209 .
(38) D. H. G. E. article Alep. T II, col 103.

حلب (39). وفي سنة 1106 هـ / 1694 م نشب صراع بين اثنين من المرشحين لكرسي البطريرك كيرلس الخامس الزعيم الذي عينه باشا دمشق واثناسيوس الثالث دباس الذي جلس على كرسي البطريركية من 1097 هـ / 1685م الى 1106 هـ / 1694م، وانتهى باتفاق يتمثل في تولي كيرلس لمنصب البطريرك والاستقرار بدمشق. أما اثناسيوس الثالث فيقيم بحلب ويخلف البطريرك عند وفاته، وهذا ما تم فعلا اذ عند وفاة كيرلس سنة 1133 هـ / 1720 م، حيث أخذ اثناسيوس مكانه الى سنة 1137 هـ / 1724 م وهو الذي أسس مطبعة في حلب أثناء اقامته بها .

عرفت حلب حركة ثقافية نشيطة في أوساط المسيحيين العرب في القرن 11 هـ / 17 م، الا أنها اقتصرت على تناول المسائل الدينية. وقد ساهم المخطوط والكتاب المطبوع بأروبا في الدعوة الى الاتحاد مع روما وفي نشر المذهب الكاثوليكي. ولئن بذل مجهود كبير لمراجعة الكتب الدينية بالعربية، فان عملية التعريف بها كانت عسيرة لأن المخطوط لم يكن قادرا على ذلك. وبدأت فكرة اقامة مطبعة ببلاد الشام تراود أذهان الأرثودكس الملكيين. وقد بقي السؤال المطروح كالآتي : كيف أمكن تنفيذ الفكرة وتنزيلها على ارض الواقع ؟

1. 2 - جذور مطبعة حلب ، النشر الغربي ببوخاريست :

أسست مطبعة عربية ببوخاريست برومانيا في سنة 1113 هـ / 1701م (40) بمبادرة وبطلب من الأرثودكس الملكيين السوريين، الذين أعربوا عن حاجتهم الى كتب دينية عربية مطبوعة . وهذه الورشة كانت المصدر المباشر للمطبعة التي أقيمت بعد خمس سنوات بحلب . فعلاوة على بعض الآلات والتجهيزات التي نقلت منها الى بلاد الشام، كان أبرز شخص باشر عملية النشر في بوخاريست وهو بطريرك انطاكية اثناسيوس الثالث دباس في نفس الوقت مؤسس مطبعة حلب وتكمن أهمية مطبعة بوخاريست في أنها أول ورشة داخل الإمبراطورية العثمانية تصدر كتبا عربية، كما أنها تعكس تحولا هاما في تاريخ الكتاب العربي المطبوع وفي موقف الباب العالي من النشر بالحرف العربي .

يعتبر تأسيس المطبعة العربية برومانيا تمهيدا لظهور المطابع العربية المسيحية الثلاثة ، بحلب وشوير وبيروت. فمطبعة بوخاريست مهدت الطريق لتأسيس مطبعة حلب بصفة مباشرة ومطبعة شوير بصفة غير مباشرة . أما مطبعة جاسي (Jassy) في مولدافيا (Moldavie) فقد مهدت الطريق

---

(39) المصدر السابق .

(40) ازدهرت حركة النشر العربي بأروبا في القرن 12 هـ / 18 م ، وقد ظهرت مطابع عربية جديدة في عديد المدن مثل بوخاريست ومدريد ولشبونة وفيانا وغيرها . وقد بلغ عدد الكتب العربية المطبوعة في ذلك القرن حسب شنور 156 كتابا .
Schnurrer, Bibliotheca... op.cit., pp. 401-403.

لمطبعة بيروت ولنا ان نتساءل في بداية الامر كيف نفسر هذه العلاقة بين مطابع رومانيا وبلاد الشام ؟ وكيف تم التعاون بين ورشتي بوخاريست وحلب ؟ وما هو مدى اسهام الرومانيين في دفع حركة النشر العربي في بلاد الشام ؟

1 . 2 . 1 - العلاقة بين الأرثودكس العرب والرومانيين :

دخلت المطبعة الإغريقية الى بلاد الفلاخ في سنة 912 هـ / 1507 م على يد القس مكار (Macaire) في مدينة اغرا (Agres) (41) ولم تعرف بوخاريست اول ورشة للطباعة الا في سنة 1089 هـ / 1678 م حيث اصدرت اول كتاب هام لها بعد عشر سنوات من انطلاقتها وهو الكتاب المقدس (Biblia Wallachia) اما عن اول محاولة للنشر بالحرف العربي فقد ظهرت في سنة 1113 هـ / 1701 م بفضل أمير بلاد الفلاخ قسطنطين بسرابا برنكوفيانول (1099 هـ / 1688 م - 1126 هـ / 1714 م) ولم تكن لدى الرومانيين فائدة مباشرة من طبع كتب عربية على أرضهم، حيث لا يوجد بها سكان عرب او يتكلمون العربية ولا علماء مستعربين بجامعتها: فحتى لغة الإدارة بها كانت التركية. اذن لماذا أصدرت هذه المنشورات العربية ولمن وجهت ؟ ومن اشرف على طبعها؟ وأين تم توزيعها ؟

أمام رفض مجمع نشر الإيمان طبع كتب كما رأينا لفائدة الطائفة الأرثودكسية الملكية ، فقد توجه ابناء هذه الطائفة في القرن 12 هـ / 18 م، الى اخوانهم في فلاشيا . ويندرج هذا التعاون بين الأرثودكس العرب والرومانيين في نطاق العلاقات الدينية والثقافية القائمة بين الطرفين منذ أمد بعيد.

أ - علاقات تقليدية :

كانت الروابط الروحية بين أرثودكس بلاد الشام وأروبا الشرقية متينة منذ قرون عديدة، وازدادت العلاقات متانة في عهد العثمانيين، حيث كانوا خاضعين لسلطة الباب العالي. وكان رجال الدين الملكيين يترددون على بلاد الفلاخ ومولدافيا لمناقشة مسائل دينية واحيانا لطلب مساعدات مالية للتغلب على المصاعب المادية لكرسي البطريركية بانطاكية . وفي كل مرة يسافرون فيها الى رومانيا كان البطاركة والأساقفة السوريون يهتمون بالكتب الإغريقية والرومانية ويحرصون إما على

---

(41) Picot, E, " Notice sur l'imprimeur Anthime d'Ivir" in" Nouveaux mélanges orientaux publies par l'Ecole des Langues Orientales, Paris, Leroux, 1886 (2 serie, T XIX) p. 536.

نسخها او ترجمتها. فمثلا تولى بطريرك أنطاكية مكار الثالث زعيم ترجمة كتاب تاريخ بايات فلاخيا (42). في حين كلف احد مرافقيه وهو الخوري صابا يوسف بنسخ كتاب القداس (43). أما رئيس أساقفة صيدا وسور يواصف المصوّر، فقد قام بالتعاون مع كريستودول غزة بترجمة كتاب ماكسيم دي بيلوبوناز وعنوانه " **انشقاق البابوية** " الذي نشر في بوخاريست سنة 1101 هـ / 1690 م (44) . أما اثناسيوس الثالث فقد ترجم في 1116 هـ / 1704 م كتاب "**صلاح الحاكم وفساد العالم الذميم** " وكلف فرحات جرمانوس بمراجعته (45) . الى جانب هذه الترجمات جلب البطاركة معهم من فلاشيا ومولدافيا، مجموعة هامة من المخطوطات وأودعوها مكتبات كنائسهم بسوريا.

ب - تطور العلاقات في القرن 11 هـ / 17 م :

تطورت العلاقات الدينية والثقافية بين الطرفين بفضل حركية بطريرك أنطاكية أثناسيوس الثالث دباس. فقد تحول عديد المرات الى بلاد الفلاخ ومولدافيا التي كانت تتمتع بنوع من الحرية في تلك الفترة ، نظرا للتعاون الوثيق القائم بين أمرائها والسلطة العثمانية (46) . وأمكن لحكام رومانيا تنشيط الحياة الثقافية عندهم بفضل اقامة مطابع واصدار العديد من الكتب. وقد أرسلوا الى اخوانهم الأرثودكس ببلاد الشام كتبا دينية باللغة اليونانية للاستفادة منها في كنائسهم . وقد وجد أثناسيوس الثالث الفرصة سانحة للتقدم بطلب الى حاكم رومانيا لطبع كتب عربية بعد حركة التعريب الواسعة لكتب الطائفة خلال القرن 11 هـ / 17 م وندرة المخطوطات عندهم .

لم يكن للأرثودكس الملكيين بالمشرق لا الامكانيات المالية ولا الخبرة الفنية الكافية للمبادرة باقامة مطبعة عربية في بلاد الشام، على حد قول اثناسيوس دباس الذي تحدث فعلا عن حالة الفقر التي يعاني منها ابناء طائفته .

1. 2. 2 - تاسيس المطبعة العربية ببوخاريست :

---

(42) Candea, Virgil, " Dialogue roumano-libanais sur le livre et l'imprimerie" in: le livre et le Liban... op. cit., p. 285; voir aussi Nasrallah, Histoire... op. cit., T IV, p. 97.

(43) CANDEA, " Dialogue ...op. cit., " p. 284.

(44) المصدر السابق ، ص 284.

(45) Nasrallah, Histoire ... op. cit ., T IV p. 139.

(46) Simonescu, Dan, " Impression de livres arabes et Karamanlis en Valachie et en Moldavie au XVIII siecle" in Studia et Acta Orientalia, n 5-6, 1967, pp. 50-51.

أ - طلب أثناسيوس الثالث (47)

شغل أثناسيوس الثالث كما رأينا منصب بطريرك كنيسة أنطاكية لفترتين متميزتين . تتلمذ على يدي اليسوعيين بدمشق قبل ان يعين راهبا في دير قرب بيت المقدس . ثم أصبح مبشرا في بلاط حاكم فلاشيا لفترة قصيرة، ثم عين بطريركا على كنيسة انطاكية للمرة الاولى واعلن في ذلك الوقت عن اعتناقه للكاثوليكية أمام المبشرين الفرنسيسكان في سنة 1099 هـ / 1687م، ثم تراجع بعد ذلك في سنة 1133 هـ / 1720 م، حيث اصبح ارثوذكسيا متصلبا. بل انه اضطهد الحزب الكاثوليكي بحلب ولم يكن موقفه من المذهب الكاثوليكي واضحا البتة طيلة حياته . وبعد تخلي أثناسيوس عن كرسي البطريركية لفائدة منافسه كيرلس الخامس، قام بعدة رحلات خاصة الى استانبول وبلاد الفلاخ ففي 1112 هـ / 1700م، تولى في بوخارست إبرام عقد قران ابنة الحاكم قسطنطين برانكوفيانول (48) . واغتنم بعد ذلك فرصة وجوده ببوخاريست ليطلب من هذا الأمير الذي كان يرعى الأدب والعلوم ، طبع كتب دينية عربية .

ويشير البطريرك الى طلبه هذا في مقدمة ثاني كتاب عربي يطبع ببوخارست وهو الأورولوجيون، فيقول متحدثا عن الأمير الروماني برانكوفان : " لما علم من حقارتنا في المحل الذي حضينا (كذا) فيه بالاجتماع مع سعادته، واعلامنا له عن قلة الكتب الكنائسية بسبب انها كتابة اليد وتعذر (كذا) اقتنايها ، فمن زيادة ورعه وحسن ديانته في الأمور الإلهية اجتهد في عمل طبع عربي لأجل الكتب الضرورية بكلفه زايدة واطلاق يد في المصرف " (49).

يؤكد أثناسيوس الثالث في طلبه الى اميربلاد الفلاخ على ندرة المخطوطات العربية وعدم قدرة الناسخين، وعددهم قليل على الاستجابة لحاجيات الكنائس السورية من النصوص العربية الجديدة بعد ان تمت ترجمة الكتب الدينية للطائفة الأرثودكسية من السريانية واليونانية الى العربية . ان التجاء البطريرك الى بلاد رومانيا لطبع كتب عربية، كان نتيجة عدم قدرة ابناء طائفته على اقامة مطبعة عربية مسيحية في بلاد الشام، وهذا نظرا لفقرهم وكذلك نتيجة رفض مجمع نشر الإيمان بروما طباعة كتب وفق مذهبهم كما سبق ان رأينا ذلك .

---

(47) بالنسبة لترجمة اثناسيوس انظر : اندي ، البطريرك اثناسيوس الثالث دباس في نشرية الكنيسة الارثودكسية بحلب 1980 . ص 107-132 . انظر أيضا : Karalevsky, " Antioche" in D. H. G. E., T III, col 644-647; voir aussi Levenq, G, " Athanase III, in D. H.G.E., T IV, col 1369-1374 ; Nasrallah, Histoire ... op. cit ., vol IV, pp. 132-146.

(48) Karalevsky, " Antioche ...op. cit., " col 644.

(49) كتاب الاورلوجيون ، بوخريست . 1114 هـ / 1702م.

ويتحدث أثناسيوس الثالث عن ظروف انشاء مطبعة عربية في فلاشيا، فيقول أن الأمير استجاب لطلبه وأسس مطبعة عربية وأمر القس انتيموس إيفير وهو مطبعي ماهر يعمل عنده بطبع كتب دينية باللغتين العربية والإغريقية ووفر له الأموال اللازمة لحفر الحروف العربية بكل دقة (50).

ب - المطبعي انتيموس ايفير الكرجي :

هو كاهن من بلاد الكرج (جيورجيا) درس الأدب الإغريقي والروماني والتركي، ثم اشتغل بورشة طباعة ببوخاريست (51) وفي سنة 1106هـ / 1694م غادر هذه المدينة مصطحبا معه آلات الطباعة والقوالب والطوابع للأحرف ليستقر في دير سناغوفو الموجود في جزيرة تقع على بعد ثلاثين كيلومتر شمالي بوخاريست . وقد قام بطبع كتابين عربيين بأمر من الأمير برانكوفيانول بعد أن توصل الى حفر حروف عربية، وكانت خشنة وغير دقيقة. ولم تكن عملية تنضيد النصوص العربية جيدة فقد ارتكب اغلاطا كثيرة. ويعترف أنتيموس الكرجي بهذا النقص فيقول في خاتمة كتابه الثاني " أيها الأخوة المكرمين الذين تطالعون في (كذا) هذا الكتاب المبارك اسألكم وأتضرع (كذا) اليكم، انا الفقير صانع هذا الطبع ان تسامحوني عن جميع ما صدر فيه من الغلط وعدم التقويم بما اني غريب من (كذا) اللغة العربية " (52).

وجد هذا المطبعي صعوبة كبيرة في حفر الحروف العربية وفي عملية التنضيد رغم تعاونه مع البطريرك اثناسيوس الثالث، وهذا الاخير هو الذي راجع النصوص العربية. وكانت البداية دائما عسيرة في عملية النشر بصفة عامة. أما اذا كانت تخص الحروف العربية فهي أصعب مثلما حدث ذلك في روما وباريس واكسفورد وغيرها من المدن الأروبية، نظرا للمشاكل التقنية لحرف الطباعة العربي ولجهل المطبعيين في الغالب للغة العربية. فهل استفاد الغرب من هذه التجارب ؟ هذا ما سنعرفه فيما بعد عند التعرف على تجارب مطابع بلاد الشام واستانبول.

1. 2. 3 - محتوى المنشورات العربية :

لم تصدر مطبعة سناغوفو سوى كتابين مسيحيين هما القدسات الثلاثة الإلهية في سنة 1113 هـ / 1701 م والأرولوجيون في سنة 1114 هـ / 1702 م (53) وذلك على يد المطبعي

---

(50) مقدمة كتاب القدسات الثلاثة الإلهية الذي طبع في بوخاريست سنة 1113 هـ / 1701 م.

(51) Picot, " Notice ... op. cit ., " p. 518.

(52) كتاب الأورولوجيون.

(53) يضيف بعض المؤلفين كتابا ثالثا هو " الكتاب المقدس " وانه طبع في سنة 1112 هـ / 1700 م الا أن شنورر يفند هذا الرأي انظر : نصر الله ، " مطابع الملكيين منذ ظهور الطباعة الى أواخر القرن 18 " في المسرة ، 1948 ص 440 ، انظر ايضا ادلبي ، البطريرك ... ص 115.

أنتيموس وباشراف بطريرك أنطاكية اثناسيوس الثالث كما ذكر ذلك على صفحتي عنوان هذين الكتابين.

أ - كتابان دينيان :

- كتاب القدسات الثلاثة الإلهية مع بعض احتياجات اخرى ضرورية للصلوات الأرثودكسية ، طبع هذا الكتاب باللغتين اليونانية والعربية حتى يصل الى أكبر عدد من الكهان ورجال الدين الأرثوذكس الذين يحذقون على الاقل احدى اللغتين (54).

- كتاب الأورولوجيون (55) طبع ايضا باللغتين العربية واليونانية ويذكر اثناسيوس انه يهدي الكتابين الى حاكم بلاد الفلاغ .

طبع الكتاب الثاني حسب النص الذي راجعه عبد الكريم كرمي، ثم اعاد مراجعته اثناسيوس دباس وقد تمت اعادة طبعه في شوير عدة مرات اي في 1763 و 1787 و 1852 و 1879 م . ان في اصدار هذا الكتاب الديني عند انطلاق مطبعة بوخاريست دلالة هامة اذا علمنا ان كنيسة روما قد رفضت طبعه رغم النداءات المتكررة من بطريركي أنطاكية كرمي ومكار زعيم. فمجمع نشر الإيمان بروما اشترط مراجعة هذا الكتاب وغيره حسب النص اللاتيني قبل طبعه. وكذلك اعتناق بطريرك أنطاكية للمذهب الكاثوليكي ولذلك حرص الأرثودكس الملكيين على الدفاع عن مذهبهم من كل " تحريف" والحفاظ على استقلالية كنيستهم وطائفتهم من كل تدخل " اجنبي " في شؤونها فكان ان توجهوا الى اخوانهم الأرثودكس برومانيا لطبع كتبهم وانقاذها من التشويه.

ب - التوزيع :

يتحدث البطريرك أثناسيوس عن وجهة هذين الكتابين فيقول " ليوزعوها هبة على الكهنة الورعين الأرثودكسيين قاطنين (كذا) البلاد العربية " (56). ويؤكد بذلك انها موجهة الى رجال الدين في الكنيسة الأرثودكسية الملكية وليس لكل أبناء الطائفة خاصة وان عدد المتعلمين من هؤلاء ضعيفُ جدا وان الأولوية ستعطى للكنائس والاديرة لسد النقص الفادح في المخطوطات .

وفي خصوص صدى هذه المنشورات في بلاد الشام، اعرب الملكيون عن موقفهم الإيجابي الذي نقله لنا احد مؤرخي رومانيا المعاصر لتلك الفترة بقوله: ان البطريرك اثناسيوس الثالث وزع المنشورات العربية لسيناغوفو في كنائس بطريركية أنطاكية، وانها وجدت قبولا حسنا لدى أبناء

---

(54) يذكر اثناسيوس هذا السبب الذي دفعه لاستعمال اللغتين في مقدمة الكتاب الاول.

(55) يوجد بالمكتبة الوطنية بباريس تحت عدد : 1581 .

(56) مقدمة كتاب الاورولوجيون ، ورقة 12 .

الطائفة الأرثوذكسية الذين أعجبوا بهذه الكتب المطبوعة التي لم يروا مثلها من قبل وتوجهوا بالشكر الى امير بلاد الفلاخ واعترفوا بجميله عليهم (57).

الا أن مطبعة سيناغوفو سرعان ما توقفت بعد اصدار هذين الكتابين . إن رحيل البطريرك اثناسيوس الثالث الى قبرص، للقيام ببعض المهام الدينية، كان سببا مباشرا في تعطل الورشة . أضف الى ذلك صعوبة الاتصال بين بوخاريست وبلاد الشام وعدم وجود معاونين عرب للعمل مع المطبعي أنتيموس ومراقبة عملية النشر العربي واصلاح الأخطاء .

تكمن أهمية مطبعة سيناغوفو في انها مهدت الطريق للأرثوذكس العرب لاقامة مشاريع مماثلة ببلدهم (58) . فالدعم المادي والفني من رومانيا ممكن جدا ونجاح ورواج منشوراتها لدى ابناء الطائفة واكتساب البطريرك وهو أعلى سلطة في كنيسة أنطاكية للخبرة الفنية الكافية، علاوة على تحمسه للمطبعة . وقد ساهم كل ذلك في القيام بأول تجربة بسوريا تتمثل في تأسيس مطبعة عربية بحلب .

1. 3 - المطبعة العربية بحلب :

1. 3 . 1- تأسيس المطبعة

أ - مؤسس المطبعة :

تتفق المصادر التاريخية على ذكر مؤسس أول مطبعة عربية بالمشرق وهو البطريرك اثناسيوس الثالث دباس، الذي ذكر في أهم مصدر اصلي وهو الكتاب الثاني الذي طبع في حلب الإنجيل سنة 1118 هـ / 1706 م، متحدثا عن دوره في طباعة هذا الكتاب : " فشرعت حينئذ بطبعه بعد أن حررته على اللغة اليونانية بوضعه جملة فجملة واصلحت أعرابه لفظة فلفظة " (59). يتبين من هذه الفقرة ان بطريرك أنطاكية أشرف على طبع الكتاب، وأنه سخر كل خبرته التي اكتسبها في سيناغوفو ببوخاريست لدفع مطبعة حلب الجديدة . ونجد ذكرا لنفس الشخص في مقدمة آخر كتاب تصدره المطبعة : " ان كيركير أثناسيوس البطريرك الانطاكي الأفخم والهمام النبيل المعظم لما باشر مشارفة طبع هذا الكتاب الجلي المعاني الواضح المباني ..." (60).

---

(57) هذا ما ذكره احد المؤرخين الرومانيين المجهولي الإسم انظر :.Dan Simonescu, "Impressions ... " op. cit., p. 59

(58) يرى فرجيل كانديا ان العلاقات بين رومانيا وبلاد الشام شجعت الارثوذكس الملكيين على انتهاج سياسة ثقافية مستقلة .
Candie, Virgil, " Une politique culturelle commune roumano-arabe dans la premiere moitié du XVIII siècle" in: Bulletin de l'Association Internationale d'Etudes du Sud -Est Europeen, Bucarest, 1965, n 1 , p 51.

(59) كتاب الإنجيل ، حلب . 1118 هـ / 1706 م ورقة 2 .

(60) كتاب المواعظ ، حلب 1123 هـ / 1711 م ورقة 2 .

ويدل هذا على أن البطريرك اثناسيوس الثالث هو الذي أشرف على عملية طبع كل الكتب التي نشرت في حلب اي من 1118 هـ/ 1706 م الى 1123 هـ / 1711 م سنة توقفها، أي انه واكب كل مراحل حياة المطبعة التي لم تعمر طويلا. والاهم من ذلك انه هو صاحب المشروع من أوله، فهو الذي قام بالمبادرة منذ ان تحول الى بوخاريست لاستصدار كتب عربية هناك. وما مطبعة سيناغوفو الا مرحلة أولى من مشروعه الرامي الى إقامة مطبعة عربية مسيحية في بلاد الشام فلم يبق مكتوف الأيدي بعد توقف مطبعة بوخاريست العربية في سنة 1114 هـ / 1702 م عن العمل، اذ سعى منذ عودته الى حلب بعد سنتين من ذلك الى تأسيس مطبعة، وتمكن من الحصول على مساعدة مادية هامة من حاكم بلاد الفلاخ لتنفيذ مشروعه. ورغم اننا لا نملك حسب معلوماتنا الحالية تفاصيل دقيقة حول هذه المساعدة المادية، فهل هي تتمثل في أموال او تجهيزات او غيرها، الا أنه من المؤكد ان هذه الاعانة هامة جدا، الأمر الذي دفع اثناسيوس الثالث الى اهداء اول كتاب تصدره مطبعة حلب إلى الأمير الروماني قسطنطين بسرابا برانكوفيانول، وقد قال البطريرك في نص الإهداء : " فرح عظيم شمل المسيحيين لما ظهر قسطنطين العظيم ... حين كانت المؤمنون قبله مضنوكين (كذا) من الاضطهادات اليونانية ، ثم اصبحوا بغتة ظافرين مؤيدين . اكثر منه يشمل اليوم الفرح الكلي بل الاكمل كافة المؤمنين حين ظهرت يا أيها الهمام النبيل حاملا يديك تلك الغيرة الروحانية الواصلة منك نحو المؤمنين المقيمين في البلاد العربية" (61).

ان الدعم الذي قدمه امير بلاد الفلاخ لتأسيس المطبعة، لا ينبغي ان يطمس دور البطريرك اثناسيوس الثالث دباس في هذا المشروع، ويمكن اعتباره مؤسس ومدير مطبعة حلب . وان الخبرة الفنية التي اكتسبها في مطبعة بوخاريست أهلته للقيام بدور المطبعي في حلب، ولم تكن المؤهلات الفكرية والأدبية لتنقصه. فهو من رجال الأدب البارزين في الطائفة اذ قام بتأليف جملة من الكتب والرسائل وبترجمة نصوص دينية من اليونانية الى العربية، علاوة على مراجعة وتصحيح مخطوطات أخرى كان قد ترجمها سابقوه وساعده في ذلك حذقه للغتين العربية واليونانية. فمثلا ألف " رسالة وجيزة توضح كيفية التوبة " وقام بطبعها في حلب سنة 1123 هـ / 1711م. كما ترجم " **كتاب الدر المنتخب** " من اليونانية الى العربية وطبعه سنة 1119 هـ / 1707م، وتولى مراجعة كتاب الإنجيل والباركليتي قبل طبعهما (62).

---

(61) نص الإهداء في كتاب المزامير ، حلب ، 1118 هـ / 1706 م .

(62) Karalevsky, " Antioche ... op. cit ., " col. 645-697. Levenq, " Athnase ...op. cit., col. 137. Nasrallah, Histoire....op.cit ., vol IV, pp. 133-134.

لاثناسيوس الثالث مؤلفات اخرى مثل : اعمال المجامع ، كتاب الدر المنتخب ، صلاح الحكيم منهاج الكهنوت، منهاج الصلاح ، كتاب في صناعة الفصاحة ، صخرة الشك .

ب - تمويل المطبعة :

الى جانب الأموال التي أرسلها امير بلاد الفلاخ قسطنطين برانكوفان لمساعدة البطريرك على تنفيذ مشروعه، التجأ أثناسيوس الثالث أيضا الى الأغنياء الأرثودكس الملكيين والى بعض المؤسسات الخيرية للحصول على المال. واذا استخدمت مساعدات أمير رومانيا لتمويل المطبعة عند انطلاقتها ، فان المساعدات الأخرى مكنت من استمرار العمل بها حتى توقفها في سنة 1123 هـ / 1711 م. وهناك وثائق أصلية تتحدث عن اعانات ابناء الطائفة مثل مقدمة آخر كتاب يطبع في حلب حيث توجه البطريرك بالشكر الى كل من ساهم في تمويل الطبعة : " فلم نشح بموازرة الباري تعالى بالمساعدة للمسيحيين على حسب الإمكان من مصروف القبر الكلي القداسة، بل من صدقات المسيحيين ولذلك بذلنا المجهود في طبع هذه المواعظ ... من أجل خلاص أنفس واجساد المسيحيين الأرثودكسيين الذين بواسطة صدقاتهم ، امكنا ان نطبع هذا الكتاب " (63).

ساهم الأغنياء اذن من أبناء الطائفة الأرثودكسية الملكية الى جانب البطاركة في تمويل المطبعة. وقد ذكرت أسماء أبرز المحسنين الذين صرفوا الأموال اللازمة لطبع احدى الكتب مثل جان مازبا (Jean Mazeppa) قائد جيش الإنكشارية في بلاد الفلاخ الذي موّل طبعه الإنجيل في سنة 1119 هـ / 1708 م وخريسطوس (Chrysanthe) بطريرك بيت المقدس الذي موّل طبعة كتاب المواعظ الشريف سنة 1123 هـ / 1711 م وكذلك كيرلس الخامس منافس اثناسيوس الثالث الذي موّل كتاب الباركليتيكي اي المعزي سنة 1123 هـ / 1711م. وقد ذكرت هذه الأسماء في مقدمة الكتب المطبوعة نفسها .أما عن مقر المطبعة فهو أبرشيه الأرثودكس اليونانية الموجودة حاليا بحي الجديدة بحلب (64).

3.2.1 - المشاكل الفنية للنشر العربي :

أ - مصدر آلات الطباعة :

اذا لم يكن هناك شك حول اسم مؤسس المطبعة، فان الاختلاف حصل بين المؤرخين حول مصدر آلات وحروف الطباعة. فشنورر (65) يرى أن الحروف التي استعملت بحلب هي نفس الحروف التي استخدمت في سيناغوفو ، وبالتالي فهي قادمة من بلاد الفلاخ وذهب بعض

---

(63) مقدمة كتاب المواعظ ، ورقة: 5 - 6 .

(64) هذا ما أكده نيوفيطوس أدلبي رئيس أساقفة الروم الكاثوليك بحلب عند زيارتنا له بحلب في افريل 1981 .

(65) Bibliotheca arabica, p. 270.

المؤرّخين المعاصرين الى نفس الرأي (66) . بل أضافوا ايضا أن آلات الطباعة هي كذلك قادمة من سيناغوفو، ورأوا أنه في وجود ختم امير بلاد الفلاخ على أول صفحة لكتاب المزامير الصادر بحلب مثلما هو الحال للكتابين الذين صدرا بسيناغوفو ، وهذا دليل كاف على ان آلات وحروف الطباعة مصدرها بوخاريست . وقد عارض المستشرق الفرنسي دي ساسي هذا الرأي. فبعد أن قارن حجم وشكل حروف مطبعة سيناغوفو مع حروف حلب، لاحظ ان هناك فارقا واضحا بين كلتا الكتابتين (67).

ومن الواضح بعد مقارنة دقيقة بين الخط العربي في كلتا الطبعتين فإن الفارق بينهما هام مما لا يدعو للشك الى انهما من مصدرين مختلفين فحروف مطبعة سيناغوفو خشنة، بينما حروف حلب دقيقة، وهذا مما يؤكد انه حصل في الأثناء تطور فني. واذا ما أخطأ شنورر في حكمه فذلك يعود أساسا الى عدم تمكنه من القيام بمثل هذه المقارنة بسبب عدم حصوله على نسخ من كتب بوخاريست وحلب نظرا لندرتها .

الا أن هذا التأكيد لا يمنع من احتمال لجوء اثناسيوس الى اخذ حروف عربية من سيناغوفو لتكون نموذجا للحفارين بحلب، عند اعداد قوالب وطوابع للحروف العربية خاصة وأن الأرثودكس الملكيين بسوريا ليست لديهم خبرة فنية في الميدان. وقد يكون البطريرك وجد بعض صناع المعادن الماهرين لحفر الحروف تحت اشرافه وهو الذي تعلم هذا الفن في بلاد الفلاخ . ولا يمكن له ان يستدعي انتيموس ايفير الكرجي من سيناغوفو كما ذهب اليه الأب شيخو (68) . أولا لان هذا المطبعي غادر ورشته في 1117 هـ / 1705 م، لتقلد كرسي الأساقفة في ريمنيك (69) . ثانيا لان حروف حلب أكثر جودة من بوخاريست ويستبعد من انتيموس، ان يقدم عملا احسن من قبل . هذا اذا اضفنا ان العرب قادرون على القيام بهذا العمل بدقة. ويكفي التذكير بأن سافاري دي براف قد امر باعداد الحروف العربية باستانبول في بداية القرن 17 م والتي استعملها فيما بعد، في مطبعته بروما وباريس .

بقي ان نشير الى أن مصدرا آخر يشير الى ان الشماس عبد الله الزاخر هو الذي اعد الأحرف العربية، وهذا ما ذكره احد تلاميذ هذا العالم الأرثوذكسي الملكي ويدعى يواكيم مطران (1108هـ / 1696 م - 1180 هـ - 1766م)، والذي قال في ترجمة أستاذه عبد الله الزاخر أنه

----

(66) Karalevsky, Histoire ...op. cit,T III, p 169; DAN SIMONESCU, "Impressions... op. cit., p. 59. Candea, " Dialogue ...op. cit., " pp. 286-287.

(67) Sacy, Bibliotheque... op.cit ; T 1, p. 289.

(68) المشرق رقم 3 ، 1900 ، ص 355 .

(69) Picot, " Notice..." op. cit., p. 519.

" اصطنع مطبعة في حلب بمساعدة اخيه وعملا اباتها واماتها (كذا) واحرفها وجميع آلاتها وطبعا جملة كتب بدون ان يشاهدوا المطابع وبغير ان يرشدهما احد الى هذا العمل " (70).

ولئن كان الأب نصر الله يرى ان هذه الترجمة حقيقية وأنه يصعب ردّها، الا أننا نلاحظ انها رواية جد مبالغ فيها. فكاتبها هو تلميذ أراد تمجيد أعمال أستاذه ويمكن ان تنطبق هذه الشهادة فعلا على مطبعة الشوير. أما على مطبعة حلب فهذا أمر جد مستبعد خاصة وان المصادر الاولية تؤكد ان اثناسيوس الثالث هو مؤسس ومدير المطبعة. اضف الى ذلك انه لا يمكن لعبد الله الزاخر أن يقوم بمثل هذا المشروع، دون اي دعم مادي من اي طرف بل دون ان تكون له فكرة عن فن الطباعة. الا أنه من المحتمل ان يكون عبد الله الزاخر قد ساهم مع البطريرك وفنيين آخرين في اعداد الأحرف وهذا أمر وارد جدا، أولا لأن اثناسيوس الثالث يقول أنه عمل مع مجموعة من الأشخاص حيث " انه (الله) وفقنا الى عمل طبع الحرف العربي" (71) ثانيا لأنه تعاون تعاونا وثيقا مع عبد الله الزاخر الى حد 1133 هـ / 1720 م وهو العالم المسيحي الكبير كما سنرى فيما بعد والفنان البارع في مجال النقش والحفر على الخشب والمعادن (72).

وقد اخذت الأحرف العربية ثلاثة أحجام منقوشة على الخشب. فالحجم الأول كان خشنا واستعمل في طبع كتاب المزامير والإنجيل وكتاب النبوات والرسائل. أما الحجمين الأخرين فيشبهان الخط النسخي وطبع بهما كتاب المواعظ والباركليتيكي والتوبة (73).

أما عن نوعية الكتابة العربية فقد نقل الحفارون الحروف الجميلة للكتاب النسخي التي رسمها ناسخ مسيحي من عائلة لبّاد بحماه (74) . وفي خصوص آلات الطباعة التي يصعب صنعها في بلاد الشام في تلك الفترة، فيمكن أن تكون استقدمت من الخارج وعلى الأرجح من بوخاريست، وهو ما يمكن ان يفسر طبيعة المساعدة المادية التي قدمها حاكم بلاد الفلاخ للملكيين (75).

---

(70) مخطوط حريصا في المسرة ، 1948 . ص 387 .

(71) مقدمة كتاب المزامير . حلب 1118 هـ / 1706م .

(72) البستاني . فؤاد افرام . الشماس عبد الله الزاخر في : المسرة ، 1948 ، ص 400 . انظر أيضا نصر الله ، مطابع الملكيين في : المسرة ، 1948 . ص 450 . نلاحظ أن نصر الله يتناقض في تحديه في هذا المقال اذ بعد أن يقر بان البطريرك اثناسيوس هو منشئ المطبعة (ص 448) . اذا به يقدم عبد الله الزاخر على انه منشئ نفس المطبعة (ص 450) .

(73) Nasrallah, L'imprimerie ... op. cit., p. 21.

(74) حاج ، اثناسيوس . الرهبانية الباسيلية الشويرية جونية . مطبعة الكريم . 1973 ، ج 1 . ص 543 .

(75) صابات . خليل . تاريخ ... ص 29 . حتي فيليب . تاريخ ... ج 2 . ص 342 .

ب - مشكلة اعداد أحرف الطباعة العربية :

واجه المطبعيون بحلب نفس الصعوبات الفنية التي اعترضت سبيل زملائهم بأروبا في القرنين 10 و 11 هـ / 16 و 17م. فهؤلاء فشلوا في البداية حين عملوا على تطبيق مبدأ الفصل بين الحروف العربية في كتابة الكلمات والجمل مثلما هو الحال في الهجائية اللاتينية اذ طبعوا نصوصا عربية غير واضحة وهذا ما حدث لجيستنيا نوس الذي طبع كتاب المزامير في جنوة سنة 922 هـ/ 1516م والمستشرق بوستال الذي طبع كتاب النحو العربي بباريس سنة 949 هـ / 1543 م وغيرهما اذ لم يستخدما الأشرطة الرابطة بين الأحرف وسرعان ما انصرف الأروبيون عن هذه الطريقة وسعوا الى تطويع المطبعة الى الكتابة العربية المخطوطة عوضا عن تطويع هذه الكتابة الى المطبعة (76) الامر الذي تسبب في مشاكل فنية عدة (77).

1 - ان الحرف العربي يأخذ عدة أشكال حسب موقعه في الكلمة اي اذا كان في بداية الكلمة او وسطها او في آخرها فمثلا حرف الباء يأخذ شكلا أولا " بـ" وثان " ـبـ" وثالث " ب" ورابع " ـب " وهذا يستدعي اعداد قوالب عديدة لكل شكل من أشكال الحرف الواحد الأمر الذي لا تتطلبه الهجائية اللاتينية حيث يأخذ كل حرف شكلا واحدا ، أضف الى هذا قوالب العلامات والحركات على كل حرف مما يستدعي مجهودا اضافيا كبيرا (78).

2 - تطبيقا لمبدإ الطبع وفق كتابة المخطوطات العربية اي عدم الفصل بين أحرف الكلمة الواحدة وجب اعداد الأشرطة الرابطة .

3 - في الكتابة العربية هناك احرف ترتفع الى فوق السطر مثل أ، ط، ظ، و ك و أخرى تنزل الى أسفل السطر مثل ع ، س ، ق وغيرها وهذا يتطلب مساحة أكبر في النص العزبي .

---

(76) مثل قرانجون واليانو ونوبي وكرستن وأربنيوس الذين وفقوا في اعداد حروف عربية جيدة .

(77) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم . اللجنة الفنية لدراسة الاحرف العربية . القاهرة . 1971 . انظر ايضا : SAUVAGET, Jean, " Suggestions pour une réforme de la typographie arabe" in: Revue des Etudes Islamiques, 1951, p 127-132 ; HAMZAOUI, R, L'academie de la langue arabe du Caire, Tunis: Université, 1975, pp. 211-246.

(78) يعدد المطبعي الفرنسي فيتراي على سبيل المثال عدد الحروف والقوالب التي كان يستعملها لكل حجم من احجام الحروف : العربي الصغير : 445 . الحرف العربي الكبير 324 . الحرف العربي المتوسط 324 . الا ان المطابع الهولاندية والايطالية والالمانية كانت تستعمل حروفا اقل لا تتجاوز 150 قالب لانها لم تستخدم العلامات والاشرطة الرابطة بنفس القدر الذي استخدمته مطبعة باريس انظر : De Guignes, Principes de composition typographique pour diriger un compositeur dans l'usage des caractères orientaux de l'imprimerie royale, Paris, 1790.

أما عن نتائج هذا الوضع فتتلخص فيما يلي :

1 - يضيع العمال وقتا طويلا للبحث عن الحروف العربية في صندوق الأحرف ولوضع الحركات والعلامات عليها بما ان عددها مرتفع جدا بالمقارنة مع الأحرف اللاتينية وهذا ما لاحظه الرحالة الفرنسي فولني الذي زار مطبعة الشوير سنة 1198 هـ / 1784م حيث ذكر " أنه ينبغي سبك عديد من الأحرف المضاعفة وهذا ينجر عنه مضاعفة عدد صناديق الأحرف التي تصبح في غير متناول يد المطبعي المصفف الذي يضطر الى التنقل أمام منضدة يبلغ طولها 18 قدما والبحث عن الأحرف في قرابة 800 عين للأحرف وينتج عن ذلك خسارة وقت كبير تجعل المطابع العربية غير قادرة على مضاهاة مطابعنا " (79).

2 - يصعب استخدام أحجام صغيرة للحروف وتضييق المسافة بين الأسطر نظرا لطبيعة الكتابة العربية وهذا لا يسمح بتوفير مساحة للنص العربي كما هو الحال بالنسبة للنص اللاتيني مما يؤدي الى خسارة كبيرة في الورق . واذا اضفنا الى كل هذا ان المطبعيين بحلب يواجهون هذه المشاكل بالجملة لأول مرة في تاريخ المشرق ومطالبون بايجاد حلول لها علمنا صعوبة المهمة التي تعهدوا بها ، خاصة وأنهم لم يستفيدوا من تجارب أروبا الغربية التي سبقتهم في هذا المجال بحكم خلافاتهم مع كنيسة روما . بالاضافة الى هذا المشكل الفني اعترضت اثناسيوس الثالث مشكلة مادية انعكست على عملية اعداد الأحرف تمثلت في عجزه عن شراء المعدن الخاص بالقوالب والطوابع فاضطر العمال الى نقش الأحرف على الخشب مستعملين في ذلك ادوات النجارة البسيطة مثل الإزميل والمطرقة . ذلك لان سبك الحروف على المعادن يتطلب أدوات متطورة ودقيقة .

ج - صعوبة النشر العربي في حلب :

يقوم المطبعي في القرن 12 هـ / 18 م بدور " الناشر العلمي" علاوة على دوره التقني المهني الأصلي ذلك لأنه مطالب بتتبع كل " مراحل النشر " من اختيار المخطوط ومراجعته ثم تضيده واصلاح التجارب الى حدّ السحب وفي كل مرحلة يعترض صعوبات جمة خاصة عند مراجعة المخطوط وبالذات المخطوطات القديمة التي تداول الوراقون عبر العصور على نسخها اذ كان لابد من القيام بعملية " تحقيق " للتثبت من مطابقة النسخة للنص الأصلي قبل الشروع في عملية الطبع وفي جل الأحيان تتسرب الأخطاء في النسخ نتيجة اهمال الناسخين وتتراكم حتى تبتعد النسخة عن النص الأصلي وهذه الأخطاء تتنوع وتبدأ من أخطاء الرسم الى أخطاء النحو فالجمل الناقصة فالالفاظ المتحولة عن موضعها الأصلي فالألفاظ المستبدلة بألفاظ اخرى وغيرها حتى يصير النص

---

(79) VOLNEY, Voyage ... op. cit., pp. 293-294.

بمرورالزمن مشوها ومحرفا .

وقد تولى مهمة الناشر بحلب البطريرك أثناسيوس الثالث اذ تعهد باختيار ومراجعة المخطوطات قبل طبعها. وحرص في كل طبعة على طمأنة القارئ على صحة النص المطبوع ومطابقته للنص الأصلي. وكان يعدد كل الأعمال التي قام بها للوصول الى نص خال من الأخطاء، ففي كتاب المواعظ ذكر أثناسيوس انه عند طبع هذا الكتاب "رأى أنه مع تمادي الأيام وتخالف عقول الناسخين وعدم معرفتهم بمعاني الكتب وقوانين اللغة العربية قد وهي تركيبه وتقوضت مبانيه وأزيد ما لا احتياج اليه ونقص ما تدعو الضرورة اليه فتلافاه حينئذ بحسب الإمكان وحذف منه مازاد عن الواجب من الإعادات الملة وأثبت ما وجب اثباته لنيل الإفادة فحصل مصحفا عري (كذا) من التحريف مفيدا بوضوحه لمن قصر فهمه عن مطالعة الأسفار العميقة " (80). ولم يكن البطريرك وحيدا في عمله، اذ ساهم معه بعض العلماء الآخرين من امثال منافسه كيريل الخامس بطريرك أنطاكية وفرحات جرمانوس (81) وايضا كريسانت نوتاراس بطريرك بيت المقدس (82).

اختار أثناسيوس الثالث للطبع الكتب المقدسة المسيحية وكتب الأخلاق والزهد وهي اما كتب ترجمت الى العربية عن اليونانية او تم تأليفها في ذلك العصر او تم تجميعها من نصوص عدة. ومن جملة الكتب المقدسة يوجد الزبور والإنجيل وكتاب النبوات ، اما عن كتب الزهد فتتضمن المواعظ وجل هذه الكتب قديمة وقد حرفت وشوهت بمرور الزمن . ويؤكد أثناسيوس أنه راجع مع زملائه كل الكتب التي طبعت بحلب وانه قام باصلاح كل الأخطاء الموجودة بالنسخة العربية. وكان في كل مرة يطمئن القارئ الى دقة النص المطبوع ووفائه لروح افكار المؤلف وانه في بعض الأحيان اضطر الى تغيير بعض الجمل التي كتبها المؤلف ويمكن ان يعزو ذلك الى عدم حذق العلماء المسيحيين سواء مترجمين أو مؤلفين للغة العربية الفصحى والتي كما رأينا عوضت السريانية والإغريقية في كتبهم الدينية (83). ولهذا فعلى القارئ ألا يعول إلا على الكتاب المطبوع واهمال المخطوط منه وهذا ما توجه به الى القارئ في احد كتبه اذ قال " اياك يا هذا ان تعتقده محرفا اذا ما رأيته لاصله مخالفا بل اتخذه عين الصواب ان كنت منصفا واعلم ان كل كتاب يوجد منه منسوخا غير مطبوع، فهو من الغلط موسوع (كذا) واما ما وجد منه طبعا (كذا) فانه محكم الإنشا وضعا فلا

---

(80) تنبيه القارئ في كتاب المواعظ ، حلب ، 1123 هـ / 1711م ، ورقة 7 .

(81) ساهم فرحات جرمانوس في مراجعة كتاب الدر المنتخب الذي طبع بحلب في 1119 هـ / 1707م .

(82) هذا بالنسبة لكتاب المواعظ الذي طبع بحلب في 1123 هـ / 1711م ، ورقة 5 .

(83) انه من المهم لو تتم مقارنة بين نص الكتاب المقدس الذي طبعه اثناسيوس والنسخة العربية لعبد الله بن الفضل لتتعرف على مدى دقة عمل البطريرك الا ان هذا العمل يتجاوز نطاق دراستنا .

يجب الاعتماد الا عليه ولا يحسن الميل الا اليه " (84).

1. 4 - اسهام النشر العربي في حلب في تنشيط الحياة الدينية والثقافية عند المسيحيين في بلاد الشام :

نشرت المطبعة ثمانية كتب من بينها طبعتان معادتان وذلك من سنة 1118 هـ / 1706م الى سنة توقفها في 1123 هـ/ 1711م وهي كلها كتب دينية (85) ولنا أن نتساءل ما هو سبب اختيار أصحاب المطبعة لهذه الكتب ؟ وما هي مشاغلهم واهتماماتهم الرئيسية وهم ينشرون كتبا عربية لأول مرة في المشرق ؟ هل يمكن التعرف على المفهوم الذي حملوه عن دور المطبعة في حياة طائفتهم؟ و... صدى هذه الكتب في بلاد الشام وما هو مدى اسهامها في تنشيط الحياة الدينية والثقافية والعلمية لدى الطائفة الأرثودكسية ولدى بقية الطوائف (86).

1. 4. 1 - محتوى الكتب المطبوعة :

طبعت هذه الكتب الدينية بغرض استخدامها في كنائس الطائفة الأرثودكسية الملكية . وقد اختيرت بالنسبة للكتب المقدسة الترجمات العربية المعتمدة عندهم والتي أعدها عبد الله ابن الفضل الأنطاكي منذ القرن 2 هـ / 8 م . وتولى مراجعتها أثناسيوس ... أما كتب الأخلاق والزهد فقد اختيرت من بين المؤلفات الإغريقية القديمة وترجمت الى العربية من طرف البطريرك فكتاب المواعظ للقديس يوحنا المطبوع في 1123 هـ / 1711م هو جملة من المواعظ وعددها أربع وثلاثون، تولى جمعها وترجمتها الى العربية أثناسيوس الثالث كما أن "رسالة وجيزة توضح كيفية التوبة" المطبوعة أيضا في 1123 هـ/ 1711 م وهي منتخبات من كتب اغريقية جمعها وترجمها كذلك نفس

---

(84) **كتاب المواعظ** ، ورقة 7 .

(85) هذه الكتب كالاتي :

- **الزبور** ، حلب 1118 هـ / 1706 م اعيد طبعه بعد ثلاث سنوات .
- **الإنجيل** ، حلب 1118 هـ / 1706 م واعيد طبعه بعد سنتين .
- **كتاب الدر المنتخب** ، حلب 1119 هـ / 1707 م
- **كتاب النبوات** ، حلب 1120 هـ / 1708 م
- **كتاب الرسائل** ، حلب 1120 هـ / 1708م
- **كتاب الباركليتي** ، حلب 1123 هـ / 1711 م
- **كتاب المواعظ الشريف** ، حلب 1123 هـ / 1711 م
- **رسالة وجيزة توضح كيفية التوبة** ، حلب 1123 هـ / 1711 م

(86) ان هذه الدراسة ستكون محدودة نظرا لعدم تمكننا من الاطلاع الا على كتابين فقط من انتاج المطبعة بسبب ندرتها وهما : الإنجيل والمواعظ .

البطريرك وكذلك الأمر بالنسبة لكتاب "**المواعظ الشريف** " للأب أثناسيوس بطريرك بيت المقدس الذي الفه في القرن 9 هـ / 15 م وطبع في 1123 هـ / 1711 م وهذه الكتب كانت مهملة ولا يعرفها الا القليل حتى من رجال الدين. لذلك بادرت المطبعة بنشر ترجمتها العربية أولا للتعريف بها لدى الأرثودكس، ثم لتسهيل قراءتها لأنها باللغة العربية التي اصبح يتكلمها كل أبناء الطائفة. وثانيا لتقدير مجهود العلماء منهم الذين بذلوا جهدا كبيرا منذ القرن 11 هـ / 17م لمراجعة المخطوطات وترجمة بعض الكتب مثل عبد الكريم كرمي ومكار الثالث زعيم وأثناسيوس الثالث دباس وغيرهم، وهذا بالخصوص في وقت ندرت فيه المخطوطات وارتفع ثمنها رغم أنها مليئة بالأخطاء. ولكن كيف يبرر هؤلاء اختيارهم لهذه الكتب دون غيرها؟ ذكرت أسباب ذلك في مقدمات بعض الكتب، الا أنها اقتصرت على اشارات غامضة. فمثلا في كتاب الإنجيل ذكر في المقدمة انه طبع " قصدا بذلك ان تستفيد من تعاليمه الساطعة ". كما وردت اشارة أخرى في مقدمة كتاب المواعظ عن الدوافع التي كانت وراء طبعه " لما تأملناه من النفع العام الذي نرجوه ان يحصل من هذا المصحف السمي ".

لم يفسر اصحاب المطبعة الألفاظ التي أوردوها مثل "النفع العام"، الا انه من الواضح ان المسألة تتعلق بالفوائد الدينية التي تعود الى الملكيين عند استعمالهم لهذه الكتُب من فهم بعض التعاليم المسيحية والاتعاظ بأفعال السابقين وغير ذلك.

يقول ايضا كريسانت نوثاراس بطريرك بيت المقدس (1119 هـ / 1707 م - 1144 هـ / 1731 م) ، الذي موّل وأشرف على عملية نشر آخر كتاب بحلب وعنوانه "مواعظ أثناسيوس" (87). متحدثا عن فائدة الكتاب :

" وجدنا هذا الكتاب الرفيع المحل المشتمل على أقوال خلاصية نافعة للنفس تتلا (كذا) على مدار السنة في الحدود والأعياد، وهو منتمي لأثناسيوس بطريرك اورشليم ... لكننا عرفنا يقينا من المطلعين على هذه اللغة ضرورية هذا السفر الشريف ونفعه وخاصة من بطركي مدينة الله العظمى (انطاكية) الجليلين الكليين لطوبا اي كيركير للس المتقلد البطريكية يرحمه الله تعالى وكيرا تاناسيوس البطريرك السابق الفايق الغبطة أخوينا الحبيبين ... بما انهما متعمقان في فقه اللغة العربية " (88). يرى بطريركي انطاكية وبيت المقدس، انه ينبغي ان تستأثر المواضيع الدينية بنصيب الأسد في منشورات حلب لذلك توجهت مطبعة حلب توجها دينيا باعتبار انها تحت أشراف رجال الدين الذين يريدون تسخيرها لخدمة المذهب الأرثودكسي الملكي اما عن اهمالهم للمواضيع العلمية

---

(87) هي مواعظ اثناسيوس الثالث بطريرك القدس (1460م - 1468م)

(88) كتاب المواعظ، ورقة 5 .

والأدبية في هذه المنشورات فيمكن ان تعزى الى ان المخطوطات التي تتناول هذه المواضيع متوفرة بالسوق على عكس المخطوطات الدينية المسيحية التي هي نادرة. لذلك حرصت كنيسة انطاكية على توفير الكتب الدينية باعداد كبيرة حتى يجتمع كل ابناء الطائفة حول نصوص دينية موحدة، خالية من الأخطاء ومترجمة إلى العربية حسب الأصل اليوناني . كذلك لم يهمل اثناسيوس الثالث ورفاقه الفائدة الثقافية من هذه المنشورات. فالنصوص مزدوجة اللغة عربية ويونانية مما يمكن القراء من تعلم العربية الفصحى بالاستعانة بالنص اليوناني الموجود مقابل كل صفحة عربية، والتدرب على مطالعة كتب عربية في أسلوب متوسط لا غير وبنية نحوية متماسكة نوعا ما .

ان هذا الأمر جديد بالنسبة للمتعلمين الأرثوذكس الملكيين بسوريا وعددهم في الحقيقة ضعيف. وأضعف منه عدد اولئك الذين تعلموا العربية الفصحى ، ان بعض الكتب المطبوعة كانت في نفس الوقت، عبارة عن كتب مدرسية للأطفال والكهول. فمثلا يعتبر كتاب الزبور ، علاوة على قيمته الدينية، بمثابة كتاب لتعليم العربية للأطفال وهذا هو سبب اعادة طبعه مرة اخرى في حلب، لتوزيعه على اكبر عدد من الأرثوذكس، وهو في حجم صغير ليسهل مسكه واستعماله ، اذن كان لمنشورات حلب دور ثقافي وتربوي الى جانب دورها الديني. ولنا أن نتساءل الآن هل فكر اصحاب مطبعة حلب في مواجهة الكتب الكاثوليكية القادمة من روما مثلما ذهب اليه كميل أبو صوان (89) ؟

من خلال محتوى هذه الكتب يتبين انها لا تضم كتبا جدلية ضد الكاثوليكية او لتعليم المذهب الأرثوذكسي، اذا استثنينا الكتاب الأخير وهو " المواعظ" حيث تضمن تقديم الكتاب هجوما ضد أعداء الأرثوذكسية من "ذوي الهرطقات الذين يريدون بث أفكار هدامة" (90) دون تحديد هوية هؤلاء " المارقين عن الدين " هل هم الكاثوليكيين أم البروتستان ام غيرهم . ان كاتب هذا التقديم هو خريستطوس نوتاراس وهو بطريرك بيت المقدس سنة (1119 هـ / 1707م - 1144هـ / 1731م) الذي عرف بدفاعه عن الأرثوذكسية ضد الكاثوليكية متابعا في ذلك منهج عمه دوسيتوس Dosithee (1080 هـ / 1669 م - 1119 هـ / 1707 م)،الذي تهجم على الكاثوليكية وفنّدها في كتبه (91) . واذا استثنينا هذه الاشارة في تقديم الكتاب لا توجد كتب أخرى مطبوعة بحلب

---

(89) Abousouan, C, " Une etape importante dans les relations Orient-Occident: la naissance de l'imprimerie arabe en Europe occidentale et balkanique " in : Actes du colloque international de civilisations balkaniques, Bucarest, 1962.

(90) المواعظ ، ورقة 4 .

(91) يقول خريستطوس في مقدمة كتاب المواعظ ورقة 5 ، متحدث عن عمه دوسيتوس " ويود اشهار قبح الاراء الفاسدة المزمعة الحدوث بمكاتبات منه خصوصية صحبة مكاتبات رجال حكمة متفلسفين التي عما قليل كان قد دثرها طول الزمان فجمعها من كل ناحية بتفتيش بليغ لتكون للجميع اسلحة كاملة لكي بها يقاومون الاراء المفسدة لحسن الإيمان التي ستحدث " .

تهاجم المذهب الكاثوليكي او اعضاء الطائفة الملكية الذين انضموا الى الحزب الكاثوليكي او تجيب عن الكتب الجدلية العربية التي طبعها مجمع نشر الإيمان بروما اذ ان أكبر مشاغل اثناسيوس الثالث وزملائه هو توفير كتب الأناشيد والطقوس الدينية التي تحتاج اليها كنائسهم أشد الحاجة. وهذه النصوص قادرة على جمع شتات كل اعضاء الطائفة حول أناشيد واحدة ورواية واحدة للإنجيل، بعد ما اختلفوا حول تراجم الكتب المقدسة العديدة واختلفوا حتى عند قراءة المخطوطات نظرا للتحريف والتشويه الذي أصابها وهذا ما أمكن تفاديه حسب البطريرك أثناسيوس دباس واصحابه الذين سعوا الى اصدار كتب مترجمة من اليونانية الى العربية بعد مراجعة وتفحص دقيق للمحتوى والشكل ويرون كذلك ان هذه المنشورات مدعوة لتعويض المخطوطات تدريجيا. وهذا ما يفسر النداء الذي توجهوا به الى القارئ في آخر كتا ب اصدروه بالا يعتمدوا الا على هذا الكتاب المطبوع، والا يلتفتوا الى النسخ المخطوطة منه (92) ان المخطوط هو مصدر الأخطاء والمشاكل التي تقسم أبناء الطائفة ، لذلك وجب اقصاؤه واستعمال الكتاب المطبوع فقط .

ان هدف المطبعة هو افادة كل ابناء الطائفة بما فيهم " المنشقين " الذين اعتنقوا المذهب الكاثوليكي ولهذا لم تسع الى اصدار كتب جدلية باستثناء تلك الإشارة التي وردت في آخر كتاب لها. لقد حرص اثناسيوس الثالث مؤسس المطبعة ومديرها مع مساعديه على طبع أكبر عدد ممكن من الكتب الدينية الضرورية لكنائس الطائفة ولكن الأمر تغير فيما بعد حوالي سنة 1133 هـ / 1720م حيث أعلن البطريرك الحرب على عبد الله الزاخر الذي اعتنق المذهب الكاثوليكي وكان لهذه الحادثة تأثير على تاريخ الطباعة العربية اذ كانت من بين أسباب تأسيس مطبعة الشوير .

1. 4. 2 - التوزيع :

قرر أثناسيوس الثالث توزيع منشورات حلب مجانا على رجال الكنيسة الملكية الأرثودكسية وذلك لتشجيع القراءة، خاصة وأن هذه الكتب قد طبعت بفضل المساعدات التي قدمها أمير رومانيا وأغنياء الطائفة. ولم يكن الغرض اذن الحصول على مرابيح او تغطية المصاريف من خلال بيعها . وقد تحدث خريستطوس عن وجهة هذه المنشورات فقال : " لكي يفرقوا مجانا في كنائس العرب الأرثودكسيين لكي يقروهم (كذا) في محل اجتماعهم. ولذلك نلتمس من كافة الذين يحصلون عليهم بل ننصحهم نصيحة أباوية، ان لا يجتهدوا في تحصيل هذا الكتاب فقط بل وان يستمروا على قراءته (كذا) مواضبين على ما يأمرهم به من التعليم الخلاصي المفيد لا سيما الكهنة والمتقدمين في الكنائس ، فاياهم ان يتهاملوا به (كذا) كدين واجب عليهم يقروه في وقت اجتماع المؤمنين بمسمع

---

(92) كتاب المواعظ ، ورقة 7 .

الكافة جليا ويحتوهم (كذا) على سماعه والعمل بموجبه " (93).

وجهت هذه المطبوعات اذن بالدرجة الأولى الى رجال الدين الأرثوذكس، وهم يحسنون القراءة والكتابة وقادرون بالتالي على قراءة هذه الكتب على أسماع الأرثوذكس الأميين. ونظرا الى ان عدد المتعلمين يكاد ينحصر في الكهان والأساقفة، فان الكتاب يبقى في الكنيسة للقراءة الجماعية (94) ويدعو خريستطوس رجال الدين الى الإكثار من قراءة فقرات من الكتب الصادرة بحلب أثناء الصلوات بالكنيسة والأعياد حتى يطلع المؤمنون على النصوص العربية الجديدة المترجمة عن اليونانية ويسهل عليهم حفظ الأناشيد وفقرات من الكتب المقدسة وذلك باللغة المتداولة عندهم عوضا عن اللغات المقدسة التي لم تعد مستعملة في حياتهم اليومية.

يمكن أن نفسر سبب حرص أصحاب حلب على ايداع كتبهم في الكنائس والأديرة فقط دون تشجيع الأرثوذكس على تداولها خاصة في الأماكن العمومية بحذرها الشديد من أن تتسبب في استفزاز " المسلمين" الذين لا يقبلون بسهولة الكتب العربية المطبوعة، علاوة على انها مسيحية، هذا بالنسبة لعامة المسلمين. اما عن السلطات العثمانية، فان الوثائق لا تشير الى انها كانت مطلعة على مطبعة حلب، الا انه يبدو وان موقفها اصبح متسامحا مع مطلع القرن 12 هـ / 18م ازاء فن الطباعة بالحرف العربي، خاصة وان الباب العالي كان بصدد الإعداد لقرار يسمح بادخال أول مطبعة اسلامية باستانبول، وربما كانّ هذا العامل مشجعا للبطريرك اثناسيوس الثالث ولأمير بلاد الفلاخ قسطنطين برنكوفيانول، لاقامة مطبعتين على الأراضي العثمانية ونشر وتوزيع كتب عربية في ثلاث بطريركات ارثودكسية هي انطاكية وبيت المقدس والإسكندرية.

1. 4. 3 - توقف المطبعة :

اصدرت مطبعة حلب آخر كتاب لها في سنة 1123 هـ/1711 م ، ثم توقفت ولا ندري ان كان هذا التوقف وقتيا ام نهائيا. وقد ذكر بعض المؤرخين ان الورشة انطلقت من جديد في 1134 هـ / 1721م لتطبع كتابين الأول " **صخرة الشك** في 1134 هـ / 1721م والثاني **القنداق** في 1138 هـ / 1725م . لا يزال الكتاب الأول محفوظا في المكتبات الكبرى في العالم وهو كتاب جدلي كتبه أحد الأرثودكس اليونانيين ويدعى الياس منياتاس (1080 هـ / 1669 م - 1126 هـ / 1714م)، وترجمه اثناسيوس الثالث الى العربية، الا انه حصل اختلاف حول المطبعة التي

---

(93) **كتاب المواعظ** ، ورقة 6 - 7 .

(94) لم تصلنا الأرقام حول نسبة سحب الكتب الا انه يعتقد أن عدد النسخ لم يكن مرتفعا لان رقم السحب يخضع لعامل السوق وسخاء بعض الأغنياء من رعاة الادب والعلم لذلك اقتصر توزيعها على الكنائس فحسب .

نشرت الكتاب فشنورر ونصر الله يعتقدان ان الترجمة العربية صدرت في لندن وليس في حلب (95). أما لوفانك فيرى ان هناك طبعتين واحدة بحلب وأخرى بلندن (96) . جاء في آخر كتاب صخرة الشك : " تم ذلك وبرز باللغة العربية في مدينة حلب المحمية بهمة الأب المكرّم اثناسيوس البطريرك الأنطاكي في سنة 1721 " . نفهم من هذا أن الترجمة اعدت بحلب وليست الطبعة. فقد اعتاد صاحب مطبعة حلب على استعمال هذه العبارة على صفحات منشوراته : "قد طبع حديثا بمحروسة حلب المحمية " وانه ليس من باب الإهمال أن يغفل البطريرك عن ذكر هذه العبارة التقليدية. فهل تم فعلا طبع الكتاب بلندن وفي هذه الحالة نتساءل كيف نفسر اتصال أثناسيوس بالبروتستانان لطبع كتب بانقلترا؟ ان عنصر الاتصال هنا، كان أحد التلاميذ الذي أرسله اثناسيوس الثالث نفسه للدراسة بأروبا ويدعى سليمان الأسود (توفي في 1142 هـ / 1729م) الذي عرف باسمه اللاتيني (Salomon Negri) (97) وكان قد استقر في باريس ثم في هال واخيرا في لندن. حيث كلفته مؤسسة انقليزية متخصصة في نشر الكتب المقدسة بمراجعة الكتب التي طبعها اثناسيوس الثالث بحلب بغرض اعادة طبعها وقام باصدار ثلاثة كتب في لندن : **المزامير** في 1138 هـ / 1725م والإنجيل في 1140 هـ / 1727م وكذلك **كتاب صخرة الشك** الذي ترجمه بطريرك أنطاكية. وهذا ما تؤكده شهادة اصلية لفرحات جرمانوس الذي كان معاصرا لأثناسيوس دباس ، حيث قال " ونقل أيضا اثناسيوس المذكور كتابا اخر يسمى **صخرة الشك** مملوءا قذفا وشكّا ضد الإيمان المقدس وارسل فطبع هذا الكتاب النجس الدّجالي في بلد الإنكليز وتكلف على طبعه من ماله " (98).

وإذا تأكدنا من ان هذا الكتاب لم يطبع بحلب، فانه بقي كتاب آخر يزعم أنه طبع في هذه المدينة وهو " القنداق" الا انه لا توجد أي نسخة منه في المكتبات الكبرى في العالم ولا نجد له ذكرا إلاّ في وثيقة تعود الى القرن 13 هـ / 19 م، وهي رسالة من الخوري أوغسطينوس مقصود الذي دخل الرهبانية الشويرية في 1200 هـ / 1786 م، وتعرف على مطبعة الشوير ، وكان قد بعث هذه الرسالة في 1257 هـ / 1841 م الى الراهب الشويري مكسيموس مظلوم، ذكر فيها ان البطريرك سيلفستروس القبرصي (1137 هـ / 1724 م - 1179 هـ / 1766م) قد طبع كتاب **القنداق** في المطبعة التي هجرها سلفه أثناسيوس في حلب سنة 1138هـ/1725م (99).

---

(95) Schnurrer, n 274 ; Nasrallah, Histoire ... op. cit., vol IV, p. 142.

(96) Levenq, " Athanase ... op.cit" ; col 1373-1374 ; voir aussi ELLIS, A. G; Catalogue ... op cit., T1, col 328.

(97) Biographie universelle, Paris, Michaud, 1822 T 31, article NEGRI.

(98) نصر الله ، مطابع الملكيين ، ص 451 .

(99) حاج ، الرهبانية ، ج 1 ، ص 550 .

ان هذه الوثيقة تبقى غامضة فعلاوة على انها غير معاصرة للحدث فانها لا توضح كيف تم احياء مطبعة حلب بعد ان هجرت واهملت منذ اربع عشر سنة وبما أنه توجد طبعة لكتاب القنداق بالعربية في سنة 1158 هـ / 1745م صدرت في رومانيا واشرف عليها سلفستروس بالذات والأرجح ان أوغسطينوس مقصود يقصد في رسالته هذه الطبعة لا غير(100) . ومما يدعم رأينا بأن مطبعة حلب لم تشتغل قط بعد توقفها سنة 1123 هـ / 1711 م تلك المساعي التي قام بها الأرثودكس الملكيون لتجديد طلبهم لدى مجمع نشر الإيمان بروما لطبع كتابي الاورولوجيون والصلوات وكان ذلك في سنة 1128 هـ / 1716م(101) وذلك بعد ما تبين ان تجهيزات مطبعة حلب لم تعد صالحة للاشتغال من جديد نظرا للحالة الرديئة التي اصبحت عليها الآلات والحروف .

لقد تقدم البطريرك كيريلس الخامس بهذا الطلب الى المجمع رغم ما ابدته هذه المؤسسة من رفض لمطالب مماثلة كان قد تقدم بها كرمي وزعيم في القرن 11 هـ / 17م وأعيد الطلب مرة اخرى في سنة 1138 هـ / 1725م من طرف التلاميذ الملكيين بروما وتمسك مجمع نشر الإيمان بموقفه وشروطه التي رأيناها سابقا . ان اعادة التوجه نحو روما يؤكد عجز الأرثودكس على احياء مطبعة حلب من جديد او القيام بمشروع جديد . اما عن اسباب انقطاع المطبعة فلا تزال غامضة ولا شك أن العامل المادي قد ساهم في تعطيل العمل فالمطبعة مرتبطة تمام الارتباط بالمساعدات التي تقدم اليها ولا تملك مصادر مالية قارة بها ، فهي لا تبيع الكتب ووجب عليها مجابهة المصاريف الكبيرة التي تتطلبها كل طبعة الشيء الذي ازعج كثيرا اثناسيوس الثالث حسب شهادة الخوري يعقوب صاجاتي الحلبي احد المعاصرين لعبد الله الزاخر(102) . كما كان في رحيل هذا الأخير عنها وهو أبرز المطبعيين بها الاثر السلبي في سير الورشة .

أما عن مصير تجهيزات المطبعة فهو غامض اذ لم يبق اثر للآلات والأدوات الأخرى وقد ذهب المؤرخ معلوف إلى ان أدوات المطبعة نقلت من حلب الى دير سيده البلمند ثم الى دير الشوير مشيرا الى انه عثر على بعض القطع الخشبية من مطبعة حلب في دير البلمند(103) الا أن هذه النتيجة غير كافية في غياب مصادر اولية لمعرفة مصير مطبعة حلب وعلاقتها بمطبعة الشوير .

---

(100) طبع " القنداق " بالعربية واليونانية في المطبعة الجديدة برومانيا التي أسسها حاكم بلاد الفلاخ ايوان مروكردات ولنا عودة الى هذه المطبعة في الفصل التالي .

(101) Nasrallah, Notes ...op. cit.,T 1 , p. 103.

(102) حاج ، الرهبانية ... ، ج 1 ، ص 540 .

(103) DAN SIMONESCU, " Impressions ... op. cit.," p. 58.

الخلاصة والخاتمة :

كان للأرثودكس في حلب الفضل في ادخال اول مطبعة عربية الى بلاد المشرق منذ القرن 12 هـ / 18م. وقد ساهمت عدة عوامل في اختيار مدينة حلب لتكون مقرا لهذه الورشة منها وزنها في التجارة الدولية وتأثرها بالحضور الأروبي المتمثل في التجار والمبشرين مما ادخل حركية جديدة في الحياة الدينية والاجتماعية للطوائف المسيحية، تمثلت بالخصوص في ترجمة الكتب الدينية من الإغريقية الى العربية، ومراجعة مخطوطات دينية عديدة واتصالها بمنشورات اروبا. مما دفع بالأرثودكس الى التحمس للاستفادة من فن الطباعة .

وقد توجه بطريرك انطاكية أثناسيوس الثالث الى الأرثودكس ببوخاريست لطبع كتب دينية باللغة العربية بعدما رفض مجمع نشر الإيمان طبع كتب الطائفة الأرثودكسية الملكية. ثم أقام البطريرك مطبعة بحلب نجحت في اصدار ثمانية كتب من 1118 هـ / 1706م الى 1123 هـ / 1711م . وقد تهجم علماء الطائفة الأرثودكسية الملكية على المخطوط والناسخ . فوعاء المعلومات التقليدي ينقل أخطاء النحو والرسم العديدة وبالخصوص ينقل نصوصا دينية محرفة ومشوهة بسبب جهل واهمال الناسخين. وعلاوة على ذلك. فان المخطوط نادر وباهض الثمن . أما عن فوائد المطبعة كما يراها بطاركة كنيسة انطاكية، فتتمثل في أنها أداة لمضاعفة عدد الكتب الدينية التي ترجمت الى العربية لتعويض النصوص اليونانية والسريانية، التي لم تعد مفهومة من طرف غالبية أبناء الطائفة . ان الكتاب المطبوع في نظرهم سيكون في خدمة الكنيسة وابناء الطائفة وسيساهم في جمع شملهم حول نصوص دينية موحدة ولم يفكروا في طباعة الكتب العلمية والأدبية العربية، لانها غير مطلوبة بكثرة من طرف طائفتهم ولانها متوفرة لدى الوراقين المسلمين .

لم تهدف منشورات حلب لاثارة جدال ديني ضد الكاثوليكيين وبقية المذاهب المسيحية الأخرى، فقد كانت بصفة عامة بعيدة عن الصراعات العقائدية التي أثارها المبشرون والكاثوليكيون العرب بحلب . ولم تعمر مطبعة حلب طويلا اذ لم تدم سوى ست سنوات فقط. ولم تكن كافية للحكم على مدى تأثيرها على الحياة الثقافية والدينية لدى المسيحيين بسوريا. الا انها قدمت فائدة للمطابع التي ظهرت من بعد، مثل الشوير وبيروت اذ كانت نموذجا لها وأعدت مطبعيين وحفارين ذهبوا للعمل بجبل لبنان . ان فن الطباعة تركز ببلاد الشام بفضل هذه المطبعة .

2 - المطبعة العربية بالشوير 1147 هـ / 1734م :

توقفت حركة النشر لمدة ثلاث وعشرين سنة بعد تعطل مطبعة الأرثوذكس الملكيين بحلب، وقبل ان تظهر مطبعة ثانية لدى المسيحيين . وكانت هذه المرة بالشوير بجبل لبنان وبمبادرة من الملكيين الكاثوليكيين ولنا أن نتساءل هل كان لهؤلاء نفس المفهوم عن المطبعة مثل الذي كان للأرثوذكس

بحلب؟ هل تم تسخيرها لخدمة المذهب الكاثوليكي؟ وهل أثرت في مجرى الحياة الثقافية بسوريا خاصة وان ورشة الشوير عمرت طويلا، رغم المصاعب التي اعترضتها (1147 هـ / 1734م - 1314 هـ/ 1899م) ؟

1.2 - الصّراعات بين المسيحيين بحلب :

سنحاول دراسة وضعية المسيحيين بحلب في القرن 12 هـ / 18م والتي ساهمت في احتداد الصراعات المذهبية بينهم ، مما دفع البعض منهم الى الهجرة الى الشوير ثم تأسيس مطبعة بها .

2. 1. 1 - الاضطهادات :

انتشرت الكاثوليكية بسرعة في أوساط الارثودكس الملكيين في حلب كنتيجة للنشاط الكثيف الذي قام به المبشرون الذين أرسلتهم روما وباريس . وكما رأينا فان عددهم وصل الى 4000 كاثوليكي من جملة 000 40 مسيحي. وقد قاومت الكنائس الشرقية هذه الحركة وسلكت طريقتين في ذلك ، الإقناع بواسطة الحوار والكتابات الجدلية او الردع والقمع . وقد وجدت في الباب العالي خير سند في مهمتها. وكان أن سلطت ضغوطات قوية على كل من اعتنق المذهب الكاثوليكي الى حد أنها وصلت للتعذيب البدني وللتصفية الجسدية . وكل ذلك كان بأوامر من البطاركة والباشوات. فقد شن الأرثودكس بقيادة البطريرك كيريلس الخامس، حملة عنيفة ضد كل مراكز الكاثوليكية ببلاد الشام(104) . وكذلك لم يتردد أثناسيوس الثالث الذي اعتلى كرسي البطريركية في 1133 هـ / 1720م، بعد تراجعه عن الكاثوليكية، من شن حملة لاضطهاد ضد كل الكاثوليكيين واللاتينيين وذلك بعد حصوله من السلطان على فرمان في 1125 هـ / 1722م، لمنع الأرثودكس الملكيين من اتباع مذهب الباب بروما " او حتى الاتصال بالمبشرين بسوريا" (105) . وأمام هذا التهديد لم يجد الكاثوليكيون بدّا من الفرار الى جبل لبنان المنيع الا أنهم لم يكتفوا بالتحصن به بل عملوا على تنظيم صفوفهم ورد هذه الهجومات بشتى الوسائل ومن بينها استخدام فن الطباعة لنشر المذهب الكاثوليكي . ان أمر المطابع لم يعد يخفى عن أحد، خاصة بعدما تأسست أول مطبعة اسلامية باستانبول وبقرار من السلطة العثمانية التي ابدت اقتناعها بضرورتها وفوائدها. وقد اراد الملكيون الكاثوليكيون الاستفادة من هذا الفن بعدما انضم الى صفوفهم أحد العناصر الخبيرة في هذا المجال وهو عبد الله الزاخر .

2. 1. 2 - عبد الله الزاخر (1090 هـ / 1680م- 1160هـ /1748م) :

نتوقف عند حياة عبد الله الزاخر وهو من أبرز مؤسسي مطبعة الشوير الذي واكب نمو الحزب

---

(104) Bacel, P, " Abdallah Zakher" in: Echos d'Orient, n 11, 1908, p. 219.

(105) Levenq, " Athanase" ... op. cit., col 1371.

الكاثوليكي والتطور الذي حصل له في القرن 12 هـ / 18 م. وكان أبواه أصلا كاثوليكيين من حماه (106) ، التي تعلم فيها العربية العامية وكذلك مهنة أبيه، الصياغة (107) ثم غادر حماه في 1113 هـ / 1701 م، للاستقرار بحلب صحبة ابن عمه نيقولا الصائغ، حيث درسا الآداب العربية لدى العالم المسلم : الشيخ سليمان الحلبي النحوي. ثم درسا الفلسفة والعلوم الدينية المسيحية لدى الأب يوحنا بجع (108) . وعلى غرار عبد الله الزاخر وابن عمه، كان الشباب النصراني في القرن 12 هـ / 18م يتعلم العربية الفصحى لدى العلماء المسلمين، ثم يتابعون دروسا في الديانة المسيحية . وقد علم الأب بجع مبادئ هذا الدين لهؤلاء التلاميذ الذين اصبحوا فيما بعد، من أشهر العلماء والمؤلفين المسيحيين مثل الزاخر وابن عمه ومكريدج الكسيح ومكسيموس الحكيم وغيرهم. وقد تعلم وحذق عبد الله الزاخر اللغة العربية الفصحى وقواعدها وهي اللغة التي دخلت في تقاليد الحزب الكاثوليكي . كما انه أقام علاقات طيبة في حلب مع المبشرين اللاتينيين، الذين لا يحذقون العربية وكان يصلح لهم ترجماتهم الى العربية، ويساعدهم على نسخ المخطوطات وتعامل بالخصوص مع رئيس بعثة اليسوعيين في سوريا الأب بيار فروماج، حيث راجع كتبه المترجمة الى العربية (109) مثلما تعامل من قبل مع البطريرك أثناسيوس الثالث في طبع الكتب بحلب وخاصة في حفر الحروف العربية ومراقبة المنشورات. الا ان علاقاته مع البطريرك تدهورت في حدود سنة 1133 هـ / 1720 م بسبب الحملة الجدلية التي استعرت بين الأرثودكس والكاثوليك .

2. 1. 3 - المناظرات الجدلية بين الملكيين الأرثودكس والكاثوليك :

وقد تطور الجدال الديني بين المسيحيين بحلب في تلك الفترة الى حد ان " الأمر أصبح عاديا " حسب تعبير احد الأرمنيين (110) . فقد كثر عدد المناظرات الجدلية بين رجال الدين النصرانيين وكذلك الكتب التي تتناول هذا المجال . وقد كتب المبشرون انفسهم رسائل جدلية ضد الأرثودكس

---

(106) كان ابوه زكريا قد فرّ مع اخيه نعمه الله من حلب عند بداية حملة الاضطهاد ضد الكاثوليكيين وكان والدهما موسى الصايغ قد قتل من قبل في حماه . BACEL, " Abdallah ...op. cit"., p. 219

(107) عرف بالزاخر لوفرة علمه وكثرة مواهبه وكان يحذق عدة صناعات الى جانب الصياغة منها صناعة التصوير " ترجمة حياة الفيلسوف الشماس عبد الله الزاخر " في : المسرة ، 1948 ، ص 387 .

نلاحظ ان الاب باسل يعتمد على ترجمة ذاتية لعبد الله الزاخر الا ان نصر الله يشكك في وجود هذه الوثيقة اذ لم يعثر لها على اي أثر في ارشيف الاب باسل الذي تحتفظ به مكتبة حريصا لذلك فقد فضلنا الاعتماد على ترجمة اخرى كتبها احد تلاميذ الزاخر ونشرت بمجلة المسرة .

(108) يوحنا بجع هو تلميذ عبد الكريم كرمي ، ساهم في مراجعة الكتب الدينية مع استاذه وفي ترجمة الكتاب المقدس المسيحي . له خبرة كبيرة في مجال التعليم وفي المسائل الدينية انظر : Nasrallah, Notes... op.cit ., T.1, pp. 139-141.

(109) BACEL, " Abdallah ... op.cit., " p. 224.

(110) رسالة من الارميني مكريدج الكسيح في 1733 منشورة في : Echos d'Orient, n 11, 1908, p. 222.

قبل أن يوكلوا المهمة فيما بعد الى تلاميذهم من الملكيين الكاثوليكيين للردّ بدورهم على الأرثودكس (111). ومن جملة الكتب الجدلية نذكر أولا نماذج من تلك التي كتبها الأرثودكس :

- "**السيف القاطع**" (112) كتبها احد الأرثودكس ليبرهن على ان كنيسة فوسيوس (113) على حق وليست كنيسة البابا وذلك في شكل سؤال وجواب .

- "**القضايا الثلاث**" من تأليف غابريال دي فيلادلفي وترجمة اثناسيوس الثالث وشارمان (114) الى العربية لرفض سلطة البابا والرد على كتب تعليم المسيحية لبلارمان وبوسيفان .

- **صخرة الشك** ألفه الياس مانياتس وترجمه الى العربية أثناسيوس الثالث وفيه يحمّل المؤلف رجال كنيسة روما مسؤولية الانشقاق الذي حصل بين الكنائس الشرقية من جهة وكنيسة روما بسبب حرصهم على السيطرة على كل المسيحيين (115) .

وكان رد فعل الملكيين الكاثوليكيين على هذه الكتابات خاصة من طرف عبد الله الزاخر الذي كان يتقن "فن الجدل" فألف بعض الكتب نذكر منها :

- "**الترياق الشافي من سم الفيلادلفي**" كتبه زاخر سنة 1133 هـ / 1720 م ردا على كتاب القضايا الثلاث للفيلادلفي (116).

- "**التفنيد للمجمع العنيد**" وفيه يرد الزاخر على القرارات التي اتخذها مجمع القسطنطينية في سنة 1135 هـ / 1722 م (117) .

- "**كتاب البرهان اليقين على فساد المنشقين**" الفه عبد الله الزاخر في سنة 1138 هـ/ 1725 م لتفنيد كل مبادئ الأرثودكسية التي حددها مجمع القسطنطينية الذي اجتمع في سنة

---

(111) يشير فولني الى هذا الموضوع فيقول بان اليسوعيين اسسوا بمدينة حلب مدرسة لتعليم الاطفال المسيحيين الديانة الرومانية والمحاورات الجدلية بسبب تطور الجدل الديني بين مختلف المذاهب المسيحية بالشرق ولم يتاخر اللاتينيون بحلب في الدخول في هذه المجادلات ضد اليونانيين . VOLNEY, Voyage ... op. cit., p. 292.

(112) BACEL, p. " Abdallah ... op, cit ., pp. 221.

(113) فوسيوس هو رجل رفين بيزنطي ، بطريرك القسطنطنية في 858 كان من دعاة الارثودكسية .

(114) Nasrallah, Histoire ... op. cit., T IV, pp. 141-142.

(115) Levenq, " Athanase ... op. cit"., col 1371.

(116) BACEL, " Abdallah ... op. cit., p. 267.

نصر الله ، "عبد الله الزاخر واشارة الادبية" ، في المسرة ، 1948 ، ص 410 .

(117) المصدر السابق ، ص 411 .

1137 هـ/ 1724م والتي حرص على نشرها بطريرك انطاكية الجديد سيلفستروس (118).

- " **الدّحض الخطير لانكار الذبيحة الالهية** " فهو جواب على كتاب استراتوس أرجانتس وهذا الكتاب الأخير طبعه لبطريرك سيلفستروس برومانيا سنة 1159 هـ / 1747م .

كان الحوار ساخنا بين الطرفين الى درجة أنه تجاوز نطاق النقاش الفكري لينقلب الى حملة اضطهاد يقودها بطريرك أنطاكية ضد الكاثوليكيين، فاثناسيوس الثالث اطلع على كتاب الزاخر: " الترياق الشافي " قبل تحوله الى القسطنطينية لحضور المجمع الذي انتظم بها في 1134 هـ / 1722م، واستطاع ان يحصل من الصدر الاعظم على خط شريف يسمح له بتتبع كل الكاثوليكيين وبقطع رأس عبد الله الزاخر (119). وحين علم الزاخر بذلك، سارع بالفرار الى جبل لبنان حيث قضى بضع سنوات متنقلا بين عدة أديرة هي الشوير وزوق ميكايل وعين طورا (120). ثم تفرغ بعد ذلك لطباعة الكتب في مطبعة جديدة اقيمت بالشوير .

2 .2 - تاسيس مطبعة الشوير:

1 .2 .2 - مؤسس المطبعة :

لا تتفق الوثائق على ذكر اسم المؤسس الحقيقي للمطبعة، فهناك وثائق تقدم اليسوعيين على انهم هم المؤسسون واخرى تقدم عبد الله الزاخر . ففي رسالة للأب اليسوعي فروماج الى السيد ترويهيلي وهو تاجر فرنسي بصيدا مكتوبة بعين طوره سنة 1139 هـ / 1726 م. وقد ذكر له فيها أنه مشغول بتركيب قطع مطبعة كان قد استقدمها من أروبا. بعد ان أشرف على حفر حروف عربية شبيهة بتلك المستعملة بمجمع نشر الإيمان بروما، وأنه أرسل في طلب مجموعة من المطبعين الماهرين من أروبا (121). اما الأب اليسوعي فنسب لنفسه حسب هذه الرسالة تأسيس المطبعة فهو يؤكد أنه هو الذي أحضر آلات الطباعة من أروبا، كما أنه عمل على اعداد أحرف الطباعة العربية دون ان يقدم توضيحات عن جنسية الحفارين الذين قاموا بالعمل وفيما اذا قدموا من أروبا ام من بلاد الشام وكذلك طريقة عملهم .

وهناك وثيقة اخرى وهي رسالة كتبها رحالة فرنسي يدعى دي لاروك في 1148 هـ /

---

(118) المصدر السابق ، ص 411 . Bacel, Abdallah ... op. cit., pp. 368-369.

كانت لعبد الله الزاخر مناظرات مع البروتستان والمسلمين وآثار فلسفية وتاريخية ورسائل الى اصدقائه وأشعار .

(119) Volney, Voyage ... op. cit., p. 292.

(120) حاج ، الرهبانية ... ج 1 ، ص 525 .

(121) هذه الرسالة محفوظة في ارشيف الرهبانية الباسيلية الشويرية وقام بترجمتها الى الفرنسية الاب باسل في صدى الشرق .
Echos d'Orient, 1908, p. 284 .

1735م يؤكد فيها ما قاله الأب فروماج ويذكر ان هذا الأخير هو مؤسس المطبعة، وقد يكون استورد الأحرف العربية من روما (122) الا أنه يتبين أن دي لا روك استقى معلوماته من ترويهيلي الذي تلقى الرسالة الأولى . اذن فهذا الرحالة لا يقدم جديدا لبحثنا .

ان المصادر تتناقض فيما بينها حول هذه النقطة. ففي رسالة أخرى للأب فروماج موجهة لعبد الله الزاخر في 1147 هـ / 1734 م، تفيد انه ليس مؤسس المطبعة اذ يقول : "اني اعرف كثيرا من الأشخاص باروبا، فاذا بعثوا لي بمساعدات لمطبعتكم، فهل تسمحوا لي باستعمالها لفائدة الأعمال الطيبة ولتوزيع الكتب الدينية"(123) . وهذا اعتراف من الأب اليسوعي بأن صاحب المطبعة هو الزاخر وذلك باستعماله ضمير الجمع في عبارة " مطبعتكم " في خطابه. وهذا يبين بأن زاخر هو الشخص الوحيد المؤهل لاتخاذ قرار بقبول او رفض المساعدات. اما الأب فروماج فدوره ثانوي في هذا المشروع ويقتصر على جمع الأموال من الأروبيين .

ان الأب فروماج يردد نفس العبارة ونفس الاعتراف في رسائل أخرى، ولم ينسب الى نفسه البتة شرف تأسيس المطبعة، باستثناء ما أورده في الرسالة الأولى، وعندما تدهورت علاقاته مع عبد الله الزاخر بداية من 1149 هـ / 1736 م بسبب قضية " العابدات " فهو يقول له " ومطبعتك التي تعتاش منها أنت وسواك من هم الذين ساعدوك على تحقيقها أليسوا السيوعيين " (124). وهنا يشير الى المساعدات المالية التي قدمها اليسوعيون لاقامة المطبعة والتي لم تكن هامة كما سنرى فيما بعد . اذن يتبين من خلال مراسلات الأب فروماج نفسه. أنه تراجع فيما ذهب اليه في رسالته الأولى للتاجر الفرنسي من أنه مؤسس المطبعة ويعترف بأن عبد الله الزاخر هو المؤسس والمدير للمطبعة وان دوره اقتصر على جمع المساعدات المالية من المحسنين لفائدة المشروع، ولا يمكن تفسير الرواية التي ذهب اليها في خطابه الموجه لترويهيلي، الا في هذا الإطار أي لحثه هذا الأخير على الإسهام في تمويل المطبعة لا غير .

وبعد التخلص من هذا الإشكال الذي طرحه خطاب الأب فروماج الى التاجر الفرنسي باعتراف اليسوعي نفسه في خطاباته الموالية ، بأن عبد الله الزاخر هو صاحب مطبعة الشوير، فان بقية المصادر الأصلية تسير في نفس السياق وتقدم تفاصيل عن ظروف تأسيس المطبعة من طرف الزاخر. من ذلك ما ذكره احد تلاميذ عبد الله الزاخر في ترجمة حياة استاذه : "فسكن احدى القرى

---

(122) البستاني ، الشماس ص 401 ، نشرت هذه الرسالة لاول مرة في مجلة : Le Mercure, mai 1736 ; voir DE SACY, Bibliotheque ... op. cit., T 1 pp. 412-413.

(123) Echos d'Orient, n 11, 1980, p. 285.

(124) نصر الله ، مطابع الملكيين ، ص 456 .

في كسروان وهناك ابتدأ بعمل مطبعة اخرى متقنة في الغاية ، مع انه لم يكن يوجد له آلات تلزم هذا العمل ولا مكان مناسب ولا من يعرف مهنة غير الفلاحة سوى رجل صايغ كان يسعفه بتقدمة بعض آلات ومساعدة بعض اعمال خفيفة . فبهذا المكان المقفر الخالي من المعونة البشرية والإسعاف اللازم، باشر هذا العمل العظيم وأتى به الى دير ماريوحنا الشوير. وهناك كمل جميع اللوازم والآلات وشغل المطبعة بطبع كتب كثيرة مفيدة جدا " (125) وتبين هذه الترجمة ان الزاخر هو الذي اقام المطبعة بالشوير بفضل نشاطه وخبرته، حيث وفق الى ذلك رغم صعوبة الظروف التي عمل فيها وافتقاده للمساعدة من يد عاملة واموال وادوات وغير ذلك. ولم تذكر البتة أنه استقدم آلات من مطبعة حلب . كما نجد وثيقة اصلية اخرى تقدم تفاصيل أخرى عن ظروف نشأة المطبعة وعن مؤسسها وهي حوليات الرهبانية الحلبية الشويرية التي تذكر : "السنة 1731 : مضى (عبد الله الزاخر) الى الزوق وشرع في عمل المطبعة واشتغل فيها كثيرا . واذ رجع الى ماري يوحنا اصطحب الجميع معه وشرع في اتمام البقية ودفع له الأب نيقولاوس (اي نيقولاوس الصائغ) الوكيل العام احد الأخوة ليتعلم منه ويساعده وهو يواكيم بن المطران البعلبكي حين كان مبتدئا ..." السنة 1733 : في هذه الأيام ابتدأ شغل المطبعة العربية في دير ماري يوحنا بيد الشماس عبد الله الزاخر الحلبي وقد كان هيأها وأتقنها بصنعة يديه وحذاقة عقله وهو في زوق مكايل حينما كان ماري يوحنا مأخوذا بيد المشاقين والأخوة نازحون . ولما عادوا اليه عاد المذكور وأخذ في عملها حتى اتمها وابتدأ بطبع كتاب ميزان الزمان عدد 800 (اي طبع منه ثماني مائة نسخة) " (126) . تؤكد هذه الوثيقة الثمينة مكانة عبد الله الزاخر كمؤسس للمطبعة وفيها تقدير لجهده المتميز في مواصلة مشروع اقامة المطبعة رغم الصعوبات التي اعترضته، وخاصة ما يتعلق منها باحتداد الصراع المذهبي بين المسيحيين العرب وخاصة ما لقيه الروم الكاثوليك من " اضطهاد " على يد الأرثودكس وفرار اعضاء الرهبنة الشويرية الناشئة من دير ماريوحنا، لما اقتحمه الأرثودكس وهم يلاحقون عبد الله الزاخر العدو اللدود لبطاركة انطاكية ويزداد في فترة " الاضطهاد " هذه اصرار الزاخر على تنفيذ مشروعه لاستخدام فن الطباعة للرد على هجوم الأرثودكس، وجعل المطبعة في خدمة الحزب الكاثوليكي في المشرق . ان حوليات الرهبانية الشويرية تقدم حقائق دقيقة عن ظروف عمل الزاخر وعن توظيفه لخبرته في فن الطباعة ونقش الحروف (127) . مما لا يدع مجالا للشك في أنه وقف

----

(125) المسرة ، 1948 ، ص 388 ذكر نصر الله ان عبد الله الزاخر. كتب رسالة الى احد اصدقائه في حلب يصف الطريقة الجديدة التي اخترعها لرسم حروف الطباعة وحفرها وسكبها ومد ساعده على ذلك الا ان المؤلف لم يوفق في الحصول على هذه الوثيقة النفيسة المسرة 1948 ، ص 419 .

(126) المصدر السابق ، ص 388 .

(127) المصدر السابق ، ص 419 .

على كل مراحل اقامة المطبعة بل اكثر من ذلك أنه تابع العمل بها الى حدّ وفاته سنة 1161 هـ / 1748م . وهنا نجد وثيقة أصلية تبين انه بقي المتصرف الوحيد في المطبعة وتجهيزاتها الى نهاية حياته وهذه الوثيقة هي وصيته بتاريخ 29 أوت 1748 م / 1161 هـ التي أوصى فيها بأن تكون مطبعته وكل تجهيزاتها وفقا للرهبانية الباسيلية بالشوير على أن يديرها تلميذه سليمان قطان وان توزع بعض النسخ من كل كتاب يطبع مجانا وان يتسلم ابن اخيه ثلاث او اربع نسخ (128) . وهذه الوصية لم يعترض عليها اي أحد فلو كان لليسوعيين مثلا حق في ملكية هذه المطبعة لكانوا قد طالبوا به واحتجوا على هذه الوصية .

وأخيرا نورد وثيقة أصلية أروبية في نفس السياق وهي للرحالة الفرنسي فولني الذي زار دير الشوير في 1198 هـ / 1784 م وقضى هناك ثمانية أشهر وتحدث عن هذه المطبعة وهي المطبعة العربية المسيحية الوحيدة التي بقيت تشتغل في تلك الفترة وبما أنه استقى معلوماته من الرهبانية الشويرية، فان شهادته لا تختلف كثيرا عن حوليات الرهبانية التي تعرفنا عليها سابقا (129) . ان الرحالة الفرنسي يؤكد بدوره ان الزاخر هو مؤسس المطبعة بما انه خطط للمشروع ونفّذه ثم بين الأسباب التي دفعته الى ذلكّ " عندما غادر بلده لم يهمل افكاره الإصلاحية بل صمّم أكثر من ذي قبل على نشرها ، ورأى أنه لا يستطيع القيام بذلك الا بواسطة الكتابات وان المخطوطات غير كافية لتبليغها" (130) . نلاحظ أن فولني مقتنع بالمفهوم الذي توصل اليه الأروبيون حول دور المطبعة أي أنها وسيلة لبث الأفكار الإصلاحية الجديدة ونشر الآراء التي ستحدث ثورة في كل مكان ويرى أن هذا المفهوم هو الذي يحمله اصحاب المطابع بالمشرق فما هي حقيقة الأمر عن مطبعة الشوير ؟ هذا ما سنتعرف عليه عند دراسة محتوى مطبوعاتها ؟ .

2. 2. 2 - آلات الطباعة بالشوير :

اذا توصل عبد الله الزاخر الى اعداد الأحرف العربية فانه لم يكن قادرا على صنع آلات الطباعة نظرا لتشعبها وافتقاده للأدوات والمادة الأولية لذلك، هذا علاوة على غياب مساعدين من ذوي الكفاءات لمساعدته في صنع الآلات ولم تتعرض الوثائق الأصلية الى هذه النقطة بالذات باستثناء

---

(128) وصية عبد الله الزاخر المسّرة ، 1948 ، ص 463 .

(129) هناك شهادة أخرى تبين أن الزاخر هو مؤسس المطبعة وقد اوردها المستشرق الفرنسي دي ساسي نقلا عن نص مكتوب بخط اليد في القرن 12 هـ / 18 م على اول ورقة من كتاب الزبور الذي طبع بالشوير في 1148 هـ / 1735 م ذكر فيه " هذا الزبور العربي طبعه احد السوريين الذي تولى صب أحرف الطباعة وتاسيس مطبعة في بداية القرن 12 هـ / 18 م " هذه الوثيقة لم تتحدث البتة عن اليسوعيين انما ذكرت احد السوريين الذي لا يمكن ان يكون الا عبد الله الزاخر .

(130) VOLNEY, Voyage ... op. cit.,pp. 292 - 293.

ذلك الخطاب الذي ارسله الأب فروماج الى التاجر ترويهلي والذي ذكر فيه أنه بصدد تركيب قطع مطبعة كان قد استحضرها من اروبا ويقصد بلفظ مطبعة آلات الطباعة لأنه يتحدث فيما بعد عن الحروف العربية التي سيتولّى اعدادها حسب قوله حفارون قادمون من أروبا ، وعلى ضوء هذه الرسالة لا يستبعد أن يكون اليسوعيون قد ساهموا في مشروع الزاخر بتقديم آلة الطباعة التي جلبوها من اروبا علاوة على الأموال التي جمعوها لفائدته ، بقي ان نتساءل ما هو البلد الأروبي الذي جلبت منه المطبعة ؟ وهنا يرى لويس شيخو ان هذا البلد هو فرنسا (131) وهذا الاحتمال يبقى واردا نظرا للعلاقة الوطيدة التي تربط الأب فروماج بالتجار الفرنسيين .

ان الملكيين الكاثوليكيين كانوا مقتنعين بفوائد اقامة مطبعة ببلاد الشام ولم يترددوا في طلب المساعدة من الأروبيين وخاصة المبشرين اليسوعيين الذين شجعوا المبادرة ورأوا فيها احياء لمشروع قديم كان قد فكر فيه كما رأينا الأب الكبوشي جوزيف في 1035 هـ / 1626 م لاقامة مطبعة بجبل لبنان الا انه فشل في ذلك واذا ما رفض مجمع نشر الإيمان بروما قبل مائة عام مثل هذا المشروع فانه لم يعارض مشروع الزاخر بل قدم له مساعدة غير مباشرة عن طريق اليسوعيين وكان يرى فيه فوائد كبيرة للبابوية فالمبادرة هنا تعود لابناء المشرق من الكاثوليكيين الذين اسسوا حزبا لهم ونادوا الى الاتحاد مع روما رغم معارضة واضطهاد بطاركة انطاكية ولذا فإن مجمع نشر الإيمان كان يرى في عبد الله الزاخر والمبشرين والرهبانية الشويرية خير مدافعين عن اهداف كنيسة روما .

2.2. 3 - تمويل مطبعة الشوير :

تمكن عبد الله الزاخر من تأسيس مطبعة بفضل آلة الطباعة التي جاءته من اروبا وكذلك المساعدات المالية التي تلقاها مباشرة او بطريقة غير مباشرة عن طريق المبشرين اليسوعيين وهؤلاء جمعوا مبالغ مالية من التجار الأروبيين المقيمين بالمشرق على غرار الفرنسي ترويهيلي الذي كتب اليه الأب فروماج في نفس الخطاب الذي رأيناه سابقا يطلب منه الإسهام في تمويل المطبعة " نحن لا نزال في البداية والموارد المالية تعوزنا ... اننا نعول على عناية ومساعدة الكرماء لأن مثل هذه المشاريع باهضة الثمن " (132) . وكان نتيجة هذا الطلب ان أرسل اليه التاجر الفرنسي ستين قرشا (133) .

ما هي التكلفة الجملية لاقامة المطبعة؟ يجيب عن هذا السؤال مؤسسها في خطاب له أرسله الى

---

(131) شيخو ، لويس ، تاريخ فن الطباعة ، المشرق ، رقم 3 ، 1900 ، ص 460 .
(132) BACEL, " Abdallah ... op. cit., " p. 284.
(133) المصدر السابق ، ص 286 .

الأب فروماج سنة 1153 هـ / 1740 م " ان المطبعة التي تدعي انه باسعافكم لي هذا المبلغ كان قيامها ووجودها قد تكلفت قبل ان تطبع ورقة واحدة نحو ألف قرش والى الآن تكلفت نحو ألف وخمسمائة قرش فماذا اذا يـون مبلغك الذي هو مقدار ثمانية وسبعين قرشا بالنسبة الى الألف وما الذي يحصل عنه بهذا العمل من الإسعاف وماذا يصدر عن عدمه من التعطيل والتعويق " (134).

ان تكاليف اقامة المطبعة باهضة ولم يساهم اليسوعيون فيها الا بمبلغ ضئيل لا يساوي عشر التكلفة ولهذا عبّر الزاخر عن ضآلة المبلغ وانه كان بامكانه الاستغناء عن هذه المساهمة دون ان تضر بمشروعه . ويبدو ان ثمن آلة الطباعة التي جلبها اليسوعيون من اروبا غير مضمن في مبلغ ثمان وسبعين قرشا التي قدمها المبشرون، اما لأن عبد الله الزاخر قد دفع ثمنها او لأنها قدمت بعنوان هدية . ولنا ان نتساءل كيف جمع مؤسس المطبعة مبلغ الف قرش ؟ ويبدو انه تولى جمعه هو وأعضاء الرهبنة الشويرية مباشرة من اغنياء الكاثوليكيين العرب وقد يكون أضاف اليه من ماله الخاص الذي ورثه من أبيه الصائغ .

2. 2. 4 - مقر المطبعة :

أقيمت المطبعة بدير ماريوحنا بالشوير منذ 1144 هـ / 1731 م قبل ان تستكمل كل معداتها وكان الزاخر قد بدأ مشروعه في قرية زوق ميكايل حسب حوليات الرهبانية الشورية قبل ان ينتقل الى الشوير فما هي اسباب اختيار دير الشوير كمقر للمطبعة ؟ يقول الأب فروماج في نفس خطابه الى التاجر ترويهيلي انه حاول اقامة هذه المطبعة في ديرهم الجديد في عين طورا الا أنه نظرا لضيق المكان اضطر الى اختيار دير مار يوحنا في الشوير (135) . يبدو هنا ان الأب فروماج يريد ان يبرر فشل اليسوعيين في اقامة المطبعة لحسابهم الخاص أكثر من ان يقدم الأسباب الحقيقية لاختيار دير الشوير . ان عبد الله الزاخر الذي كان يبحث عن مكان منعزل لم يفكر في عين طورا بل في الشوير التي تضم ديرا جديدا اقامته الرهبانية الباسلية الناشئة التي لم يكن رئيسها سوى ابن عمه نيكولا الصائغ الذي دعاه وشجعه للإقامة بالدير وساعده في عمله (136) . كذلك ان موقع الدير في جبل كسروان قرب الخنشارة يجعله بعيدا عن انظار السلطات العثمانية (137) وبطاركة انطاكية ، وقد شجع الزاخر على الإقامة هناك النشاط الأدبي الحثيث الذي عرفه الدير (138).

---

(134) المسّرة ، 1948 ، ص 456 - 457 .

(135) BACEL, " Abdallah ... op. cit., " p. 284.

(136) VOLNEY, Voyage ... op. cit., p. 293.

(137) يتحدث فولني عن مقر المطبعة ويؤكد على الجانب الأمني في اختياره فيقول " لو ان الجزار (باشا عكا) علم بذلك لحطّم مطبعتهم المصدر السابق ص 397 .

(138) توجد بالدير مكتبة هامة ، المصدر السابق ص 294 .

ان مبنى المطبعة لا يزال موجودا ومحافظا على شكله الهندسي الأول بعد ترميمه ويتكون من ثلاث قاعات واحدة للتنضيد وتضم صناديق الحروف وأخرى للطباعة وتضم آلات الطبع ، وثالثة لسبك الرصاص واعداد الحبر وتضم الأدوات اللازمة لهاتين العمليتين (139) .

2. 3 - تنظيم العمل ومشاكل النشر :

حفر عبد الله الزاخر حروفا عربية حسب الخط الكنسي الذي عرفت به عائلة اللباد وقد حصل على حروف رقيقة وجميلة افضل من الحروف الخشنة التي طبع بها في حلب وقد حفر الحروف والقوالب على معدن مستعينا في ذلك بالأدوات اللازمة من احد الصائغين بزوق ميكايل (140) واعد كذلك الحبر الاسود ولم يستورد من اروبا الا الآلات والورق .

2. 3. 1 - تنظيم العمل :

في البداية لم يستنجد الزاخر الا برجل صائغ في زوق ميكايل لمساعدته في عمله لانه لم يكن يوجد هناك سوى الفلاحين وبعد ذلك اي في 1144 هـ / 1731م لما استقر بالشوير انتدبت له الرهبانية الباسيلية شابا يدعى يواكيم بن المطران (1111 هـ / 1696 م - 1180 هـ / 1766م) لمساعدته في عمله (141) ثم التحق بهما تلميذ الزاخر سليمان قطان (توفي في 1192 هـ / 1778 م) (142) ، وكذلك بعض الرهبان من الطائفة وقد خلف قطان استاذه بعد وفاته سنة 1161 هـ / 1748م واصبح يدير المطبعة حسب رغبة الزاخر في وصيته .

وقد وصلتنا معلومات عن تشكيل الفريق الذي عمل مع سليمان قطان حسب وثيقة تعود الى 1190 هـ / 1776 م ويتكون من سبعة اشخاص منهم ثلاثة رهبان يشغلون الطباعة واثنين في التصفيف وواحد في سكب الحروف وواحد لتعليم السكب وهو موسى ابن اخ سليمان قطان الذي يشتغل في نفس الوقت في التصفيف (143) .

---

(139) Nasrallah, L'imprimerie ... op. cit., p. 31.

(140) المسرة ، 1948 ، ص 388 .

لا يزال دير الشوير يحتفظ الى اليوم بلوحات من الفضة والنحاس وبالحروف .

(141) ولد في بعلبك ، دخل الرهبانية الباسيلية في 1142 هـ/ 1729 م ,درس النحو العربي والمنطق والفلسفة ، الف زهاء عشرين كتابا في الديانة المسيحية والجدل والفلسفة والمواعظ انظر : نصر الله ، يوسف ، تلاميذ عبد الله الزاخر وآثارهم الادبية في المسرة ، 1948 ص 431 - 435 .

(142) اصيل زوق ميكايل ، تعرف على الزاخر في 1139 هـ / 1726 م وعمل معه . له كتب في الجدل .

(143) Nouvelles bases de travail entre Suleiman Qattan et l'ordre Chouerite. Document publie par Nasrallah, l'imprimerie ... op. cit., pp. 148-150.

وقد قام سليمان بتجديد بعض آلات المطبعة على حسابه الخاص وأعاد سكب بعض الحروف العربية(144) . الا أنه رغم ذلك وجهت اليه تهمة اتلاف احدي الآلات وهي المسبكة التي تسببت في ايقاف العمل لمدة سنتين .ونشب من جراء ذلك خلاف بينه وبين الرهبانية الشويرية سنة 1179 هـ / 1765 م (145) . وعرفت المطبعة منذ ذلك الحين صعوبات وتدهورت احوالها وانخفض انتاج الكتب بها ونقص كذلك عدد العاملين بها ، ولم يجد الرحالة فولني لما زارها سوى اربعة رهبان (146) .

وكما أوقف الزاخر في وصيته المطبعة لفائدة دير الشوير، فان سليمان قطان خليفته فعل بالمثل بالنسبة للآلات والحروف الجديدة التي جددها او اشتراها حسب وصيته في 1189 هـ / 1775 م ( ) وكان رؤساء الرهبانية هم الذين يتولون الإشراف العام على المطبعة فهم يسيرون ويراقبون عملية النشر ويدفعون اجور العمال .

أجور العمال :

ذكرت بعض الوثائق الأصلية معلومات حول اجور العمال بالمطبعة من ذلك، ان سليمان قطان كان يتقاضى مبلغ مائة قرش في السنة في حياة الزاخر. ثم لما كلف بإدارة الورشة تضاعف له الأجر (149) . وكان موسى ابن أخ سليمان قطان يتقاضى بدوره مائة قرش منذ 1190 هـ / 1776 م. أما بقية العمال فلم يكونوا يتقاضون اجرا باعتبارهم من الرهبان . ويعيشون مثل سائر أعضاء الرهبانية الشويرية حياة تقشف وزهد (150) . ورغم هذا العمل المجاني من طرف الرهبان، فان المطبعة عرفت صعوبات مادية مما تسبب في غلقها طيلة خمس سنوات من 1211 هـ / 1797 م الى 1217 هـ / 1802 م ، لأن تكاليف الطباعة كانت باهضة والورق يستورد من أوروبا واليد العاملة بطيئة (151) .

----

(144) وصية سليمان قطان اوردها نصر الله في كتابه عن المطبعة في لبنان ،ص 147 - 148 .

(145) المصدر السابق ، ص 146 - 147 . لم تنشر المطبعة بالفعل اي كتاب فيما بين 1178 هـ / 1764 م و 1181 هـ / 1767 م .

(146) VOLNEY, Voyage ... op. cit., p. 296.

(147) Nasrallah, L'imprimerie ... op. cit., pp. 147-148.

(148) ورد نص فتوى الاب يوسف بايلا حول الخلاف الحاصل بين سليمان القطان والرهبانية الشويرية حول المطبعة في كتاب نصر الله ، المصدر السابق ، ص 146 .

(149) المصدر السابق .

(150) المصدر السابق ، ص 151 .

(151) VOLNEY, Voyage ... op. cit., p. 293 .

2 .3 .2 - مشاكل النشر بمطبعة الشوير :

أ - الناشرون :

قام بمهمة اختيار المخطوطات ومراجعتها ومراقبة عملية الطبع كل من رؤساء الرهبانية الباسيلية الشويرية ومديري المطبعة وهما على التوالي عبد الله الزاخر وسليمان قطان .

وقد ورد ذكر رؤساء الرهبانية في كل آخر صفحة من الكتب المطبوعة بداية من 1153 هـ / 1740 م، حسب هذه العبارة التي كانت تتردد في كل مرة وهي " قد طبع هذا الكتاب بأمر الرؤساء في دير القديس يوحنا الصائغ الملقب بالشوير من جبل كسروان بعمل الرهبان القانونيين الباسيليين من طائفة الروم الملكية سنة ..." .

وكان رؤساء الباسيلية حريصين على متابعة عملية النشر الى جانب مؤسس المطبعة الزاخر ولكن لم يرد ذكر هذا الأخير البتة في الكتب المطبوعة بصفته ناشرا او مطبعيا رغم انه سخّر كل جهده في مراجعة الكتب ومراقبة النشر. الا ان اسمه ورد في بعض الكتب باعتباره مؤلفا او مراجعا للترجمات (152) . انه من المهم دراسة طريقة مراجعة الكتب قبل طبعها، ذلك ان الناشرين كانوا يميزون بين ثلاثة أصناف من النصوص : كتب لمؤلفين معاصرين وكتب لمبشرين وهي مترجمة للعربية ونصوص مسيحية مقدسة .

ب - مراجعة كتب لمؤلفين معاصرين :

يندرج ضمن هذا الصنف كتاب واحد من تأليف عبد الله الزاخر وعنوانه " البرهان الصريح في حقيقة سرّ دين المسيح " طبع بعد وفاة صاحبه سنة 1178 هـ/ 1764 م(153) . لم يشكل هذا الكتاب أي عقبة عند طباعته فقد كتب من طرف مؤلف يحذق العربية والمخطوط لم يقع تشويهه من طرف الناسخين وهذا على عكس الصنفين الآخرين من المخطوطات الذين طرحا مشاكل عدة عند مراجعتهما .

ج - مراجعة كتب المبشرين :

---

(152) نذكر على سبيل المثال كتاب " تفسير سبعة مزمورات من مزامير داود " الذي طبع في 1167 هـ / 1753 م حيث ذكر في الكتاب ما يلي : " المنسوب الى الاب العالم المحقق والرسول اللاهوتي المدقق البادري بطرس الانودي اليسوعي والمهذب والمعرب من المعلم الفاضل والفيلسوف الكامل الشماس عبد الله الزاخر الحلبي " الملاحظ ان الزاخر كان يجهل اللغات الاجنبية واقتصر دوره على مراجعة الترجمات وتنقيح بعض العبارات المعربة فحسب .

(153) ألف زاخر هذا الكتاب بحلب في سنة 1133 هـ / 1721 م وذلك بطلب من احد المسيحيين الذي اراد " معرفة أسرار المسيحية " الا انه لم ينشر الا بعد أربعة وأربعين سنة من ذلك التاريخ .

بلغ عدد كتب المبشرين احد عشر كتابا من ضمن تسعة عشر كتابا طبعت في الفترة من 1147 هـ / 1734 م الى 1201 هـ / 1787 م. هؤلاء المبشرون هم من اليسوعيين والكارم والفرانسيسكان الذين ألفوا هذه الكتب في القرنين 10 و11 هـ / 16و17م. وقد تمت ترجمة بعض الكتب الى العربية لأول مرة من طرف المشرفين على المطبعة، فيما اقتصر الامر على مراجعة الترجمات الموجودة لبعض الكتب الأخرى. ويعتبر الأب فروماج أبرز المترجمين في هذا المجال حيث تولى لوحده ترجمة خمسة كتب(154). اما البقية فهي موزعة على مبشرين اخرين (155) ، وكذلك على بعض رجال الكنائس الشرقية(156). وقد تعهد بمراجعة هذه الترجمات عبد الله الزاخر والرهبان الباسيليين بالشوير ولم يكن الزاخر عارفا باللغتين اللاتينية والفرنسية ، الا انه قام بمراجعة النصوص التي ترجمها المبشرون الى العربية وهؤلاء لم يكونوا بارعين في هذه اللغة وهذا كله يفسر بعض الأخطاء والغموض الذي ظهر في بعض الترجمات .

هناك ظاهرة أخرى في هذا المجال وهي اعادة ترجمة بعض المؤلفات القديمة نتيجة الأخطاء الكثيرة التي ارتكبها المترجمون ومن بعدهم الناسخون من ذلك كتاب **ميزان الزمان** لصاحبه اليسوعي الإسباني نيرامبرك (999 هـ / 1590 م - 1069 هـ / 1658م)، وهو أول كتاب تصدره مطبعة الشوير وقد تولى اعادة ترجمته الأب فروماج الذي ذكر في المقدمة : " واعلم ان هذه النسخة قد استخرجت جديدا من اللغة الإيطاليانية الى هذه اللغة العربية استخراجا مضبوط النقل بالتدقيق مطابق الأصل على التحقيق، فلا اعتماد على تلك النسخة الأولى المكتتبة المشحونة من التحريف والغلط والتبديل والشطط " .

د - مراجعة كتب الطقوس والنصوص المقدسة :

اعتمدت مطبعة الشوير في طبعها لهذه الكتب على ترجمة العهد القديم والعهد الجديد لعبد الله بن الفضل الأنطاكي، وعلى ترجمة كتب الطقوس لعبد الكريم كرمي. وقد تمت مراجعتها حسب منشورات بوخاريست وحلب التي قام بها اثناسيوس الثالث دباس . ان عمل هذا البطريرك رغم جو المشاحنات والصراع الدائر بين الأرثودكس والملكيين، كان محل تقدير من طرف ناشري الشوير

---

(154) هذه الكتب هي : **ميزان الزمان**، **كتاب مرشد الخاطيء** ، **كتاب مرشد الكاهن** ، **كتاب مرشد المسيحي** ، كتاب **ايضاح التعليم المسيحي**.

(155) ترجم فيناتايول كورجاد كتاب **احتقار أباطيل العالم** أما الأب سانت ليدوين فقد ترجم كتاب **الاقتداء بالمسيح** ، والملاحظ أن المترجم الثاني هو مبشر من الكارم عمل بجبل لبنان وهو شقيق المستشرق الهولاندي يعقوب غوليوس .

(156) مثل يوسف بن جرجيس الحلبي الذي ترجم كتاب **تاملات جهنم المريعة** وكذلك ميخائيل مزراق الذي ترجم كتاب **قوت النفس** بقيت ثلاثة كتب مجهولة المؤلف هي : **تاملات روحية لأيام الاسبوع ومختصر التعليم المسيحي** وتفسير **سبعة مزمورات التوبة** .

(157). وكان هؤلاء حريصين على مراجعة الترجمات العربية قبل اعطاء الإذن بطبعها نظرا للأخطاء الكثيرة التي ارتكبها الناسخون عند نسخ المخطوطات الدينية المسيحية وكانوا يؤكدون على هذا الجانب في جل الكتب المطبوعة من هذا الصنف ويتهمون الناسخين بالجهل واللامبالاة عند أداء عملهم وهذا على غرار النقد اللاذع الذي وجهه ابراهيم متفرقة بالنسبة للناسخين المسلمين، ونجد صدى لهذا الاتهام على سبيل المثال في كتاب الرسائل المطبوع في 1193 هـ / 1779 م، حيث ذكر في المقدمة " ثم اعلم انه اذا كانت نسخة الرسائل العربية مع كثرة الأيام والأعوام قد أدخل بها جهل الكتبة من العوام بعض تغييرات لجمل لم يدركوا فحواها فحرروها بالغلط وتحريفات لألفاظ لم يفهموا معناها فصحفوها بنقل الحروف والنقط ..." يتضمن هذا النص اشارة الى جهل الناسخين لقواعد اللغة العربية التي دخلت حديثا الكنيسة الشرقية وعدم حذقهم لها علاوة على عقلية اللامبالاة وعدم التحري في نقل النص. الا أن الناشرين بالشوير اخفوا نقطة هامة وهي ان المتهم الرئيسي في ارتكاب الأخطاء هو المترجم الذي كان يخل بالمعنى أحيانا، وهذا ما يفسر لجوء الناشرين الى القيام بعملية تحقيق الكتاب الديني العربي على الأصل اليوناني وهذه العملية بالذات جديرة بالاهتمام لأنها تختلف حسب الكتب. فتحقيق كتاب السنوات الكنائسي كان على الشكل الآتي : " لذلك جمعنا كتبا يونانية كثيرة وقابلنا النسخة العربية على تلك النسخ المستعملة في كنايس الروم مقابلة مضبوطة بغاية التدقيق على يد من هو متمكن بمعرفة اللغتين اليونانية والعربية، فلا تنسبن ما تراه متغيرا عن النسخة العربية القديمة الى التحريف والغلط، وما لا يتغير الى السهو والشطط اذا كنت لا تعرف قواعد هاتين اللغتين، لان من عرف ذلك يمدح هذا العمل ويبريه من شوايب الزلل " (158).

ان نصوص الكتب المقدسة المسيحية التي طبعت بالشوير، كانت تلك المستعملة في الكنائس الشرقية وليست تلك المتداولة في كنيسة روما ، وهذا خلافا لما حصل للمارونيين، كما رأينا، الذين

---

(157) على سبيل المثال نجد في مقدمة كتاب الاكطويخوس المطبوع بالشوير سنة 1180 هـ / 1767 م ما يلي : " جردنا العناية والاهتمام بامر الروسا وحثهم على طبع حسب النسخة المحررة في كتاب المعزى المستخرج والمصحح والمطبوع عربيا في مدينة حلب باهتمام البطريرك اثاسيوس والثماس البطريرك كيرلس المعاصرين الذين حرضهما على ذلك حصول كثرة الغلط في النسخة القديمة التي غالتها اقلام الكتبة بالتحريف وانقلاب المعاني المستقيمة " .

(158) كتاب النبوات الكنائسي ، الشوير ، 1189 هـ / 1775 م ورقة 4 ، نجد اشارة كذلك لطريقة تحقيق نص المزامير في مقدمة هذا الكتاب الذي طبع في 1148 هـ / 1735 م ورقة 7 : " ثم اعلم انه اذا كانت نسخة الزبور العربية الأصلية قد أدخل بها جهل الكتبة بعض تغييرات لجمل لم يدركوا فحواها وتحريفات لالفاظ لم يفهموا معناها، فلذلك طبع هذا الكتاب على نسخة قد قوبلت على اصلها اليوناني بغاية التدقيق وتصححت حسب قراءتها وفهمها من الآباء القديسين والعلماء المفسرين بغاية التحقيق وذلك على يد اناس ذوي خبرة باللغتين اليونانية المستخرج منها والعربية المنقول اليها، فلا تنسبن اذا ما تراه مغايرا بها عن الحال الاصلي الى التغليط والتحريف فتضل وتخدع بل تحقق انه عين الحق حسب الاصل اليوناني فتستفيد وتنفع " .

اتصلوا بكتب الإنجيل من روما مطبوعة حسب النص اللاتيني، ان الكتاب المطبوع بالشوير لم يعمل على " رومنة " الطقوس والكتابات الدينية الموجودة عند الطائفة الملكية، بل سعى الى المحافظة على طابعها الشرقي وذلك بتوفير اكبر عدد من النسخ من النصوص الدينية العربية المحققة حسب الأصل اليوناني .

هناك طريقة أخرى في التحقيق ليست صارمة، بل اتسمت بالتساهل في نقل النصوص الى العربية دون التشدد في تغيير كل الالفاظ والتعابير. والسبب في ذلك كما ذكره الناشرون هو : " فجمعنا نسخا يونانية كثيرة فرايناها تختلف عن بعضها اختلافا باللفظ عرضيا لا اختلافا بالمعنى جوهريا، فاثبتنا ما وجدنا له اصلا في بعض النسخ اليونانية او عند بعض الأباء المفسرين وان لم يوجد في جميعها وذلك مراعاة للنسخة العربية التي قد اندرجت على أسماع الناس وألسنتهم ..." (159) ان مطبعة الشوير كانت حريصة على عدم التسبب في صدم شعور المسيحيين وتقاليدهم وعاداتهم في قراءة النصوص الدينية حسب النص العربي القديم وهذا في كل مرة لا تتسبّب فيها التعابير القديمة في تحريف المعنى الأصلي . ان الغرض من الكتاب المطبوع ليس احداث ثورة في الطقوس والقراءات المسيحية، بل ضمان الاستمرارية في هذه الطقوس حتى يتآلف ويتقارب ويتحد كل ابناء الطائفة الملكية حول نصوص موحدة .

لقد تصرف رؤساء الرهبانية الشويرية بكل حرية عند مراجعة الكتب الدينية دون ان تمارس عليهم أية ضغوطات من اي جهة كانت، بما في ذلك كنيسة روما. وقد وجهوا منشوراتهم الى الطائفة الملكية التي كانت تعتمد على النصوص اليونانية وليست اللاتينية، وهذا بالرغم من وجود حزب يوناني كاثوليكي متحد مع روما، اذ بقي محافظا على توجهه الشرقي وحرصت المطبعة على أن تكون منشوراتها في خدمة كل ابناء الطائفة الملكية الكاثوليكيين منهم والأرثودكس، ولم يلتجئ أصحابها الى اصلاح المخطوطات الا اذا كان النص مشوها والمعنى محرفا . ان الكتاب المطبوع صمم للتعريف بالترجمات العربية للكتب المسيحية المقدسة ونشرها لدى أوساط الطائفة المسيحية، فالهدف اذن ديني ثقافي .

انه من الملاحظ ان الأسلوب اللغوي المستعمل في الكتب المطبوعة بالشوير ضعيف وغير متماسك، وأحيانا توجد جمل وفقرات غامضة المعنى وقريبة من العربية العامية . وبالمقابل وبالرغم من ان اللغة العربية الفصحى ، لا يعرفها الا النفر القليل من ابناء الطائفة فان رجال الدين كانوا

---

(159) كتاب الرسايل ، الشوير ، 1193 هـ / 1779 م ورقة 3 ليس في نية المشرفين على مطبعة الشوير تغيير كل النصوص الدينية العربية ومقابلتها على الاصل اليوناني طالما كانت تؤدي المعنى تقريبا والسبب كما ورد في مقدمة كتاب الاورولوجيون المطبوع في 1177 هـ / 1763 م ورقة 1 : " ليل (كذا) تعثر الالسن المعتادة على تلاوته بالاختلاف والتغيير اذ كان لا يوجد اختلاف بالمعنى يوجب العنا " .

كثيرا ما يستعملون ألفاظا صعبة وغير متداولة الأمر الذي يجعل الكتاب عسير الفهم على القارئ .

2 . 4 - اسهام منشورات الشوير في تطوير الحياة الفكرية والثقافية :

اصدرت مطبعة الشوير فيما بين 1147 هـ / 1734م - 1201 هـ / 1787 م، تسعة عشرة كتابا من بينها احدى عشر كتابا أعيد طبعها . وقد اعيد طبع بعض الكتب مثل : **المزامير** (خمس مرات) **الرسائل** (ثلاث مرات) **الاورولوجيون** (مرتين) **الاكطويخوس** (مرة واحدة). ان معدّل نشر الكتب في الفترة التي ندرسها هو كتاب واحد لكل سنتين. الا ان درجة التواتر تختلف فهناك سنوات طبع فيها اكثر من كتابين مثل سنة 1152 هـ / 1739 م التي شهدت صدور ثلاث كتب (**المزامير واحتقار أباطيل العالم والاقتداء بالمسيح**) أما سنة 1178 هـ / 1764 م فقد شهدت صدور كتابين (**المزامير، البرهان الصريح**). وهنا نشير انه في هاتين السنتين اعيد طبع كتاب **المزامير** وهي عملية فنية يسيرة فهي لا تتطلب تصفيف الحروف من جديد فالنص جاهز وهو محفور على المعدن وقد شهدت بعض الفترات انقطاعا عن النشر مثل الفترة الممتدة بين سنتي 1153 هـ / 1740م و 1178 هـ / 1764 م وهذا بسبب على ما يبدو القطيعة بين الرهبان الشويريين والسيوعيين وبسبب قضية العابدات أثناء الفترة الممتدة فيما بين 1178هـ/ 1764 م و1181 هـ / 1767 م وايضا 1186 هـ / 1772 و 1189 هـ / 1775 م ، وسبب توقف المطبعة يعود الى الخلاف الذي حصل بين مدير المطبعة سليمان قطان ورؤساء الرهبانية الشويرية الا ان كل هذه المشاكل لم تمنع مطبعة الشوير من مواصلة نشاطها رغم موت مؤسسها الى ان تفاقمت مشاكلها المالية وقد توقفت لمدة طويلة في بداية القرن 13 هـ أو أواخر القرن 18م.

2. 4. 1 - محتوى منشورات الشوير :

تعالج جميع الكتب الصادرة بالشوير مواضيع دينية موزعة بين اجزاء من الكتب المسيحية المقدسة ومن الطقوس والاخلاق والزهد والتصوف والدفاع عن المسيحية. ويمكن تفسير هذا الاختيار مباشرة بتوجه رجال الدين الذين اشرفوا على هذه المطبعة والتي يوجد مقرّها في دير للرهبان لخدمة الدين المسيحي أساسا . وان كان الناشرون يذكرون اسباب اختيارهم لهذه الكتب دون غيرها على غرار الناشرين بحلب بعبارات عامة وغامضة مثل : النفع العام، وكتب ضرورية وهامة وللتعليم وعموما فان كتاب الشوير صدر لتقديم النفع للطائفة الملكية ولكن بأي شكل وكيف كان ذلك؟

أ - الكتب الدينية :

هناك اجزاء من الإنجيل والتوراة طبعت حسب الترتيب الذي وضعه رجال الكنيسة الشرقية مثل المزامير ، والإنجيل والرسائل وكتاب النبوات. وفي كل مرة تذكر فوائد الكتاب في مقدمته من ذلك ما

ورد في مقدمة المزامير طبعة 1448 هـ / 1735 م من أن هذا السفر يعتبر "ينبوع الحياة والخلاص" وأنه يشفي الروح وكذلك ورد في مقدمة كتاب الإنجيل (طبعة 1190 هـ / 1776 م) " فلذلك اعتنينا بطبعه ليسهل اقتناؤه لجميع الأنام وتشمل افادته الخاص والعام " كما وردت تفاصيل أكثر حول فوائد هذه الكتب من ذلك ما ذكر في مقدمة كتاب الأورولوجيون (طبعة 1177 هـ / 1763 م) " فمن ثم اذ رأى مجمع رهبان مار يوحنا الروم الباسيليين القانونيين احتياج الكهنة والعوام الى هذا الكتاب الذي يتعسّر حصوله خطا (اي في شكل مخطوط) على الطلاب قدموه مطبوعا للكنيسة المذكورة لتسهيل العبادة وتعميم الإفادة " .

ان هذه الكتب كانت موجهة للروم الكاثوليك والارتودكس على حد سواء بما أنها اجزاء من الكتب المسيحية المقدسة وما حرص مطبعة الشوير على طبعها الا لتوفيرها باعداد وافرة لابناء الطائفة حتى تحصل لهم " الفائدة" وهذا بعد ان وقفت على حاجة رجال الكنيسة الشرقية وأيضا عامة المسيحيين العرب لها خاصة وانه يتعذر عليهم اقتناؤها مخطوطة نظرا لندرتها او غلاء سعرها وبالخصوص نظرا لاحتواء المخطوط منها على أخطاء كثيرة سببها جهل الناسخين واختلاف الروايات الدينية. فكانت مطبعة الشوير تحرص على دعوة القراء الى اعتماد الكتب المطبوعة فحسب دون المخطوطة منها (160).

وعلاوة على ذلك، كان للكتاب المطبوع هدف آخر الى جانب هدفه الديني وهو هدف تربوي تعليمي، فقد دعت مطبعة الشوير على سبيل المثال وعلى غرار مطبعة حلب الى اعتماد كتابي المزامير والرسائل ككتب مدرسية لتعليم الأطفال. وقد ركزت مقدمات هذين الكتابين على هذا الجانب فبالنسبة لكتاب المزامير (طبعه 1148 هـ / 1735 م) ورد ما يلي : " فقد طبع الان حديثا ليسهل اقتناؤه على الجميع ولا يتعذر احد عن عدم اهتمامه بتعليم أولاده القراءة بمقولة لا أستطيع ... ثم اعلم انه اذا كان هذا الزبور الإلهي يستعمله المؤمنون لتعليم الأولاد القراة (كذا) العربية لم نرد ان نحذف من الافعال المعتلة حالة الجزم وعدم الإسناد الى الضمائر المتصلة ما يوجد فيها من احرف العلة بل استثنينا هذه الأحرف في الحالة المذكورة حسب العادة الجارية من الكتبة الذين لا يفهمون اصطلاحات اللغة العربية، وذلك لكي لا تتعسر قراءة هذه الافعال على الاولاد المتعلمين ولا على غيرهم من الذين لا يحسنون النطق بها في حال حذف هذه الحروف من المعلمين، لا سيما ان اثبات هذه الحروف في حالة الجزم قد سمع في لغات العرب فلا تنسبن ذلك الى الجهل المشين بل اعتده تنازلا ومراعاة لعدم فهم الذين لا يحسنون قراءتها اذ تكون على حرف واحد أو على حرفين ".

---

(160) يقول الاب فروماج على سبيل المثال في مقدمة كتاب ميزان الزمان " فلا اعتماد على تلك النسخة الاولى المكتتبة المشحونة من التحريف والغلط والتبديل والشطط ".

لقد استعملت في كتابة نص المزامير الحركات والعلامات لتوضيح الكلمات العربية وتسهيلا لقراءتها، هذا بالرغم من الصعوبات الفنية لطباعة نص عربي بهذا الشكل، وقد اعتبره المطبعيون بالشوير كتابا للنحو العربي يمكن من فهم بعض القواعد النحوية، فأبقوا على بعض الأخطاء النحوية ليفهم القارئ أصل الكلمة قبل ادغامها. ان كتاب المزامير كان جد مطلوب من طرف القراء للاسباب التي سبق ذكرها، وهذا ما يفسر اعادة طبعه خمس مرات في القرن 12 هـ/ 18م وحتى شكله المادي يسهل استعماله، فقد طبع في حجم صغير (طوله 16.5 سنتيمتر وعرضه 10.5 سنتيمتر وسمكه 3 سنتيمتر) وهذا من شأنه أن يسهل استخدامه من طرف القارئ الصغير على عكس شكل المجلدات الكبيرة.

ان تعليم اللغة العربية يتم عبر كتاب المزامير وايضا الرسائل (161) ولكن هذا لا يكفي بل وجب على كل من يريد حذق هذه اللغة، ان يكمل تعلمه باستخدام كتب النحو العربي والدراسة بمدارس اسلامية. وقد وقف الناشرون بكسروان على خطورة الوضع الثقافي الناجم عن نقص المدارس، ففيه اضرار فادح بالطوائف المسيحية، لان الجهال من العوام يمكنهم أن يضلوا عن الدين كما ورد ذلك على لسان عبد الله الزاخر الذي قال في احدى كتبه: " ان اكثر مسيحيي عصرنا هذا يجهلون هذه المعرفة وذلك لفقر اللغة العربية وعدم المدارس اللاهوتية (كذا)، فهم مسيحيون حقا يقينا لكن بالتسليم فقط دون المعرفة فلا يستطيعون ان يتكلموا أو يوضحوا حق ايمانهم بدون خطر الضلال والغلط" (162).

ان الجهل والضلال الديني امران متلازمان حسب الزاخر، والمتعلم فقط هو القادر على فهم دينه فهما صحيحا ويتبين ان دور المطبعة والكتاب الديني، لا يكتمل لدى الطائفة الا اذا توفرت المدارس لتعليم الاطفال وتخريج افواج من المتعلمين القادرين على قراءة الكتب لذلك شعر المشرفون على مطبعة الشوير بهذه الثغرة التي تعيق اشعاع مطبعتهم، فعدد القراء ضعيف ولا يشجع على سحب عدد كبير من النسخ في كل طبعة، وبالتالي فان المبيعات لا تغطي حتى مصاريف الطباعة كما سنرى فيما بعد.

ب - كتب الأخلاق والزهد والدفاع عن الدين المسيحي :

هذه الكتب هي من انتاج المبشرين بالخصوص وهي مخصصة لتوجيه ابناء الطائفة (163)

---

(161) ورد في مقدمة كتاب **الرسائل**، ورقة 3 ما يلي: "ومن ليس له وقت للقراءة فقد امره القديس المذكور ان يواظب الكنيسة حيث تقرأ الرسايل ليسمع قراءتها فمن ثم لهذا السبب نفسه رايناً ضرورياً ان نقدم للمومنين هذا الكتاب ... متوسط الحجم ليسهل نقله على الاولاد الضروري ان يتعلموه كما يتعلمون المزامير ليحسنوا قراءته في الكنايس.

(162) الزاخر، عبد الله، **البرهان الصريح**، ص 3-4.

(163) كان المبشرون يختارون الكتب التي ينوون ترجمتها ثم طبعتها ويبينون فوائدها على غرار هذا الكتاب الذي قال عنه الاب

*** واصلاح الأخطاء والضلالات الموجودة . يقول عبد الله الزاخر حول كتابه الذي طبع في 1178 هـ / 1764 م: "انه من المعلوم اليقيني ان جميع البدع ما ظهرت الا لأن اصحابها اما انهم جهلوا معرفة هذين السرين اما لأنهم لم يؤمنوا بهما كما يحق لهما " (164).

ان الكتاب المطبوع مخصص حسب الزاخر اذن للقضاء على الضلالات وانارة السبيل أمام ابناء الطائفة الذين اما انهم نسوا أو أهملوا مبادئ دينهم. ان هذا المفهوم الذي يحمله عبد الله الزاخر عن دور الكتاب المطبوع يتكرر ويتأكد في عدد من الكتب الصادرة بالشوير، وان كان ذلك باسلوب مختلف اذ يقع التعرض الى نظرة المشرفين عن المطبعة عن مفهوم الكتاب المطبوع لديهم وهو الكتاب الديني الذي جاء ليصلح الأخطاء الواردة في المخطوطات والمتمثلة في بعض الانحرافات الدينية وينشر المسيحية حسب المذهب الكاثوليكي، هذا علاوة على دوره التربوي والتعليمي خاصة لتعليم اللغة العربية الفصحى ولتقريب بعض المفاهيم الدينية للقارئ بشكل يسير كان يأخذ الكتاب شكل حوار فيه اسئلة وأجوبة (165) وهذه طريقة بيداغوجية اعتمدها المبشرون في كتاباتهم وهم أهل خبرة في مجال التعليم بما انهم يشرفون على مدارس في المشرق لتبليغ مضمون المذهب الكاثوليكي الى العوام والكهان.

اصدرت مطبعة الشوير كتبا في الدفاع عن الدين المسيحي وكتب الأخلاق والزهد وهي من تاليف المبشرين من يسوعيين وكبوشيين وفرانسيسكان لنشر مبادئ الكاثوليكية. وقد اختار المشرفون عن المطبعة هذه الكتب المعاصرة خلافا لمطبعة حلب التي اختارت المؤلفات اليونانية القديمة، وذلك للتعريف بالمذهب الكاثوليكي ولتدعيم الحزب الكاثولويكي بالمشرق، ويمكن القول بان مطبعة الشوير انشئت اساسا لخدمة المذهب الكاثوليكي ونشره بين ابناء الطائفة الملكية الشرقية وتكريس حركة الاتحاد بين كنائس الشرق وروما، ولم يكن لها اي توجه نحو خدمة العلوم والثقافة والتعريف بالمعارف الحديثة التي ظهرت بأروبا الا اذا استثنينا توجهها بصفة غير مباشرة نحو نشر اللغة العربية لدى ابناء الطائفة.

.../... بطرس فروماج " انني فيما كنت امعن النظر في كتب العلماء الاقدمين واجيل طرفي في دساتير الاباء المتاخرين رأيت في خزانة بيعة الله درة يتيمة تعز عن (كذا) تعادلها قيمة وهي الكتاب المؤلف من الانابولس سينيري اليسوعي المدعو مرشد الكاهن " مقدمة مرشد الكاهن ورقة 2 .

(164) الزاخر ، **البرهان** ... ص 4 .

(165) جاء في مقدمة كتاب ايضاح التعليم المسيحي المطبوع في 1182 هـ / 1768 م توضيح عن اسباب اختيار هذا الكتاب : " فهذا كتاب جزيل المعاني سديد الاركان والمباني ينطوي على ايضاح قواعد الدين المسيحي ... مع ما يحتاج الى معرفته مسابقة جميع المؤمنين صغارا وكبارا كهنة وعواما رجالا ونساء أغنيا وفقرا من كل ذي رتبة كانت من بني المعمودية مما ألفه احد خوارنة مدينة باريس العظمى العلية ورتبه على سؤال وجواب ليسهل حفظ معانيه " .

2 .4 .2 - التوزيع :

و جهت مطبعة الزاخر كتبها المطبوعة بصفة عامة نحو كل القراء النصارى بدون تمييز في المذاهب فهي تحث في عديد المناسبات المسيحيين العرب من رجال الكنيسة والعوام الى اقتناء كتبها والاطلاع عليها حتى يتفادوا الوقوع في الضلالات، فحرصت على توزيعه على اكبر عدد ممكن من القراء " فهذا الايمان المقدس اذ قد حصلت حقايقه (كذا) مجهولة من كثيرين الجأتنا الضرورة ان نجرد عمله العناية (كذا) والاهتمام بطبع هذا البرهان المختصر لتمكن مطالعته بتكريم ليفهم القارئ معانيه ويسهل على كل غني وفقير ان يقتنيه " (166) لم يوزع أصحاب مطبعة الشوير منشوراتهم مجانا بل انهم باعوها بثمن يعتبرونه زهيدا بما انهم كما يقولون يريدون ان يقتنيها الغني والفقير وهذا على عكس مطبعة حلب التي وزعت كتبها مجانا. فقد ذكر عن طبعة ميزان الزمان الصادرة في 1147 هـ / 1734 م انها : " طبعت بعد ضبط اعرابها لتمتد افادتها الى الجميع ويسهل اقتناؤها على كل ذي قدر ووضيع" (167).

سلكت مطبعة الشوير في مجال التوزيع مسلكا توفيقيا بين عدم توزيع الكتب مجانا وعدم بيعها بأسعار مشطة، والسبب في عدم اهدائها للكتب يكمن على ما يبدو في عدم حصولها على مساعدات مالية مثل تلك التي حصلت عليها مطبعة حلب . فكنيسة روما والبعثات التبشيرية لم تقدم مساعدات ذات بال لمطبعة الزاخر (168) ، عكس ما حصلت عليه مطبعة اثناسيوس الدباس في حلب من أموال من حاكم بلاد الفلاخ وبعض اغنياء الطائفة الارثودكسية ، لقد كانت مطبعة الشوير مستقلة ماديا وكانت تمول مشاريعها بنفسها بفضل العائدات المتأتية من مبيعات كتبها وبذلك كانت تتمتع بحرية في تسيير المطبعة واختيار مواضيع كتبها .

كانت مطبعة الشوير تؤكد في كل مطبوع ان أسعار كتبها زهيدة وتبرر توجهها نحو بيع الكتب وليس اهدائها بان ثمن مطبوعاتها في متناول الغني والفقير وبالخصوص بان المخطوطات ثمنها جد مرتفع، هذا علاوة على أنها مليئة بالاخطاء فقد ذكر في مقدمة كتاب النبوات الذي طبع في 1189 هـ / 1775 م ما يلي " ثم بعد هذا التعب والضبط على قواعد لغة العرب، استصوبنا ان نحرره بالمطبعة لامتداد الخير وزيادة المنفعة ولكي ينحفظ من غلط الكاتبين ويسهل ثمنه على الطالبين " .

----

(166) كتاب **البرهان الصريح** ، ص 6 .

(167) جاء كذلك في مقدمة كتاب **ايضاح التعليم المسيحي** ورقة 1 ما يلي : " فلما راى مجمع رهبان ماريوحنا القانونيين الباسيليين من طائفة الروم الملكيين عظيم فايدة هذا الكتاب الفريد حركتهم الغيرة القوية والمحبة الاخوية الى طبعه لامتداد افادته ونفعه ويحصل عليه جميع المسيحيين الراغبين من مثرين ومقترين " .

(168) باستثناء ما حصلت عليه المطبعة من مساعدات عند انطلاقتها .

ولنا ان نتساءل ماذا عن حقيقة هذه الأثمان فهل هي حقا في متناول الجميع؟ لقد حفظت لنا ارشيفات الرهبانية الشويرية بعض الأرقام عن هذه الأسعار. ففي الرسالة التي بعثها عبد الله الزاخر الى الأب فروماج سنة 1153 هـ / 1740 م وردت بعض الارقام :

- كتاب **ميزان الزمان** سعره ثلاثة قروش .

- كتاب ال**مزامير** سعره قرش ونصف .

- كتاب **تاملات الاسبوع سعره** قرش ونصف (169) .

ويتبين ان اسعار الكتب تتراوح بين قرش ونصف وثلاثة ونصف قروش اي ما يعادل انذاك أجرة عامل يعمل فيما بين اربعين يوما وثلاثة وتسعين يوما (170) . ان هذه الأرقام تبين بصفة عامة أن أثمان الكتب مرتفعة. الا ان البعض منها يبقى في متناول عدد كبير من أبناء الطائفة خاصة بالنسبة لكتاب **المزامير** الذي وجد اقبالا اكثر من غيره من الكتب، لانه يستعمل عندهم لتعليم الأطفال (171) مما يفسر اعادة طبعه خمس مرات كما رأينا . كذلك هناك كتب أخرى أعيد طبعها نظرا لنفاذ الطبعة الأولى وحتى بعض اجزاء من الكتاب المقدس أو الطقوس مثل الرسائل والارولوجيون والأكطويخوس .

ان منشورات الشوير وجدت اقبالا عند انطلاق المطبعة، حتى ان اعداء عبد الله الزاخر لم يترددوا في اقتنائها حيث انهم وجدوها جميلة وخالية من الأخطاء على حد تعبير الرحالة فولني (172) وعلاوة على بيع الكتب كان الزاخر يهدي البعض منها الى بعض الاروبيين . وذلك اعترافا منه بمساعداتهم التي قدموها عند تأسيس المطبعة ، فكان ان اهدى منشوراته الى المبشرين من يسوعيين وكبوشين وايضا الى التجار الفرنسيين وحتى الى قنصل فرنسا بصيدا وطرابلس لبنان (173). اما عن مراكز التوزيع ، فقد كان لمطبعة الشوير ممثلون في بعض المراكز مثل بعلبك ودير القمر وطرابلس (لبنان) ودمشق وحلب وحمص والقاهرة والاسكندرية وعكا وايضا مدينة روما التي كانت الى جانب مصر وحلب أهم مراكز التوزيع (174) .

---

(169) Bacel, " Abdallah ... op. cit" ., p. 287.

(170) ابو نهرا ، جوزيف ، " عبد الله الزاخر رائد الطباعة العربية في لبنان في العهد العثماني " ورقة مقدمة الى المؤتمر العالمي الثالث للدراسات العثمانية حول : الحياة الفكرية في الولايات العربية في العهد العثماني ، زغوان- الحمامات (تونس) 15-20 مارس 1988 .

(171) Volney, Voyage ... op. cit., p. 293.

(172) المصدر السابق ص 293 .

(173) Bacel, " Abdallah ... op.cit.," p. 287.

(174) أبو نهرا ، " عبد الله ... نفس المصدر " .

تراجع نشاط المطبعة شيئا فشيئا بعد موت مؤسسها سنة 1160 هـ / 1748م، وتقلص عدد الكتب المطبوعة بعد ذلك التاريخ، نظرا للصعوبات المالية التي كانت تعيق السير الطبيعي للمطبعة. فالمرابيح ضئيلة لان الكتب المطبوعة بها لا تباع الا قليلا. وبالمقابل كانت المصاريف باهضة الى حد ان المطبعة التجأت الى التداين لشراء الورق، قبل أن تتوقف تماما عن العمل لنفس السبب 1211 هـ/1797م(175).

2. 4. 3 - نتائج نشاط مطبعة الشوير :

ما هي نتائج نشاط مطبعة الشوير وتأثيرها على محيطها الثقافي وما هو دور الكتاب المطبوع عند الطائفة الملكية وما هو مفهوم المطبعة لديهم ؟.

بما ان مطبعة الزاخر كانت تقوم باصدار النصوص الدينية باعداد وافرة، فانه لا يوجد نظريا نقص في الكتب لدى الطائفة الملكية وهذه المنشورات كانت موجهة نحو الفقراء والاغنياء على حدّ سواء بما أن أسعارها كانت نسبيا في متناولهم. ولكن هل كان باستطاعة كل الملكيين الروم قراءة هذه النصوص ؟ خاصة. وكما رأينا فان الأمية كانت منتشرة في الاوساط الشعبية ولا يوجد الا عدد ضعيف من المتعلمين ومن الاطفال الذين يرتادون المدارس القليلة التي أنشأها بالخصوص المبشرون. وهؤلاء المتعلمون هم جلهم من رجال الدين الذين بعد ان درسوا في مدارس روما أو مدارس المبشرين ببلاد الشام، انضموا الى كنيسة الروم الملكيين . أما عن الأميين فقد فكرت مطبعة الشوير في وضعيتهم فكانت تدعوهم الى حضور القراءة الجماعية للنصوص الدينية المطبوعة التي تنظم بالكنائس وايضا الى شراء كتاب المزامير : لتعليم ابنائهم القراءة من خلال النص الديني .

حرص عبد الله الزاخر ورؤساء الرهبانية الشويرية على تشجيع القراءة وذلك بنشرها لكتب مكتوبة بخط جميل واضح، واحيانا توجد ببعض الكتب الحركات والعلامات على الحروف العربية. واستعمل الحبر الاحمر والاسود لمزيد الوضوح وحرصت المطبعة على تسفير هذه الكتب ووضع الاختام المذهّبة عليها لتعطيها اكثر رونقا وجمالا، هذا من حيث الشكل. أما من حيث المحتوى فالنصوص الدينية تمت مراجعتها سواء منها الكتب المقدسة التي وقع تحقيقها حسب الاصل اليوناني او النصوص الحديثة التي تمت مراجعة ترجمتها واصلاح الاخطاء اللغوية والنحوية من طرف بعض الكفاءات. والهدف من ذلك هو دفع الطائفة الى اعتماد هذه الكتب المطبوعة دون

---

(175) VOLNEY, Voyage ...op. cit., p. 293.

BROWNE, Nouveau voyage dans la haute et basse Egypte, la Syrie, ...trad. J. Castra, Paris, Deutre, 1800, T 11, p. 245.

يذكر الرحالة الاخير انه لما زار الشوير في 1211 هـ / 1797 م وجد المطبعة معطلة بسبب غلاء سعر الورق .

المخطوط منها الذي لم يعد قادرا على مضاهاتها لا من حَيث الشكل ولا من حيث دقة المحتوى .

وكان من نتائج عمل المطبعة، ان اقبل المسيحيون على اقتناء مطبوعاتها منصرفين بذلك تدريجيا عن المخطوط وهذه النتيجة أقرها الرحالة الفرنسي فولني الذي زار جبل كسروان حيث قال "ان تاثير المطبعة كان ناجحا حيث ان مؤسسة ماريوحنا رغم نقائصها احدثت تغييرا ملحوظا، ذلك ان فن القراءة والكتابة وحتى نوع من المعرفة اصبح منتشرا اليوم اكثر مما كان عليه الحال قبل ثلاثين سنة (176) " .

لاحظ هنا الرحالة الفرنسي نوعا من التقدم الثقافي بفضل عمل الشوير التي دفعت بالمسيحيين الى القراءة والاهتمام بالكتاب، ولكن ما هو مدى أهمية هذا التحول اذا كان عدد القراء ضعيفا وبالتالي فان " العرض " كان يفوق " الطلب" مما يجعل اشعاع المطبعة محدودا. اضف الى ذلك توجهها نحو طبع الكتب الدينية فقط ، ويرى الرحالة الفرنسي فولني ان مطبعة الشوير أساءت الاختيار عندما اقتصرت على طبع الكتب الدينية فحسب والتي من شأنها ان تنفر الناس من العلوم، ولم تنشر بالتالي كتب الآداب والفنون التي تنهض بالعقول والاذواق. ويشبه فولني هذه السياسة بالسياسة التي انتهجتها المطابع الاروبية في بداية عملها، خاصة بانقلترا والمانيا وفرنسا حيث اصدرت كتب الانجيل والطقوس المسيحية التي أدت الى الانقسامات والفوضى السياسية وتسببت في تأخر العقول، ويضيف فولني قوله" لو ان مطبعة الشوير نشرت كتبا لها" فوائد اجتماعية" لقدمت خدمات جليلة لسكان كسروان والدروز وكل بلاد الشام وأدت الى تغيير النظام السائد هناك " (177).

لقد اشار فولني الى مطبعة الشوير عندما أثار قضية " أسباب جهل الشرقيين " (178) حيث ذكر ان اهم سبب هو قلة الكتب وغياب المطبعة، وان مطبعة الشوير لم تؤد الى الاشعاع الثقافي عند العرب حيث انها لم تهتم بنشر كتب الآداب والعلوم التي تثقف الناس وتنهض بالعقول . ان الرحالة فولني كان متأثرا بالافكار الرائجة ببلده قبل الثورة الفرنسية. وكان يرى الشرق بمنظار لائيكي غربي يندد بالانقسامات الدينية باروبا التي سببها ظهور البروتستانية وردود فعل كنيسة روما العنيفة عليها، والتي أدت الى حروب دينية هناك وهذا مما أدى الى تخلف الناس وانتشار

---

(176) VOLNEY, Voyage . p. 396...

(177) المصدر السابق ، ص 293 - 294 .

(178) المصدر السابق ، ص 389 - 398 ، انظر ايضا

Laurens, Henri, " les origines intellectuelles de l'Expédition d'Egypte: l'orientalisme islamisant en France au XVIII è siècle (1698-1798) "Thèse de doctorat de 3è cycle, Paris IV, Sorbonne, 1981, pp. 305-398 (multigraphiée).

الجهالة ومن هنا كان هجوم الرحالة الفرنسي عنيفا على الخطة التي انتهجتها مطبعة الشوير. فهو يرى انها تغذي الصراعات الدينية وتؤذن بحصول نفس المآسي التي حدثت بأروبا، وهو يقترح في الآن نفسه على هذه المطبعة ان تتجه نحو طبع كتب العلوم حتى تساهم في نشر المعارف الاروبية الجديدة وتثقيف الناس ، وتنمية الافكار حتى ينتشر الوعي لدى أبناء المشرق ويتغير النظام السياسي عندهم على غرار ما كان يقع اعداده في فرنسا .

ان الرحالة الفرنسي يريد نشر الكتب على نطاق واسع حتى تسهم في احداث التحولات الاجتماعية والسياسية في المشرق . والمطبعة حسب رأيه هي " المحرك الحقيقي للثورات " (179) وهي الأمل الوحيد الذي ينشده أهل الشرق لنيل الحرية والتخلص من سلطة الحكام العثمانيين مثل الجزار باشا حاكم عكا في ذلك العهد .

ان الرهبانية الشويرية لم تكن ترى نفس الرأي، فالمطبعة بالنسبة لها ليست وسيلة لاحداث الانقسامات بل على العكس هي أداة ناجعة للقضاء على الضلالات والفتن الدينية المنتشرة لدى مسيحي المشرق والتي روجتها المخطوطات الدينية . ان المطبعة حسب اعتقادها ستلعب دور " المحرك الحقيقي للوحدة المسيحية" حيث انها تسعى الى جمع كل المسيحيين بالمشرق حول نصوص دينية موحدة وبالتالي فانها ستدعم الروابط الروحية بين ابناء الطوائف المسيحية بالشرق من جهة وبين هؤلاء وإخوانهم المسيحيين المنتمين لكنيسة روما من جهة اخرى .

ان منشورات الشوير لن تؤدي حسب مفهوم الزاخر ورؤساء الرهبانية الشويرية الى تأخر العقول بل في تقدمها وانارتها، اذ ستدفعها نحو " معرفة الطريق الصحيح للعبادة " ولا تكمن فائدة النص المطبوع في نشر المؤلفات غير الدينية بل في التعريف بالكتب الدينية التي " تحضر النفوس للحياة الابدية" وهذا المفهوم هو الذي كان سببا في توجه مطبعة الشوير توجها دينيا بحتا .

3 - المطبعة العربية ببيروت :

لا يعرف عن هذه المطبعة الا النّزر القليل لانها اختفت مع وثائقها بعد مدة قصيرة من نشأتها تحت انقاض المبنى الذي كان يأويها والكنيسة المجاورة لها " القديس جيورجيوش" في 1181 هـ/1767م. ان منشوراتها قليلة ونادرة جدا في المكتبات الكبرى في العالم، وأندر من ذلك الدراسات والبحوث الحديثة المتعلقة بها ولم نتمكن إلا من جمع بعض المعلومات عنها من مصادر تعود الى القرنين 13 و14 هـ/ 19 و20م .

3 . 1 - حالة المسيحيين ببيروت في منتصف القرن 12 هـ/18م :

---

(179) Volney, Voyage ... op.cit., p. 396.

كانت بيروت المدينة الثانية على ساحل جبل لبنان بعد طرابلس من حيث عدد السكان (180). ويعد المارونيون، وهم تحت رعاية الامراء الدروز، أهم طائفة تقطن المدينة. وكانوا قد استقروا باعداد غفيرة بها منذ الحملات الصليبية (181). اما الروم الارثودكس فيأتون في المرتبة الثانية من حيث العدد وكانوا قد اسسوا بعض الاديرة ببيروت ، وقد شملت الدعاية الكاثوليكية هذه المدينة في بداية القرن 12 هـ/ 18 م (182).

تعد بيروت من المدن التجارية الهامة وقد ازدهرت خاصة في عهد الامير الدرزي فخر الدين الثاني. وقد استقر بها التجار الاروبيون وخاصة من البندقية، واسسوا بها مصارف وقد استغل المارونيون والروم الارثودكس هذه الوضعية ، وكما هو الشأن بحلب، لتوسيع تجارتهم. الا ان المدينة عرفت فترة ركود بعد وفاة فخر الدين حتى مجيء الامير ملحم شهاب، الذي استقر بها نهائيا في 1168 هـ/ 1754 م وحرص على النهوض بها . وقد ازدهرت التجارة بها من جديد خاصة عندما قررت الحجرة التجارية بمرسيليا اقامة مصارف بها. وبدأ التجار الفرنسيون الذين انزعجوا من تصرفات باشا وات عكا وصيدا في مغادرة هاتين المدينتين للاستقرار ببيروت (183).

وفي هذه الفترة بالذات عرفت المدينة حدثا ثقافيا هاما تمثل في انشاء ثالث مطبعة عربية مسيحية ببلاد الشام . وكانت نقطة بداية لحركة نشر عريقة ونشيطة جعلت من بيروت اكبر مركز للنشر في البلاد العربية الى جانب القاهرة الى حد اليوم . ان ظروف نشأة المطبعة ببيروت كانت مشابهة لظروف تاسيس مطبعة حلب ، اذ ان بطريرك انطاكية تحول الى رومانيا لطبع كتب دينية قبل ان يتوصل الى تأسيس مطبعة جديدة في جبل لبنان ، وذلك بفضل مساعدة بعض الأغنياء ببيروت . هذا البطريرك يدعى سلفستروس القبرصي .

3 . 2 - أصل مطبعة بيروت : مطبعة جاسي في بلاد الفلاخ :

3 . 2 . 1 - البطريرك سلفستروس :

خلف البطريرك سلفستروس القبرصي اثناسيوس الثالث دباس على كرسي البطريركية فيما بين سنتي 1137 هـ/ 1724 م و 1180 هـ / 1766 م. وقد ولد سلفستروس في 1108 هـ/ 1696 م بقبرص وتتلمذ على يد اثناسيوس ثم عين راهبا في دير جبل طوس (184) قبل أن

---

(180) Encycl. Islam. nou. ed. T 1, p. 1172 article BAYRUT.

(181) Karalevsky, Beyrouth in D.H.G.E, T V III, col 1319.

(182) المصدر السابق ، سنة 1309 .

(183) Gaulmier, " Commentaires" in Volney, Voyage ... op.cit., p. 290, note 4.

(184) Dan Simonescu, " impressions ... op. cit., "

يصبح بطريركا لانطاكية بقرار من بطريرك القسطنطينية، وهذا الاخير كان يرمي من تعيين هذا الارثودكسي المتصلب الى منع ازدياد عدد الملكيين الكاثوليكيين ببلاد الشام .

تحول سلفستروس الى رومانيا في 1157 هـ / 1744م، حيث مكث بها مدة اربع سنوات واستقر هناك في جاسي قرب بوخاريست. وقد لقي ترحيبا كبيرا من حاكم بلاد البغدان الامير قسطنطين بن نيقولا بك، الذي ساعده هناك على طبع كتب عربية . فعمل على اعداد حروف عربية في دير القديس سابا في بوخاريست، ثم في مدينة حلب بمساعدة اثنين من المطبعيين السوريين هما الشماس جرجس الحلبي والراهب ميخائيل بازي من قرط الذهب بلبنان . وقد نشرت ورشة الطباعة بجاسي خمسة كتب دينية على الاقل بين كتب الطقوس والجدال .

3. 2. 2 - الكتب الطقسية :

- **القنداق** (ليترجكون) طبع في 1158 هـ / 1745م. وفي المقدمة يذكر البطريرك أنه راجع كل النص وأصلح الاخطاء اللغوية والنحوية التي تسربت الى الطبعة الاولى التي اشرف على اصدارها البطريرك السابق اثاسيوس في بوخاريست سنة 1113 هـ / 1701م .

- كتاب **الزبور الشريف** : صدر في 1160 هـ / 1747م، ويتحدث سيلفستروس في المقدمة عن مجهوده في بلاد البغدان للحصول على كتب عربية لفائدة المسيحيين وانه اصدر كتاب الزبور لتمكين الاطفال من التعلم وتوفير الكتب المقدسة بسعر زهيد في متناول الفقراء (185) .

3. 2. 3 - كتب الجدال :

- **اعمال المجمعين الكنسيين الملتئمين في القسطنطينية** : نشر في 1160 هـ / 1747م (186) . هذا الكتاب يتضمن خمس رسائل جدلية ضد الكنيسة الرومانية، وهي بمثابة الرد على التغييرات الخمسة التي أدخلها الكاثوليكيون على المذهب المسيحي ويتضمن الكتاب دستورا للكنيسة الشرقية(187) .

- "كتاب **العشاء الرباني**" طبع في 1160 هـ/ 1747 م، وهو ترجمة عربية لكتاب الطبيب انستراتيوس ارجنتس ، قام بها مسعد نشو .

- **قضاء الحق ونقل الصدق** : صدر في 1159 هـ / 1746 م كتاب لبطريرك بيت المقدس

---

(185) لم نتمكن من العثور على هذا الكتاب الا اننا رجعنا الى نص مقدمة في بيليوغرافية : SCHNURER, Bibliotheca ...op.cit ., p . 515.

(186) عقد المجمع الكنسي الاول في 1135 هـ/ 1722م برئاسة البطريرك جيريمي والثاني في 1140هـ / 1727م برئاسة بايزيوس .

(187) نصر الله ، مطابع الملكيين ، ص 440 - 441.6 Dan Simonescu, " impressions ... op. cit., p.

نكتاريوس كتب باليونانية للرد على الكاثوليكيين (ترجمه الى العربية سلفستروس وفيه ملحق ضد عصمة بابا روما كتبه أنترا سيوس أرجتنس وترجمه الى العربية أيضا مسعود نشو. وقد ذكر المؤلف في المقدمة ان البابا سعى الى نشر "الضلالات" في أوساط المسيحيين العرب عن طريق تلاميذ "مضللين" قدموا اليهم "لهدم" ديانة الأرثودكس ونشر التفرقة بين الناس وان المؤلف قرر الرد على هذه الآراء ودحض هذا المذهب ليستفيد بذلك كل الارثودكس ويتجنبوا الوقوع في الشك والحيرة .

ومن خلال هذا النص يتبين توجه هذه المطبعة الجدلي للرد على الكاثوليكيين وتفنيد مذهبهم. وهذا التوجه رسمه البطريرك سلفستروس لتسير عليه مطبعة جاسي برومانيا.الا انها سرعان ما توقفت عن النشاط اثر عودة البطريرك الى سوريا في 1160 هـ/ 1747م .

3 .3 - مطبعة القديس جيورجيوس ببيروت :

3 .3 .1 - تاسيس المطبعة :

هناك روايتان مختلفتان حول ظروف تأسيس مطبعة بيروت وخاصة حول مؤسسها . فالرواية الأولى تتحدث عن سلفستروس على انه مؤسس المطبعة. والثانية تذكر اسما ثانيا وهو ابو عسكر احد الروم الارثودكس .فمن هو المؤسس الحقيقي للمطبعة ؟.

أ - دور سلفستروس :

ان الرواية الاولى التي تتحدث عن بداية مطبعة بيروت هي لمؤلف غير معاصر لتلك الفترة وهو الخوري اغسطينوس مقصود ويعود تاريخ رسالته الى 1255 هـ/ 1840م ويقول فيها " اتجد في مدينة بيروت أوايل مطبعة والمظنة انها هي مطبعة حلب ... فلما حضر سلفستروس مثيرا اضطهادا قويا ... حضر الى بيروت وأرسل جاب المطبعة من حلب ودوّرها في بيروت والفقير اطلعت على كتاب الزبور من مطبعة بيروت ومختصر سواعية ... وبعد حين انطوت في انطوش جماعة الروم الغير الكاثوليك" (188) .يقدم صاحب الرسالة معلومات غير دقيقة وغير متاكدة حول تأسيس المطبعة فهو لم يواكب تلك الفترة وينطلق من افتراض ليبّين مصدر آلات مطبعة بيروت، حيث يفترض انها جاءت من حلب. الا أنه لو بقيت احرف وآلات مطبعة اثناسيوس بحلب صالحة للاستعمال بعد ان هجرت منذ اربعين سنة لكان سلفستروس قد استخدمها بحلب نفسها عوض ان يتوجه الى بلاد الفلاخ ثم الى بيروت لطبع كتب جديدة. لذلك نستبعد فرضية أغسطينوس مقصود ونرى ان تجهيزات مطبعة بيروت جديدة، وانها احدثت خصيصا لها. اما عن مؤسس المطبعة فهو سلفستروس حسب مقصود وهذا ما تعارضه رواية ثانية تقدم ابو عسكر على انه مؤسس المطبعة.

---

(188) حاج ، الرهبانية ... ، ج 1 ، ص 550 .

ب - دور أبو عسكر :

تتحدث الرواية الثانية للاب لويس شيخو(189) عن شخص ثان هو الشيخ يونس بن نيقولا الجبيلي المعروف بأبي عسكر، وهو أحد اعيان الروم الارثودكس وله علاقة متينة بحاكم عكا. وهذا الاخير عينه عاملا لاستخلاص المعاليم في قمارق بيروت وكلفه بتنظيم الشرطة هناك . وقد كان رجلا ثريا الى درجة أنه سعى الى تمكين طائفته من مطبعة ومن كنيسة . وفعلا بنى كنيسة في 1178 هـ / 1764 م ، الا انها انهارت بعد سنتين فقط . ومات تحت أنقاضها كثير من الناس وقام ابو عسكر باعادة بنائها في 1186 هـ / 1772م . وقد خامرته فكرة انشاء مطبعة بعدما وقف على فوائد هذه المؤسسة من خلال تجربة الشوير(190) فمول على حسابه الخاص مشروع المطبعة وكلف بعض المتخصصين باعداد حروف عربية حسب نماذج حروف الشوير .

ان هذه الرواية لا تذكر البتة اسم البطريرك سلفستروس، ولا اي دور قد يكون لعبه في تأسيس مطبعة بيروت وتقتصر فقط على تقديم ابي عسكر على انه مؤسس هذه المطبعة . لئن بدت كلتا الروايتين مختلفتين، فان ذلك لا يمنع حسب رأينا من ان تكونا متكاملتين ، اذ يبدو ان كلا من الرجلين قد لعب دورا معينا في عملية تأسيس المطبعة. فالبطريرك سلفستروس هو الذي اعد المشروع منذ ان كان في بوخاريست، ولكنه لم يتمكن من تنفيذه الا بفضل المساعدة المالية التي قدمها اغنياء الطائفة الارثودكسية لبيروت وخاصة منهم أبو عسكرالذي يتمتع بنفوذ واسع لدى ابناء طائفته وايضا لدى السلطات العثمانية . ان دور أغنياء الارثودكس في اصدار المنشورات العربية كان كبيرا فهم الذين ساهموا كما رأينا في صرف الاموال اللازمة لطبع بعض كتب حلب، ويبدو أن اخوانهم ببيروت قد ساروا على نهجهم وهم الذين استفادوا بدورهم من التجارة الدولية التي اتخذت من بيروت مركزا جديدا لها، فشاركوا في تحقيق بعض المشاريع الدينية والاجتماعية والثقافية لفائدة طائفتهم . ويمكن القول اذن ان البطريرك سلفستروس هو الذي لعب الدور الأساسي في تأسيس مطبعة بيروت مع الاستفادة من مساعدة ابي عسكر المالية، وكان له من الخبرة العلمية والفنية ومن النفوذ الديني ما يؤهله لتنفيذ المشروع.

بالنسبة لاختيار مدينة بيروت لاحتضان هذه المطبعة لا توجد كذلك مصادر أصلية توضح هذه النقطة وتعطي تفاصيل ضافية عن أسباب هذا الاختيار خاصة وان حلب هي مؤهلة اكثر من غيرها لاحتضان هذه المطبعة بعد ان اكتسبت تجربة وخبرة في مجال الطباعة. ويذكر مقصود في رسالته المذكورة سابقا ان البطريرك سلفستروس تحول الى بيروت لاضطهاد الروم الكاثوليكيين

---

(189) شيخو ، تاريخ .. المشرق 3 ، 1900 ، ص 501 - 502 .

(190) المصدر السابق ، ص 501 .

الذين ازداد عددهم وأصبحوا مصدر ازعاج له ويمكن ان نستخلص من هذه المعلومة بان سلفستروس قد يكون وقع اختياره على بيروت لهذا السبب أي الاستفادة من خدمات مطبعة جديدة هناك للرد على كتابات الكاثوليكيين والمبشرين. ويبدو أن الهدف الذي حدده سلفستروس لمطبعة بيروت هو هدف جدلي على غرار التوجه الذي اختاره قبل ذلك بالنسبة لمطبعة جاسي . ولكن ما هو محتوى الكتب المطبوعة بيروت ؟

3. 3. 2 - محتوى منشورات بيروت :

لا نعرف عن منشورات هذه المطبعة سوى كتابين هما **المزامير** الذي طبع في 1165 هـ / 1751 م وأعيد طبعه في 1167 هـ / 1753 م (191) وكتاب **السواعي** (الارولوجيون) ، اقتصرت المطبعة اذن على اصدار كتب دينية وطقسية مطلوبة بكثرة وكانت مطبعتا حلب والشوير قد سبقتا بيروت الى طبعهما عديد المرات، ولم تتح الفرصة لسلفستروس لنشر كتب جدلية اذ توقفت المطبعة على ما يبدو دون أن تصدر كتبا اخرى ، وقبل انهيار كنيسة القديس جيورجيوس بوقت طويل (192) . فهل توقفت المطبعة لأسباب مالية أو بسبب رحيل البطريرك عن بيروت أو لاسباب أخرى؟ هناك تساؤلات أخرى كثيرة تبقى دون جواب، ونأمل ان تكتشف وثائق أصلية تلقي مزيدا من الأضواء على هذه المطبعة .

خاتمة الفصل الأول :

ان الكتاب المطبوع رسول المعرفة بين الشعوب لم ينتشر لدى الطوائف المسيحية بالمشرق سوى النصوص الدينية ولم ينقل في القرن 12 هـ/ 18 م الأفكار الجديدة المنادية بالحرية والتي انتشرت باروبا ، او المعارف الحديثة التي ظهرت باروبا بعد عصر النهضة . لم تسهم منشورات بلاد الشام حسب فولني في تحريك الهمم لتغيير الوضع السياسي والتشجيع لمقاومة السلطة العثمانية وبالخصوص للاستفادة من الوضع الاقتصادي الجديد في حلب وجبل لبنان والذي يمكن المسيحيين ماديا من تأسيس المدارس ونشر المعرفة على نطاق واسع ونشر العلوم الحديثة .

عملت المطابع الثلاث بحلب والشوير وبيروت ، باعتبار أن مؤسسيها هم من رجال الدين المسيحي، على انتاج الكتب الدينية لفائدة الطائفة الملكية الارثوذكسية ، وذلك لاثبات هويتهم وبلورة شعورهم الطائفي ولذلك توجهت توجها دينيا بحتا. واذا ما سعت الى نشر النصوص المسيحية المقدسة حسب النصوص العربية المعتمدة لدى كنيسة الروم الأرثودكس، فانها لم تخف رغبتها في،

---

(191) Schnurrer, Bibliotheca ...op. cit., n 534.

(192) حسب مذكرات حنانيا المنير التاريخية " انه في 26 شباط 1766 وقعت في بيروت كنيسة الروم فقتل بها مقدار مائة نفس اغلبهم غرباء " حاج ، الرهبانية ... ج 1 ، ص 550 .

توظيف المطبعة في الجدل الديني القائم بين الارثودكس والكاثوليكيين . فكان ان عملت أولا مطبعة الشوير على نشر المذهب الكاثوليكي . وكان رد فعل الارثودكس سريعا ومباشرا اذ اصدروا في مرحلة اولى كتبا جدلية انطلاقا من جاسي، على ان تتبعها اصدارات أخرى في مرحلة ثانية انطلاقا من بيروت. الا ان مطبعة بيروت لم تعمر طويلا حتى تسهم في التصدي لتسرب المذهب الكاثوليكي.

ورغم هذا الصراع المذهبي الذي ساهمت في تغذيته هذه المطابع، فانها كانت متّفقة على هدف واحد وهو مقاومة الضلالات الدينية والانحرافات، لكن كل واحدة حسب طريقتها الخاصة وكانت متفقة ايضا على التهجم على المخطوط الذي تسبب في تحريف النصوص الدينية وفي نشر الضلالات والتفرقة بين الكنائس الشرقية. ومن وراء المخطوط الناسخون وهم من الرهبان الجهال والمهملين الذين نسخوا مخطوطات مليئة بالاخطاء والتي كانت على نوعين : لغوية وعقائدية . وبالاضافة الى ذلك فان الناسخين حسب بطاركة أنطاكية ورؤساء الرهبانية الشويرية، هم خمولون لا يبذلون المجهود الكافي لنسخ عدد كاف من المخطوطات مما جعل هذه الأوعية نادرة وباهضة الثمن. ونظرا لكل هذه النقائص، دعى المطبعيون القراء الى ترك الوعاء القديم للمعلومات مصدر الانشقاق والخطإ وتعويضه بالكتاب المطبوع. وهذا الاخير مدعو لتقديم نصوص دينية سليمة من الاخطاء بكل أنواعها ولارشاد المسيحيين الى دينهم .

ان ظهور المطبعة يعني بداية عهد جديد حسب رأي اصحاب المطابع ، عهد يقظة الطائفة الملكية الارثودكسية وتدعيم هويتها حسب البعض وعهد نهاية الانشقاق وبداية الاتحاد مع كنيسة روما حسب البعض الآخر . ان نتائج نشاط المطابع الثلاث لم تكن على نفس الدرجة من الاهمية، ذلك ان تأثير ورشتي حلب وبيروت في الحياة الدينية والثقافية، كان محدودا لانهما لم تعمرا طويلا اذ توقفتا بعد بضع سنوات من تأسيسهما في حين ان مطبعة الشوير تمكنت من التغلب على المصاعب الفنية والمالية وواصلت نشاطها الى نهاية القرن 13 هـ / 19م، وحققت بعض النتائج الايجابية اذ طبعت في ظرف نصف قرن تسعة وعشرين كتابا عربيا مسيحيا وساهمت في تنمية الرغبة في المطالعة ووفرت الكتب للمتعلمين باسعار مناسبة .

وبالرغم من محدودية نشاط هذه المطابع، فانه لا ينبغي اغفال مساهمتها في ادخال حركية جديدة في الحياة الثقافية . فعملية اقامة مطابع تعتبر في حدّ ذاتها تحولا هاما في المسار الثقافي للمسيحيين العرب ، الذين وقفوا على مزايا هذه الاداة الثقافية الجديدة لمضاعفة انتاج الكتب ونشر المعرفة وتنمية المطالعة وبذلك يكونون قد وضعوا الركيزة الاساسية لحركة النهضة الادبية التي شهدها القرن الموالي ، اذ غرست تقاليد جديدة لدى المتعلمين المسيحيين وتتمثل في التعامل مع الادوات الثقافية الحديثة التي ستسمح لهم فيما بعد في مواكبة التطور العلمي الذي حققته اروبا .



كتاب

لانجيل الشريف الطاهر • والمصباح المنير الزاهر • مقسما
كنايسيا على مدار السنة حسب ترتيب لابا القديسين الشرقين •
مضبوطا على اللغة اليونانية. وموافقا النسخة العربية •
من غير تغيير ما اصلا • على اننا حذفنا التفسير الموضوع
بعض النسخة اى العربية اقتداء بالاصل
اليوناني الذى لا يوجد به التفسير
• المذكور كما اوضحنا •
• في فاتحة •
الرسايل
•

كتاب الانجيل المطبوع بمدينة الشوير سنة 1776 .

الجزء الثاني : الفصل الثاني
المطبعة الاسلامية في استانبول

مقدمة

كان الحوار الذي دار بين المسلمين المصلحين منهم والمحافظين طويلا وشاقا، لانه جمع بين مجموعة صغيرة من العلماء المتفتحين على الاكتشافات الاروبية وقاعدة واسعة من المتعلمين والعلماء المعارضين وغير المتحمسين لاستخدام هذه الاكتشافات التي من بينها المطبعة. ولم يفض هذا الحوار الى نتائج حاسمة الا بفضل تدخل السلطات العثمانية لايجاد حل مناسب يعاضد من جهة انصار فن الكتابة الجديد دون اثارة حفيظة المحافظين . ان هذا الدعم السياسي الكبير للمجددين جاء في ظروف تاريخية ملائمة لاستعارة بعض الاكتشافات الغربية . فما هي هذه العوامل التي ساعدت انصار المطبعة على الحصول على ترخيص من السلطان العثماني لتأسيس أول مطبعة اسلامية ؟ وهل ان هذه العوامل ساهمت في تواصل عمل اول مطبعة باستانبول بعد وفاة أحمد الثالث ؟ وهل انها شجعت على اقامة مشاريع مماثلة في الولايات العثمانية ؟ كذلك هل نجح المطبعيون المسلمون الاوائل في تخطي الصعوبات الفنية والمادية ؟ وهل مهدوا الطريق لغيرهم للنسج على منوالهم ؟ بقي السؤال الأهم في هذا الموضوع وهو ماذا قدمت مطبعة استانبول للمجتمع الاسلامي في القرن 12هـ/18م ؟ هل ساهمت في تطور الحياة العلمية والثقافية وبقية المجالات ؟ ما هو صدى تأسيسها ونشاطها داخل العالم الاسلامي ؟ وبالخصوص ما هو موقف المسلمين من الكتاب المطبوع وكيف تعاملوا معه ؟ وهل حقق هذا الوعاء الجديد للمعلومات الفوائد التي تحدث عنها متفرقة في رسالته ؟

1) "عصر الخزامى" وتأثير الغرب 1129 هـ/1717 م - 1143 هـ/1730م :

أخذ الباب العالي المبادرة وتحمل مسؤولية ادخال فن الطباعة بالحرف العربي داخل الامبراطورية العثمانية . وهذه المبادرة الجدية هي الاولى من نوعها، لان السلاطين الذين حكموا قبل احمد الثالث لم يحاولوا الاستفادة من المطبعة العربية (1) رغم علمهم بوجودها باروبا، ولدى الاقليات الدينية داخل الامبراطورية كما سبق أن رأينا ذلك . ان الفترة التاريخية التي حكم فيها السلطان احمد الثالث (1115هـ/1703م - 1143هـ/1730م) ، ووزيره الاكبر ابراهيم باشا داماد (1129هـ/1717م - 1143هـ/1730م) ، كانت متميزة برغبة متزايدة لدى الباب العالي لادخال بعض الاصلاحات على اجهزة الدولة، وداخل المجتمع ايضا ولم يتردد الحكام في التفتح على الغرب المسيحي لاستعارة بعض التقنيات والاكتشافات الحديثة التي كان من ضمنها آلة الطباعة .

---

(1) ابراهيم متفرقة ، رسالة وسيلة الطباعة ، ص 199 - 200

1.1 - الحاجة الى الاصلاحات :

منذ القرن 11هـ/17م، نادى بعض المفكرين ورجال السياسة العثمانيين بضرورة اصلاح المؤسسات الادارية والعسكرية و الثقافية، وتناولوا بالتحليل أسباب ضعف الدولة منذ نهاية القرن 10 هـ / 16م وعلى سبيل المثال كتب لطفي باشا (2) الوزير السابق في عهد سليمان القانوني رسالة **"أسف نامة" أو "مرآة الوزراء"**، ذكر فيها اسباب تدهور الوضع داخل الخلافة العثمانية . وكذلك الامر بالنسبة لمؤرخ البلاط ، علي، الذي كتب في 1003هـ/1595 م رسالة حول الوسائل الناجعة التي يستخدمها لاصلاح الدولة (3) . اما الالباني كوشي باي (4) والذي يعرف باروبا بمونتسكيو الشرق فقد كتب رسالة في 1040 هـ / 1630م الى مراد الرابع لابراز مشاكل الادارة والحكم .اما كاتب شلبي المعروف بحاجي خليفة فقد كتب في 1064 هـ / 1653م **"دستور العمل في اصلاح الخلل"** حيث تناول فيه بالتحليل اسباب افلاس الدولة ماليا، واقترح جملة من الاصلاحات. ويعتبر حاجي خليفة اول عالم مسلم يدعو الى الاستفادة من العلوم الموجودة لدى الغرب (5) .

أما حسين هزرفن ، خزندار الدولة ، فقد كتب في 1079هـ/1669م **"تلخيص البيان في قوانين آل عثمان"** وفيه يتحدث عن تنظيم هياكل الدولة وينقد سياسة السلاطين وظاهرة الرشوة لدى الوزراء. ويعتبر هزرفن اول مسؤول عثماني ربط علاقات صداقة متينة مع بعض رجال الفكر والعلم الاوروبيين (6) . فقد التقى بالمستشرق الفرنسي قالان والايطالي مارسيغلي كما استفاد هزرفن عند تاليفه لكتاب عن تاريخ العالم بمصادر يونانية ولاتينية معتمدا في ذلك على مترجمي السرايا . وهناك مؤرخ آخر استخدم هذه المصادر الاجنبية وهو ابراهيم باشوي (7) .ان هذه النزعة الجديدة المتمثلة في التوجه نحو الغرب، قد تدعمت لدى المفكرين العثمانيين في بداية القرن 12هـ/ 18م الذين اصبحوا ينادون باصلاح الجيش والادارة فمنذ هزيمته سنة 1110هـ/1699م ، امام جيوش روسيا والنمسا وامضاء معاهدة سلم في كارلويز، افاق الباب العالي من سباته وادرك مدى الضعف الذي كان عليه جيشه وتجهيزاته العسكرية بالقياس مع جيوش اعدائه المتوقين عليه من

---

(2) Encyclopédie de l'Islam. lére éd, vol 3, pp. 56-58, article Lutfi Pasha

(3) Bombaci, Histoire ... op cit., p. 333.

(4) Encycl. Islam lére éd. vlo II, p.16, article Koci Bey, voir aussi Bombaci, Histoire... op cit., p. 330

(5) Bombaci, Histoire... op cit., p. 309 ; Adnan, La science ... op. cit ., pp. 93 -107

(6) Encycl. Islam, 2é éd, vol, III p. 644 article Husayn Hezafenn, voir également Bombaci, Histoire. p. 309

(7) المصدر السابق ص 335

حيث التنظيم والعتاد واصبح يعي اهمية الاصلاحات التي ادخلها قيصر روسيا بطرس الاكبر الذي استفاد بدوره من مساعدة اوروبا الغربية له، واستطاع ان يجعل من روسيا دولة قوية. وقد اراد الباب العالي ان ينسج على منوال بطرس الاكبر بعدما عاش في عزلة عما يحدث باوروبا من تطور وتقدم منذ عصر النهضة التي عرفتها . بل ان المجتمع الاسلامي عموما انطوى على ثقافته وآدابه ولم يربط صلات ثقافية بالغرب، ولم يسع الى التفاعل حضاريا مع مجتمعات اخرى مثلما فعل المسلمون الاوائل ومع مجيء السلطان احمد الثالث ، الذي كان متفتحا على اروبا الغربية، ظهرت انجازات عديدة في مختلف المجالات وخاصة في المجال الثقافي .

1 . 2 التوجهات السياسية الجديدة لأحمد الثالث ووزيره :

1.2.1 أحمد الثالث : كان سلطانا مسالما. وقد اختار عقد اتفاقيات سلام على اثر الهزائم العسكرية التي منيت بها الجيوش العثمانية امام الجيوش الروسية والنمساوية، وبسبب المصاريف الباهضة التي يتطلبها تجهيز الجيوش في وقت كانت خزينة الدولة في حالة عجز مالي . وقد مكنت فترة السلم هذه ، الباب العالي من الاهتمام بالعلوم والثقافة الغربية فشجع السلطان أحمد الثالث العلوم والآداب واغدق على العلماء ورجال الفكر. وكان بدوره شاعرا وخطاطا ومولعا بكتابة الرسائل. وقد عمل على احاطة نفسه برجال مثقفين، فامر بتعويض "الدوشير" (8) بمسلمين احرار في المناصب الادارية والعسكرية الهامة. وهؤلاء كانوا مهتمين بالمعارف الحديثة . كما عيّن في سنة 1130هـ/1718م رجلا متفتحا عل حضارة اوروبا في منصب الصدر الاعظم .

1 . 2 . 2 - الصدر الأعظم ابراهيم باشا :

ولد هذا الوزير في نوشير في 1073هـ / 1662م وتوفي مقتولا اثر ثورة الانكشارية في 1143هـ/ 1730م . وكان احد مخططي "سياسة السلام" التي انتجها الباب العالي (9) اذ انه افتتح وزارته بامضاء ابرز اتفاقية سلام في ذلك الوقت والتي عقدها في باساروفيتش في 1130هـ/1718م مع النمسا والبندقية .

كرس هذا الوزير جهده لاعادة بناء الاقتصاد والجيش (10) وعمل على ادخال حركية جديدة

----

(8) Encycl. Islam, 2é éd., t 1, p 278 article Ahmed III

الدوشير هم موظفون سامون من اصل مسيحي تولى الباب العالي تربيتهم منذ صغر سنهم.

(9) Note du P. Holdeman en 1731 in "Encycl Islam, bib ; 1926 p.8 voir Encycl. Islam 2.è éd. 2 ed. T3 p.1027 article Ibrahim Pasha Nevshehirli.

(10) أمر الوزير مثلا بصنع باخرة كبيرة وطلب من احد الضباط الفرنسيين وهو دي روشفور اعداد مشروع تكوين مهندسين في خدمة الباب العالي انظر. Berkes N, The development of secularism in Turkey, Montréal, Mc Gill University, 1964, p. 31.

في مجال الثقافة فاسس اول مكتبة عمومية (11) وكوّن لجنة تعد خمسة وعشرين عالما، لترجمة المؤلفات الهامة من العربية واليونانية الى اللغة التركية العثمانية (12) . كما انه كان يتابع باستمرار النشاط العلمي باوروبا من خلال مجلة العلماء (Journal des savants) وشجع العلماء على اتباع نفس السلوك وقد بلغ عدد الادباء والشعراء لدى الباب العالي في فترة وزارته اكثر من مائة (13) . كما أن عدد المؤلفات العلمية وخاصة منها الطبية والرياضية قد ازداد بشكل ملحوظ (14) .

وقد وفّر الصدر الاعظم ابراهيم باشا في هذه الفترة جوّا شاعريا منعشا اطلق عليه اسم احدى الازهار وهو "لالي دوري" اي "عهد الخزامى" وهذه الزنبقة كان قد جلبها من هولاندا السفير بيسباك (15) . ووجدت اقبالا لا نظير له من طرف سكان استانبول ، الذين غرسوها في حدائقهم ووشّوا بها شرفات منازلهم. كما ان الصدر الاعظم شجع غراسة هذه الازهار وخصص مكافآت لذلك وقد ظهر نمط عيش راق في العاصمة العثمانية، وازدهر في تلك الفترة ، من ذلك اقيمت المآدب الفاخرة وأقبل الاغنياء على ارتداء الملابس الرقيقة ومنها ثياب الفرو وكذلك التحلي بالجواهر الثمينة. كما كانت النساء تقمن بفسحات على ضفاف البوسفور في الحدائق الجديدة والاكشاك والحنفيات وقد عبّر الشاعر احمد نديم (توفي في 1143هـ/1730م) ، عن هذا الجو الشاعري بقوله : "لنضحك ولنمرح ولنتمتع بالدنيا ، تعال الى شجر السّرو لنتوجه نحو سعد اباد" (16) .

ان هذا النمط الجديد من العيش استوحاه سكان استانبول من مشاهدات سفير الباب العالي الى باريس في 1133هـ/1720 - 1721م . وقد وصف حياة الرفاهة لدى الباريسيين وبعض مظاهر التقدم الحضاري لديهم في كتاب عن رحلته هذه . ان الباب العالي لم تكن لديه المعلومات الكافية عن التطور الثقافي والفني باوروبا ، فحرص على ارسال سفراء الى فيينا وباريس، لينقلوا اليه مظاهر هذا الازدهار. واذا لم يوفق سفير الباب العالي الى فيينا في مهمته ، فان سفيره الى باريس قد نجح في نقل صورة حيّة عن مشاهداته، مما ساهم نوعا ما في تاثر العثمانيين بنمط

---

(11) Toderini, , De la littérature... op.cit., T3 p. 20

(12) مثل ترجمة عقد الجمان لبدر الدين العيني وحبيب السيار انظر: Adnan, La Science ... op. cit., p. 126

(13) المصدر السابق ص 141 .

(14) مثل كتاب جواهر الفريد في الطب الجديد لعمر سيفاي (توفي في 1154/1742م) الذي ترجم ايضا كتابا لبركلين، اما عالم الرياضيات خليل فايض (توفي في 1133هـ/1721) فقد الف عديد الكتب في الرياضيات والفلك انظر : Adnan, La science ... op.cit, pp 127-128 .

(15) Bombaci, Histoire... op. cit, p 323.

(16) نفس المصدر، ص 333. ظهر كتاب في تلك الفترة من تاليف السيدة مونتا في زوجة سفير انقلترا باستانبول يتحدّث عن حياة الدعة والبذخ وفيه وصف للحمامات والحدائق والسرايا وغير ذلك. عنوان الكتاب الذي اعيد طبعه حديثا: Montagu, M, L'Islam au péril des femmes: une anglaise en Turquie au XVIII siècle, Paris, Maspero,1981 (La Découverte)éd 1757, p. 281

الحياة الغربية وبالخصوص في الاستفادة ببعض الاكتشافات ومظاهر التقدم العلمي عندهم. وسنحاول تحليل التأثير المباشر لسفارة باريس في ادخال المطبعة الى استانبول .

1 . 3 مطبعة استانبول : رسالة السفير العثماني الى باريس :

1 . 1.3 مهمة السفير العثماني :

أرسل الصدر الاعظم ابراهيم باشا مبعوثا الى ملك فرنسا والوصي على العرش دوق اورليان لاطلاعه على نتائج اصلاح كنيسة القديس Saint Sépulcre ببيت القدس (17) وليقترح عليه تجديد معاهدة"الامتيازات" (18). الا ان هذه الاسباب الرسمية كانت تخفي وراءها الهدف الاصلي الذي يرمي اليه الوزير والمتمثل في "الاطلاع على كل ماهو عجيب بالملكة الفرنسية والاستفادة منه في تسيير شؤون الامبراطورية"(19).

ان الصدر الاعظم كان يريد من سفيره وصف نمط الحياة الاوروبي، وبالخصوص تقديم تحليل دقيق لكل مظاهر الحضارة والتربية الحديثة فيه ، وما يمكن ان يستعيره المسلمون بما يتلاءم ونهضة مجتمعهم (20) . ونظرا لدقة هذه المهمة ، فقد كلف الصدر الاعظم احد الرجال الاوفياء له لتأديتها وهو ضابط بارز داخل السرايا .

1 . 3 . 2 - السفير :

هو يرمسكز شلبي محمد افندي الذي سبق له ان قام بمهام ديبلوماسية وادارية في اعلى مستوى ، اذ اشرف على المفاوضات التي ادت الى امضاء اتفاقية باسا روفيتش (21) ، كما شغل منصب خزندار (22) . وكان رجلا متعلما ذا ثقافة عالية ومولعا بالآداب العربية والتركية والفارسية (23). وقد زار فرنسا في مهمة ديبلوماسية في 1133هـ/1720 - 1721م حيث تجول في كامل

---

(17) Lettre du Grand Seigneur Ahmed III au Régent in :"Archives du Ministère des Affaires Etrangères Paris "(M.D. Turquie) voir, F. 218.

(18) يضيف المؤرخ مينو ان الهدف الاساسي هو تقديم طلب للملك لوضع حد لقراصنة فرسان مالطة ضد الوحدات البحرية العثمانية .
Mignot, Abbé Vincent, Histoire de l'Empire Ottoman, Paris, Le clerc, 1771, vol IV, p. 254

(19) "Lettre de De Bonnac, l'Ambassadeur de France à Constantinople" In Efendi, Mehmed, le paradis des infidèles : un ambasadeur ottoman en France sous la Régence, Paris, Maspero, (1ère éd. 1981, p. 28, 1757)

(20) المصدر السابق ، ص 26 .

(21) Lettre du Grand Seigneur Ahmed op. cit ., p. 218.

(22) لقب هذا الضابط بيرمسكز التي تعني بالتركية ثمان وعشرون نسبة الى عدد الوحدة العسكرية التي يعمل بها .

(23) "Lettre de De Bonnac au bibliothècaire du Roi, le 30 septembre 1720" Bib. Nat. ms. Fr. nouv. acq. 53 C. D.

البلادالفرنسية قبل ان يستقر بباريس لمدة اربعة أشهر. وكتب كتابا حول رحلته الى فرنسا وصف فيها أهم مشاهداته وبالخصوص كل ماهو فريد وغريب في هذا البلد .

3.1 .3 - رسالة حول الرحلة :

ذكر محمد افندي يرمسكز كل مراحل رحلته ولقاءاته مع ملك فرنسا والوصي على العرش والامراء وبعض كبار الشخصيات في الدولة . وقد وصف بدقة بعض المعالم الهامة مثل قنال لانقدوك ومرصد باريس وقصري فرساي وفونتانبلو ومصانع النسيج ومعمل السكر كما تحدث عن فن صقل المرآة وعن تدريب الجنود الفرنسيين والسويسريين في سهل سابلون. كما نقل كل النشاط الثقافي الذي قام به بباريس منها زيارته لجامعة السربون ولمكتبة الملك (24)، وكذلك حضوره للعروض التي قدمت على خشبة الاوبرا وقاعة الالعاب في الماري . وبصفة عامة يعطي كتابه فكرة عن المجتمع الفرنسي وعن التقدم الذي حققته اروبا في كل الميادين . وتعتبر رحلته اكتشافا لعالم جديد وعجيب وهذا ما يفسر أهميتها في التعريف بالغرب لدى الشرقيين (25) . وقد جلب هذا الكتاب كل اعجاب وتقدير لصاحبه في استانبول سواء لدى السرايا او الفئات الغنية بها والتي استعارت بعض انماط الحياة الباريسية التي وردت في الكتاب : مثل البناءات الحديثة والحدائق والحنفيات وغيرها .

1 . 3 . 4 - زيارة مطبعة باريسية :

لم يتحدث السفير العثماني في رحلته عن المطبعة التي زارها بباريس رغم ان سان سيمون يؤكد ذلك في مذكراته حيث قال : "اهتم (السفير) بالآلات والمصانع وخاصة الميداليات والمطبعة ، كما شاهد بارتياح كبير مخططات لساحات الملك ومكتبته ، حيث تبين انه يعرف جيدا التاريخ والكتب القيمة . وقد كان صديقا حميما للصدر الاعظم فاقترح عليه اقامة مطبعة باستانبول ومكتبة رغم معارضة الاتراك وقد نجح في ذلك" (26) ان شهادة سان سيمون هي شهادة أصلية اذ انه التقى بالسفير اثناء تواجده بفرنسا. والى جانب هذه الشهادة الاروبية هناك شهادة اسلامية معاصرة للاحداث وهي لمؤرخ السرايا شلبي زادة الذي يؤكد زيارة يرمسكز لمطبعة بباريس (27) وقد

---

(24) دار حوار اثناء زيارته للمكتبة بينه وبين امين المكتبة بينيون وتدول مواضيع تتعلق بالفنون والعلوم المزدهرة بفرنسا . Nouvelle description de Constantinople op. cit, p. 240.

(25) يرى بعض المستشرقين ان هذا الكتاب له قيمة كبيرة في تاثر تركيا بالغرب انظر Berkes, The development op. cit., pp. 33-34; Lewis, B, The emergency of modern Turkey, London, New-York, Oxford Universty Press, 1961.

(26) SAINT-SIMON, Louis de ROUVAROY De, Mémoires Complets et authentiques... sur le siècle de Louis XIV et la Régence, Paris, A. Sautelet, 1829, Vol 18, p. 382.

(27) تاريخ شلبي (1133/1721هـ - 1141/1728م) القسطنطينية 1740، ورقة 49 .

نقلهاجودت في تاريخه (28) .

وامام هذا التأكيد من طرف مؤرخين معاصرين للسفير يصبح من الصعب تفسير موقف يرمسكز محمد افندي الذي تحاشى الحديث عن المطبعة، ولم يفردها بوصف دقيق على غرار ما فعله في مشاهداته الاخرى ، خاصة وان باريس ليست غريبة عن المطبعة العربية (29) . فهل يمكن تفسير هذا الموقف بتخوفه من معارضة المحافظين ام انه تحاشى اثارة الموضوع في كتابه حرصا منه على اخفاء مشروع اقامة مطبعة قد يكون بصدد اعداده مع ابنه الذي رافقه في الرحلة ، حتى يضمن نجاحه، ذلك لان احد العلماء الفرنسيين الذي التقى بالسفير، ذكر بأن يرمسكز كانت له مشاريع عديدة افضى بها عند عودته الى استانبول الى الصدر الاعظم ، واقترح عليه انجاز البعض منها مما يتلاءم وذوق الوزير (30) . ومهما كان موقف السفير من المطبعة فان ابنه سعيد شلبي قد تحمس لاعداد مشروع اقامة المطبعة .

1 . 3 . 5 - سعيد شلبي :

اشتغل كاتبا لدى سفارة والده بباريس واصبح بدوره سفيرا للباب العالي في السويد سنة 1146هـ/1733م ، ثم فرنسا في 1153هـ/1741م (31) . وعند عودته سمي نيشا نجي باشا وهذا اللقب يسند للموظفين السامين بالسرايا ثم اصبح صدرا اعظم في 1168هـ/1755م، قبل ان يعزل وينفى مثل والده (32) .

لم يكن يبلغ من العمر عندما رافق والده الى باريس سوى خمس وعشرين سنة . وكان رجلا متفتحا ومعجبا بأجواء الحرية السائدة بفرنسا (33) . وقد حصل له ان خرج يتفسح بباريس بدون ابيه فشاهد معمل السكر وعروضا بمسرح الاوبرا (34) ، وزار ايضا ورشات الرسم والطباعة رفقة

---

(28) تاريخ جودت

(29) اهملت المطبعة العربية بباريس بعد موت فيتراي في منتصف القرن 11هـ/17م ولم يقع استعمال حروف سافاري الا في نهاية القرن 12هـ/18م . Guignes , De "Essai... op.cit., " p. XXX

(30) Rapport de Bonnac en septembre 1722 in :Le paradis ... op cit, p. 50.

(31) أرسل الى باريس لعقد اتفاقية مشتركة عثمانية فرنسية للتصدي لروسيا واثناء اقامته هناك مدة ، 16 شهرا التقى بعدد من المفكرين الفرنسيين مثل روسو ومونتسكيو وفولتير انظر : Berkes, The development ... op.cit., pp. 35-36.

(32) وقع نفي والده الى قبرص بعد ثورة 1143هـ/1730م ، المصدر السابق ، ص 35

(33) Lettre du chancelier de l'ambassade Peyssonnal au bibliothécaire du Roi. Constantinople le 24 janvier 1739, (BN.ms. nouv. acq. Fr. 6834 Fol. 91-94.

(34) VEINSTEIN, G, in le Paradis ...op. cit., p. 41.

واندهش من آلة الطباعة التي تخرج بسهولة عددا كبيرا من الكتب(35) . ومنذ ذلك الحين فكر وربما بالتعاون مع ابيه ، في ادخال فن الطباعة بالحرف العربي الى استانبول، وقد وجدت الفكرة القبول الحسن من طرف الصدر الاعظم الذي كلفه باعداد مشروع بالتعاون مع ابراهيم متفرقة لتقديمه الى السلطان.

ويتبين هنا ان الباب العالي لم يكن موافقا فحسب على استخدام آلة الطباعة، بل انه تحمس لاعداد مشروع في هذا الغرض. فالمناخ الثقافي السائد في "عهد الخزامى" كان ملائما لتنفيذ مثل هذه المشاريع العلمية والثقافية. اضف الى ذلك اطلاع المسلمين على ما يحدث في أروبا وخاصة بفرنسا من تقدم في المجالات الثقافية والعسكرية. ولم يكن كتاب يرمسكز سوى حافزا لدفع العقول المتفتحة لاستعارة بعض التقنيات والاكتشافات. ووجد انصار المطبعة في سياسة التفتح على الغرب التي كان يسلكها الباب العالي فرصة سانحة لاقامة اول ورشة للطباعة بالحرف العربي باستانبول وتحقيق الامل الذي كان يحدو بعض الاوساط الاسلامية المثقفة .

1 . 4 - ابراهيم متفرقة :

يعتبر ابراهيم متفرقة وهو رجل ادب وعلم وديبلوماسي ، من ابرز رواد حركة الاصلاح في الدولة العثمانية في القرن 12هـ/18م . وهو عالم من اصل مجري ولد في كولوز فار (تعرف اليوم بكليج بالمجر) سنة 1085هـ/1675م ، من أبوين مسيحيين ، درس في معهد مسيحي وفي عام 1103هـ/1692م ، وقع اسيرا في قبضة الاتراك وعندها اعتنق الاسلام (36) وسمي ابراهيم. كان رجلا عالما ذكيا يحذق اللغات التركية والعربية والفارسية والاتينية (37)، علاوة على لغته الام اي المجرية (38) وقد درس الرياضيات والعلوم والفنون وسرعان ما اصبح متبحرا في العلوم والآداب ولقب عند ذلك بمتفرقة اي متعدد المواهب. وهو لقب يطلق على رجال الفكر والعلم بالسرايا ممن بلغ

---

(35) TODERINI, De la littérature... op. cit., T 3 pp. 8-9

(36) Encycl. Islam 2 éd. T 3 pp. 1021- 1022 article Ibrahim Mutafarrika, voir aussi SAUSSURE, Czézarnak, De, lettres de Turquie (1730 -1739) Budapest, 1909 p 94.

(37) ان حذقه للغة اللاتينية مكنه كما يقول في كتابه **اصول الحكم** من الاطلاع على الكتب الاروبية التي تتناول موضوع فنون الحرب وتنظيم الجيوش وكذلك كتب التاريخ والجغرافيا .

(38) "Note du P. Holderman sur les débuts de l'imprimerie à Constantinople "1730 in Rev. bib 36, 1926 p 8 ; voir aussi Mutafarrika, Traité de tactique ou Méthode artificielle pour l'ordonnance des troupes, trad. de Reviczki, Vienne, 1769 p. XXXIX.

قد يكون متفرقة عالما باللغة الايطالية حسب ترجمة احد الديبلوماسيين الفرنسيين Voir Rev, bib, 1895 p. 228, voir aussi Todemi, De la littérature... op. cit., T 3 p. 18.

درجة عالية من المعرفة . تقلد مناصب مختلفة بالادارة العثمانية ، حتى كلفه الباب العالي بمهام سياسية وديبلوماسية سامية واصبح مستشارا ومبعوثا خاصا للسلطان. واجرى مفاوضات ديبلوماسية سامية خاصة مع النمسا وروسيا في 1127هـ/1715م ثم في فيينا في 1128هـ / 1716م (39) وفي سنة 1132هـ / 1720م، عين ضابط اتصال ومترجما لدى الامير المجري راكوزي (40) ، ثم اشترك مع أحمد باشا بونفال في إعداد مشروع تحالف عثماني سويدي ضد روسيا في 1156هـ/ 1743م .

كتب بالتركية **"رسالة اسلامية"** دافع فيها عن القرآن وفسّر سبب اعتناقه الاسلام. كما فنّد في رسالته المذهب الكاثوليكي. وأكد ان النصر النهائي سيكون للاسلام، بما ان هذا الدين تنبأ به سيدنا عيسى عليه السلام على انه دين العالمين (41) . كما كتب كتابا هاما يقترح فيه القيام باصلاحات عسكرية للنهوض بالدولة العثمانية عنوانه **"اصول الحكم في نظام الامم"** ويعتبر هذا الكتاب امتداداً لكتابات كوشي باي وحاجي خليفة، التي تحدثت عن اسباب عدم الاستقرار والفوضى داخل الامبراطورية والهزائم العسكرية والاصلاحات اللازمة للنهوض بالأمة. وكان ابراهيم متفرقة يعطي الاولوية لاصلاح الجيش حسب النمط الاروبي ولم يخف اعجابه بالتجارب الغربية . وقد استشار عند تحرير كتابه بعض الخبراء الاروبيين في المجال العسكري (42) . وكان على دراية كبيرة بالتقدم الذي حققته اروبا في عدة ميادين فنية وعلمية. وكان كذلك متحمسا لادخال بعض الاكتشافات الجديدة الى الامبراطورية العثمانية مؤكدا على انه يجب التمييز بين الديانة المسيحية التي لا تفيد المجتمع الاسلامي وبين العلوم الحديثة باروبا التي ستعود بالنفع على المسلمين ، وانه لا تعارض بين العلم والاسلام . وبهذا الفكر التحرري المتفتح على اروبا اهتم ابراهيم متفرقة بمشروع اقامة مطبعة بالحرف العربي باستانبول. وقد خامرته فكرة تنفيذه قبل سفارة يرمسكز الى باريس، وهذا حسب شهادة اصلية لأحد الديبلوماسيين الفرنسيين الذين اشتغلوا بالسفارة الفرنسية باستانبول في ذلك العصر، وحيث ذكر ان متفرقة عرض مشروعه على بعض الوزراء الذين وان كانوا اقتنعوا بجدواه فقد رأوا انه صعب التحقيق في ذلك الظرف ، الى ان اتيحت له الفرصة في السنوات الاخيرة من وزارةالصدر الاعظم ابراهيم باشا داماد. وكان من المقربين اليه حيث حصل على موافقته . ووجد كل تشجيع من لدنه لاتمام مشروعه (43) . ان هذه الوثيقة الاروبية هامة

---

(39) Encycl. Islam 2 éd. T 3 p. 1022.

(40) ملك المجر (1087هـ/1676م - 1148هـ/1735م) وقع اسيرا لدى النمساويين لكنه فرّ الى فرنسا ثم الى استانبول طالبا المساعدة من الباب العالي لاسترجاع ملكه الا انه توفي في منفاه برودوستو .

(41) Encycl. Islam 2 éd. T 3 p. 102.

(42) REVICZKI, Traité... op. cit., p. XXXVI.

(43) "Biographie de Mutafarrika par le Grand en 1742" in Rev.Bib. 1895 p. 229

باعتبار ما عرف عن هذا العالم المجري من مناقب وكفاءة عالية في مجال العلم والسياسة. وما رسالته حول "وسيلة الطباعة" التي تعرضنا اليها في الفصل الثاني من الجزء الاول، الا دليل آخر على عمق تفكيره وقدرته على الاقناع وتبحره في العلوم والآداب . الا ان الديبلوماسي الاروبي غفل عن ذكر شخص ثان اشترك مع متفرقة في اعداد المشروع وهو سعيد شلبي .

ان ابراهيم متفرقة لم يسع كما يقول في رسالته، الا لاخراج مشروع اقامة مطبعة بالحرف العربي لدى المسلمين من طي النسيان ،بعدما تمت مناقشة المبدإ منذ أكثر من قرن. واعترف الجميع بما فيهم المحافظون بفوائد فن الطباعة ولم يكتف العالم المجري بهذا العمل النظري ، بل عمل على تنزيله على ارض الواقع وقام بتنفيذ كل مراحل مشروعه بالتعاون مع زميله مما يؤكد اقتناعه بضرورة اقتران الجانب النظري في تفكيره بالجانب العملي التطبيقي ونتساءل هنا كيف تمكن متفرقة من التعرف بدقه على فن الطباعة والظهور بمظهر "الدماغ المفكّر" لأكبر مشروع ثقافي علمي عرفته الدولة العثمانية في القرن 12هـ/18م ؟.

ان اطلاعه الواسع على ما يحدث باروبا من خلال قراءاته واتصالاته بالديبلوماسيين والمستشرقين والتجار الاروبيين الذين يعملون بالعاصمة العثمانية وكذلك صداقته الحميمة بسعيد شلبي الذي رافق اباه في سفارته الى باريس، مكناه من اخذ فكرة واضحة عن فن الكتابة الجديد. ولا يستبعد ان يكون قد زار مطابع الاقليات الدينية باستانبول . كما ان رحلاته الرسمية لدى عديد البلدان باروبا الوسطى ، قد تكون ايضا ساهمت في تعميق معرفته بهذا الاكتشاف .

2 - تاسيس المطبعة

2 . 1 - تسيير المطبعة :

2 . 1 . 1 - المساعي الرسمية :

اعدّ ابراهيم متفرقة بالتعاون مع سعيد شلبي مشروعا لتأسيس أول مطبعة اسلامية بالحرف العربي في العالم ويكون مقرها استانبول هذا بالاضافة الى "رسالة وسيلة الطباعة" (44) . وقد عرضا في مشروعهما الاجراءات العملية لاقامة المطبعة، وبالخصوص تحملهما لكل المصاريف التي تتطلبها (45) . وقد قدما بالاضافة الى نص المشروع، بعض العينات من النصوص المطبوعة بالحرف العربي (46) للصدر الاعظم الذي استحسن الفكرة ونقل كل الوثائق الى شيخ الاسلام

---

(44) قام ابراهيم متفرقة بتاليف "رسالة وسيلة الطباعة" بمفرده كما يبين ذلك في المقدمة اما مشروع اقامة مطبعة فقد اعده مع سعيد شلبي.

(45) "Decret d'Ahmed III" in Rev.Bib. 1895 p. 191.

(46) Gercek, S.N ; Turk matbaaciligi, Istanbul Devletbasimevi , 1939, p. 4.

وبعض العلماء المقربين للسرايا وهؤلاء وافقوا على المشروع وكتبوا تقاريض على **"رسالة وسيلة الطباعة"** كما اصدر شيخ الاسلام فتوى يجيز فيها طبع الكتب، ما عدا تلك المتعلقة بالشريعة والفقه الاسلامي. وهذه الفتوى كانت أكبر سند قانوني للمشروع عند عرضه على انظار السلطان احمد الثالث الذي وافق عليه واصدر "خط همايون" بتاريخ 15 ذي القعدة 1139هـ/1726م يرخص فيه لابراهيم متفرقة وسعيد شلبي باقامة مطبعة بالحرف العربي في استانبول وقد أرفق هذا الامر بنص فتوى شيخ الاسلام حرصا منه على اتخاذ كل الاحتياطات اللازمة لابراز موافقة علماء الاسلام على استعمال هذا الاكتشاف واقناع الرعايا بمزاياه وخاصة المحافظين منهم ، وكذلك فعل صاحبا المطبعة الذين نشرا في اول كتاب يصدرانه ، نصوص خط همايون والفتوى ورسالة وسيلة الطباعة وتقاريض العلماء عليها (47) . وبهذا الاجراء ضمن الباب العالي كل ظروف النجاح للمشروع اذ ان الفقهاء والعلماء والسلطان ايدوا هذا الاكتشاف ووافقوا على استخدامه وتفادى في الوقت نفسه كل معارضة من طرف المحافظين، مثلما حدث ذلك في سنة 997 هـ / 1588 م عند محاولة بيع كتب اروبية مطبوعة بالعربية .

2 . 1 . 2 - ادارة المطبعة

لمن عهدت ادارة هذه المطبعة ؟ فهل تحملها كل من متفرقة وشلبي ام احدهما فقط ؟ اننا نطرح هذا السؤال نظرا لتضارب المصادر حول هذه النقطة بالذات ، والتي كانت تذكر في الغالب احد الرجلين فقط وخاصة منهما سعيد (48) .

من خلال خط الهمايون ، يتبين ان السلطان يرخص لكلا الرجلين بتنفيذ المشروع دون التمييز بينهما ودون تعيين احدهما لادارة المطبعة . اذن يفهم من هذا ان ورشة الطباعة تم تأسيسها بمجهودهما المشترك ، وأن ادارة المطبعة قد تعهدا بها في البداية معا الا ان هذا التعاون لم يدم طويلا ، اذ سرعان ما اخذ العالم المجري كل المسؤولية على عاتقه . واستغنى بذلك عن خدمات صديقه سعيد شلبي. وهذا ما يؤكده مصدر اصلي للمبشر اليسوعي الاب هولدرمان الذي عمل مع متفرقة في المطبعة لاصدار كتاب له باللغتين التركية والفرنسية وعنوانه **"النحو التركي"** وذلك في 1143هـ / 1730م ، حيث ذكر في مقدمة هذا الكتاب ان ابراهيم متفرقة اشترك في البداية

----

(47) سنتعرف على مقتطفات من هذه التقاريض في فقرة لاحقة .

(48) هناك مصادر غربية تذكر مرة متفرقة وأخرى سعيد شلبي فمثلا ورد في دفاتر اكاديمية الHاداب الفرنسية في 1139هـ/1727م ما يلي : اقام السلطان الاكبر مطبعة هنا باللغة العربية والتركية وكلف سعيد آغا بادارتها" كما ذكر فيلنوف سفير فرنسا باستانبول في رسالته بتاريخ 30 سبتمبر 1729 ، ان ابراهيم متفرقة هو مدير المطبعة ويبدو ان الفرنسيين باستثناء السفير يعرفون سعيد شلبي اكثر من متفرقة بما انه زارهم صحبة والده في 1133هـ/1720م، مما جعلهم يقتصرون على ذكر اسمه دون شريكه (توجد الوثائق الفرنسية المذكورة في: Rev. Bib, n 5 , 1895 pp. 186-187)

مع سعيد آغا . الا أنه لم يتفق معه فانفرد لوحده بادارة شؤون المطبعة (49) . وكذلك هناك مصادر أخرى تؤكد شهادة هولدرمان، وهي الكتب ذاتها المطبوعة بالحرف العربي في استانبول التي كانت تذكر في خاتمتها معلومات ثمينة عن شؤون المطبعة . فقد ورد في ثالث كتاب مطبوع اسم المسؤول عن الطباعة : "تم الكتاب بعون الملك الوهاب على يد الحقير والفقير ابراهيم من متفرقكان دركاه على يد المأمور بعمل الطبع بدار الطباعة المعمورة في البلدة الطيبة قسطنطينة دامت عمارتها الى دامان القيامة" . وبعد صدور الكتابين الاولين اللذين لم يرد فيهما اسم المشرف على المطبعة، اصبح يذكر باستمرار اسم متفرقة على انه هو الذي يشرف على عملية الطباعة الى حد وفاته سنة 1158 هـ/1746م (50) . وهذا ما يؤيد ما ذهب اليه الاب هولدرمان على ان متفرقة تفرّد بعد فترة وجيزة ، بمهمّة الطبع وبعد ذلك خلفه في ادارة المطبعة تلميذه ابراهيم افندي القاضي الى سنة 1170هـ/1756م . وبعد اعادة فتح الورشة في 1198 هـ / 1784م تعهد بالتسيير عالمان هما احمد واصف ومحمد راشد افندي . ان مهمة مدير المطبعة لم تكن واضحة المعالم في البداية، الا انها تبلورت بمرور الزمن حتى اصبحت تشمل التسيير والتصرف في شؤون المطبعة ومراقبة ومتابعة كل مراحل عملية النشر من حفر الحروف وتصفيفها ومراجعة التجارب المطبعية الى غاية السحب والتوزيع. ان هذه المهام متعددة ومعقدة خاصة بالنسبة للمبتدئين وكان لا بد على ابراهيم متفرقة من الاستعانة بعمال أكفاء من ذوي الخبرة .

2 . 1 . 3 - العمال :

هل استعان متفرقة منذ البداية بعمال اتراك ام انه استدعى عمالا اجانب ؟ نجد جزءا من الاجابة لدى ثلاثة من المؤرخين الاروبيين من القرن 12 هـ/18م الذين ذكروا ان اعوان المطبعة كانوا اجانب قدموا من اروبا الا ان رواياتهم تضاربت حول اصل هؤلاء فهناك من اورد بانهم قدموا من المانيا (51) وآخر من النمسا (52) وآخر من فرنسا (53) الا ان هؤلاء المؤرخين اتفقوا

---

(49) "Note du P. Holdermann" in Rev bib, 1926 P 8

هناك مصدر آخر يؤكد تفرد متفرقة بهذا العمل وهو قرار السلطان عبد الحميد الاول سنة 1198 هـ/1784م الذي يقضي بإعادة فتح المطبعة والذي ذكر فيه أن متفرقة كلف بمهمة الطباعة .

(50) يقول المستشرق وايل : كان ابراهيم متفرقة ولا شك ابرز الرجلين فهو في الآن نفسه جغرافي وفيزيائي ومترجم ومطبعي وقد بقي الى حد وفاته المدير الوحيد للمطبعة" انظر Well, G, "Die erste Drucke" trad. fr. in IBLA, n 69, 1955, p. 10:

(51) "ذكر سليسيوس في تاريخ المكتبة الملكية بستوكهولم انه تم جلب عمال ماهرين من المانيا الا انهم فروا عند قيام الثورة وبقي ابراهيم مع ابنائه الخمسة يعملون لوحدهم في المطبعة "انظر : Toderini, De la littérature... op cit., p. 21

(52) ذكر سوسير ان الحفارين والمطبعيين قدموا من فيينا الا انهم انسحبو بسبب معارضة الافنديين Saussure, Lettres. op.cit., p.94

(53) يقول مينو "اصطحب محمد افندي (السفير) معه من فرنسا ، وهو من هواة الادب ، بعض المطبعيين الذين قاموا بطبع القرآن في القسطنطينية وكتابا للسنة واخر للنحو التركي . ولكن هؤلاء العمال الذين كانوا سيفيدون شعبا في حاجة الى العلم والنور. قد اضطروا .../...

على ان هؤلاء العمال اضطروا الى مغادرة استانبول اما بسبب ثورة سنة 1143هـ/1730م أو بسبب معارضة العلماء أو الناسخين (54) . ويمكن رغم هذا التضارب الاقرار بان متفرقة استعان بعمال اجانب من ذوي الخبرة لتسيير مطبعته في البداية الا ان هذه المساعدة لم تدم طويلا اذ غادر هؤلاء الاعوان الورشة تاركين مكانهم لعمال اتراك قد يكونون تعلموا على ايديهم واكتسبوا بذلك تجربة في مجال الطباعة ولم يكن هؤلاء الخبراء الوحيدين الذين عملوا بمطبعة استانبول بل ساهم الى جانبهم افراد من الاقليات الدينية والبعثات التبشيرية العاملة بالامبراطورية فقد سبق ان راينا ان الاب اليسوعي هولدرمان قد عمل الى جانب متفرقة في اصدار كتابه وكذلك احد اليهود ويدعى يونس الذي كان ماهرا في فن الطباعة (55) .

ان مشاركة الاروبيين والاقليات الدينية في عملية الطباعة كانت ظرفية في انتظار تدريب عمال مسلمين على استخدام فنون الطباعة الا ان هؤلاء الاخيرين لم يبدوا انضباطا كبيرا وتفان في عملهم الى درجة ان السلطان عبد الحميد الاول تهجم عليهم وعلى طريقة انتدابهم حيث ذكر في نص "خط هما يون" انه من الضروري الا يقع قبول اناس جاهلين وحمقى بالمطبعة او دون ان تكون لهم اية دراية بالعلوم والفنون الجميلة ويجب ان ينتدب المصففون والناظرون وكل العمال بعد استشارة واختيار المطبعيين وأن يمنع دخول الجاهلين والعاجزين اليها بطريق ملتوية بتجنب التدخلات والوساطات"(56) .

ان هذا المصدر ثري بالمعلومات المتعلقة بالعمال الذين اشتغلوا بورشة الطباعة مع متفرقة أو خليفته وقد أثير هذا الموضوع عندما تقرر اعادة فتح المطبعة اي بعد ان توقفت لمدة ثمان وعشرين سنة وذلك لتفادي اخطاء الماضي .ان شهادة السلطان عبد الحميد الاول شديدة اللهجة ولا تعترف بالعمل الهائل والبديع الذي انجزه عمال المطبعة والذي بقيت بعض النماذج من الكتب المطبوعة شاهدا على كفاءة عالية وخبرة متميزة في هذا المجال من ذلك كتاب الجغرافيا "جهان نما" الذي نشر في 1145هـ/1732م والذي احتوى على خرائط بديعة ومهما يكن من امر فان شهادة عبد الحميد الاول مبالغ فيها ولا تعدو ان تكون من تحرير العالمين اللذين طلبا اعادة فتح المطبعة وتحاملا فيها على عمل اسلافهما .

الى القرار تحت ضغط سبعة او ثمانية الاف ناسخ. MIGNOT, Histoire... op. cit., T IV, p. 254.

سنعود الى موضوع "معارضة الناسخين" في صفحة 218 .

(54) سنعود الى هذا الموضوع عند دراسة أسباب توقف المطبعة .

(55) "Note de Holderman" in Rev.Bib. , 1626, p. 8.

(56) Cité in : TODERINI, De la littérature... op.cit., T 3, p. 230.

ويمكن استشفاف طريقة العمل المعتمدة بالمطبعة والتي ترتكز على توزيع المهام بين المطبعيين والناظرين والمصففين والمراجعين والمكلفين بصب الحروف والحفارين ، وقد وصلتنا اسماء بعض المتخصصين العاملين بالمطبعة فالى جانب اليهودي يونس وهو ابرز معاوني متفرقة واليسوعي هولدرمان الذي اشرف على صب الحروف اللاتينية (57) ، توجد اسماء الحفارين الذين ساهموا في اعداد خرائط كتاب الجغرافيا وقد حفروها على لوحات من نحاس وادرجوا اسماءهم في زاوية من زواياها ، مثل احمد الكريمي وميجرديز غلاطيا وابراهيم طوفاني . ولا يعرف العدد الجملي لعمال المطبعة في بدايتها ، الا ان الرحالة ميشو الذي زار الورشة في 1245هـ/1830م ، يذكر عشرة عمال منهم اثنان من المراجعين وستة من المصففين واثنان من المطبعيين (58) .

2 . 1 . 4 - لجنة الرقابة :

ان خط الهمايون الذي اصدره احمد الثالث بشأن المطبعة وكذلك فتوى شيخ الاسلام في هذه المسالة ، يشترطان مراقبة المطبوعات ومراجعة النصوص بدقة قبل سحبها حتى لاتتسرب الاخطاء اللغوية والنحوية ولا "الافكار الهدامة". وبمقتضى ذلك عين احمد الثالث لجنة مراقبة مكونة من اربعة علماء هم اسحاق افندي قاضي الاستانة سابقا وبيرى زاده افندي قاضي سالونيك سابقا واسعد افندي اليانيلي قاضي غلاطيا ، وموسى افندي شيخ مولوية قاسم باشا (59) . وقد اختارهم الباب العالي لكفاءتهم وقدرتهم على أداء هذه المهمة (60) والمتمثلة في اختيار المخطوطات الصالحة للنشر وتفادي بالخصوص اصدار اي كتاب يتعلق بالشريعة والفقه الاسلامي وكذلك يتولى الحكماء الاربعة تحقيق المخطوطات ويتابعون ايضا عملية مراجعة التجارب المطبعية الى حد صدور الكتاب وهذا ما تم فعلا حسب شهادة المؤرخ تودوريني الذي ذكر على سبيل المثال ان لجنة المراقبة اكتشفت اخطاء كثيرة في التجارب المطبعية لمعجم صحاح الجوهري وتسببت في تاخر صدوره (61). ان الحكماء الاربعة هم بمثابة العين الساهرة للباب العالي على شؤون المطبعة اذ يطلعونه على مشاريع النشر ويحصلون على موافقته على طبع كتاب. وهذا الاجراء هو شبيه بما يعرف في اوروبا "بامتياز الطبع"Privilège d'imprimer، حيث أن كل صاحب مطبعة مطالب بالحصول على هذه الرخصة التي تساعد السلطات على مراقبة محتوى النشر وتحمي بالمقابل صاحب المطبعة من مزاحمة

---

(57) ساهم هذا اليسوعي بصفة عرضية في طبع كتاب واحد ولا يمكن اعتباره بالتالي ضمن فريق متفرقة .

(58) Michaud, Poujoulat, Correspondance d'Orient, Paris, Ducollet, 1833-1835 T 3 p.56 -57

(59) انظر خط همايون احمد الثالث في Rev. Bib, 1895., p. 192

(60) Adnan, La science... op. cit., p. 126.

(61) Toderini, De la littérature... op.cit, T 3, p. 25.

المتطفلين على المهنة الا ان الاجراءات في استانبول تذهب الى ابعد من هذا، اذ ان الباب العالي يمنح لكل كتاب رخصة على حدة، وهذا نموذج من طلب هذه الرخصة الذي كان يقدمه ابراهيم متفرقة : " الى معالي الصدر الاعظم حفظه الله اني التمس منكم الترخيص لي في طبع هذا الكتاب الذي اعرضه بين ايديكم وهو ترجمة لكتاب سياح او غزو الافغان وقضاؤهم على امبراطورية الفرس . ان في طباعته ستحصل فائدة للجمهور... العبد الفقير الى ربه ابراهيم" (62).

2 . 1 . 5 - تمويل المطبعة :

من قام بتمويل المطبعة في بدايتها ومن استثمرها ؟ فهل دفع الباب العالي المصاريف اللازمة لتأسيس المطبعة وشراء تجهيزاتها وصرف مستحقات العمال، ام ان المؤسسة كانت تعمل بكل استقلالية ؟ تضاربت المصادر حول هذا الموضوع، فخط الهمايون الذي اصدره احمد الثالث يقضي بان يتكفل ابراهيم متفرقة وسعيد شلبي بكل مصاريف المطبعة . الا ان الوثيقة الثانية وهي خط الهمايون الذي اصدره عبد الحميد الأول ، يذكر بأن خزينة الدولة تولت صرف اجور العمال عند انطلاقة المطبعة. ويفهم من هذه المعلومة ان المصاريف الاخرى تعهد بها المشرفان على المطبعة والمتعلقة بايجاد مبنى خاص بها ، وبشراء التجهيزات وهناك وثيقتان تؤيدان ذلك ، الاولى للرحالة سوسير الذي افاد بانه امام الصعوبات المادية التي اعترضت المطبعة اضطر متفرقة الى ترك المبنى الاول والانتقال الى بيته الذي حوله الى ورشة طباعة (63) وهذا المقر ظل يأوي المطبعة الى سنة 1198 هـ/1784 م ، حيث تحولت المطبعة الى مبنى جديد.

اما الوثيقة الثانية وهي قرار السلطان عبد الحميد الأول ، الذي يقضي بان يتصل المسؤولان الجديدان عن المطبعة محمد راشد وأحمد واصف بارملة قاضي ابراهيم، وهو خليفة متفرقة على راس المطبعة لشراء حروف وآلات الطباعة ، وهذا ما يدل على انها ليست ملكا للباب العالي ، بل هي على ملك المشرفين على الورشة . ان هذه الحروف والتجهيزات تحولت بعد وفاة متفرقة الى قاضي ابراهيم ، ثم بقيت عند ارملة هذا الاخير ولا يستبعد ان يكون متفرقة قد أعدها او اشتراها لحسابه الشخصي ، خاصة وانه رجل ثري اذ يمتلك ضيعات كثيرة ويتقاضى اجرا مرتفعا من طرف الباب العالي(64) .

ان مساهمة الباب العالي في تمويل المطبعة كانت جزئية وظرفية بدليل الصعوبات التي اعترضت صاحب المطبعة، ويضاف الى مساعدة السرايا مساعدة اخرى هامة مصدرها الاوقاف

---

(62) طبع كتاب تاريخ سياح فعلا في 1142 هـ/1729م .

(63) Saussure,Lettres....op. cit., p. 95

(64) يمتلك متفرقة ضيعة كبيرة ويتقاضى 99 قرشا كل يوم ، انظر : Ohsson, M, Tableau... op. cit., p. 301.

وسخاء بعض الاثرياء ممن يرعون ويشجعون العلم والعلماء . وهذا المصدر كان ضروريا لاخراج طبعات للكتب في حلة انيقة وفي مظهر جلاب والتي تتطلب مصاريف باهضة سواء لتصفيف الحروف او لشراء الورق او لحفر الخرائط على لوحات معدنية او تنميق الكتب وغير ذلك .

بقي المصدر المالي الأخير لتسيير المطبعة وهو مداخيل الكتب التي تباع في السوق وتبين أنها لا تغطي المبالغ المالية التي صرفت في النشر خاصة وان اسعار الكتب كانت زهيدة وقد حددت من طرف لجنة المراقبة لتشجيع الاقبال عليها ، وهذا ليس من شأنه ان يوفر مرابيح لخزينة المطبعة .

ان الصعوبات المادية التي اعترضت الورشة جعلت الباب العالي ، لا يقدم على مطالبتها برسوم الاداءات الى حد سنة 1198هـ/1784م ، حيث تقرر منذ ذلك التاريخ ان تدفع المطبعة على كل كراس مبلغ قرش واحد (65) . لقد اصبحت الورشة في نظر الباب العالي بعد مرحلة تجريبية مؤسسة مستقلة ماديا وبامكانها تسيير شؤونها اعتمادا على المداخيل التي تغنمها بعد ان اكتسبت سمعة، وهذا ما يفسر قرار عبد الحميد الاول الذي طالب المطبعيين الجدد بتحمل كل النفقات اللازمة لاعادة فتح المطبعة من جديد. من ذلك البحث عن مبنى جديد لها ودفع اجرة العمال وكل المصاريف المتعلقة بشراء الحبر والورق ودفع الاداءات وبالمقابل يحصل راشد افندي وأحمد واصف على امتياز حق التصرف في مطبعة استانبول .

2 . 1 . 6 المبنى :

ذكر في كل اخر كتاب مطبوع باستانبول انه طبع "بدار الطباعة المعمورة ... في البلدة الطيبة قسطنطنية صانها الله عن الافات والبلية". ان الصفة التي اسندت للورشة الى جانب غموضها لا تتماشى مع المبنى غير المناسب المخصص لها ، وهو بيت مديرها الاول ابراهيم متفرقة ولم نعثر على معلومات تحدد الفترة التي بقي فيها بيت متفرقة يأوي ورشة الطباعة ومهما كان الامر، فانها لا تتجاوز سنة 1198هـ/1784م ، حيث تذكر المصادر ان المطبعة انتقلت من مكانها القديم الى سكوتاري(66) .

ويقدم الرحالة تودريني الذي زار المطبعة اثر اعادة فتحها وصفا غير دقيق لمكوناتها ، فهي تحتوي على اربع قاعات الاولى مخصصة للطباعة وتتضمن آلتين للطباعة والثانية للتصفيف والثالثة لاصلاح التجارب المطبعية والرابعة للارشيف وفي هذه الاخيرة يذكر تودريني أنه شاهد لوحات من

----

(65) قرار عبد الحميد الاول في TODERINI, De la littérature...op. cit., p. 228

(66) MICHAUD, Correspondance... op.cit., T 3, p. 56

تحولت المطبعة الى مقر جديد تنفيذا لقرار عبد الحميد الاول .

النحاس لطبع خرائط كتاب الجغرافيا (67). كذلك ذكر الرحالة ميشو الذي زار المطبعة في 1245هـ/1830م، انها انتقلت الى مبنى اخر في وسط استانبول وهو مبنى ضخم كان عبارة عن حمام عمومي قبل ان تحول اليه آلات الطباعة ويصف الرحالة بعض القاعات ومنها قاعة الاصلاح وقاعة التصفيف والطبع وهذه الاخيرة حسب قول الرحالة بها فضاء رحب وانارة كافية (68).

2 . 2 - آلات الطباعة :

2 . 2 . 1 - مصدر الاحرف العربية :

هناك خلاف حول هذا الموضوع حيث ان المؤرخين الاروبيين يفترضون ان احرف وآلات المطبعة قد جاءت من فرنسا (69) أو هولاندا (70) في حين يذهب البعض الى انها صنعت على عين المكان اي باستانبول.

واذا كانت الوثيقتان الأوليان لا تقدمان حججا عن ذلك، فان الوثيقة الاخيرة تدعم ما ذهبت اليه بشهادات عن ذلك من المطبعيين انفسهم وبمصادر تركية. فقد ذكر تودريني ان مترجم سعيد شلبي اثناء سفارته الى باريس في 1154هـ/1742م، ويدعى لوماكا قد اكد لهذا الرحالة الاروبي ان الاحرف قد تم اعدادها في استانبول (71). كما ان الاب بينيون امين مكتبة ملك فرنسا ارسل خطابا سنة 1142هـ / 1729م الى سعيد شلبي يقول له فيه: "ان الاحرف التي تم حفرها جيدة جدا الى حد اني اصبحت احسدكم، بعد ان ادركت ان تجاربكم هذه شبيهة بما يمكن ان يقوم به عمالنا الماهرين من اصحاب الخبرة الطويلة" (72).

ان هذه الشهادة التي تعبر عن اعجاب صاحبها وهو رجل آداب فرنسي وصديق لسعيد شلبي تؤكد في الآن نفسه ان القوالب وأمهات الاحرف قد وقع اعدادها في استانبول وليس في فرنسا وقد سبق ان راينا الأحرف العربية التي استخدمها السفير الفرنسي سافاري دي براف في القرن 11هـ/17م بروما وباريس قد حفرت كذلك باستانبول.

---

(67) زار الرحالة تودريني المطبعة بعد شهرين من صدور قرار السلطان عبد الحميد اي في 4 ماي 1784م.
Toderini, De la littérature... op. cit., T3 , pp. 232-233

(68) Michaud, Correspondance... op. cit., T 3 pp. 56-57.

(69) Mininski, Lexicon arabico persico-turcicum, Vienne, 1780 cité in Toderini, De la littérature ... op.cit., T 3, p. 13.

(70) "Note de legrand en 1731" in Rev. bib, 1895, p 229 ; Safadi" Arabic... op. cit.," p. 225.

(71) De la littérature... op. cit., T 3 p. 14

(72) Cité in Omont, Missions... op. cit., T 1, pp. 444-445.

هناك مصدر آخر يستنتج منه انه لم يقع الالتجاء الى اي مساعدة اجنبية لاعداد احرف الطباعة، ويتمثل في شهادة الاب اليسوعي هولدرمان الذي عمل مع متفرقة على طبع كتاب النحو التركي بالتركية والفرنسية بعد اربع سنوات فقط من تاسيس المطبعة، حيث انه يعتذر لدى القراء في مقدمة هذا الكتاب عن الاخطاء التي تسربت اثناء طباعة النص الفرنسي، نظرا لجهل العمال الاتراك للغة الفرنسية(73) . وهذا ما يبين ان فريق متفرقة لم يحفر الاحرف العربية، فحسب بل وكذلك الاحرف اللاتينية(74) . ويتناول الاب اليسوعي هذه المسألة من جديد في مذكراته، فيقول ان ابراهيم متفرقة "كلف عمالا لصب الاحرف التركية وبدأ في طبع الكتب" (75) ثم يشير هولدرمان الى دوره في طباعة كتابه :"اني كلفت بعض العمال بصب أمهات الحروف (اللاتينية) في ثلاثة أقسام، ولم تكن جيدة كما اريد ولكن بما ان العمال الذين عملوا معي لا يعرفون البتة اللغة الفرنسية فقد نفذ صبري وأتمنى ان يرضى الجمهور على هذا العمل ويصفح عني بعض الاخطاء التي تسربت اثناء الطباعة" (76) .

يؤكد هولدرمان مرة اخرى ان الاحرف العربية والاتينية، قد تم اعدادها وحفرها بكل تأكيد في استانبول . واذا ما برزت بعض الصعوبات في صب الأحرف اللاتينية، فان الامر يختلف بالنسبة للاحرف العربية ويمكن القول ان مجموعة العمل التي اشرف عليها متفرقة كانت تتقن عملها الى حد انها استطاعت طبع كتاب بلغة اروبية .

أخيرا نشير الى وثيقة اصلية اخرى تبين ان كل العمل قد تم باستانبول، وهي لعبد الحميد الاول الذي اشار الى الدور الذي قام به متفرقة الذي "اعد احرف الطباعة من الحديد والفولاذ والنحاس والرصاص" (77) .

ان هذه المصادر الاخيرة لا تختلف فيما بينها حول مصدر احرف المطبعة فهي تؤكد انها اعدت باستانبول من طرف عمال اتراك ، وهذا امر طبيعي اذا علمنا ان اصحاب مهن المعادن من المسلمين وخاصة الصائغين منهم ، لهم خبرة كبيرة في مجال النقش على المعادن وصب الاشكال

---

(73) مقدمة كتاب النحو التركي لهولدرمان ، القسطنطينية ، 1730 ورقة 3

(74) يتضمن الكتاب نصا فرنسيا مع جمل بالتركية وقد حرص ابراهيم متفرقة على الحصول على الاحرف اللاتينية من باريس لكن دون جدوى الامر الذي دفعه الى حفر الحروف بمطبعته انظر :
"Lettre de Maurepas à Villeneuve du 28 juin 1730 "in OMONT, Missions op. cit., T 1, p. 386.

(75) "Note du P. Holderman sur les débuts de l'imprimerie à Constantinople"

(76) "Lettre du P. Holderman. Galata 5 aout 1730" in :Rev. bib, n 36, 1926, p. 6.

(77) فرمان السلطان عبد الحميد الاول في : TODERINI, De la littérature... op.cit., T 3, p. 224.

المختلفة من الجوهرات وبالتالي فان المسلمين قادرون فنياً على ممارسة فن الطباعة طالما لم تكن هناك عقبات قانونية أو سياسية تمنعهم من ذلك .

2 . 2 . 2 - آلات وتجهيزات المطبعة :

ان المصادر المتوفرة لا تتحدث عن مصدر هذه الآلات والتجهيزات ويمكن افتراض التجاء متفرقة الى مساعدات اجنبية في هذا المجال .

ان الورق كان يستورد من البندقية (78) . اما آلات الطباعة فلا يستبعد أن يكون متفرقة قد اشتراها من الاقليات الدينية داخل الامبراطورية أو انه استوردها من أروبا (79). وكل ما يعرف عن هذه المسالة هو ان المطبعة قد استخدمت في البداية أربع آلات لطبع الكتب واثنتين للخرائط (80) . ثم تقلص العدد في 1199 هـ/1785م الى اثنتين (81) ثم ارتفع الى ستة في 1245هـ/1830م (82) .

3 . مساهمة منشورات استانبول في تنشيط الحياة العلمية والثقافية بالامبراطورية العثمانية :

بالرغم من ان عدد الكتب العربية المطبوعة كان ضعيفا ، فانه من المهم تحليل محتوى كل الكتب باعتبار ان مطبعة استانبول، تعتبر أول تجربة اسلامية في مجال النشر وانها استخدمت ابرز اللغات المستعملة من طرف المسلمين وهي العربية والتركية والفارسية والتي تشترك جميعا من حيث الرسم في انها تستخدم الحرف العربي .

ويعتبر من الاهمية بمكان دراسة التوجهات العامة لاول مطبعة اسلامية في مجال النشر وانشغالات المشرفين عليها واسباب هذه الاختيارات ومدى مساهمة هذه المنشورات في اعطاء حركية جديدة للعمل الثقافي والعلمي داخل الامبراطورية .

3 . 1 - حجم الانتاج واللغات :

3 . 1 . 1 - الانتاج والتوزيع :

---

(78) المصدر السابق ص 236 .

(79) تم استيراد آلات الطباعة في 1245هـ/1830م من باريس حسب شهادة الرحالة ميشو مما يدفعنا الى القول ان الاتراك لم يوفقوا الى حد ذلك الوقت في صنع الآلات بانفسهم. Michaud, Correspondance...op.cit., T 3, p. 56.

(80) "Note de Holderman" in : Rev. bib, 1926 p. 10.

(81) Toderini, De la littérature... op.cit., T 3 p. 215

(82) Michaud, Correspondance... op.cit., T 3 pp.56-57

اصدرت مطبعة استانبول عشرين كتابا منذ ظهورها في 1139هـ/1726م الى ارتقاء السلطان سليم الثالث الى الحكم في 1202هـ/1787م . وهذه الكتب تتناول مواضيع تاريخية (ثلاثة عشر) وجغرافية (اثنان) وعسكرية اصلاحية (واحد) ولغوية ادبية (أربعة) .

ان معدل النشر حسب السنوات كان ضعيفا في هذه الفترة الممتدة على واحد وستين سنة، حيث ان المطبعة تصدر كتابا واحدا كل ثلاث سنوات تقريبا . وهذا المعدل لا يتطابق مع واقع نشاط هذه الورشة التي عرفت فترات نشاط وفترات ركود. ويمكن القول ان هناك ثلاث فترات هامة في حياة المطبعة، الاولى : تمتد من 1138هـ/1726م الى 1158هـ/1746م والثانية : من 1158هـ/1746 م الى 1198هـ/1784م والثالثة : من 1198هـ/1784م الى 1201هـ/1787م .

ان الفترة الاولى كانت مزدهرة فقد شهدت نمو حركة النشر وبلغت الكتب المطبوعة فيها سبعة عشر كتابا في ظرف ستّ عشرة سنة اما الثانية فلم تعرف منذ موت متفرقة الا طبْعة واحدة في ظرف أربعين سنة واخيرا لم تعرف الثالثة سوى ثلاثة كتب .

3 . 1 . 2 - اللغات :

ان اغلب الكتب المطبوعة كانت باللغة التركية. اما البقية فكانت موزعة بين العربية والفارسية والفرنسية وتوجد خمسة كتب ثنائية اللغة منها اثنين بالتركية - العربية وواحد بالتركية - الفارسية وواحد بالتركية - الفرنسية . ان محتوى الكتابين اللذين صدرا بالعربية والتركية ، كانا يتعلقان باللغة والنحو العربيين. فهناك صحاح الجوهري مع ترجمة تركية لوانقولي الذي نشر في 1141هـ/1728م ، وأعيد طبعه في 1170هـ/1756م ، وهناك ايضا اعراب الكافية لابن الحاجب مع ترجمة تركية لزاني زادة طبع في 1199 هـ/1785م .

3 . 2 - محتوى الكتب :

3 . 2 . 1 - مشكلة الاختيار :

ان الخطوط العريضة فيما يتعلق باختيار الكتب المعدة للطبع ، قد تم تحديدها منذ 1139هـ/1726م ب، وهذا بمقتضى خط هما يون السلطان احمد الثالث الذي سمح لابراهيم متفرقة وسعيد شلبي بنشر المجلدات الضخمة التي لا يقبل الناسخون على نسخها ، وهذا مما جعلها نادرة في السوق . ويوضّح نص القرار مضمون هذه الكتب بأنها تلك المتعلقة بالعلوم والآداب مثل المعاجم وكتب المنطق والفلسفة والفلك وغير ذلك ، دون الاشارة الى كتاب القرآن وكتب الاحاديث والفقه وغيرها المتعلقة بعلوم الدين والتي كما رأينا لم يسمح بطبعها لعدة اسباب . اذن كانت مطبعة استانبول في "عهد الخزامي" موجهة لخدمة الفنون والآداب والعلوم على عكس المطابع العربية المسيحية التي حرصت على خدمة الديانة المسيحية .

ان رجال الباب العالي والعلماء كانوا منشغلين بمصير "كتب التراث" التي توشك ان تنقرض ، بعد ان اصبحت نادرة، ويرون في فن الطباعة وسيلة عجيبة ومثالية لانقاذ هذه المؤلفات الثمينة من التلف وبالتالي للحفاظ على المكاسب الاساسية للحضارة الاسلامية . ان المطبعة الاسلامية في القرن 12هـ/18م، كانت موجهة لتوفير الكتب العلمية والادبية العربية بالخصوص واثراء المكتبات وتثقيف القراء .

الا أنه امام وفرة " **كتب التراث** " لدى المسلمين ، فقد كان من الصعب اختيار الانسب للطبع . وقد أوكلت هذه المهمة لمدير المطبعة واعضاء لجنة المراقبة الذين كانوا مطالبين بدراسة مقترحات العلماء (83) ورجال السياسة (84) وحتى الاروبيين (85) . وقد كان المطبعيون يتعاونون تعاونا وثيقا مع الباب العالي الذي تعود اليه الكلمة الفصل في هذه المسألة حيث انه يمنح حق الطبع أو يسحبه حسب رغبته وقد نجح ابراهيم متفرقة في كل مرة في الحصول على هذا الترخيص، ولم يكن الباب العالي ليرفض له طلبه حتى وان تعلق الامر بطبع كتابه المتعلق بالاصلاحات "أصول الحكم" في فترة سياسية دقيقة اتسمت بالتوتر اثر ثورة الانكشارية .

3 . 2 . 2 - كتابات التاريخ :

خصص اكثر من نصف الكتب المطبوعة لهذا المجال ، وتتمثل في ثمانية كتب تتناول تاريخ العثمانيين واربعة كتب تتعلق بتاريخ مصر والفرس وامريكا وتيمورلنك وأخيرا جداول زمنية للتاريخ الاسلامي . انه من المهم التعرف على السبب الذي دفع الناشرين الى طبع هذا العدد الكبير من كتب التاريخ دون تخصيص ولو كتاب واحد لمجالات معرفية اخرى مثل الطب والرياضيات والفلسفة وغير ذلك .ان كتب الحوليات الخمسة كانت من عمل مؤرخي البلاط وهم نعيمة (86) وراشد (87) وشلبي زاده (88) وسامي وشاكر وصبحي (89) واخيرا عزي (90) . وهذه الكتب تغطي حوادث

---

(83) كان المفتي ديماز زاده مثلا يرغب في طبع كتاب في الجغرافيا يكون بمثابة الجزء الثاني لجهان نما لحاجي خليفة الا ان متفرقة الذي يشاطره الرأي لم يتمكن من تلبية هذا الطلب لأسباب مالية انظر : Toderini, De la littérature. op.cit.,T 3,pp. 212-213

(84) سمح الصدر الاعظم ابراهيم باشا لسعيد شلبي وابراهيم متفرقة باختيار المخطوطات من مكتبة السرايا على ان يطبعا الكتب النادرة Gazette de France du 18 janvier 1727, in, Rev bib, 1895, p. 186

(85) مثلما فعل اليسوعي هولدرمان الذي اقترح طبع كتاب النحو التركي وقد تمت الاستجابة لطلبه .

(86) تاريخ نعيمة (من 1001هـ/1592م الى 1070هـ/1659م) القسطنطينية، 1147/1734 م 2 مج .

(87) تاريخ راشد (من 1071/1660م الى 1134هـ/1721م) القسطنطينية ، 1153/1740م 2 مج .

(88) **تاريخ شلبي زاده** (من 1134هـ/1721م الى 1141هـ/1728م) القسطنطينية ، 1153هـ/1740م .

(89) تاريخ سامي وشاكر وصبحي (من 1141هـ/1728م الى 1159هـ/1743م القسطنطينية ، 1199/1784م .

(90) تاريخ عزي (من 1159هـ/1743م الى 1166هـ/1751م) القسطنطينية ، 1199هـ/1784م .

الفترة التاريخية الممتدة من 1001هـ/1592م الى 1165هـ/1751م، اي بداية من حكم السلطان مراد الثالث الى حكم السلطان محمود الاول .

ويتمثل مشروع متفرقة في نشر كامل، تاريخ الاسرة العثمانية ثم بقية التاريخ الاسلامي ، ويعلل سبب اهتمامه بتاريخ الدولة العثمانية بالذات ، بحرصه على ابلاغ المسلمين اخبار انتصارات السلاطين العثمانيين على المسيحيين والتاكيد على شجاعة هؤلاء الامراء. ويقول في هذا الصدد :"لا يمكن لاي احد ان يتجاهل مدى ما وصل اليه سلاطيننا من مجد وشهرة ، نتيجة انتصاراتهم العسكرية الساحقة على الاروبيين . ان هذه البطولات الرائعة هي التي سجلها لهم التاريخ ليبلغها للأجيال القادمة . وهنا يتضح جليا لدى كل مؤمن مدى الفائدة والمتعة التي تحصل له حين يطلع على امجاد وانتصارات أمرائه ويدعو لهم بالثبات والعزة على رعايتهم للمطبعة" (92) .

يتضح من خلال هذه الوثيقة ، ان من جملة الاسباب التي دعت الباب العالي الى الترخيص باقامة مطبعة ، هو توظيف فن الكتابة الجديد لتمجيد الدولة العثمانية ويمكن اعتبار الحوليات المطبوعة ، الى حد ما ، بمثابة وسيلة اشهار سياسية لتدعيم سلطة الامراء العثمانيين .

والى جانب الحوليات توجد كتب تاريخية اخرى سمح بطباعتها، لانها تسير على نفس المنهج مثل "**تحفة الكبار في اسفار البحار**" لحاجي خليفة والذي طبع في 1141هـ/1728م (93) ويتحدث فيه مؤلفه عن الحروب البحرية التي خاضها الاتراك في البحر الابيض المتوسط والخليج العربي، وكذلك في الانهار الاروبية الكبرى مثل الدانوب . ويطنب حاجي خليفة في وصف المعارك البحرية التي انتصرت فيها الاساطيل التركية ليبرز مدى التفوق العسكري للعثمانيين الذين يعتبرهم ملوك البحر .

هناك كتاب تاريخي آخر يسرد بطولات الامراء العثمانيين وانتصاراتهم الباهرة على الالمانيين في ولاية بوسنة ، فيما بين 1149هـ/1736م و 1152هـ/1739م وعنوانه "**احوال غزوات ديار** بوسنة" لعمر افندي . وقد طبع في سنة 1154هـ/1741م (94) اي مباشرة بعد انتهاء هذه الحرب وانتهاء مؤلفه من تحريره .

----

(91) Toderini, De la littérature... op.cit., T 3 p. 213-91.

(92) رسالة وسيلة الطباعة . ص 198=199

(93) تمت ترجمة الكتاب الى الانقليزية من طرف . Michel, J, The history of the maritime wars of the Turks,(CH.I.IV), London, Murray, 1831.

(94) Toderini, De la littérature op. cit, T 3, pp. 78-89.

ولنا ان نتساءل هل اقتصر متفرقة في اختياره على الكتب التاريخية التي تمجد انتصارات السلاطين العثمانيين ، ام انه اختار كتبا اخرى ؟ ان اختيار متفرقة كان على حوليات التاريخ العثماني التي تغطي فترة التراجع والضعف في الدولة والتي بدأت تقريبا بعد موت سليمان القانوني وقد انطفأت فيها جذوة الانتصارات التي حققها الاجداد، ولم يتردد مؤرخو البلاط رغم تعرضهم لبعض امجاد السلاطين في التحدث عن تدهور الاوضاع والثورات والرشاوي والفساد والفوضى التي بدأت تعم الدولة ، اي عن مظاهر الانحلال داخل الامبراطورية (95) .ان كتب التاريخ التي اختارها الناشرون للطباعة لم تكن تمجد السلطة العثمانية فحسب ، بل وكذلك كانت تتعرض لمظاهر الضعف في الدولة. وقد تزامن ظهور هذه الكتب كما رأينا مع ظهور رسائل سياسية تتحدث عن انحطاط الدولة وتدعو للإصلاح (96) . ومن ابرز الامثلة على ذلك نذكر المؤرخ نعيمة الذي تناول بالتحليل في مقدمة كتابه الذي طبع في 1147هـ/1734م، التنظيم السياسي والمالي للدولة العثمانية، اعتمادا على كتاب حاجي خليفة المتعلق بالاصلاح وكان المؤرخ الحلبي يتناول المسالة بفكر نقدي ثاقب ، محاولا ايجاد حلول لحالة الانحطاط التي توجد عليها الدولة (97) .

ان هذه الطريقة تتفق ومفهوم متفرقة للمطبعة التي اراد تسخيرها، لبث بعض الافكار الاصلاحية . فهو يريد طبع الكتب التاريخية ليس فقط لتمجيد السلاطين العثمانيين بل وكذلك لاصلاح الحالة السياسية المتعفنة التي صارت اليها الامبراطورية بعد ثورة 1143هـ/1730م . وهو يبين هدفه من نشر ابرز الاحداث التاريخية التي وقعت في العالم الاسلامي : "كنت أحيانا اتوقف عند بعض كتب التاريخ وأفكر في النكبات التي حلت بالملوك وما نتج عنها من زوال ملكهم، ولاحظت ان كل هذه التغييرات والتقلبات والثورات التي حصلت في قصور الامراء والدول الاسلامية بمشيئة الله تعالى، كان لها اطيب الاثر، بما انها تسببت في عودة العمل بقوانين الشريعة الاسلامية ودعمت سلطة الملكية وارجعت الحقوق لأصحابها واقرت العدل بين الناس ونشرت الطمأنينة والامن في المجتمع واجرت اصلاحات دينية داخل الممالك من أجل تنقية العقيدة من كل الشوائب" (98) .

ان التاريخ حسب ابراهيم متفرقة من شأنه ان يعلم الامير الحكمة حتى تسير امور الدولة بتبصر وينشر العدل وبذلك يتفادى الثورات والهزائم العسكرية وينأى بالمملكة عن الهزات والانقلابات . ان ثورة الانكشارية التي اطاحت باحمد الثالث ورفعت الى سدة الحكم محمود الاول،

---

(95) تمت ترجمة الكتاب الى الانقليزية والى الفرنسية Fraser, C, history of the war in Bosnia London, 1839.
Cardonne"Histoire de la güerre de Bosnie, (B.N. ; mss. or. suppl. turc. n 930).

(96) المصدر السابق ، ص 335 .

(97) لم يصل مؤرخو البلاط الذين جاؤوا فيما بعد الى نفس مرتبة نعيمة اذ اقتصروا على سرد الوقائع وعرض الوثائق الرسمية .

(98) متفرقة اصول الحكم ، ترجمة ريفسكي . Reviczki, Traité... op. cit., pp. XXXIII-XXXIV.

كانت علامة ضعف في الدولة العثمانية وتنذر بسقوطها وبالتالي ، فان الحل يكمن حسب مدير المطبعة في اعادة تنظيم جهاز الدولة وتبني سياسة اصلاحات . إنّ جلّ كتب التاريخ التي طبعت كانت تغطي فترات ضعف الامبراطورية ويرمي متفرقة ومن خلفه على راس المطبعة من وراء ذلك ، الى دعوة الباب العالي الى التفكير في الوسائل الكفيلة للخروج من حالة التدهور وقد لجأ المطبعيون لهذا الغرض الى نشر كتب تاريخ الدول المجاورة مثل فارس وكذلك الى فترات مظلمة من التاريخ الاسلامي مثل حروب تيمورلنك لدفع الامراء الاتراك والمسلمين الى التأمل في مصير الدول الاسلامية السابقة .

ان طبع الكتاب المتعلق بتاريخ بلاد فارس في 1142هـ/1729م (99) وعنوانه "تاريخ سياح" كتبه الاب اليسوعي البولوني تادي كريزنسكي (100) ويتحدث فيه عن حروب الافغان مع الفرس وسقوط الدولة الصفوية بفارس بعد حكم طويل دام مائتين وثمان وعشرين سنة . ويدلي المؤلف بآرائه حول تدهور الوضع ببلاط فارس ، ويذكر ان السبب في ذلك هو استبداد الملوك الاوائل وتعاطي الرشاوي داخل جهاز الحكم والصراعات الداخلية بين الامراء والتي ادت الى ضعف الدولة وتقسيمها ومن الاسباب ايضا عدم تطبيق قوانين الشريعة واباحة شرب الخمر ومنع القيام بمناسك الحج .

اهتم متفرقة بتاريخ الفرس وهم الد أعداء العثمانيين، ونشر هذا الكتاب عند بداية الصراع بين البلدين في 1142هـ/1729م والذي تسبب في ثورة 1143هـ/1730، التي اطاحت بالسلطان ووزيره . ويلقي هذا الكتاب الاضواء على التحولات السياسية التي حدثت بفارس، الامر الذي مكن الباب العالي من مزيد التعرف على عدوه اللدود . ويرى المشرفون على المطبعة ان الكتاب مفيد نظرا للتحليل الذي قدمه صاحبه حول اسباب سقوط الدولة الصفوية التي قد تكون عبرة لكل الامراء في العالم ويرى متفرقة في الكتاب دعامة اخرى لآرائه الاصلاحية .

اما تاريخ تيمورلنك لاحمد بن عربشاه (101) والذي ترجمه الى التركية نظمي زاده افندي وطبع في 1143هـ/1730 ، فلم ينشر لتمجيد اعمال تيمورلنك ولكن لتشويه سمعة هذا القائد والتنديد ببطشه ووحشيته . فهو الذي اهان كرامة امراء العائلة العثمانية ، اذ سجن السلطان بايزيد

---

(99) Toderini, De la littérature... op. cit, T 3, pp 36-43 ; voir également Gercek, Turk... op. cit., p. 64.

توجد ترجمة فرنسية مخطوطة لهذا الكتاب بالمكتبة الوطنية بباريس :

Choquett, J. V, "Histoire des révolutions de Perse" (B. N. mss. or. suppl. turc. 877.)

(100) قضى هذا المبشر اليسوعي خمس سنوات ببلاد فارس بصبهان قبل تأليف كتابه باللاتينية .

(101) طبع هذا الكتاب لاول مرة بالعربية في مدينة ليدا بهولندا باشراف المستشرق غوليوس سنة 1045هـ/1636م .

الاول يلدرم . ويحكي المؤلف بعض الروايات عن تيمورلنك التي تخيلها اعداؤه ، لاهانته واحتقاره. وهذا الكتاب طبع على ما يبدو لحمل الامراء العثمانيين إلى الحرص على الحفاظ على المكاسب التي ضحّى من أجلها آباؤهم واجدادهم .

وخلاصة القول هو أنه تمّ اختيار أكبر عدد ممكن من كتب التاريخ لطبعها لسببين هما : اولا تمجيد اعمال السلاطين العثمانيين وثانيا محاولة فهم مظاهر الضعف التي بدأت تدب في الدولة العثمانية والدعوة الى التفكير في اسباب هذا الانحلال وطريقة معالجته. وفي كلتا الحالتين، فان المطبعة الاسلامية الاولى، كانت في خدمة السرايا فهي تدعم سلطتها من جهة من خلال هذا "الاشهار" السياسي المستمد من شرعيتها التاريخية وتدعوها الى الحذر واتخاذ التدابير العاجلة لضمان استمرار الدولة ، وقد ذهبت المطبعة اكثر من ذلك ، اذ اصدرت كتابا تدعو فيه الى اجراء اصلاحات عسكرية .

3. 2. 3 . اصلاحات عسكرية :

عنوان هذا الكتاب هو "اصول الحكم في نظام الامم" لصاحبه ابراهيم متفرقة الذي طبعه في 1144هـ/1731م ، ويتحدث فيه المؤلف عن ضرورة اتباع الفنون العسكرية الحديثة التي توصل اليها المسيحيون باروبا الغربية وقد اتيحت له فرصة التعرف على هذه الفنون من خلال اطلاعه على كتب لاتينية واستشارته لخبراء عسكريين اروبيين (102) ، وهو يريد من خلال هذا الكتاب ابلاغ نتائج اتصالاته وقراءاته الى الجمهور وعرض آرائه حول الموضوع. الا ان الكتاب كان موجها بالدرجة الاولى، وكما يذكر مؤلفه في المقدمة ، الى السلطان والوزراء والديوان وكبار المسؤولين في الباب العالي بغرض اقناعهم بجدوى آرائه ومخططاته (103) .

تكمن أهمية الكتاب في انه صدر على اثر ثورة الانكشارية حيث وجد المؤلف الفرصة ملائمة للاصداع بافكاره الاصلاحية، فهو يقول "اتجهت عنايتي اثناء هذه الاضطرابات الى البحث عن اسباب هذه الثورة الفجئية ، وحرصت على التعرف عن جذور هذه الآلام ولم اتردد في ارجاع هذه المصائب الى سوء تطبيق قوانين الدولة والى عدم اكتراث الوزراء وكبار موظفي الدولة التام بشؤون الامبراطورية واهمالهم وقلة انضباطهم عند القيام بواجباتهم" (104) .

---

(102) اصول الحكم ترجمة ريفيسكي ص Reviczki, Traité...op. cit, p. XL

(103) مصدر السابق ، ص XLII .

(104) المصدر السابق ، ص XXXII

لم يتردد متفرقة في توجيه نقد لاذع للمسؤولين السابقين في الدولة والذين كان يعمل معهم ويتجه، من خلال تحليله عن اسباب الثورة ، الى القيادة الجديدة في الدولة ليدعوها الى تفادي أخطاء الماضي وخاصة ليقترح عليها اجراء اصلاحات عسكرية فورية لارجاع هيبة الدولة ووضع حد لحالة عدم الاستقرار التي مرت بها الدولة ويقول متفرقة : "لقد برز الخلل داخل الجيش في هياكله وتنظيماته، ولم يعد بالإمكان اليوم اتباع هذا النمط، اذ ان الإبقاء على العيوب العديدة التي يتسم بها الجهاز العسكري، سيؤدي الى الانهيارالكامل للبلاد. واذا فوتنا الفرصة فلن ينفع الندم بعد ذلك" (105) . ان التنظيم العسكري التقليدي للعثمانيين قد تجاوزه الزمن وينبغي حسب متفرقة مراجعته واعادة النظر في هياكله حسب النموذج الاروبي الغربي. ومن هنا انطلق المؤلف يستعرض في كتابه مختلف النظم التي تتبعها الجيوش الاروبية والقوانين التي تنظمها . وقد ألح المؤلف منذ البداية على ضرورة تحلي كل الجنود بالانضباط والتفاني لما في ذلك من فوائد عظمى (106) .

ان متفرقة كان داعية للاصلاح السياسي ووجد في الكتاب المطبوع، اداة اساسية للتعريف بأفكاره وتبليغها بالخصوص الى الباب العالي . وقد أذن السلطان الجديد محمود الاول بطبع كتاب "**اصول الحكم في نظام الامم**" الذي قد يكون دعامة نظرية لاعادة تنظيم فرق الانكشارية التي عرفت اضطرابا كبيرا وغليانا متزايدا أدّيا في النهاية الى الانتفاضة وعزل السلطان احمد الثالث . ان المطبعة استخدمت لتبليغ سياسة الباب العالي وكانت بمثابة منبر يتحدث منه بعض كبار المسؤولين في الدولة واداة دعاية سياسية لتمجيد اعمال الامراء العثمانيين او اعادة تنظيم الدولة واصلاحها حرصا على استمرار حكم امراء ال عثمان (107) .

3. 2 . 4 - كتب الجغرافيا :

اصدرت مطبعة استانبول كتابا في الجغرافيا لحاجي خليفة عنوانه : جهان نما (اي : مرآة العالم) ويعتبر تحفة فنية رائعة لمطبعة استانبول التي اصدرته في 1145هـ/1732م (108). ويحتوي هذا الكتاب على وصف لقارة آسيا الى الحدود الشرقية للإمبراطورية العثمانية. الا ان مؤلفه لم يكمله بعد أن بدأ تاليفه منذ 1065هـ/1654م . وكان حاجي خليفة قد اطلع قبل ذلك على

---

(105) المصدر السابق ، ص 58

(106) يقول متفرقة في "**اصول الحكم**" ص 58 : "ان نقص النظام وانعدام الانضباط في جيوش الملوك والامراء في الماضي كان سببا في ثورات ضخمة ومصاريف باهضة بل ان ذلك تسبب في كثير من الاحيان في افراغ خزينة الدولة" .

(107) اصدرت مطبعة استانبول ايضا كتابا آخر في التاريخ عنوانه "**تاريخ هند غربي**" (أي تاريخ امريكا) ، طبع باللغة التركية في 1142هـ/1729م ويهدي مؤلفه الكتاب الى مراد الثالث في 990هـ/1583م، وقد يكون هذا المؤلف محمد بن عامر الحسن المسعودي انظر : Adnan, La science... op. cit., p. 74.

(108) يحتوي هذا الكتاب على اربعين خريطة

اطلس مينور للكاتب مركاتور وجغرافية ابراهيم اورتيليوس واستعان بعديد الكتب الجغرافية الاروبية لكتابة جهان نما (109) . وتولى متفرقة تنقيحه ومراجعته قبل طبعه بطلب من محمود الاول الذي اراد التعرف بدقة على ممتلكاته الشاسعة (110) ، وتم طبعه من طرف جغرافيين خبراء في تحديد الاماكن ورسم الخرائط بكل دقة (111) .

يهدف الكتاب الى اعلام رعايا الدولة وايضا جيرانها واعداءها بمدى اتساع رقعة الامبراطورية، الا ان متفرقة لا يرمي فحسب الى الوصول الى هذا الهدف بل ان له هدفا اخر للجغرافيا عرضه في كتابه "**اصول الحكم**"، حيث انه بدأ بتقديم تعريف للجغرافيا على انها علم معرفة الارض والرجال والعادات والأمم ومواقع البلدان وحدود الأماكن (112) . ويضيف متفرقة فيقول بأنها ضرورية لجهاز الجيش لانها تمكن القواد من معرفة بلاد العدو وشبكة الطرقات الأمر الذي يمكن الجيش من التدخل بسرعة واخذ الأماكن الاستراتيجية في الجبهة (113) . ان الجغرافيا كذلك مفيدة حسب العالم المجري للاسفار البرية منها والبحرية، اذ تتفادى القوافل المسالك الوعرة والعقبات والفخاخ . اما السفن فبالاستعانة بالخرائط وكتب الملاحة يمكنها ان تشق اعسر الطرق البحرية (114) . وهذا العلم يمكن من الحصول على معلومات عن الشعوب الاسلامية الاخرى خارج الامبراطورية العثمانية (115) . وتمكن المسلمين بصفة عامة من الوقوف على ضعفهم وتفرقهم فيسعون الى توحيد صفوفهم والجهاد ضد العدو المسيحي (116) . لقد قدمت الجغرافيا خدمات جليلة للاروبيين الذين استقروا بالعالم الجديد، وتمكنوا ايضا من التنقل بحرية وسهولة عبر البحار والبراري (117) .

---

(109) Adnan, la science... op. cit, p 110

(110) Gerçek, Turk... op. cit ., p. 76.

(111) Toderini, De la littérature... op. cit., p. 126

(112) متفرقة، **اصول ترجمة ريفسكي** ، ص 93

(113) المصدر السابق ، ص 93

(114) المصدر السابق ، ص 102-103

(115) المصدر السابق ، ص 99

(116) المصدر السابق ص 107

(117) المصدر السابق ص 107 . ان متفرقة يسعى الى اقناع الاتراك بضرورة الاهتمام بعلم الجغرافيا للاستفادة منه نظرا لجهلهم لأبسط المعلومات الجغرافية من ذلك هذه القصة الطريفة التي اوردها البرون دي توت والتي لا تخلو من مبالغة : دعا الاميرال التركي سفير البندقية لزيارته على ظهر الباخرة واثناء الحديث سال الاميرال ضيفه ان كانت جمهورية البندقية مجاورة لروسيا فاجابه الديبلوماسي : نعم ولا توجد بينهما سوى الامبراطورية العثمانية : De Tott, le Baron, Mémoires sur les Turcs et Tartares, Amsterdam, 1785, 3e partie p. 10

ويفسر متفرقة كذلك العلاقة الموجودة بين عنوان كتاب حاجي خليفة **"مرآة العالم"** والمفهوم الذي يحمله عن الجغرافيا : فيقول "ان الجغرافيا في الحقيقة مرآة مصقولة نستطيع من خلالها ان نرى بوضوح كل الشعوب والأمم المنتشرة على الكرة الارضية وكذلك احوالهم ودياناتهم" (118) . ويبين كذلك التكامل بين التاريخ **"الدليل الوفي للعقل"** والجغرافيا التي تعتبر اساس دراسة التاريخ اذ انها توفر الوسائل وتذلل الصعوبات للوصول الى هذه المعرفة .

يؤكد ابراهيم متفرقة على ضرورة الاستعانة بخرائط دقيقة يتولى اعدادها جغرافيون عارفون بسكان تلك الاقاليم ولهذا فقد اعد لوحده عديد الخرائط الجيدة لكتاب **"جهان نما"** الذي نمقه وزينه بكثير من الخرائط، واضاف اليه معلومات كثيرة من ذلك تعريف بنظام كوبرنيك في مقدمة الكتاب والنظرية الفلكية الحديثة لادموند بورشو (119) .

ان المطبعة بهذا الاسلوب وحسب المشرفين عليها، تمكنت من نشر العلوم الحديثة وخاصة تلك التي توصّل اليها المسيحيون باروبا الغربية وبالتالي فهي تثقف وتعلم المسلمين على اوسع نطاق .

بقي ان نشير الى كتاب آخر له علاقة بالجغرافيا وعنوانه **"فيوصات مغناطيسي"** حول استعمال البوصلة وقد طبع في 1144هـ/1731م (120) ، وهو عبارة عن منتخبات من كتب لاتينية جمعها متفرقة ويتحدث فيها عن البوصلة وفائدتها للسفن والبواخر التي تنير سبيلهم في البحر وتمنع البحارة من ان يضلّوا الطريق .

3 . 2 . 5 - النحو واللغة :

اصدرت مطبعة استانبول اربعة كتب نحوية ولغوية وتتمثل في معجمين لغويين، الاول عربي تركي والثاني فارسي - تركي وكتابين في النحو الاول عربي ، تركي والثاني تركي ، فرنسي .

ان معجم صحاح الجوهري، بترجمته التركية التي قام بها مصطفى الواني المعروف بوانقولي كان اول كتاب يصدر باستانبول : في 1141 هـ/1728 م (121) ، ويعاد طبعه في 1170هـ/ 1756م . ويحتوي الكتاب في البداية على رسالة في النحو العربي ثم المعجم العربي - التركي وفيه تفسير لكل الكلمات العربية بالتركية ثم استشهاد بابيات شعرية واقوال وحكم لابرز المؤلفين العرب. ويعتبر معجم الجوهري من ابرز المعاجم العربية مما جعل الاتراك يقدمون على ترجمته ثم طبعه

---

(118) متفرقة "اصول الحكم "نفس المصدر ، ص 100-101 .

(119) Adnan, La science... op. cit., pp. 133-134.

(120) Toderini, De la littérature ...op. cit., T 3, pp. 112-118.

(121) المصدر السابق ، ص 23 .

مبكرا (122) . فكان ان قام وانقولي (توفي في1000هـ/1592م) بترجمته الى التركية (123) وحرص المشرفون على مطبعة استانبول على تدشين هذه المؤسسة باصدار هذا الكتاب القيم الذي اعيد طبعه بعد ذلك (124) .انه من جملة اهداف المطبعة وضع ادوات العمل الرئيسية لدراسة الادب واللغة على ذمة المتعلمين والعلماء فكان هذا المعجم الضخم، وكذلك رسالة في النحو عنوانها "اعراب الكافية" لابن الحاجب التي طبعت مع ترجمتها التركية لزاني زاده في سنة 1200هـ/1785م (125). كما صدر معجم لغوي فارسي تركي **"فرهنك شوري"** ومؤلفه مجهول في سنة 1155هـ/ 1742م. وهذه الكتب كلها جيدة وتساعد العلماء على الكتابة باللغة التركية التي كانت تحتوي على كثير من الالفاظ استعارتها من العربية والفارسية . ان اللغة العربية كانت محل تقدير من طرف العلماء الاتراك والباب العالي، نظرا الى انها لغة القرآن الكريم والحديث الشريف وهي كذلك لغة التعليم الديني في المدارس، ولان اغلب كتب التراث الاسلامي مدون باللغة العربية وهذا ما يبرر حرص المشرفين علي المطبعة على اصدار معجم لغوي على غاية من الأهمية. ويقول متفرقة في هذا الصدد : " ان معرفة اللغة العربية ضرورية بالتأكيد لكل من يريد قراءة الكتب الموجودة لدى امتنا ويستفيد منها. فهي اللغة التي كتب بها كل ما يتعلق بالعلوم والفنون ولا نستطيع بلوغ هذا الهدف ، الا بالاستعانة بالمعاجم التي يمكن نسخها بواسطة الطباعة باعداد وافرة ، هذا بالاضافة الي امتياز تنفرد به وهو انها تضدر بدون أخطاء" (126).

ان كل من يتقن اللغة العربية يستطيع ان يطلع على كل التراث الفكري المكتوب للمسلمين، هذا علاوة على انها اعارت الكثير من الالفاظ الى التركية التي هي اللغة الرسمية للإدارة العثمانية. وباستثناء كتب اللغة فان بقية الكتب التي طبعت في استانبول في القرن 12هـ/18م، كانت باللغة التركية . ان المعاجم وكتب النحو العربية منها والفارسية، انما طبعت لانها تساعد على حذق ودراسة اللغة التركية التي استعارت في تلك الفترة قرابة نصف الفاظها من هاتين اللغتين (127).

---

(122) اعتمد المستشرق الهولندي يعقوب غوليوس ايضا على هذا المعجم لاعداد معجمه العربي اللاتيني الذي طبع في ليدا في 1063هـ1653م.

(123) حاجي خليفة ، **كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون استانبول** ، وكالة المعارف ، 1943 مجلد 2 ص 1071 ، مقال صحاح اللغة .

(124) Gercek, Turk... op. cit ., p. 93

(125) Toderini, De la littérature... op.cit., T 3 p. 240, Schnurrer, Bibliotheca... op.cit.,n 124.

(126) متفرقة، رسالة وسيلة الطباعة ، ص 197 .

(127) وردت في بعض مطبوعات استانبول استشهادات بايات قرآنية واحاديث نبوية شريفة في لغتها الاصلية اي بالعربية .

بقي ان نشير الى ظهور كتاب في النحو التركي بالفرنسية والتركية طبع في 1143هـ / 1730م، ومؤلفه الاب اليسوعي يوحنا هولدرمان الذي الف هذا الكتاب لفائدة التجار الفرنسيين، كما ذكر ذلك في المقدمة، ليتعلموا اللغة التركية. ولا شك ان العلاقات الطيبة التي تربط الامبراطورية بالدولة الفرنسية ساعدت على انجاز هذا العمل وكان هولدرمان ينوي اصدار كتاب النحو الارمني. الا ان موت الصدر الاعظم ابراهيم باشا داماد، حال دون ذلك وهذا الوزير كما رأينا كان متفتحا على الغرب ولم يتردد مع ابراهيم متفرقة في وضع المطبعة على ذمة الاروبيين . ان المطبعة جاءت من الغرب واستخدمت للتعريف بالعلوم والفنون والاكتشافات [illegible]ية مثل كتاب "**جهان نما**" و "**فيوصات مغناطيسي**" و"**أصول الحكم في نظام الامم**" .

ان محتوى منشورات مطبعة استانبول كان مخصصا لموضوعات التاريخ والجغرافيا واللغة والاصلاح العسكري، ولم يكن متعلقا البتة بمواضيع الفقه والشريعة الاسلامية. وقد حصلت كتب التاريخ على نصيب الاسد من جملة هذه المنشورات ، وهذا الاختيار يعكس رغبة الباب العالي في التعريف بانتصارات الامراء العثمانيين وتمجيد انجازاتهم لتدعيم سلطة الدولة وابراز شرعية الاسرة الحاكمة. ولئن كان ابراهيم متفرقة يتفق ولو ظاهريا مع الباب العالي في تحقيق هذا الهدف فانه يرمي بالخصوص الى استغلال هذه الكتب التي تتحدث عن فترة ضعف وتدهور الدولة العثمانية أكثر من ان تشير الى عظمتها لاقناع الامراء العثمانيين بضرورة أدخال الاصلاحات اللازمة والعاجلة وخاصة اعادة تنظيم الجيش والاستفادة من تجربة الغرب في هذا المجال. هذا بالاضافة الى النهل من علومهم وفنونهم حتى يبقى المسلمون في موقع قوة وفي مستوى المواجهة الحضارية مع أروبا الغربية .

ان المطبعة كانت منبرا للخطباء المصلحين العاملين مع الباب العالي وكذلك وسيلة اعلام واشهار سياسي وقد اسست هذه الورشة بمبادرة من الباب العالي وكبار المسؤولين السياسيين وكانت تعمل تحت اشراف رجال سياسة لخدمة اغراض سياسية اكثر منها علمية وثقافية . هذا ما يمكن استنتاجه من خلال دراسة محتوى جل الكتب المطبوعة . بقي ان نتساءل الآن كيف تلقى المسلمون هذه المنشورات وكيف كانت ردود فعلهم ؟

3 . 3 صدى منشورات استانبول :

3 . 3 . 1 - وجهة هذه المنشورات :

لقد كانت نية مؤسسي المطبعة تتمثل في توزيع هذه الكتب في أوساط المسلمين سواء رعايا الدولة العثمانية ام لا. فقد ورد في "رسالة وسيلة الطباعة" انه ينبغي ان تصل الكتب الى كل الولايات والاقاليم وكل المدن والقرى داخل العالم الاسلامي، وانه بفضل وفرة الانتاج المطبعي، فان

المتعلمين المسلمين سيتمكنون من اقتناء الكتب بأسعار زهيدة وستؤسس مكتبات عمومية في كل المدن لتقريب الكتاب المطبوع الى عامة الناس، وبذلك يبتعد هؤلاء عن ظلمات الجهل (128) . ان مدير مطبعة استانبول كان ينظر الى مشروعه على انه عنوان الرقي والتقدم العلمي والثقافي ؛ لان المطبعة ستنمي ذوق القراء وتدفع بأفواج جديدة للمطالعة وتضع حدا لنقص الكتب. ولكن ماذا عن حقيقة الامر على ارض الواقع ؟ وهل وصل اصحاب المطبعة الى مبتغاهم السامي ؟ وماهي نسبة توزيع الكتب المطبوعة باستانبول في اوساط المتعلمين وماهو صدى المطبعة عندهم ؟

3. 3. 2 - توزيع الكتب :

انه من الضروري التعرف على بعض الارقام المتعلقة بعدد النسخ التي سحبت بالمطبعة وعن أثمانها. وقد وصلتنا ارقام عن عملية السحب بالنسبة لثلاثة عشر كتابا فقط (129). فقد وقع سحب الف نسخة بالنسبة "**لصحاح الجوهري" وتحفة الكبار في اسفار البحار**". في حين عرف كتاب "تاريخ سياح" اكبر عملية سحب، اذ طبعت منه الف ومائتا نسخة. وبعد هذه الانطلاقة الجيدة انخفضت نسبة السحب الى النصف ، حيث طبعت خمسمائة نسخة فقط من كل كتاب من جملة الكتب العشرة الاخرى وهي : **تاريخ هند غربي وتاريخ تيمورلنك وتاريخ مصر وكلشان خلفاء والنحو التركي واصول الحكم وفيوصات مغناطيسي وجهان نما وتقويم التواريخ وتاريخ نعيمة.**

ولا نمتلك معلومات حول اسباب هذا الانخفاض في ارقام السحب خاصة وان المطبعة لا تزال في بدايتها، وانها تطمح الى تلبية حاجيات كل المسلمين من الكتب الاساسية . ان عدد الف ومائتي نسخة عن كل كتاب يعتبر قريبا من الاعداد المتعامل بها في المطابع الاروبية في نفس الفترة. الا ان انخفاض نسبة السحب يعتبر مؤشرا لصعوبات اعترضت المطبعة .

اما عن اثمان هذه المنشورات فلم تصلنا معلومات الا عن الكتب الثمانية الاولى . فمعجم الجوهري في مجلدين ضخمين ثمنه ثلاثون قرشا . في حين ان السبعة كتب الأخرى كان سعرها موحدا وهو ثلاثة قروش (130) . وعلى سبيل المقارنة كان معجم الصحاح يباع مخطوطا بثلاثمائة قرش (131) ويعني ذلك ان هذا المعجم يباع مطبوعا بعشر ثمنه مخطوطا . وهذا لا يدع سبيلا

---

(128) رسالة وسيلة الطباعة ص 189 .

(129) GERCEK, Turk... op. cit ., p. 84-85.

(130) "Note du P. Holderman, 1731" in Rev. bib, n 36 1926, p. 6 et 9.

(131) "Nouvelles de Constantinople du 15 mars 1729" in Rev. bib, 1895.

للمقارنة بين أسعار الكتب المخطوطة منها والمطبوعة (132) . وكل ذلك يدفع القراء للاقبال على انتاج المطبعة انّ انخفاض الاسعار بهذا الشكل، كان ثمرة استخدام فنيات الطباعة التي انتجت عددا كبيرا من الكتب. الا ان العمل بهذه الاسعار المنخفضة، لم يدم طويلا اذ اضطر متفرقة، نتيجة الصعوبات المادية التي لاقاها، الى الرفع في الثمن. وقد تعرض الرحالة سوسير في سنة 1145هـ/1732م، الى هذه النقطة حيث اشار الى : "ان عدد الكتب التي باعها ابراهيم افندي ضئيل، وهذا الامر ليس غريبا اذا علمنا ان الاتراك الذين يجيدون القراءة غير كثيرين، وان غالبيتهم لا يرغبون في المطالعة ولا يميلون البتة الى الكتب وهذا ما اجبر ابراهيم على بيع كتبه بأسعار جد باهضة. وقد اشتريت نسخة من كتاب النحو التركي الفرنسي بمبلغ سوكين واحد فندقي او ديكات واحدة ولم يكن ليساوي عشرين صولا لو انه طبع بفرنسا او هولندا" (133) .

ان السبب في غلاء المنشورات حسب هذه الشهادة، يعود الى قلة المبيعات وبقاء الكتب متراكمة في مخزن المطبعة ، فكان اول اجراء اخذه مدير المطبعة هو رفع الاسعار لتغطية العجز في ميزانية المؤسسة . ان المطبعة تتطلب راس مال هام اذ ان مشروع النشر يستدعي صرف اموال كثيرة لشراء التجهيزات ودفع اجور العمال وفتح نقط بيع في اماكن مختلفة لمزاحمة المخطوط. ولهذا لم يقدر على تسيير المطابع باروبا الا البورجوازيون وهم فئة اجتماعية ثرية وصاعدة. ولكن تبين ان مطبعة استانبول لم تسع الى توزيع كتبها خارج حدود العاصمة ولم تفكر في جني مرابيح طائلة من وراء انتاجها. بل انها لم تحرص حتى على تغطية النفقات . فالرجلان اللذان اسسا المطبعة وهما ابراهيم متفرقة وسعيد شلبي لم يكونا من الاثرياء ، بل كانا موظفين ساميين في الدولة العثمانية ، توليا اقامة المطبعة بمساعدة الباب العالي. وهذه المساعدة كانت غير قارة ومستمرّة اذ كانت تخضع لأهواء ومشاغل كل سلطان، ولئن وجدا الدعم الكامل من طرف احمد الثالث ووزيره فان الامر تبدل بعد ثورة الانكشارية ، اذ انصرف السلطان الى حل المشاكل المطروحة بحدة على الدولة ولم يعر أهمية كبيرة للمطبعة وهنا يمكن تفسير الحالة المالية المتردّية لهذه الورشة . ولم يكن كتاب النحو التركي المثال الوحيد الذي تحدثت عنه المصادر، بل لا يمكن اعتباره معيارا لضبط النزعة الجديدة نحو رفع اسعار المنشورات التي سلكها متفرقة خاصة وان هذا الكتاب موجه الى صنف خاص من القراء وهم التجار الفرنسيون ، وبالتالي فان المسلمين لا يعنيهم هذا الكتاب ، لذلك لم يقبلوا على شرائه . وهناك مثال آخر عن كتاب موجه الى القارئ المسلم ورغم ذلك فان ثمنه

----

(132) ذكر السلطان عبد الحميد الاول انه يمكن شراء كتب مطبوعة بعشرين او ثلاثين قرشا في حين ان نفس الكتب تباع مخطوطة بثلاثمائة قرش : قرار السلطان في 1198 هـ/1784م" ترجمة تودريني ، ص 224-225 .

(133) Saussure, Lettres... op. cit., p. 95

باهض وهو كتاب الجغرافيا "جهان نما" الذي صدر في 1145هـ/1732م، حيث اشار الى ذلك سفير فرنسا لدى الباب العالي في رسالة إلى أمين مكتبة ملك فرنسا (134) وهذا الغلاء في الاسعار يتناقض مع روح القرار الذي اصدره احمد الثالث لانشاء المطبعة . وكذلك رسالة وسيلة الطباعة لمتفرقة حيث لم يكن الكتاب المطبوع في استانبول في متناول القراء ، الامر الذي لم يشجعهم على اقتنائه . وكان من نتائج هذا الكساد في البيع انخفاض رقم سحب الكتب التي طبعت فيما بعد. ولكن رغم ذلك فقد تراكمت المطبوعات في المخازن ولم تجد طريقها الى القراء (135) . فكان أن وجد ابراهيم افندي القاضي خليفة متفرقة عددا كبيرا من الكتب غير المباعة (136) .

ولنا ان نتساءل عن اسباب هذا الكساد في بيع كتب استانبول رغم ما تتميز به من طباعة أنيقة وخط جميل ودقة في النص الاصلي واحتوائها على اشكال وخرائط جيدة وثمن في متناول المتعلم العادي ، وكذلك ما هو صدى هذه المنشورات بين المسلمين ؟

3 . 3 . 3 صدى منشورات استانبول :

أ - بداية مشجعة : موافقة العلماء :

لقد اقر مبدأ الطباعة من طرف السرايا والعلماء بالعاصمة العثمانية ، ولم يعارضه على الاقل كبار العلماء المقربين من الباب العالي . ان تبني هذا الفن من طرف الاوساط الرسمية لم ينجر عنه اقبال آلي على الكتب المطبوعة من طرف المتعلمين . ويبدو ان هناك تناقض واضح في المواقف بين الطرفين اي بين نخبة من العلماء وعامة الشعب الامر، الذي يدعونا الى دراسة كل موقف على حدة .هناك مصدر اصلي يبين مدى اقبال ورضى العلماء على استعمال فن الطباعة وهي وثيقة عنوانها "التقاريض على الرسالة المسماة بوسيلة الطباعة" وردت في كتاب "صحاح الجوهري" اول مطبوع في استانبول وهذه الشهادة تضمنت آراء ستة عشر عالما وقاضيا حول رسالة وسيلة الطباعة التي كتبها ابراهيم متفرقة . وهذه الآراء يمكن اعتمادها كليا لتحديد مواقف العلماء ازاء هذه المسالة. الا انه من الضروري التنبيه الى ان هذا الموقف له حدوده . اولا لان العلماء الذين ابدوا

---

(134) اني لم استغرب من غلاء سعر كتاب الخرائط التركية (مراة العالم) الذي ارسلته اليك والذي صرفك عن اثراء مكتبتك بالكتب الشرقية رسالة من فيلاناف سفير فرنسا باستانبول الى دي غومون امين مكتبة ملك فرنسا بتاريخ 28 جويلية 1735 انظر :
Rev. bib. , n 36, 1926, p. 7.

(135) اقترح الاب اليسوعي هوندرمان في 1730 على وراقين فرنسيين شراء كتب المطبعة وليس فقط كتابه على ان يحدد السعر بحسب الكمية المطلوبة الا ان اقتراحه لم يجد صدى لديهم .

(136) ذكر سوسير ان كتبا كثيرة بقيت مكدسة بعد وفاة متفرقة ولم يدر، وخلفاؤه ما يفعلون بها الامر الذي اثنا هم عن عزيمتهم وصرفهم عن شؤون المطبعة. SAUSSURE, Lettres...op. cit., pp. 95-86.

الرسالة انتخبوا من بين انصار المطبعة والمقربين الى السلطة وثانيا : لان هذه المواقف تساند رسالة متفرقة التي ذكرت فيها نظريا فوائد اقامة مطبعة وكذلك تبدي موافقتها المبدئية على استخدام فن الطباعة بعد اطلاعها على عينة صغيرة من الكتاب المطبوع وليست مجموعة من منشورات المطبعة. لهذا فان هذه التقاريض غير كافية لاستنتاج موقف اغلبية العلماء من اقامة مطبعة استانبول، وحتى اولئك الستة عشر الذين ايّدوا المطبعة كانوا قد كتبوا تقاريضهم في لغة متشابهة ولفوا حول نفس المعاني والتعابير تقريبا، ليبدوا استحسانهم لفن الطباعة ويجددوا تمسكهم ومبايعتهم للسلطان احمد الثالث . ان الاسلوب اللغوي العربي الذي استخدموه في مذكراتهم ، كأن تقليديا وفيه تنميق كثير وحرص على انتقاء الفاظ نادرة قصد اظهار براعتهم في التحرير، وهم الذين يستغلون مثل هذه الفرص للبروز واظهار جدارتهم للحصول على مناصب عليا في القضاء والادارة ويمكن من خلال ثلاث شهادات لهم تلخيص اهم الافكار التي عبروا عنها في الوثيقة .

الشهادة الاولى: هي للشيخ زاده محمد افندي : "حسبي الله لا اله سواه وصلى الله على حبيبه ومصطفاه نعمت الصنعة المطبوعة غير مرئية في ديارنا ومسموعة فوائدها مجزومة مقطوعة فيها فاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة شكر الله سعي صانعها ووفق فيما ... امثالها كان الزمان بخل بها وخباها في حجلة الاخفاء وكشف عن وجهها حجاب الاستغناء بميامن سلطاننا ... الغازي احمد خان".

اما عن تقريض فيض الله افندي صدر روم سابق فقد ورد فيه : "لما عطفت عنان النظر الى هذه المقالة اطلعت على ما يحويه من عجايب الصناعة : فلله در جامعها حيث اخترع بافكاره العميقة ما يستحسنه اولو الانظار الانيقة وابدع بكمال الفراسة ونهاية الكياسة ما يستغني به عن مشاق الكتابة" .

وجاء في تقريض آخر لصالح افندي اناضولي سابق" نعم الاثر هذه المجلة من حذاقة الطّبع وغرابة الصنعة ولقد ابدع فيه جامعه مجتهدا ببذل وسعه جزاه الله تعالى ... بصنعه" .

ان هذه الشهادات تؤكد اقتناع العلماء بفوائد فن الطباعة وتشجيعهم لاستخدامه من طرف المسلمين وهم يعربون عن اعجابهم بمخترع هذا الفن، وبالخصوص بكاتب رسالة وسيلة الطباعة الذي دعى المسلمين الى استخدام فن الكتابة الجديد، بعد ان كان مغمورا رغم انه اكتشف منذ حقبة طويلة من الزمن . ان متفرقة يحتل مكانة مرموقة في نظر العلماء لا تقل عن مكانة مخترع الطباعة. فهو الذي دعا الى الاستفادة منها وحرص عمليا على اقامة أول مطبعة اسلامية في الدولة العثمانية.

لم يذكر القضاة والعلماء* في تقاريضهم، المواقف السابقة نحو هذا الفن وخاصة اسباب رفض

السّلف في البداية له. الا أنهم اشاروا اشارة ضمنية الى ان المواقف تغيرت ازاءه حين ذكروا ان المطبعة هي اكتشاف جديد دخل هذه الربوع التي لم تعرفه قبل حكم السلطان احمد الثالث الذي يستحق كل مدح وثناء .

ان كل التقاريض التي وردت في الوثيقة تعبر عن مساندة اصحابها وعن استبشارهم وثقتهم، بان فن الطباعة ستكون له فوائد كبيرة في بلاد الاسلام. ولم ترد البتة اية معارضة من طرف هذه النخبة من العلماء المقربة من الباب العالي والتي لم يكن لها من هدف سوى مباركة قرار السلطان وتجديد مبايعتها له ، مما جعل الآراء متطابقة . ولهذا لم يتقدم بنا كثيرا لمعرفة صدى منشورات استانبول في اوساط المسلمين وفي غياب مصادر اسلامية اخرى ، فاننا اعتمدنا على شهادات الاروبيين الذين واكبوا نشاط المطبعة في القرن 12هـ/18م .

ب - مناهضة المطبعة : محدودية التوزيع :

لقد سبق ان راينا ان عدد الاتراك المتعلمين ضعيف ونسبة الامية بينهم مرتفعة خاصة في الارياف والقرى (137) . وكان الناس الذين يحسنون القراءة والكتابة محل تقدير وتبجيل من لدن العامة ، الى حد أنهم يعتبرونهم من العلماء . وحتى المدارس التي كانت تؤهل الشباب للعمل بالادارة او القضاء او التدريس كانت قليلة. وكل هذه المعطيات تبيّن ان عدد القراء المحتملين ممن ستوجه اليهم منشورات مطبعة استانبول غير مرتفع، ممّا يبين ان المطبعة كانت اكتشافا معزولا عن واقع الحياة الفكرية داخل الامبراطورية. فالسلطان احمد الثالث وخلفاؤه لم يرسموا سياسة ثقافية وعلمية شاملة تكون فيها المطبعة احدى الركائز الاساسية الى جانب المدارس والمكتبات وغير ذلك. كل هذا جعل الكتاب المطبوع لا يجد اقبالا الا طرف بعض الناس المتعلمين الذين لم يكونوا بدورهم من القراء المواظبين وهنا يذكر الرحـ وسير بان العثمانيين لا يميلون كثيرا للمطالعة، الامر الذي اكده كذلك الاب اليسوعي هولدرمان حيث قال ان الاتراك لا يتذوقون لذة المطالعة والآداب وان الكتب لاتباع عندهم بكثرة (138) .

ان عزوف المتعلمين عن القراءة يأخذ بعدا أكبر لما يتعلق الامر بالكتاب المطبوع. فالوعاء الجديد للمعرفة لم يتعود عليه المتعلمون ولم يدخل في تقاليدهم وظل التردد والحيرة من المطبعة ومن انتاجها ينتابهم في كل حين رغم كل الاجراءات التي اتخذها الباب العالي لتشجيع التعامل مع هذا الاكتشاف الثقافي. وبالمقابل تواصل تعامل المثقفين مع المخطوط دون ان يعيروا أهمية تذكر للكتاب المطبوع الذي بدا يبرز ويتضاعف انتاجه. وقد تحدث الرحالة ريفيسكي عن صدى مطبوعات متفرقة

---

(137) Saussure, Lettres ... op. cit., pp. 95 - 96.

(138) Rev. bib. , n 36, 1926, p. 7

لدى المسلمين اثناء اقامته باستانبول في اواسط القرن 12هـ/18م ، وقال "هناك سبب آخر يفسر فشل المطبعة وهو ان الاتراك لا يهتمون بالكتب المطبوعة ويميلون الى شراء الكتب المخطوطة ، رغم ان اسعارها مرتفعة ، ولان الطباعة لا تصل الى مستوى الكتابة التركية او العربية الجميلة" (139) لقد بقي المسلمون على موقفهم المعارض تجاه مطبوعات استانبول ، كما هو الشان بالنسبة للمطبوعات العربية الاروبية ، فهم يفضلون، اذا ما رغبوا في القراءة ، شراء المخطوطات على المطبوعات وهذا بعد اكتشاف غوتنبرغ للمطبعة بثلاثة قرون ، الامر الذي يفند الراي القائل بانهم لم يكونوا يشترون الكتب المطبوعة باروبا بسبب انها "افرنجية" وانه يجب الحذر منها. فهذا الموقف اتخذوه ايضا تجاه الكتب المطبوعة باستانبول من طرف مطبعيين مسلمين .

ان عجز مطبعة استانبول في اول عهدها عن تحقيق كل الاهداف التي اسست من أجلها، يعود اساسا كما رأينا الى أنها مؤسسة "منعزلة" عن محيطها الثقافي، حيث لم تبرز ركائز علمية وثقافية حديثة لمساندتها وتطوير نشاطها وبالمقابل ظلت المؤسسات التقليدية تقوم بدورها الاصلي في تثقيف وتعليم الناس. من ذلك حوانيت الوراقة حيث واصل الوراقون مهمتهم في نسخ الكتب ولم تقدر المطبعة على مزاحمتهم حتى فيما يتعلق بمواضيع االكتب التي تدخل في مشمولاتها اي الكتب التي لا تتناول مواضيع الشريعة والفقه الاسلامي .

وقد ظهرت في اواخر القرن 12هـ/18م موسوعة الوراقين بعنوان "تحفة الخطاطين" (140) التي تتحدث عن اشهر الناسخين في تلك الفترة وعن اعمالهم الفنية البديعة وهذا مثال يبرز تواصل تعلق المتعلمين بفن الكتابة العربية بخط اليد، بعد ظهور المطبعة وتشجيعهم للفنانين والوراقين لابراز مواهبهم وابداعاتهم في هذا المجال .

ان الجانب المادي للكتابة العربية لا يمكن ان يكون سببا رئيسيا في عدم انتشار الكتاب المطبوع عند المسلمين ، فابراهيم متفرقة نجح في حفر حروف عربية جميلة تضاهي الكتابة المخطوطة الا ان محتوى هذه الكتب قد يفسر اعراض المتعلمين عن اقتناء هذه المطبوعات . فالمواضيع التي عالجتها تتعلق كما رأينا بالتاريخ والجغرافيا واللغة والنحو والاصلاحات. وهذا المحتوى يستجيب لرغبة رجال السياسة اكثر من رغبة المتعلمين وحاجيات المستفيدين بصفة عامة . هؤلاء الاخيرين كان جل اهتمامهم منصبا نحو كتب الفقه والشريعة، وهذا يعني انهم لا يجدون

---

(139) Reviczki, Traité... op. cit., p. XXIII .

(140) مؤلف الموسوعة هو مستقيم زاده في 1202هـ/788م

Huart, Les calligraphes... op. cit., p. 7 ; Browne, Nouveau... op. cit., T 2, p 268; Michaud, Correspondance... op. cit., T 3 p. 102-104.

ضالتهم الا في المخطوط .

لقد حاول المشرفون على مطبعة استانبول تحويل اهتمام القارئ نحو مواضيع جديدة من شأنها تقديم خدمات جليلة للإسلام. الا انهم فشلوا في مهمتهم لان منشوراتهم ذات الطابع العلمي الجيد كانت محدودة ويمكن القول ان الشرط الذي وضعه شيخ الاسلام بعدم طبع كتب الشريعة كان عائقا جديا لانتشار الطباعة في بلاد الاسلام .

ج - صدى المطبوعات خارج استانبول :

- في البلاد الاسلامية :

ان مطبوعات استانبول لم تكن مخصصة لقراء العاصمة العثمانية فحسب ، بل وكذلك للقراء داخل الامبراطورية وحتى جميع انحاء العالم الاسلامي . بل اكثر من ذلك كان مؤسسو مطبعة استانبول ينوون، في صورة نجاح مشروعهم الاول، انشاء مطابع اخرى في الولايات العثمانية لمعاضدة نشاط المطبعة الاولى (141) ، الا ان هذا المشروع الطموح سرعان ما أهمل بعد تعثر ورشة الطباعة باستانبول ولم تبرز اي مطبعة بعد ذلك في الدولة العثمانية بمبادرة اسلامية الا في مطلع القرن 13هـ / 19م . بل اكثر من ذلك اضطرت مطبعة استانبول الى تقليص نشاطها وذلك بالتخفيض في عدد الكتب المطبوعة وحتى في رقم السحب ، حيث انها توقفت عن العمل تماما في عدة فترات ، مما جعل اشعاعها في عالم الفكر والمعرفة محدودا. ولم تقدر بالتالي على مزاحمة المخطوط . ولا تتحدث المصادر عما اذا تم توزيع كتب مطبوعة خارج العاصمة العثمانية، ويبدو ان التوزيع كان ايضا جد محدودا .

لقد كان من المقرر ان يكون مشروع الطباعة غير مقتصر على مطبعة واحدة، بل على جملة من المطابع. وقد بدأ المشروع بمطبعة اولى في استانبول لتكون نموذجا وحافزا لتأسيس ورشات أخرى في الولايات العثمانية ، وحتى الاحتياطات القانونية فانها اتخذت باستصدار فتوى لشيخ الاسلام وفرمان السلطان العثماني لاضفاء الشرعية على المشروع. كذلك تمت معالجة الجانب الفني للمشروع والتغلب على مشكلة اعداد الحروف العربية وتدريب العمال. ورغم ذلك فقد تعثر المشروع وتوقف عند مطبعة متفرقة، ولئن كان المشكل المالي عائقا جديا ، فان لا مبالاة القارئ المسلم لوعاء الكتابة الجديد وانصرافه عن منتوجات المطبعة يعتبر العائق الموضوعي الرئيسي لفشل المشروع .

---

(141) "كان سعيد شلبي يرى في صورة نجاح المؤسسة الاولى اقامة مطابع اخرى في المدن الرئيسية بالامبراطورية" :

LA Gazette de France, 18 janvier 1727, in Rev. bib, 1895, p. 186.

في اروبا :

كان صدى مطبعة استانبول في أروبا اكبر من صداها بالعالم الاسلامي. فقد اهتم بها منذ نشاتها المستشرقون والرحالة والديبلوماسيون الاروبيون من فرنسيين ونمساويين وانقليز وسويديين وايطاليين. فالعلماء الفرنسيون بالذات اعطوا أهمية كبيرة للحدث حيث كانوا يأملون نشر المخطوطات اليونانية واللاتينية المحفوظة في مكتبة السرايا، والتي بقيت مجهولة من طرف العلماء الاروبيين (142). على ان مجموعة المخطوطات اليونانية واللاتينية هذه، كان استعمالها محظورا على العلماء الاروبيين (143) وكان هؤلاء يعتقدون ان مطبعة استانبول ستنشر هذه الكتب اي بالحرف اليوناني واللاتيني، ولهذا حرصوا على متابعة تطور نشاط هذه المؤسسة الجديدة وربطوا علاقات صداقة مع سعيد شلبي الذي سبق ان زار باريس في 1133هـ/1721- 1722م (144)، وحرصت مكتبتيا ملك فرنسا وملك السويد على اقتناء كل الكتب التي طبعت بالحرف العربي باستانبول لاثراء مجموعاتها من الكتب الشرقية (145). كما كان العلماء الاروبيون يشترون هذه الكتب اثناء رحلاتهم الى المشرق او بواسطة الديبلوماسيين. كما تحصلت بلاطات ملوك اروبا على هذه المنشورات بعنوان هدية . وكان ابراهيم باشا داماد يرسل بهذه الكتب في شكل هدية الى وزراء لويس الخامس عشر (146) ويكلف السفراء العثمانيين تقديم مثل هذه الهدايا الى الملوك الاروبيين (147) .

اهتم السفراء الاروبيون لدى الباب العالي كذلك بمنشورات هذه المطبعة، ورفعوا تقارير عنها الى رؤسائهم ضمنوها آراءهم وانطباعاتهم حول اصداراتها (148). كما ان العلماء كانوا يترجمون هذه الكتب الى لغات اروبية (149) .الا ان بعض الترجمات عرفت طريقها الى النشر في حين بقيت جلها مخطوطة. من ذلك كتاب"**اصول الحكم في نظام الامم**" الذي ترجمه الى الفرنسية المستشرق ريفيسكي ونشر في 1183هـ/1769م ويبين المترجم اهمية هذا الكتاب التي تكمن في انها توضح طريقة تفكير الاتراك وآرائهم حول الاساليب الحربية المتبعة من طرف الاروبيين. وكذلك تكشف عن عيوب ونقائص التنظيم العسكري في الجيش العثماني وبصفة عامة يعالج الكتاب

---

(142) Rev. bib, 1895, p. 186

(143) Omont, Missions... op. cit., T 1, pp. 253-254

(144) المصدر السابق ، ص 394-401

(145) المصدر السابق ، ص 749 - 756

(146) Rev. bib, 1895, p. 187

(147) Hammer, Histoire... op. cit. , T 3 p. 441

(148) Omont, Missons... op. cit., T 1, P. 472

(149) بالنسبة للغة الفرنسية قام بمهمة الترجمة : "شبان اللغات" الذين تعلموا اللغات الشرقية بالمشرق .

كما كانت بعض كتب مطبعة استانبول، محل درس بعض العلماء الذين استفادوا من المعلومات التي وردت بها من ذلك كتاب "جهان نما" الذي اخذ منه الجغرافي لنقلي دي فرينو معلومات جغرافية حول البلدان الآسيوية عند تاليف كتابه في الجغرافيا (150) .

عبر الاروبيون عن انطباعاتهم حول مطبعة استانبول وكانوا متفائلين في البداية، قبل ان يعربوا عن خيبة املهم بعد ان تبين لهم عجز هذه المنشورات عن تنشيط الحياة الثقافية داخل الامبراطورية. وعلى سبيل المثال نجد الاب هولدرمان يعبر عن الآمال المعلقة على هذا المشروع في سنة 1143هـ/1730م عندما يقول :

"ان الآداب كانت مهملة منذ عدة قرون في هذه الاماكن ، اين ترعرعت وتطورت كثيرا في الماضي. ان هذه الآداب ستنتعش من جديد وقد عاد الامل في احيائها بعد ظهور المطبعة في القسطنطينية . ان المنتوجات الاولى لهذا الفن المفيد للعلماء ، ينبغي ان تتجه نحو هذا النوع من المعرفة الذي يوفر لمختلف الشعوب امكانية تبليغ آرائهم وتكوين "مجتمع الانوار" اين تتفاعل فيه الاكتشافات والمعارف" (151) .

يبسط الاب اليسوعي هنا نظرته نحو المطبعة وما ينتظره منها ، فهي ستقيم علاقات ثقافية بين مختلف المجتمعات وتحيي المؤلفات الادبية القديمة وتنشر المعارف الحديثة داخل الامبراطورية (152) . ان هذه الاهداف تفترض ان تكون المنشورات عديدة وان يغطي التوزيع كل المناطق . ان مفهوم المطبعة حسب هولدرمان يتطابق مع المفهوم الذي عبر عنه متفرقة في رسالته . الا انه عند التطبيق برزت صعوبات جمة وهذا ما يفسر تعثر مطبعة استانبول في القيام بمهمتها العلمية والحضارية وتخبطها في مشاكل عديدة ، ادت الى عدم تمكنها من التاثير بصفة كبيرة في عالم الفكر والثقافة ومن نشر المعارف والافكار الاصلاحية على مدى واسع (153) . فهي لم تغير أذواق القراء الا قليلا في حين بقي اغلب القراء متعلقين بالمخطوط ولم يتجاوز اشعاع الكتاب المطبوع المجددين المتفتحين على الغرب واكتشافاته . وهكذا بقي ينظر الى المطبعة حتى نهاية القرن

---

(150) يذكر تودريني اسماء اربعة علماء اروبيين استخدموا كتاب حاجي خليفة وأوصوا كذلك باستعماله
Toderini, De la littérature... op. cit., T 3 pp. 121-122

(151) تقديم كتاب النحو التركي

(152) يتّفق سوسير معه في ان المطبعة ستحارب الجهل والامية لدى الاتراك .

(153) انظر رسالة سفير فرنسا باستانبول الى امين مكتبة ملك فرنسا بتاريخ 28 جويلية 1735
Omont, Missions... op. cit., T 2, p. 696.

12هـ/18م على انها اكتشاف يثير اعجاب المثقفين وخاصة اوساط الفئة الحاكمة ، التي جعلت منها وسيلة لدعم نفوذ السرايا فكان اختيار الكتب يخضع لرغبة الباب العالي. الا ان ذلك لم يمنع المطبعيين وهم من المقربين للسلطة العثمانية من توجيه المطبعة وجهة اصلاحية من خلال نشر كتب تدعو للاصلاح العسكري والسياسي والثقافي. الا ان طموحات هؤلاء تبخرت مع موت ابراهيم متفرقة وبقيت المطبعة مرتبطة بأسماء بعض الاشخاص الذين اعطوها حركية كبيرة مثل الوزير ابراهيم باشا داماد وابراهيم متفرقة وسعيد شلبي. الا انه بعد اختفائهم اهملت المطبعة وتوقفت عن النشاط لفترة طويلة وصلت الى سبع وعشرين سنة (1170 - 1197هـ/1756 - 1783م) .

لم يتمكن الكتاب المطبوع باستانبول من تبليغ الافكار والمعارف داخل الامبراطورية ، خاصة وان العملية تعهدت بها مطبعة واحدة وهذه الاخيرة وجدت صعوبات كبيرة لتحقيق التواصل المعرفي بين علوم السلف وعلوم الغرب. ولكن ذلك لا يعني ان دور المطبعة في محيطها الثقافي كان منعدما ، بل انها اثرت في نطاق معين على مجرى الحياة الادبية والعلمية وتركت بصماتها التي سيكون لها اعمق الاثر على مدى طويل، على كل المستويات. فمجرد قبول فن الطباعة يعني في حد ذاته ثورة فكرية هائلة هزت العقول في ذلك العصر، لانه في قبول فن الكتابة الجديد دلالة على رغبة في التعامل مع ادوات ثقافية حديثة بغرض مواكبة التقدم والرقي الحاصل باروبا. وهو في نفس الوقت رغبة في تطوير التعامل مع التراث الثقافي للامة الاسلامية الذي سياخذ شكلا جديدا ، هو شكل المطبوع . ان سنة 1139هـ/1726م، هي سنة تحول المسلمين الى عهد جديد في حضارتهم، هو عهد الحداثة المتميز بالتفتح على الغير وخاصة على الفنون والاكتشافات الغربية .

وبالرغم من فشل متفرقة وخلفائه في وضع الكتاب المطبوع في متناول فئات واسعة من المتعلمين فانهم نجحوا في المقابل في تحقيق بعض المكاسب منها: تخطي كل العقبات القانونية من اجل ادخال فن الطباعة بالحرف العربي عند المسلمين والشروع في غرس تقاليد جديدة لدى المثقف لاستخدام شكل جديد من اوعية المعلومات، وهو الشكل المطبوع مع التخلي مرحليا عن المخطوط..

الصعوبات : الحوار يتواصل

4 . 1 - اسباب توقف المطبعة

4 . 1 . 1 - خمس واربعون سنة من التوقف :

تعطلت المطبعة الاسلامية الوحيدة في الامبراطورية العثمانية في القرن 12هـ/18م لمدة طويلة وصلت الى حد خمس وأربعين سنة وكانت هذه المدة موزعة على ثلاث فترات كبيرة، مرة أولى دامت خمس سنوات (1148هـ/1735م - 1153هـ/1740م)، وثانية استمرت ثلاث عشر سنة (1155هـ/1742م - 1168هـ/1755م) وثالثة وهي اطول فترة دامت سبعا وعشرين سنة

استخدام هذا الوعاء الجديد وعدم اقبالهم على اقتنائه ، اذ بقوا متعلقين بالمخطوط . ويمكن اعتبار هذا السبب اهم سبب في فشل المطبعة . اما بقية الاسباب التي ذكرت فتعتبر ثانوية بالقياس الى السبب الجوهري وكان بالامكان تخطيها لو وجدت المطبعة صدى طيبا لدى القراء المسلمين .

4 . 2 - اعادة فتح المطبعة في 1198هـ/1784م :

ظهرت مبادرة جديدة لاعادة فتح المطبعة بعد ان تعطلت لمدة تزيد عن ربع قرن، وكانت صادرة عن موظفين سامين بالباب العالي وبتأثير من الصدر الاعظم خليل حميد باشا .

4 . 2 . 1 - مشروع واصف ورشيد :

قام خليل حميد وزير عبد الحميد الاول من 1197هـ/1782م الى 1199هـ/1785م، بمجهود كبير لاصلاح مؤسسات الدولة (167) ، فاستدعى مجموعة من الضباط الفرنسيين لاصلاح فرق المدفعية والبحرية العسكرية ، واسس مدرسة ضباط البحرية حيث تولى اساتذة فرنسيون تدريس الفنون العسكرية واستغل الوزير فترة السلم التي عقبت الحروب التي واجه فيها الجيش العثماني الجيش الروسي (1182 هـ / 1768 م-1188 هـ/ 1774م) والجيش النمساوي (1189هـ/1775م) والفارسي (1188هـ/1774م) للقيام بدعم من السلطان بمشاريع اجتماعية وثقافية . فاسس مكتبات ومدارس وجوامع وحنفيات ومطاعم شعبية (168) واهتم بالخصوص بالمطبعة بعدما طلب منه محمد رشيد افندي (1167هـ/1753م - 1210هـ/1797م) وأحمد واصف (توفي في 1221هـ/1807م) اعادة فتح المطبعة (169) وكان الاول يعمل رئيسا للديوان وهو عالم في الجغرافيا والآداب (170) اما الثاني فهو مؤرخ البلاط (171) وقد بعثا رسالة الى الصدر الاعظم طالبين فيها الترخيص لهما باعادة فتح المطبعة وكان رد خليل حميد ايجابيا اذ شجع هذه المبادرة وحرص على الحصول على خط شريف من السلطان عبد الحميد الاول في هذا الغرض .

4 . 2 . 2 - فرمان عبد الحميد الاول :

صدر هذا الفرمان في 18 ربيع الاول 1198هـ/1784م وبدأ بتقديم لمحة تاريخية عن الاسباب التي دفعت احمد الثالث الى ادخال المطبعة وتتمثل في نقص المخطوطات وارتفاع

---

(167) Berkes, The development ... op. cit., p. 57.

(168) Encycl. Islam 2é éd. T 1, p 65 article ABD al-Hamid 1ér

(169) لم تتمكن من العثور على هذه الرسالة التي تعرض اليه السلطان عبد الحميد الاول في قراره .

(170) Encycl. islam, 1 éd. T IV ; p. 1187,

(171) طبع كتاب تاريخ واصف في استانبول سنة 1218هـ/1804م .

اسعارها وتعرض بعد ذلك الى دور متفرقة في تأسيس المطبعة باستانبول وذكر الكتب التي طبعت بها ولاحظ ان هذه المنشورات اصبحت نادرة وباهضة الثمن وابدى تخوفه من اتلاف آلات الطباعة او تفرق المطبعيين المتبقين على قيد الحياة. ولانقاذ المطبعة، على حسب تعبيره وتعميم فوائدها لدى رجال الادب والعلم ، فقد قرر تجديد المطبعة وكلف بهذه المهمة عالمين من البلاط هما أحمد واصف ومحمد رشيد وطلب منهما الاتصال بأرملة ابراهيم افندي القاضي ، آخر مدير للمطبعة قبل توقفها ، لشراء آلات الطباعة. وذكر بتواصل قرار منع طبع كتب الشريعة الاسلامية واهتم الفرمان في النهاية بالاجراءات العملية لتسيير وادارة الورشة . من ذلك جانب التمويل والاداءات.وثمن الكتب واختيار المقر وانتداب العمال ومراقبة المطبوعات . ويتبين من خلال هذا الفرمان ، ان الامر يتعلق باعادة فتح المطبعة القديمة وليس تاسيس مطبعة جديدة بدليل انه سيتم احياء آلات وحروف الطباعة القديمة . كذلك يمثل هذا القرار تواصل العمل بقرار أحمد الثالث ، فيما يخص محتوى الكتب المرخص بنشرها واستمرار اشراف الدولة عليها .

4 . 2 . 3 - نشر ثلاثة كتب :

اصدرت المطبعة كتابين في التاريخ وآخر في النحو وقد نشر الكتابان الأوّلان في السنة التي اعيد فيها فتح الورشة قبل ان تتوقف في العام الموالي. وهذان الكتابان هما عبارة عن حوليات الدولة العثمانية (172) ويمثلان تواصل الخط الذي رسمه مؤسسو المطبعة عند انطلاقها من الاهتمام بدرجة أولى بتاريخ سلاطين بني عثمان للأسباب التي سبق ذكرها . وكما حدث في السابق، فان المطبعة تأثرت بالتطورات السياسية للدولة فكان ان توقفت لمدة سنة بسبب مقتل الوزير خليل حميد باشا راعي المطبعة الذي اتهم بالتآمر على السلطان . اما المسؤولان عن المطبعة احمد واصف ومحمد راشد فقد تم اعفاؤهما من منصبهما (173) قبل اعادة الاخير الى وظيفته بعد سنة ، وعندها صدر كتاب جديد في 1200هـ/1786م عنوانه "**الكافية لابن الحاجب**" مع ترجمة تركية لزاني زاده وهو كتاب في النحو العربي صدر في اللغتين العربية والتركية .

ولم تنج المطبعة من العراقيل والصعوبات التي يعزيها الرحالة ميشو لاسباب مالية (174) ان السبب الاساسي الذي بقي يعيق ازدهار هذه الورشة، فهو كما راينا انصراف القراء عن انتاجها وقلة تحمسهم للتعامل مع الكتاب المطبوع .

---

(172) - عنوان هذين الكتابين هما : تاريخ سامي وشاكر وصبحي (من 1141هـ/1728م الى 1159هـ/1743م) القسطنطينية 1198/1784م . تاريخ عزي (من 1157هـ/1744م - الى 1166هـ/1751م) القسطنطينية ، 1198هـ/1784م.

(173) Toderini, De la littérature, ... op. cit., T 3, p. 241.

(174) Michaud, Correspondance... op. cit., p. T 3, p. 58

ان أهم تحول حدث في تلك الفترة في هذا المجال، هو تطور موقف العلماء ازاء فن الطباعة واقتناعهم بجدوى طبع كتب الفقه الاسلامي، فسمحوا بذلك باستثناء طبع كتاب القرآن الكريم ذاته (175) وبذلك ظهرت كتب الشريعة والفقه بداية من 1218هـ/1803م (176).

كذلك شهدت نفس الفترة ظهور مطبعة جديدة بالحرف العربي في عاصمة الامبراطورية، الا انها كانت مشروعا اوروبيا وبالتحديد فرنسيا. الا ان له علاقة بالعثمانيين وانه من المهم التعرف على نشاط هذه المطبعة ومدى تفاعلها مع مطبعة الباب العالي وبالخصوص تأثيرها في المحيط الثقافي والعلمي الذي نشأت فيه.

4 . 2 . 4 - مطبعة سفارة فرنسا 1200هـ/1786م :

حاول سفير فرنسا شراء احرف وقوالب وطوابع الطباعة العربية الموجودة لدى ارملة ابراهيم افندي القاصي، قبل صدور قرار عبد الحميد الاول (177) وذلك بغرض انشاء مطبعة تركية في مقر سفارته، خاصة وان الفرنسيين ساهموا بطريقة غير مباشرة في تأسيس مطبعة متفرقة. فورشات الطباعة الباريسية التي زارها السفير يرمسكز في 1133 هـ/1721م، دفعت الاتراك للنسج على منوالها كما اشتغل احد الفرنسيين بهذه المطبعة لفترة وجيزة وهو هولدرمان. كما اهتم العلماء الفرنسيون بمسيرة هذه الورشة وتتبعوا نشاطها وحرصوا دوما على اقتناء منشوراتها. وقد فكروا في اقامة مطبعة تركية باشرافهم لتوفير كتب الهندسة والاساليب العسكرية لتلاميذ مدارس المهندسين باستانبول. وهذه المدارس يشرف عليها ضباط واساتذة فرنسيون قدموا الى المشرق في نطاق التعاون العثماني الفرنسي في المجال العسكري وفي نطاق مساهمة فرنسا في اعادة تنظيم الجيش وتدريب الضباط حسب احدث الطرق العسكرية. ويحتل بعض الفرنسيين مناصب حساسة في الجيش العثماني من ذلك احمد باشا بونفال (178) والبارون دي توت (179)، الخ.

---

(175) المصدر السابق، ص 59

(176) من بين هذه الكتب نذكر:

- شروط برغري، القسطنطينية 1218هـ/1803م
- شروط الصلاة، القسطنطينية، 1219هـ/1804
- جواهر محمدية، القسطنطينية، 1219هـ/1804م
- فرائد الفوائد، القسطنطينية، 1220هـ/1805م

(177) Gercek, Turk... op. cit., p. 95

(178) Encycl. Islam 2é éd. ; T 1, p 301 article Ahmad Pasha Bonneval.

(179) Berkes, The development... op. cit ., p. 58

وفي سنة 1198هـ/1784م ، وصل الى استانبول السفير الفرنسي الجديد شوازول غوفي على رأس بعثة كبيرة مكونة من خبراء وضباط واساتذة . وكانت مكلفة بتنفيذ المشاريع الاصلاحية للصدر الاعظم خليل حميد في مجال الجيش . وحرصا منه على توفير الكتب الضرورية للمدارس العسكرية وخاصة منها الترجمات التركية للكتب الفرنسية ، فان السفير قرر اقامة مطبعة في مقر سفارته فأحضر حروف الطباعة العربية من بال بسويسرا وباريس(180) واصدر مجموعة من الكتب التركية المتعلقة بالفنون العسكرية وبالبحرية والنحو التركي (181) .

وتبرز من خلال هذه المنشورات أهمية العلاقات العثمانية الفرنسية في عدة مجالات والتي تترجم من جهة عن رغبة فرنسا في نقل بعض المعارف الحديثة الى المشرق. وقد حرص العثمانيون على الاطلاع واستعمال احدث الاكتشافات العسكرية. الا أن تاثير المطبعة على المحيط الثقافي والعلمي كان محدودا داخل الامبراطورية، بما انها اقتصرت على مواضيع معينة موجهة لفئة واحدة من المستفيدين ويمكن اعتبار منشوراتها كتبا مدرسية لمدارس المهندسين .

الا ان هذا الاسهام الفرنسي سيتطور نتيجة السياسة الاصلاحية التي سلكها فيما بعد سليم الثالث واعتماده على خبراء فرنسيين وكذلك نتيجة انتشار أفكار الثورة الفرنسية بالمشرق

4 . 3 . 1 - الحوار يتواصل :

. 3 . 4 - مطبعة استانبول : نموذج لمشاريع اخرى :

سنحاول التعرف فيما اذا كان لمطبعة استانبول تاثير مباشر او غير مباشر على مشاريع اخرى ظهرت في القرن 13هـ/19م . ونبدأ بدراسة أول مطبعة عربية اسلامية تظهر في مصر (182) في عهد محمد علي باشا، والتي تاسست بحي بولاق بالقاهرة في 1235 هـ/1820م

---

(180) Lettre du Comte De Choiseul à Anisson directeur de l'imprimerie royale de Paris datée de Constantinople le 25 janvier 1786 "in Rev. bib. 1895, p 233 -234.

(181) فوبان ، فن لغمي ، القسطنطينية 1202هـ/1787 م .

- لافيت ، فن محاصرة ، القسطنطينية 1202هـ/1787م

- تريقات ، رسالة في قوانين الملاحة ، القسطنطينية 1202هـ/1787 م .

- Vigueur, Eléments de la langue Turque,Constantinople,1207/1787, voir BIANCHI, Notice... op. cit., p.36, Omont,Documents... op. cit., p.236, GERCEK, TURK...op. cit., PP. 84-85.

(182) انشأ نابليون بونابرت مطبعتين بمصر اثناء حملته عليها في 1213هـ/1798م الا ان حروف وتجهيزات هاتين المطبعتين تم نقلها الى فرنسا عند جلاء فرنسا عن مصر في 1216هـ/1801م ولم تصلح هذه المؤسسات الفرنسية كنموذج لمطبعة بولاق رضوان ، تاريخ... ص 17- 24 .

(1170هـ/1756م - 1198هـ/1783م) ، ويمكن القول انه على امتداد الست وخمسين سنة الاولى من حياتها لم تشتغل المطبعة سوى أحد عشر سنة . انه من الضروري البحث عن اسباب هذا الانقطاع الذي بلغ في بعض الاحيان فترات طويلة جدا والصعوبات التي اعاقت المطبعة على مواصلة مسيرتها بثبات حتى نتمكن من تتبع مختلف مراحل حياة الكتاب المطبوع بحروف عربية في القرن 12هـ/18م لدى المسلمين العثمانيين .

انه من الواضح ان المطبعة التي دخلت الى العالم الاسلامي بعد حوار طويل وتردد كبير من لدن المحافظين سوف لن تنجح من الوهلة الاولى ولوحدها في تغيير العقليات والدخول بقوة بانتاج مطبعي غزير والقضاء على المخطوط وكذلك بما انها من عمل رجال سياسة مرتبطين بالباب العالي، فان المطبعة بقيت معرضة لهزات السياسة وبالتالي فهي في وضعية ادارية وتنظيمية متقلبة (154) . ولدراسة هذا الموضوع، اعتمدنا على مصادر اسلامية واروبية هي اساسا فرمان السلطان عبد الحميد الاول وشهادات الرحالة والديبلوماسيين والمستشرقين الاروبيين .

4 . 1 . 2 . اختفاء راعي المطبعة :

بعد الانطلاقة السريعة للمطبعة التي كانت تنبئ بتطور كبير في انتاجها المطبعي، تراجعت المطبعة شيئا فشيئا بسبب اختفاء راعيها الصدر الاعظم ابراهيم باشا، الذي قتل اثناء ثورة الانكشارية في 1143هـ/1730م ، وعزل السلطان احمد الثالث (155) ، لقد فشلت سياسة التفتح على الغرب التي سلكها هذان الرجلان ، وقضت عليها ثورة الجيش الغاضب الذي هاجم العاصمة وحطم كل شيء امامه حتى حنفيات سعد اباد، الا انه لم يتعرض للمطبعة وهو في ذروة غضبه (156) وهذه المؤسسة لم تتوقف في تلك الفترة عن العمل ، اذ نشرت في تلك السنة كتابين جديدين. وفي السنة الموالية اصدرت ايضا كتابا آخر، مما يؤكد ان العاملين بالمطبعة لم يتاثروا كثيرا بما يجري حولهم الا ان جذوة حماسهم الاولى بدات تنطفئ بعد مقتل الصدر الاعظم ، ثم توقفت المطبعة لاول مرة عن العمل عند رحيل مديرها لمدة قصيرة في مهام ديبلوماسية . فقد كلف ابراهيم متفرقة من طرف الباب العالي بمأموريات لدى حكام اروبا من سنة 1150هـ/1737م الى

---

(154) "علمنا ان المطبعة تسير بصعوبة وبخطى بطيئة وذلك بسبب جهل مؤسسيها وفقدان الثقة في سعيد شلبي "رسالة من فورمون مبعوث ملك فرنسا الى مكتبة السريا الى الوزير موربا بتاريخ 26 مارس 1729 . Omont, Missions... op. cit., T 1, p. 543

(155) لاحظ سوسير هذا التراجع في نشاط المطبعة منذ 1145هـ/1732م ويعزي سبب ذلك الى موت الوزير ابراهيم باشا Saussure, Lettres ... op. cit., p. 95

(156) Cercek, Turk... op. cit, p. 74

1152هـ/1739م (157) . ان تعطل المطبعة لمدة خمس سنوات كان نتيجة الصعوبات الاولى التي تنذر بتفاقم وضعية المؤسسة فيما بعد ، هذا والحال ان ابراهيم متفرقة كان لا يزال على راسها .

4 . 1 . 3 - نقص الموارد المالية :

ذكر سوسير الصعوبات المالية التي اعترضت ابراهيم متفرقة والتي اجبرته على الترفيع في اسعار الكتب ، ذلك انه لم يكن بامكانه مواصلة الاعتماد على مساعدات الاثرياء او الباب العالي لتغطية النفقات المتزايدة للمؤسسة وهذا ما تسبب في تأخر صدور بعض الكتب والغائها . من ذلك ان متفرقة كان ينوي كما راينا طبع جزء ثان لكتاب جهان نما . الا انه حرص على الحصول على مساعدات بعض الاغنياء من رعاة العلم والادب قبل الاقدام على تنفيذ المشروع نظرا لما يتطلب مثل هذا الكتاب من دقة ومهارة لاعداد الخرائط العديدة اللازمة له(158). واضطر في الاخير، في غياب موارد مالية كافية ، الى الغاء المشروع وقام بنفس الشيء لمشاريع اخرى .

ان العائق المادي اثر كثيرا في النشاط المادي للمطبعة التي لم تجد الدعم اللازم للقيام بمهمتها. فالاغنياء ورجال الفكر لم يسارعوا الى تقديم المساعدات لها ، مما جعلها تعجز عن مواصلة عملها والتوقف في 1170هـ/1756م، وكان سوسير قد تحسب للامر قبل ربع قرن من وقوعه حين عبر عن تخوفات البعض من تعطل المطبعة بسبب قلة المرابيح التي حصلت عليها وعدم استعداد الاتراك لمساعدتها (159) . لقد خفت نشاط المطبعة بالفعل بعد موت متفرقة فلم تصدر سوى كتاب واحد هو معجم **الصحاح** بترجمة وانقولي قبل ان تتوقف طويلا .

4 . 1 . 4 - غضب الناسخين

أثار أحد المؤرخين الفرنسيين المعاصرين لتلك الفترة قضية "ثورة الناسخين" التي اجبرت الباب العالي على غلق المطبعة . فقد ذكر مينو في 1185هـ/1771م ما يلي : "ان هؤلاء العمال (بالمطبعة) الذين كان من المفروض ان يقدموا فائدة لشعب هو في حاجة الى النور، قد اضطروا الى الاختفاء امام غضب سبعة او ثمانية آلاف ناسخ لم يعد لهم اي عمل بالقسطنطينية وبالمدن الكبرى الاخرى للخروج من البؤس، رغم ان عملهم بطيء ومليء بالاخطاء وغير قادر الا على تبليغ بعض المعارف التي تتضمن كثيرا من الخلل" (160) .

---

(157) Encycl. islam, 2e éd. article Ibrahim mutafarrika T 3, p. 1002

(158) Toderini De la littérature...op. cit ., T 3, p. 213

(159) Saussure, Lettres op. cit., p. 95

(160) Mignot, Abbé de Scellieres, Histoire de l'Empire ottoman, Paris, le Clerc, 1771, T IV? P 264.

ان المؤرخ مينو لا يقدم توضيحات حول طبيعة وزمان وقوع الحادثة، بل انه يقدم في فقرة اخرى من كتابه معلومات خاطئة عن هذه المطبعة حيث يقول مثلا : "ان كتاب القرآن والسنة قد طبعا في استانبول (161) . وهذا الامر كما رأينا لم يقر شيخ الاسلام بجوازه في ذلك الوقت . كما أن المطبعة لم تقدر على مزاحمة الوراقة والوراقين الذين واصلوا عملهم بدون ان يجدوا عناء في ترويج المخطوط، الذي بقي الوعاء الرئيسي كتابيا ، خاصة بالنسبة لكتب القرآن والشريعة والفقه التي تجد اقبالا واسعا من طرف جمهور المتعلمين" . ان هذه المعطيات لا تجعلنا نعتمد على شهادة هذا المؤرخ ، بل ان هناك من المؤرخين من فند هذه الرواية مثل توديريني، الذي كان مواكبا لتطور هذه المطبعة حيث كذب بصفة قطعية "الشائعات التي روجها الاروبيون حول ثورة الناسخين الخيالية" (162) . وعلى ضوء هذا يمكن القول ان ما ذكره مينو هو مجرد تخمينات استنتجها بعد اطلاعه على بعض كتب المستشرقين والرحالة الاروبيين ، الذين اهتموا في القرن 11هـ/17م بقضية المطبعة وركزوا على الجانب الاجتماعي منها لتفسير تأخر ظهور المطبعة عند المسلمين. ومن بين هؤلاء نجد بيسباك ومارسيغلي وقالان الذين تحدثوا عن الخطر الذي يهدد رزق آلاف الناسخين. فكان ان استنتج في هذا السياق ان امكانية "ثورة الناسخين" واردة لتفسير غلق المطبعة لفترة معينة .

4 . 1 . 5 - نقص الكفاءات بالمطبعة :

شكلت الصعوبات الفنية عائقا جديا في نشاط المطبعة وهي حسب بعض الرحالة الاروبيين السبب الرئيسي لتوقف المطبعة مثل الفارس ريفسكي، الذي لاحظ نقص العاملين الاكفاء بالمطبعة فقال "ان المطبعة توقفت بعد متفرقة ليس كما يدعيه البعض بسبب تذمر او انتفاضة الناسخين او لاسباب خيالية اخرى ، ولكن بسبب نقص المطبعيين الماهرين (163) .ان متفرقة كان بالفعل المحرك الاساسي للمطبعة الا ان الصعوبات التي عرفتها المطبعة كانت قد ظهرت قبل وفاته بكثير نظرا الى ان هذه المؤسسة توقفت عن العمل مرتين وهو لا يزال على قيد الحياة . ولكن الصعوبات تفاقمت بالفعل بعد موت ابراهيم متفرقة مما جعل خليفته وتلميذه القاضي ابراهيم يخفق في القيام بمهمته ولا ينشر سوى كتاب واحد طيلة عشر سنوات، وهذا الاخير لم يجد عمالا ماهرين لمساعدته في طبع الكتب مما جعله يهمل المطبعة وأدواتها .

---

(161) المصدر السابق ، ص 254

(162) De la littérature... op. cit, T 3, p 214.

(163) Revicski, Traité... op. cit., p.XXIII ، ويتفق الأرمني موراجا دوسون مع ريفسكي حول سبب توقف المطبعة ذكر ان السلطان محمود الاول ووزيره حاولا الابقاء على المطبعة الا انهما فشلا في العثور على رجل صاحب كفاءة لتسييرها على غرار ابراهيم متفرقة D'Hosson, Tableau... op. cit., T 1, p. 301.

4 . 1 . 6 - انعكاسات الاحداث السياسية :

كانت المطبعة مشروعا سياسيا اذ تأسست من طرف الباب العالي وبقيت تحت رقابته بصورة او باخرى وفي خدمته. وكان لا بد ان تنعكس الاحداث السياسية التي شهدتها الدولة بداية من 1143هـ/1730م، على حياة المطبعة فقد حدثت حروب وثورات عديدة، كما تداول عدد من الوزراء على منصب الصدر الأعظم منهم من كان متفتحا على الفنون والآداب ومنهم من لم يهتم البتة بالنشاط العلمي والثقافي، مما جعل المطبعة تمر بأزمات دون ان يرعاها هؤلاء. فمثلا شغل سعيد شلبي، صديق ومساعد ابراهيم متفرقة في سنة 1169هـ/1755م، منصب صدر اعظم، كذلك رجب باشا وزير عثمان الثالث (1170هـ/1756م - 1177هـ/1763م) (164) الذي كان راعيا للآداب ورجال الفكر، لكنهما لم يسعيا الى النهوض بالمطبعة. ثم انصرفت انظار الباب العالي تماما عن هذه المؤسسة اذ شغلته الحروب مع روسيا وبروسيا وبلاد فارس عن اي نشاط علمي (165) . وقد أشار السلطان عبد الحميد الاول الى هذا الموضوع حيث علل في قراره الصادر في 1198هـ / 1784م سبب توقف المطبعة بالحروب التي خاضتها الدولة العثمانية، مما جعلها لا تهتم بالمطبعة فتشتت عمالها (166) وعند موت ابراهيم افندي القاضي ، بقيت آلات الطباعة عند ارملته .

ان الاسباب الظرفية لتعطل المطبعة لها ضلع نسبيا في هذه الازمة ، الا انه لا ينبغي ان تخفي عن الانظار الاسباب الجوهرية او الهيكلية الاساسية التي اعاقت نمو المطابع وحركة نشر الكتب بالبلاد الاسلامية والتي تتمثل اساسا في مقاطعة المتعلمين لها وصعوبة تغيير تقاليد القراء في التعامل مع وعاء جديد للكتابة .

4 . 1 . 7 - تردد القراء :

ان الحوار بين المحافظين والاصلاحيين كان ابعد ما يكون من أن يفضي في القرن 12هـ/18م الى اتفاق حاسم حول قبول فكرة التجديد والاصلاح في اي مجال . وانطلاقا من هذا الاعتبار وجد المطبعيون صعوبة في ادخال المطبعة والكتاب المطبوع في تقاليد المسلمين ، نتيجة تردد القراء في

---

(164) رجب باشا رجل اداب له مؤلفات في الشعر والتاريخ كان معجبا بالتقدم العلمي بأوربا بنى مكتبة كبيرة .
Encycl. Islam 1e éd. suppl. pp. 194-195 ; Lewis, The emergence... op. cit., p. 48 ; Browbe, Voyage... op. cit., T II, p. 267.

(165) انتهى صراع الدولة العثمانية مع روسيا بامضاء اتفاقية كوشيك كينارج في 1188هـ/1774م الذي يقضي باستغلال القرم كما ان الصراع مع الفرس انتهى بفقدان البصرة وقتيا .

(166) فرمان عبد الحميد الاول توجد الترجمة الفرنسية له في كتاب Toderini, De la littérature... op.cit., T3, p.225.
يذكر المستشرق الفرنسي بيانكي نفس الاسباب تقريبا اي موت مدير المطبعة والحروب Bianchi, Notice... op. cit., p. 35.

(183) . وعلاقتها بمطبعة استانبول . ويوجد رأيان مختلفان في هذه النقطة بالذات. الرأي الاول : للمستشرق رينو الذي يرى ان محمد علي باشا اسس مطبعة بولاق رغبة منه في تقليد مطبعة استانبول (184) . وهنا يرفض ابو الفتوح رضوان هذا الرأي ، ويعتقد ان محمد علي لم يكن قبل وصوله الى مصر، مطلعا على النشاط العلمي والثقافي الموجود بالعاصمة العثمانية، اذ لم يكن سوى رجل امي يتعاطى التجارة بالبانيا، موطنه الاصلي قبل ان يلتحق بالجيش ويصل في النهاية الى منصب والي مصر . ويمضي ابو الفتوح رضوان في تحليله فيقول : "ان رأي رينو " لايفسر انشاء المطبعة اذ لا بد من غرض يدفع الوالي الى محاكاة مطبعة القسطنطينية . اما التقليد في ذاته فلا يمكن ان يكون سببا" (185) ويصل في النهاية الى ان مطبعة بولاق كانت جزءا من مشروع اصلاحي كبير (186).

واذا لم يتأكد التأثير المباشر لمطبعة استانبول على مطبعة بولاق ، فان التاثير غير المباشر واضح . من ذلك ان المصريين كانوا على علم بوجود مطبعة باستانبول بعد قرن من ظهورها. وكان لابراهيم متفرقة كما راينا دور أساسي في تمهيد الطريق لكل المبادرات والمشاريع التي حدثت فيما بعد بالبلاد الاسلامية في هذا المجال. اذ انه وفر الارضية القانونية الملائمة لانتشار فن الكتابة الجديد اذ وفق في الحصول على فتوى من شيخ الاسلام وعلى قرار سياسي من السلطان العثماني يسمحان باستخدام هذا الفن، كما ساهم في تغيير عقلية المحافظين الرافضين لاي تغيير في مجال أوعية الكتابة ولاي اكتشاف ثقافي اروبي آخر ونظرا الى ان مصر كانت ولاية عثمانية ، فما من شك أنها استفادت من هذا العمل التمهيدي الاساسي لاقامة مطابع على أراضيها .

هناك ولاية عثمانية أخرى تأثرت بمؤسسة متفرقة وهي تونس التي اقامت اول مطبعة اسلامية لها في 1274هـ/1859م. وهذا التأثير على عكس مصر، كان مباشرا اذ اقتدى مؤسسو الورشة بمشروع استانبول. من ذلك ان أحد ضباط باي تونس ويدعى كاليغاريس كتب رسالة شبيهة برسالة وسيلة الطباعة سماها : "**رسالة في منفعة اقامة مطبعة للكتب العربية في محروسة تونس**" ويعدد فيها مؤلفها مزايا استخدام فن الطباعة على غرار رسالة متفرقة. وكان مؤلف الرسالة على علم بمنشورات استانبول الاولى وخاصة كتاب الجغرافيا "جهان نما" اذ يقول "وقد كانت المطبعة سابقا في استانبول طبعوا فيها كارطة الدنيا بالتركي وعدة كتب وغير ذلك ثم بطلت"

---

(183) قدم رضوان هذا التاريخ الذي بقي محل جدل والذي استقاه من نقيشه وضعت في مدخل مبنى مطبعة بولاق . رضوان ، ص 46 .

(184) Reinaud, "De la Gazette arabe et Turque imprimée en Egypte" in Journal Asiatique, série 2, T VIII, 1831, p. 238.

(185) رضوان ، تاريخ ، ص 29 - 30

(186) المصدر السابق ، ص 34 .

(188). انه بالرغم من العمل الريادي الذي قام به الصدر الاعظم ابراهيم باشا داماد وسعيد شلبي وابراهيم متفرقة في سبيل نشر فن الطباعة بالعاصمة العثمانية. وبالولايات العثمانية ايضا فانه لم يقع القضاء على كل المعوقات وبالخصوص اقناع فئات عريضة من المتعلمين بتعويض المخطوط بالكتاب المطبوع، الا بعد وقت طويل، لانه ليس من السهل تغيير العقليات وخاصة لدى امة لها تقاليد راسخة في مجال الكتاب والكتابة وهنا نشير الى عامل فني هام ساهم بقسط وافر في عملية التحول من المخطوط الى المطبوع وهو "فن الطباعة الحجرية".

4 . 3 . 2 - المطبعة الحجرية : "جسر بين الكتاب المخطوط والمطبوع" :

اكتشف الالماني سنفلدر فن طباعة النصوص المكتوبة على الحجارة الكلسية (La lithographie) في 1209هـ/1796م. وسرعان ما انتشر هذا الفن في اوروبا ثم في الشرق.. ويتميز الكتاب المطبوع بهذه الطريقة بشبهه الكبير بالمخطوط وهو لا يمثل بالتالي اي قطيعة مع الماضي ولا يتسبب في اي صدام مع العادات الثقافية، الا ان فن الطباعة الحجرية مع ذلك ساهم مساهمة متميزة في تعويد القراء على قراءة الكتاب المطبوع. ومن هنا كان اقبال المسلمين على الطباعة الحجرية كبيرا، حيث كانت لها مزايا كثيرة ومهمة ولها علاقة وطيدة بخصوصيات الثقافة العربية الاسلامية.

مزية تقنية :

تتميز المطبعة الحجرية بقدرتها على استنساخ النصوص والخرائط والرسوم بمرونة، الامر الذي لا تقدر عليه المطبعة بالحروف الناتئة بمثل تلك المهارة والسرعة (189).

مزية فنية :

للمطبعة الحجرية قدرة كبيرة على نسخ الخط العربي البديع بكل أمانة وسهولة نظرا الى أنه يكتب على الحجارة بخط اليد (190) وبذلك تستجيب لاذواق الشغوفين بالخط العربي. فكانت هذه احدى الاسباب التي تفسر تواصل طبع مصحف القرآن الكريم بهذه الطريقة الى اليوم (191).

---

(187) Demeerseman, "Une page nouvelle de l'histoire de l'imprimerie en Tunisie "in IBLA, n 75, 1956, pp. 276-280, 306-309.

(188) المصدر السابق، ص 279.

(189) Demeersman, "Une parente pauvre de l'imprimerie arabe et tunisienne : La lithographie in IBLA... , n 64, 1953, p. 351.

(190) المصدر السابق، ص 352

(191) مطبعة الاوفسيت هي امتداد المطبعة الحجرية

مزية ثقافية :

ان الطباعة الحجرية لا تتسبب في قطيعة مع عادات المتعلمين القرائية ومع استئناسهم بالكتابة بخط اليد (192) وفي الآن نفسه تنسخ مئات النسخ من الكتب .

مزية اجتماعية :

تتمثل في قدرة الناسخين على تعاطي هذا الفن الجديد والتحول تدريجيا من مهنة الناسخ الى مهنة المطبعي وبذلك، فان الطباعة الحجرية لا تقضي على مورد رزق صنف الناسخين الا بعد فترة طويلة.

مزية اقتصادية :

ان المطبعة الحجرية لا تتطلب اقامتها اموالا طائلة مثل ما تتطلبه المطبعة بالاحرف المعدنية المنفصلة. ويعتبر المشكل المالي من اكبر المشاكل التي اعترضت المطابع العربية التي اقيمت بحلب والشوير واستانبول، وتسبب في توقف بعضها لفترات طويلة .ان المطبعة الحجرية بفضل ما تقدمه من فوائد (193) تعتبر جسرا بين المخطوط والكتاب المطبوع، ولا تتسبب في قطيعة مع العادات الثقافية، بل انها تعمل على اعداد المسلمين نفسانيا لقبول احرف الطباعة الناتئة المنفصلة (194) ان هذا التحول التدريجي من المخطوط الى المطبوع الذي يحدث بفضل المطبعة الحجرية يتوافق زمنيا مع احتداد الحوار بين المحافظين والمجددين حول تجديد المجتمع الاسلامي. وهذان التياران استفادا من خدمات فن الطباعة لنشرآرائهما ومشاريعهما، فكان ان ظهرت الصحف والكتب العلمية والاسلامية والمدرسية وغيرها وازدهرت في القرن 13هـ/19م (195) .

---

(192) Demeersman, "Une parente... oop. cit ., "p. 361

(193) انظر اكثر تفاصيل في : "la lithographie "in : journal asiatique, 1834, T XIV, p. 266.

(194) لا ينبغي ان ننسى ان المطبعة الحجرية لها عدة عيوب، كان تنسخ الكتب مليئة بالاخطاء بما ان الناسخ يصعب عليه فنيا اصلاح كل الاخطاء وكذلك قدرتها على استنساخ الكتب بنفس العدد الذي توفره المطبعة بالحروف الناتئة .

(195) ظهرت اول مطبعة بمصر في 1235هـ/1820م وفي فلسطين في 1261هـ/1846 وتونس في 1274هـ/1859 وفي المغرب في 1287هـ/1873م واليمن في 1291هـ/1877 والحجاز في 1296هـ/1882م وظهرت 2700 مجلة ودورية من1216هـ/ 1800م الى 1349هـ/1929 حسب فيليب طرازي ، تاريخ الصحاف العربية ، بغداد ، ج 4، ص 494 . المثنى 1967 . وقد لقي فن الطباعة صدى واسعا في القرن 13هـ/19م وتحدث الادباء والشعراء والمفكرين عن مزاياه ونقتصر هنا على تقديم هذا البيت الشعري للشيخ احمد الازهري حول الموضوع : لله مطبعة بحسن طباعها ... احيت عظام الكتب وهي رميم
انظر ادبيات المطبعة في كتاب : طرازي ، فيليب ، **تاريخ الصحافة** ، ج 1 ، ص 5 - 7 وعن فوائد المطبعة الحجرية انظر قصيدة الشاعر التونسي في مجلة ايبلا : IBLA, n 64, 1953, p. 378.

ان هذه البداية المحتشمة للمطبعة العربية بالمشرق، كان لا مفر منها اذ وجب المرور بمرحلة تحول صعبة لدفع المتعلمين المسلمين الى استعمال ادوات عمل ثقافية جديدة. وقبل ذلك لاعدادهم للتفتح على مجتمعات غير اسلامية واستعارة بعض مكتشفاتها وتفهم آرائها. فكان التردد والحيرة وكان الحوار الشاق والطويل الذي تواصل بين المصلحين والمحافظين لاكثر من قرن بعد ظهور مطبعة استانبول حتى يدخل فن الكتابة الجديد في تقاليد وعادات المجتمع الاسلامي .

5 - الخاتمة الفصل الثاني :

دخلت المطبعة الامبراطورية العثمانية في فترة التفتح على الغرب وعلى تقنياته واكتشافاته وتعد المطبعة اكبر المنجزات العلمية والثقافية للسلاطين العثمانيين في القرن 12هـ/18م. ففي "عهد الخزامى" تمكن الاصلاحيون من تحقيق مآربهم واقناع المحافظين بجدوى فن الطباعة ويعتبر المصلح ابراهيم متفرقة ، في هذا الصدد، ابرز مؤسسي المطبعة اذ ساهم في اقناع كل الاطراف القريبة من الباب العالي باهمية المشروع، قبل ان يصبح مديرا لاول مطبعة اسلامية بالحرف العربي في الامبراطورية . ماهي توجهات مطبعة استانبول ؟

اتجهت المطبعة نحو طبع كتب غير متعلقة بالفقه والشريعة، بناء على فتوى شيخ الاسلام وقرار السلطان احمد الثالث . فاختارت بضع مجالات معرفية للتركيز عليها فكان ان نشرت كتبا في الجغرافيا واللغة وفنون الحرب والتاريخ، وهذا المجال الاخير احتل نصيب الاسد في منشوراتها. ثلاثة عشر كتابا من جملة عشرين . والغرض من هذا الاختيار هو ابراز امجاد سلاطين بني عثمان وتدعيم شرعيتهم التاريخية. الا انه بالاضافة الى هذا الهدف رمى المشرفون على المطبعة الى اقحام بعض الافكار الاصلاحية ودعوا الى التفكير في اسباب الهزائم وانقراض الدول السابقة، فكانت المطبعة بمثابة منبر لدعاة الاصلاح للتعريف بآرائهم الاصلاحية والدعوة للتفتح على الغرب. لذلك يمكن اعتبار المطبعة مؤسسة أنشأها ورعاها رجال السياسة لخدمة الباب العالي سياسيا اكثر من خدمة الرعية ثقافيا وعلميا .

ما هو اسهام منشورات مطبعة استانبول في تنشيط الحياة الفكرية والعلمية داخل الامبراطورية؟

نظرا لعدم توجه المطبعة نحو طبع كتب تتعلق بالشريعة والفقه، فانها لم تجد اقبالا من طرف القراء، بل على العكس من ذلك بقي المخطوط الديني رائجا بدون منازع في اوساط المتعلمين، وبالاضافة الى محتوى منشورات المطبعة الذي لم يجلب القراء، فان تردد المتعلمين وعدم تحمسهم لاقتناء الكتاب المطبوع، كان سببا هاما في عدم رواج هذه المنشورات . فالمسلمون بقوا متعلقين بالكتابة بخط اليد ولم يكن من السهل تغيير عاداتهم القرائية في وقت قصير من طرف مطبعة واحدة

مهما بلغ نشاطها. بل ان هذه المطبعة الوحيدة بقيت ظاهرة منعزلة وغريبة عن الاطار الثقافي والعلمي العام للامبراطورية. اذ لم تصحبها مشاريع اخرى لتحقيق التكامل ولاثراء الحياة الفكرية . من ذلك مثلا احداث مدارس عصرية او مكتبات او مطابع اخرى وغيرها من المؤسسات الثقافية والعلمية . ونظرا لضعف رواج الكتاب المطبوع، فان المطبعة لم تستطع ان تشع على الحياة الثقافية بالمشرق الاسلامي الا قليلا . ولم تتمكن من نقل المعارف الحديثة وتبادل الافكار بل انها بقيت تتخبط طيلة نصف قرن من انطلاقتها في مشاكل مادية وادارية معقدة ، الامر الذي تسبب في تعطلها وتوقفها لمدة اطول من المدة التي بقيت فيها مفتوحة .

الا ان هذا التخبط والاضطراب في حياة اول مطبعة اسلامية بالحرف العربي كان لا مفر منه فقد ظهرت في مجتمع متعلق بالمخطوط وبالتراث المكتوب ومنغلق على نفسه ، وان ظهرت فيه بوادر التفتح على مجتمعات وحضارات أخرى . ومع ذلك فقد وفقت المطبعة تدريجيا في غرس تقاليد جديدة لدى المتعلمين المسلمين تتمثل في استخدام الكتاب المطبوع والتعامل مع انتاج المطابع. وقد جاء ذلك نتيجة اقتناع وتفهم المستفيدين باهمية فن الكتابة الجديد في التقدم العلمي والثقافي للمجتمع الاسلامي. كما انه من ابرز اعمال مؤسسي مطبعة استانبول نجاحهم في تمهيد الطريق لمشروعات اخرى مماثلة بعد تغلبهم على المعوقات القانونية بحصولهم على موافقة علماء الدين الاسلامي على استخدام فن الطباعة مع بعض الشروط ، فظهرت مطابع اسلامية كثيرة بعد قرن من ذلك في عديد الولايات العثمانية . وهذه المطابع ساهمت في ازدهار حركة نشر الكتب والصحف والمجلات وكلها ساعدت على نقل الآراء والعلوم الحديثة وفي احياء كتب التراث وفي ادخال حركية جديدة في الحياة العلمية والادبية في القرن 13هـ/19م حتى عرف ذلك العصر "بعصر النهضة" .

خاتمة عامة

يعتبر ادخال المطبعة العربية الى المشرق علامة تفتح للامبراطورية العثمانية على العالم الغربي وبداية تنفيذ مشروع اصلاحي كبير. الا أن الكتاب المطبوع لم ينجح في نقل الآراء الجديدة ولا في نشر العلوم على نطاق واسع على غرار ما حدث بأروبا. ذلك ان المسلمين والمسيحيين كان لكل منهم مفهوم خاص لفن الطباعة مثلما كانت لهم نظرة خاصة للمخطوط. فوعاء الكتابة التقليدي كان محل نقد لاذع من طرف الطوائف المسيحية، فهو الذي نقل الاخطاء وحرّف النصوص المسيحية المقدسة وروج الاضاليل. ويرى المسلمون من جهتهم ان المخطوط قد أضر كثيرا بالآداب والعلوم فهو لم ينقل المؤلفات الكبرى للعلماء المسلمين ، ولم يحافظ عليها مما جعلها تختفي او تتلف نتيجة للحروب والكوارث الطبيعية . كما ان المخطوط يزخر بالاخطاء النحوية نتيجة اهمال الناسخين وحرصهم على جمع المال الوفير باقل جهد ممكن .

واذا ما اقتنع المسيحيون بجدوى الطباعة منذ القرن 10هـ/16م ، ورحبوا بالكتاب العربي المطبوع باروبا ، بل وساهموا في عملية النشر العربي هناك وحاولوا ادخال المطبعة الى المشرق منذ ذلك العهد ، فذلك لان اكتشاف المطبعة جاءهم من حضارة غير غريبة وهي محل ثقة بالنسبة اليهم ، لان اخوانهم في الدين المسيحي باروبا قد استخدموا فن الطباعة واقتنعوا بفوائده ، وكذلك لانهم اكتشفوا بان الكتاب المطبوع هو انجع وسيلة لتنشيط الحياة الدينية واعادة الاعتبار لطوائفهم داخل الامبراطورية العثمانية .

اما بالنسبة للمسلمين فالمطبعة لم تكن مجرد اسلوب فني جديد لنسخ الكتب بكثرة ، بل هي اكثر من ذلك بكثير. فهي وسيلة لتغيير نمط حضاري كامل وادخال روح جديدة للثقافة والعلوم . وفي هذا الاطار دار حوار بين المجددين والمحافظين حول موضوع الكتاب المطبوع والمخطوط ، والمطبعي والناسخ ، حول حروف الطباعة المعدنية والخط العربي الجميل حول المخطوط باعتباره شاهدا على نمط حضاري قديم والكتاب المطبوع باعتباره ممثلا لنمط حضاري حديث مستنبط من الغرب . وهكذا فان الحوار دار حول قضية جوهرية تتمثل في سبل اصلاح وتحديث المجتمع الاسلامي لمواكبة التقدم العلمي والنهوض بالامة والتصدي للتحديات الغربية. ولم تكن الاطراف المتجادلة على قدم المساواة عدديا . الا أن المجددين، رغم قلة عددهم، وجدوا الفرصة سانحة لتنفيذ بعض آرائهم الاصلاحية عندما وجدوا مناخا ملائما اتسم بتفتح الباب العالي على الغرب ، في عصر عرف "بعصر الخزامى" وقاموا بادخال أول مطبعة اسلامية بالحرف العربي الى استانبول. وهذا العمل يمثل منعرجا حاسما في التاريخ الاسلامي الحديث اذ انه يعني اقرار مبدإ ادخال التقنيات والاكتشافات الاروبية في البلاد الاسلامية والتفتح على الغرب ، بعد انغلاق تام وحروب دامية عبر العصور المختلفة بين بلاد الاسلام وبلاد المسيحية ، وباقامة مطبعة اصبح من اليسير على الاصلاحيين بث آرائهم الاصلاحية ونشر الفنون والعلوم الحديثة .

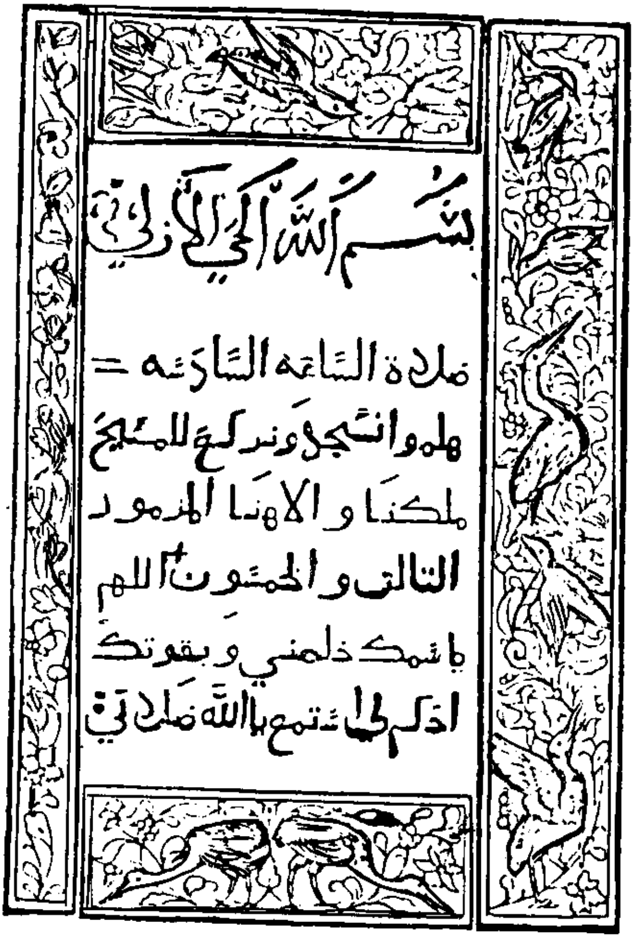
ان الشرق والغرب يختلفان في نمط حضارتيهما ، فكانت نتائج المطبعة ايضا مختلفة . ان نشر الكتب المسيحية ساهم عند الارثودكس الملكيين وكذلك عند المارونيين ، في بلورة هوية طوائفهم وتدعيم الروابط الروحية داخل كل طائفة. ففن الطباعة كان وسيلة متميزة لمقاومة الاضاليل والاخطاء الدينية التي نشرها المخطوط في اوساط المسيحيين ببلاد الشام . الا ان كل مطبعة مسيحية اتخذت موقفا مختلفا عن مثيلاتها في الصراع الطائفي . فمطبعة الشوير كانت حليفة كنيسة روما وقد قامت بنشر كتب للتعريف بالمذهب الكاثوليكي. وللتصدي لهذا التسرب الكاثوليكي قامت مطبعة بيروت بردّ الفعل فلم يكن بالتالي هناك اي تبادل للافكار بين هذه الطوائف ولم يحدث اي تواصل معرفي بينهما ، اذ لم تنشر المطابع المسيحية اي كتاب علمي. لان مفهوم المطبعة عندهم كان يعني تسخير الكتاب المطبوع للتعريف بالمذهب و "بالطريق الصحيح نحو الايمان".

وتبقى بلاد الشام مدينة للطائفة الملكية ، بانها اول من اسست مطبعة عربية هناك ، وتغلبت على كل العقبات وغرست تقاليد جديدة في التعامل مع وعاء الكتابة الجديد. الا ان هذا العمل لم يكن ليخلو من نقائص. فاشعاع المطابع المسيحية كان جد محدودا، اذ لم يقبل المسيحيون على استخدام هذه الكتب الا نادرا وهذا نظرا لانتشار الامية بينهم ونظرا لان محتوى المنشورات لم يكن ليسمح بانتشارها على نطاق واسع داخل البلاد الاسلامية . ثم ان هذه المطابع واجهت مشاكل عديدة ولم تصمد امامها الا مطبعة الشوير .

وتختلف مطبعة استانبول في توجهاتها عن المطابع المسيحية ببلاد الشام. فقد اهتمت فقط بطبع كتب لا تتعلق بالفقه والشريعة الاسلامية، وفقا لفتوى شيخ الاسلام وقرار السلطان العثماني. وكان اختيارها منصبا نحو نشر كتب التاريخ بالخصوص لاغراض سياسية، فهي وسيلة لدعم الشرعية التاريخية للسلاطين العثمانيين ، وفي الآمن نفسه منبرا للاصلاحيين ، الا ان اشعاع مطبعة استانبول كان على غرار مطابع بلاد الشام محدودا . فهي ظاهرة غريبة ومنعزلة في محيطها الثقافي . فلم تجد مؤسسات علمية و ثقافية حديثة لمساندتها، هذا بالاضافة الى مزاحمة المخطوط لها الذي حافظ على امتياز نقل كتاب القرآن وكتب الشريعة والفقه . وفي احتفاظ المخطوط بهذه المكانة، امتداد لنمط الحضارة التقليدي .

ان الحوار بين المجددين والمحافظين حول تجديد الحضارة الاسلامية لم يكن لينتهي مع ادخال المطبعة ، بل تواصل على امتداد القرون الموالية ، ولم تقع استعارة كثير من المكتشفات الاوروبية في القرن 12هـ/18م ، بسبب تردد العلماء والمحافظين بصفة عامة في قبول اي تغيير، اما فن الكتابة الجديد فانه لم يدخل في تقاليد المسلمين الا بعد قرن من اقامة اول مطبعة باستانبول ، وعندها اصبحت المطبعة بمثابة المحرك الرئيسي لحركة النهضة التي ظهرت في القرن 13هـ/19م . ويمكن القول ان يقظة المجتمع الاسلامي الحديث قد بدات منذ بداية القرن 12هـ/18م مع انطلاق الحوار حول تحديث هذا المجتمع ، ومع التفتح على اروبا واستعارة مكتشفاتها والتي من ابرزها اداة الطباعة التي اسهمت فيما بعد ، في نشر العلم ونقل الافكار الاصلاحية . وزاد في تدعيم هذا المسار ظهور حركة دينية اصلاحية في نفس القرن في شبه الجزيرة العربية بقيادة محمد بن عبد الوهاب ، هذا وان بحوثا اخرى ، على ضوء وثائق ومعلومات جديدة حول المطبعة العربية بالمشرق الاسلامي في القرن 12هـ/18م ، قد تؤكد هذه النتائج .

FACS - SIMILES


بسم الله الحي الأزلي
صلاة الساعة السادسه =
هلموا نسجد ونركع للمسيح
ملكنا والاهنا المزمور
الثالث والخمسون اللهم
باسمك خلصني وبقوتك
احكم لي استمع يا الله صلاتي

PREMIER LIVRE IMPRIME EN ARABE :

Kitab ṣalat as-sawaii (livre d'heures) publié à Fano en 1514.

(Extrait de Karalevski (C).— Histoire des patriarcats melkites T. III p. 102.)

الصفحة الأولى من كتاب القانون الثاني في الطب طبع بمدينة روما
لدى الميدتشي سنة 1593 .

قائمة بيليوغرافية بالكتب المطبوعة باستانبول وبلاد الشام
في القرن 12 هـ / 18م

1 - الكتب المطبوعة باستانبول (1141 هـ / 1728م - 1202 هـ/ 1787م) :

1 - الجوهري (أبو نصر اسماعيل بن حماد الفارابي) ، **صحاح جوهري مع ترجمة تركية** لمحمد بن مصطفى الواني ، - القسطنطينية : دار الطباعة المعمورة ، 1141 هـ / 1728 ، جزءان، 33 سم ، الجزء 1 ، 24 ص ، 666 ص - الجزء 2، 756 ص .

يتضمن الكتاب نص خط همايون للسلطان احمد الثالث ونص فتوى شيخ الاسلام ترخص باستعمال المطبعة ونص الرسالة المسماة بوسيلة الطباعة لابراهيم متفرقة وتقاريض العلماء على هذه الرسالة .

أعيد طبع الكتاب (عربي - تركي) بنفس المطبعة سنة 1170 هـ / 1756م .

2 - حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله المعروف بكاتب شلبي) ، **تحفة الكبار في أسفار البحار** ، القسطنطينية ، دار الطباعة المعمورة ، 1142 هـ / 1729م .

3 - كريزنسكي (تادي) الأب ، **تاريخ سياح** ، القسطنطينية ، ابراهيم متفرقة بدار الطباعة ، 1142 هـ / 1729م .

4 - المسعودي (احمد بن عامر الحسن) ، **تاريخ هند غربي** ، القسطنطينية ، ابراهيم متفرقة بدار الطباعة ، 1142هـ / 1729 م، 182 ص ، خرائط ورسوم وجداول .

5 - ابن عربشاه (احمد)، **تاريخ تيمور جرجان** ، ترجمة تركية لنظمي زاده ، - القسطنطينية ، ابراهيم متفرقة بدار الطباعة ، 1142 هـ / 1729 م.

6 - سهيلي (افندي) ، **تاريخ مصر القديم والجديد** ، القسطنطينية ، ابراهيم متفرقة بدار الطباعة ، 1142 هـ / 1729 م ، 102 ص ، 130 ص ، 23 سم .

7 - **كلشان خلفاء** ، ترجمة تركيه لنظمي زاده ، القسطنطينية ، ابراهيم متفرقة بدار الطباعة ، 1143 هـ / 1730 م .

8 - HOLDERMAN (Jean Baptiste) P., Grammaire turque ou méthode courte et facile pour apprendre la langue turque, Constantinople, 1143 / 1730 , 194p , 21 cm.

نص فرنسي - تركي

9 - متفرقكان (ابراهيم) ، **اصول الحكم في نظام الامم** ، القسطنطينية ، ابراهيم متفرقكان دركاه عالي الماذون بعمل الطبع بدار الطباعة ، 1144 هـ/ 1731م ، 96 ص ، 21 سم.

10 - متفرقكان (ابراهيم) ، **فيوصات مغناطيسي** ، القسطنطينية ، ابراهيم متفرقة بدار الطباعة ، 1144 هـ / 1731م .

11 - حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله المعروف بكاتب شلبي) ، **جهان نما** ، القسطنطينية ،

ابراهيم متفرقة بدار الطباعة، 1145 هـ / 1732 م، خرائط ملونة.

12 - حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله المعروف بكاتب شلبي) ، **تقويم تواريخ**، القسطنطينية، ابراهيم متفرقة بدار الطباعة، 1146 هـ/ 1733 م.

13 - نعيمة (احمد) ، **تاريخ نعيمة (حوليات عثمانية من 1001هـ / 1592م الى 1070هـ / 1659م)**، القسطنطينية، ابراهيم متفرقة بدار الطباعة، 1147 هـ / 1734م، جزءان.

14 - راشد (افندي) ، **تاريخ راشد (حوليات عثمانية من 1070 هـ / 1660م الى 1134 هـ/ 1721م)**، القسطنطينية، ابراهيم متفرقة بدار الطباعة، 1153هـ / 1740 م، جزءان.

15 - شلبي (زاده) ، **تاريخ شلبي (حوليات عثمانية من 1134هـ / 1721م الى 1141 هـ/ 1728م)**، القسطنطينية، ابراهيم متفرقة بدار الطباعة، 1153 هـ / 1740 م.

16 - عمر (افندي) ، **احوال غزوات ديار بوسنه**، القسطنطينية، ابراهيم متفرقة بدار الطباعة، 1154 هـ / 1741 م.

17 - **فرهنك شوري (معجم بالفارسية والتركية)** ، القسطنطينية، ابراهيم متفرقة بدار الطباعة، 1155 هـ / 1742 م.

18 - **تاريخ سامي وشاكر وصبحي** (حوليات عثمانية من 1141 هـ/ 1728م الى 1159هـ / 1743م)، القسطنطينية، دار الطباعة، 1199 هـ / 1784 م.

19 - **تاريخ عزي** (حوليات عثمانية من 1159 هـ / 1743م الى 1166هـ / 1751م) ، القسطنطينية، دار الطباعة 1199 هـ / 1784 م.

20 - ابن الحاجب ، **اعراب الكافية** / ترجمة زاني زاده ، القسطنطينية ، دار الطباعة ، 1200 هـ/ 1785 م.

II الكتب المطبوعة بحلب : (1118 هـ / 1706 م - 1123 هـ/ 1711 م) :

1 - **كتاب الزبور الشريف**، حلب، 1118 هـ / 1706م - VIII، 276 ص. اعيد طبع الكتاب في 1121 هـ/ 1709 م.

2 - **كتاب الانجيل الشريف الطاهر والمصباح المنير الزاهر** ، تقديم اثناسيوس البطريرك الانطاكي، - حلب : **اثناسيوس البطريرك الانطاكي ، 1118هـ / 1706م** ، 590 ص ، 30 سم ، رسوم . اعيد طبع الكتاب بحلب في 1120 / 1708 على نفقة يواني مازابه.

3 - القديس يوحنا فم الذهب ، **كتاب الدر المنتخب من مقالات القديس يوحنا فم**

الذهب ، تقديم اثناسيوس البطريرك الانطاكي ، حلب ، 1119 هـ/ 1707 م، 511 ص .

4 - كتاب النبؤات الشريف ، حلب: طبع باهتمام الأب كيريو كير كيرالوس البطريرك الانطاكي، 1120 هـ/ 1708 م، 276 ص .

5 - **كتاب الرسائل** ، حلب ، (1120 / 1708) .

6 - **كتاب الباركليتيكي اي المعزي** ، حلب : طبع بسعي الاب كير اثناسيوس البطريرك الانطاكي ، 1123 هـ / 1711 ، جزءان ، جزء 1 ، 314 ص ، جزء 2 ، 315 ص .

7 - **رسالة وجيزة توضح كيفية التوبة والاعتراف وفيما يلزم المعترف والمعرف** (أو سلك الدر النظيم في سر التوبة والاعتراف القويم ، حلب ، 1123 هـ / 1711 م، 170 ص .

8 - اثناسيوس ، بطريرك أورشليم ، **كتاب المواعظ الشريف** ، حلب ، 1123 / 1711، 18 ص - 321 ص ، 30 سم .

نص عربي ، يوناني (اليونانية في المقدمة فقط) ، طبع الكتاب على نفقة الاب كير خر يستطوس البطريرك الاورشليمي .

III الكتب المطبوعة بالشوير (1147 هـ/ 1734 م - 1202 هـ/ 1787م) :

1 - نير امبرك (يوحنا اوسابيوس) ، **ميزان الزمان وقسطاس ابديه الانسان** ، ترجمة من الايطالية الى العربية بطرس فرماج ، دير القديس يوحنا الصابغ الملقب بدير الشوير في جبل الدروز من معاملة صيدا ، 1147 هـ/ 1734 م، 362 ص ، 23 سم .

2 - **كتاب الزبور الالهي لداود النبي** ، **دير القديس** ماري يوحنا الصابغ الملقب بالشوير الكاين في جبل كسروان ، 1148 / 1735 ، 327 ص ، 17 سم .

- أعيد طبع كتاب الزبور بمطبعة الشوير خمس مرات، 1739 - 1753 ، 1764 ، 1770 ، 1780 .

3 - **كتاب وجيز يشتمل على تاملات روحية لايام الأسبوع** ، الشوير ، دير القديس يوحنا الصابغ ، 1149 هـ / 1736 ، 159 ص .

4 - **اوترمان** ، **كتاب مرشد المسيحي** ، ترجمة بطرس فروماج وعبد الله الزاخر ، الشوير : دير القديس يوحنا الصابغ ، 1151 هـ / 1738 ، 357 ص .

5 - كمبيس (توماس) ، **الاقتداء بالمسيح** ، ترجمة سلستين سانت ليدوين ، الشوير ، دير القديس يوحنا الصابغ ، 1152 هـ/ 1739 م .

6 - ديدكس (ستالة) ، **كتاب احتقار اباطيل العالم** ، ترجمة رفائيل فنتيول وألونصو ميشال كورجاد ، الشوير ، دير القديس يوحنا الصابغ ، 1152 هـ/ 1739م ، جزءان ، جزء 1 ، 579 ص، جزء 2 ، 582 ص .

7 - سينيري (الانابولس اليسوعي) ، **كتاب مرشد الخاطي في سر التوبة والاعتراف** ، ترجمة من الايطالية الى العربية ، بطرس فرماج ، الشوير دير القديس يوحنا الصابغ ، 1159هـ / 1747م، 10ص - 285 ص ، 17 سم .

8 - أرنودي (بطرس) ، **كتاب تفسير سبعة مزمورات التوبة** ، الشوير ، دير القديس يوحنا الصابغ ، 1167 هـ / 1753 م ، 311 ص .

9 - **مختصر التعليم المسيحي** ، الشوير ، دير القديس يوحنا الصابغ ، 1169هـ / 1756م، 42 ص .

10 - **كتاب الرسائل المشتمل على أعمال الرسل القديسين** ، الشوير ، دير القديس يوحنا الصابغ بعمل الرهبان القانونيين الباسيليين من طائفة الروم الملكية ، 1171 هـ / 1758م ، 8 ص ، 404 ص، 24 سم .

11 - سينيري (بولس) ، **كتاب مرشد الكاهن** ، ترجمة بطرس فرماج ، الشوير ، دير القديس يوحنا الصابغ ، 1173 / 1760 ، 304 ص .

12 - **كتاب الاورولوجيون اي السواعي** ، الشوير ، دير القديس يوحنا الصابغ ، 1177هـ/ 1763 م - 12 ص ، 753 ص ، 17 سم .

13 - الزاخر (عبد الله) ، **كتاب البرهان الصريح في حقيقة سري دين المسيح** ، الشوير ، دير يوحنا الصابغ ، 1178 هـ/ 1764 م ، 129 ص ، 18 سم .

14 - **كتاب الاكطويخوس** ، الشوير ، دير يوحنا الصابغ ، 1180 هـ/ 1767 م ، 478 ص .

15 - **كتاب ايضاح التعليم المسيحي** ، ترجمة بطرس فرماج ، الشوير ، دير القديس يوحنا الصابغ ، 1181 هـ / 1768 م ، 399 ص .

16 - **كتاب تاملات جهنم المريعة وحماقة الخطاة الفظيعة** ، ترجمة يوسف بن جرجيس الحلبي ، الشوير ، دير القديس يوحنا الصابغ ، 1182 هـ / 1769 م ، 163 ص .

17 - رينالدي (ف) ، **كتاب قوت النفس المشتمل على تاملات شهرية** ، ترجمة من الايطالية ميخائيل مزراق ، الشوير ، دير القديس يوحنا الصابغ ، 1186 / 1772 ، 345 ص .

18 - **كتاب النبوات الكنائسي** ، الشوير : دير القديس ماري يوحنا الصابغ بعمل الرهبان القانونيين الباسيليين من طايفة الروم الملكية ، 1188 هـ/ 1775 م ، 226 ص ، 31 سم .

19 - **كتاب الانجيل الشريف** ، الشوير من جبل كسروان ، دير مار يوحنا الصابغ بعمل الرهبان القانونيين الباسيليين من طائفة الروم الملكية ، 1189 هـ / 1776 م، 315 ص ، رسوم ، 32 سم .

١٧ - الكتب المطبوعة ببيروت (1164 هـ / 1751 م - 1167 هـ/ 1753م) :

1 - **كتاب الزبور الشريف** ، بيروت ، دير القديس جيورجوس ، 1164 هـ/ 1751 - xxx - 367 ص .

- أعيد طبع كتاب الزبور في 1167 هـ / 1753 م .

2 - **كتاب الاورولوجيون** ، بيروت : دير القديس جيورجوس ، 1167 هـ / 1753 م .

****

ببليوغرافية

رتبت المصادر والمراجع والدراسات موضوعيا اي وفق المحاور الرئيسية لهذا البحث .

1 - توجيهات ببليوغرافية :

1 .1 - ببليوغرافيات وفهارس :

- عبد الهادي (محمد فتحي) ، **الدليل الببليوغرافي للانتاج الفكري العربي في مجال المعلومات (1976 - 1980)** ، تونس : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ادارة التوثيق والمعلومات ، 1983 ، 231 ص .

- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، **الدليل الببليوغرافي للانتاج الفكري في مجال المعلومات** ، تونس ، المنظمة ، 1987 .

Arab Islamic bibliography, edited by Grimwood-Hopwood-Pearson. London , Harvester Press, 1977.

BALAGNA (J) , **Inventaire des livres imprimés arabes (1514-1959)**, Paris : Bibliothèque Nationale, 1986, 1207 p.

BESTERMAN (TH). - **A World Bibliography of Oriental Bibliographies**, Totowa, New Jersey : Rownan and Littlefield, 1975.

BIANCHI (Thomas-Xavier), **Notice sur le premier ouvrage d'anatomie et de médecine imprimé en turc à Constantinople en 1820 ... suivi du Catalogue des livres turcs, arabes et persans imprimés à Constantinople depuis 1726 jusqu'à 1820**. - Paris: Cellot, 1821.

BLOCHET (E), **Catalogue des manuscrits turcs de la Bibliothèque Nationale**, Paris : BN, 1932-1933, 2 vol.

BROCKELMANN (Carl), **Geschichte de Arabischen Litteratur**, Leiden : Brill, 1943-1945, 5 vol.

BRUNET (Jacques Charles), **Manuel du libraire et de l'amateur de livres**, Paris: Maisonneuve et Larose, 1966, 8 vol, 1ère édition 1865.

Catalogue Général des livres imprimés à la Bibliothèque Nationale, Paris, Bibliothèque Nationale, 1897-1982, 231 vol.

CHEVALLIER (D) et BERQUE (J), **Les arabes par leurs archives**, Paris : C.N.R.S, 1974.

ELLIS (Alexandre George), **Catalogue of arabic books in the British Museum.**, London, 1894-1901, 2 vol. 2ème édition 1967.

Exposition de pièces et oeuvres du fonds arabe de la Bibliothèque Nationale et Universitaire de Strasbourg, 1959 (texte multigraphié).

GABRIELI (G), **Manuale di bibliografia musulmana**, Roma : Manuali coloniali, 1916.

GRAESSE (T), **Trésor de livres rares et précieux**, Dresde : Kuntze, 1895. 7 vol.

GRAF (Georg), **Geschichte der Christlichen arabischen literatur**, Roma : Bib. apost. Vaticana, 1944-1953, 4 vol, Tables.

Index Islamicus : A Catalogue of Articles on Islamic Subjects in Periodicals and Other Collective Publications, Compiled by J.D. Pearson, Cambridge, Heffer, 1958. Volumes : 1905-1955 ; 1956-1960 ; 1961-1965 ; 1966-1970 ; 1971-1975 ; Devient : The Quarterly index islamicus à partir de 1977 (trimestriel).

MASCH (A.G.), **Bibliothecae sacrae**, Halae : 1778-85, 4 vol.

Middle East and Islam : A Bibliographical Introduction / edited by Diana-Grimwood-Jones, London, 1979.

SACY (Sylvestre De), **Bibliothèque** / par M. Daunou, Paris : Imprimerie Royale, 1843-1847, 3 vol.

SAUVAGET (Jean), **Introduction à l'histoire de l'Orient musulman** /

édition refondue et complétée par C. Cahen. - Paris : Maisonneuve, 1961.

SCHNURRER (C.R.)., **Bibliotheca arabica.** - Halae : ad-Salam, 1811. Réédition Amsterdam Oriental Press, 1968.

SPIRIDONAKIS (B.G). - **Empire Ottoman : Inventaire des mémoires et documents aux archives du Ministère des Affaires Etrangères de France.** - Thessaloniki : Institute for Balkan Studies, 1973.

ZENKER (J.Th)., **Bibliotheca Orientalis : manuel de bibliographie orientale.**, Amsterdam : Oriental Press, 1966. (1ère édition Leipzig 1846).

1. 2 - Lexicographie : **1. 2 - معاجم وموسوعات وتراجم :**

- حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله المعروف بكاتب شلبي)، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، استانبول : وكالة معارف ، 1941 - 1943 ، جزءان.

- مشروع معجم الطباعة ، اللسان العربي (مكتب تنسيق التعريب بالرباط) ، مجلد 17 ، جزء 3، 1979 ، ص 155 - 188 .

- **Biographie Universelle.** - Paris : Michaud, 1801-1845 .

DESCHAMPS (Pierre). - **Dictionnaire de géographie ancienne et moderne.** - Paris, 1964 (1ère éd. 1870). / - L'imprimerie hors d'Europe. - Paris, 1964. (1ère éd. 1904).

Dictionnaire d'histoire et de géographie ecclésiastiques (D.H.G.E.) / Paris : Letouzey, 1912, 17 volumes (lettre F).

Dictionnaire de la Bible, publié par F. Vigouroux. - Paris : Letouzey, 1926-1972. 5 volumes, 8 suppléments.

Dictionnaire de théologie Catholique. - Paris : Letouzey, 1935-1972. 15 vol. 3 Tables.

Encyclopédia of Library and Information Science/edited by A. Kent and H. Lancour. New-York : Dekker, 1978. 40 vol.

Encyclopédie de l'Islam : dictionnaire géographique ethnographique et biographique des peuples musulmans. - Leyde : Brill, Paris : Picard et Maisonneuve, 1913. 1ère édition : 4 volumes et un supplément. 1913-1938.
2ère édition : 5 volumes 1960

HERBELOT (B). - **Bibliothèque Orientale** , Paris, 1697.

Jewisch Encyclopedia. - New-York, Londres : Funk and Wagnalls, 1901-1907. 12 vol.

Nouvelle Biographie générale. - Paris : F. Didot, 1857-1866, 46 vol .

2 - Sources : **2 . المصادر :**

2. 1 - **Archives :** 2 . 1 - الارشيف :

2. 1. 1. - **Bibliothèque Nationale de Paris :**

-**Manuscrits orientaux** : **Supplément turc** : nous avons consulté en particulier les traductions françaises de livres turcs publiés à Constantinople au XVIIIè s.

- N° 717 : Relation de Mehmet Effendi, ambassadeur turc à Paris en 1720.

- N° 838 : Histoire de l'Egypte de Suhayl Efendi. Trad. A. De Beauville.
- N° 876 : Extrait de Tuhfat al-Kibar fi asfar al-bihar de Haggi Halifa. Trad. J. Galland.
- N° 877 : Tarih Suyyah (Histoire des révolutions de Perse). Trad. J.V. Choquet.
- N° 882 : 1è ch. de Tuhfat al-Kibar fi asfar al-bihar. Trad. T. Rocques.
- N° 901 : Tarih hindi garbi. Trad. J.B. De Fiennes.
- N° 917 : Annales Ottomanes (1591-1602) trad. Digeon et Fonton.
- N° 922 : Histoire du Sultan Bayezid II. Trad. E. Roboly.
- N° 923 : Relation de la Révolution arrivée à Constantinople en 1143 / 1731. Trad. Fonton.
- N° 925 : Extraits des Tables chronologiques de Haggi Halifa. Trad. J. Wiet.
- N° 930 : Relation de la dernière guerre en Bosnie (1736-1739). Trad. Cardonne.

Manuscrits occidentaux :

- Mss fr 16153 ff 7-48 : Diffusion de livres protestants au Proche-Orient.
- N. A. F. 4752. ff 2-32. Pièces relatives à l'imprimerie de Constantinople au XVIIIè siècle.
- N. A. F. 8972 ff. 235-236. Correspondance entre Saïd Salabi et le bibliothécaire du Roi de France. 1727.
- N. A. F. 23058. 19 f. Documents relatifs à l'imprimerie de Constantinople au XVIIIè siècle.

2.1.2 - **Ministère des Affaires Etrangères-Paris :**

Mémoires et documents (M.D.) Turquie T. 10.

ff. 39-55 : Mémoire pour servir à règler le cérémonial pour la réception de l'ambassadeur turc envoyé à Louis XV en 1720.

ff. 166-284. Principales circonstances de ce qui a été et observé pour la réception de Mehmet Effendi ambassadeur turc.. en 1720-1721.

ff. 286-313 : Mémoire pour servir d'éclaircissement et de supplément aux deux relations que Mehmet Effendi a faites en turc de son ambassade en France, 1720.

M.D. Turquie T. 12 :

ff. 230-299 : Relation de Mehmet Effendi. Trad. par P.J. Aubert en 1723.

2.2 - Editions de textes et de documents : **2.2 - مصادر منشورة:**

الى جانب الكتب المطبوعة في حلب واستانبول والشوير في القرن 12 هـ / 18م (انظر القائمة البليوغرافية في الملحق) والتي تمثل مصدرا اساسيا في هذا البحث اطلعنا على المصادر الآتية

2.2.1 - Textes et documents : **2.2.1 - نصوص ووثائق :**

- ترجمة حياة الفيلسوف الشماس عبد الله الزاخر كتبها احد تلاميذه، الأسرة 1948

ص 386 - 396.

- توتل (فردينا‌ند) . وثائق تاريخية عن حلب : أخبار الموارنة وما اليهم من سنة 1606 الى 1647 ، بيروت ، 1958 ، جزءان .

BELDICEANU (Nicoara). - **Les actes des premiers sultans conservés dans les manuscrits turcs de la Bibliothèque Nationale de Paris.** - Paris : La Haye-Mouton. 1960. T. 1.

BIANCHI (T.X). - **Le Nouveau guide de la Conversation en français et en turc..suivi de la collection complète des capitulations ou traités de paix entre la France et la Porte Ottomane**. Paris : Dondey, 1852.

EFFENDI (Mehmet Yirmisekiz Celebi). - **Le paradis des infidèles : un ambassadeur ottoman en France sous la Régence.** - Paris : F. Maspero, 1981. (Coll. La Découverte). 1° éd. Paris 1757.

JOCK (P. Timothée) ou P. BACEL. - Abdallah Zakher (l'auteur reproduit de larges extraits des Annales Suaïrites). In : **Echos d'Orient**, N° 11, 1908 pp. 218-226, 281-287, 363-372.

MUTEFERRIKA (Ibrahim). - **Risala Wasila at-tiba'à** (lettre sur la manière d'imprimer ou l'utilité de l'imprimerie) / trad. Le Grand. In : **Revue des Bibliothèques N° 5**, 1895, pp. 193-200.

MUTEFERRIKA (Ibrahim), - **Usul al-hikam fi nizam al-umam = Traité de tactique ou méthode artificielle pour l'ordonnance des troupes** / trad. K. Reviczki, Vienne 1769.

NASRALLAH (J). - **Notes et documents pour servir à l'histoire du patriarcat melkite d'Antioche.** - Jerusalem, 1965. T. I.

Nouvelle description de la ville de Constantinople suivie du Journal de Mehemet Effendi ambassadeur turc à Paris en 1721, trad. J.C. Galland. - Paris, 1757.

OMONT (Henri). - **Missions archéologiques françaises en Orient aux XVII-XVIIIèmes siècles**, Paris, 1902 , 2 vol.

OMONT (Henri). - Documents sur l'imprimerie à Constantinople au XVIIIè siècle. In : **Revue des bibliothèques** N° 5, 1895 , pp. 185-200 ; 228-236; N° 36, 1926 , pp. 1-10.

RABBATH (A). - **Documents inédits pour servir à l'histoire du Christianisme en Orient**, Beyrouth, 1905-1921, 2 vol.

SAINT-PRIEST (Le Comte De).- **Mémoires sur l'ambassade de France en Turquie et sur le commerce des français dans le Levant. Suivis des textes des traductions originales des capitulations.** Paris, Ecole des Langues orientales, 1877.

VITRE (Antoine), **Histoire du procez qu'on renouvelle de temps en temps à A. Vitré à cause de l'achat que le roi l'a obligé de faire des poinçons, des matrices et des manuscrits turcs, arabes et persans que feu M. De Brèves avait apportez du Levant**, Paris :

Vitré (1656), (BN : Mss. Lat. 17172. fol. 28-36).

2.2.2. - Relations de voyageurs européens **2 .2 .2 - كتب الرحالة الاوربيين**

BROWNE (W.G.), - **Nouveau voyage dans la haute et basse Egypte, la** Syrie, le Dar-Four..., trad. J. Castera. - Paris : Dentu, 1800. 2 vol.

BUSBECQ (Ogier Ghislain De). - **Ambassades et voyages en Turquie et Amasie,** trad. Gaudon, Paris : David, 1646.

CANTEMIR (A. Demetrius). - **Histoire de l'Empire Ottoman**, trad. De Joncquieres., Paris : Barois, 1743. 2 vol.

CHARDIN (Jean). - **Voyage de Monsieur le Chevallier Chardin en Perse et autres lieux de l'Orient.** - Amsterdam : Lorme, 1711 3 vol.

DANDINI (P. Jérome). - **Voyage du Mont Liban,** trad. R.S.P. Richard Simon. - Paris : L. Billaine, 1675.

LEFEBVRE (MICHEL). - **L'Etat présent de la Turquie.** - Paris : Courterot, 1675.

MARSIGLI (Le Comte De). - **L'état militaire ottoman : ses progrès et sa décadence.** , La Haye : Chez Pierre Gosse, 1732.

MICHAUD (J.F.) et POUJOULAT (M). - **Correspondance d'Orient (1830-1831).** - Paris : Ducollet, 1833-1835. 3 vol.

MONTAGU (Mary). - **L'Islam au péril des femmes. Lettres de Turquie. 1717.** - Paris Maspero, 1981. (La Découverte). 1ere éd. 1757.

PIDOU (Saint Olon De). - **Etat présent de l'Empire du Maroc.** - Paris ; 1694.

SAUSSURE (César De). - **Lettres de Turquie (1730-1739) et notices concernant le Prince François Rakocki II.** - Budapest, 1909.

STOCHOVE (Chevalier Vincent) sieu de sainte Catherine. - **Voyage du Levant.** - Bruxelles : H. A. Velpius, 1650.

THEVET (André). - **Histoire des plus illustres et scavans hommes de leurs siècles.** , Paris : Manger, 1671. 9 vol.

TODERINI (Abbé Giambatista). - **De la littérature des Turcs** - Paris : Poinçot, 1789. 3 Tomes.

TOTT (Le Baron De). - **Mémoires sur les Turcs et les Tartares.** - Amsterdam, 1785.

VOLNEY (Constantin François Chassebeuf De). - **Voyage en Egypte et en Syrie.** Paris : La Haye Mouton 1959. 429 p. (Ecole Pratique des Hautes Etudes 4è sect. sc. éco. et soc.) 1ère éd. Paris, 1787.

3 - Monographies et articles **3 - كتب ومقالات:**

3. 1 - الدراسات والمطابع العربية باروبا في العصر الحديث :

- أبو صوان (كميل نجيب) . - " بيت الكلمة " ، في : الكتاب ولبنان ، باريس : اليونسكو 1982 ، ص 120 - 117.

- عقيقي (نجيب) ، **المستشرقون : تاريخ الاستشراق** ، القاهرة ، 1947 ، 4 أجزاء .

- سنتو (اولغا) ، الدراسات العربية وفن الطباعة العربية في ايطاليا . **المشرق** ، **Levante** ، ع 2-1 ، 4ص9: ، ص 2 - 19 .

- سمايلوفتش (احمد) ، **فلسفة الاستشراق وأثرها في الادب العربي المعاصر**، القاهرة ، دار المعارف، 1980.

- نيوفو (انجيلا) ، ظهور النسخة العربية للقرآن الكريم (البندقية ب و أ باغانيني بين 1537 و1538) ، تعريب منجي الردادي ، تقديم عبد الجليل التميمي ، **المجلة التاريخية المغربية** ، عدد 53 - 54 ، جويلية 1989 ، ص 179 - 204 .

AUCAGNE (J). - La préface d'Abraham Hinckelman, ou la naissance d'un nouveau monde. In : **Le livre et le Liban.** - Paris : Unesco, 1982. - pp. 138-144.

BALAGNA (Josée). - Le Fonds des imprimés arabes de la Bibliothèque Nationale. Les XVIè, XVIIè et XVIIIè siècles. In : **Bulletin de la Bibliothèque Nationale** : 4è année. N° 2, Juin 1979. pp. 65-77 ; 5è année N° 2 Juin 1980, pp. 60-65, N°3 Septembre 1980 pp.114-117.

BALAGNA (Josée). - **L'imprimerie arabe en Occident (XVI°, XVII° et XVIII° siècles)**. - Paris : Maisonneuve et Larose, 1984 (Islam et Occident.2).

BARTHOLD (V.V). - **La Découverte de l'Asie : Histoire de l'orientalisme en Europe et en Russie**. - Traduit du russe par B. Nikitine. - Paris : Payot, 1947.

BONOLA BEY (F). - Note sur l'origine de l'imprimerie arabe en Europe. **In Bulletin de l'Institut Egyptien** (B.I.E.). 5ème série. T. III. 1er fasc. Déc. 1909. pp. 74-80.

CARTER (Harry). - **A History of the Oxford University Press**. - Oxford : Clarenton Press, 1975. Vol. I (jusqu'à 1780).

DUGAT (Gustave). - **Histoire des orientalistes de l'Europe du XIIè au XIXè siècle. Précédée d'une esquisse historique des études orientales.** - Paris : Maisonneuve, 1868, t. I.

DUVERDIER (G). - Les caractères de Savary de Brèves et la présence française au Levant au 17è siècle. In **L'art du livre à l'imprimerie nationale.** - Paris : Imprimerie Nationale, 1973 pp. 69-87.

DUVERDIER (G). - Les impressions orientales en Europe et le Liban. In : **Le Livre et le Liban.** pp. 159-175.

ENSCHEDE (Charles). - **TypeFoundries in the Netherlands**. - Haarlem : Enschedé, 1978.

FUMAGALLI (Giuseppe). - **Lexicon typographicum italiae : dictionnaire géographique d'Italie**. - Florence : Olscki, 1905.

GEMAYEL (N). - " Les imprimeries libanaises" de Rome in : **Le livre et Le Liban,** pp. 190-193.

KREK (Miroslav). - The Enigma of the first arabic book printed from movable type. **In Journal of Near Eastern Studies**. Juillet 1979. Vol. 38. pp.

203-212.

LAURENS (Henry). - Les origines intellectuelles de l'expédition d'Egypte. L'orientalisme islamisant en France au 18è siècle. (1698-1798). (Thèse de doctorat 3ème cycle dactylographiée). , Sorbonne , Paris IV, 1981.

LAURENS (Henry). - **Aux sources de l'Orientalisme : La Bibliothèque orientale de Barthélemi d'Herbelot.** - Paris : Maisonneuve et Larose, 1978.

NUOVO (Angela). - The finding of arabic Koran (Venice, Pand A. Paganini between 1537 and 1538) in : **Revue d'histoire maghrébine,** n° 53-54, juillet 1989, pp. 123-140.

Philologia Orientalis : a description of book illustrating the study and printing of oriental langage in Europe : a sixteenth Century. - Leyde : Brill, 1976.

RAPHAEL (P). - **Le rôle du Collège maronite romain dans l'orientalisme aux XVIIè et XVIIIè siècles**. - Beyrouth : Université St. Joseph, 1960.

RELANDI (Adriani). **La religion des Mahométans exposés par leurs docteurs avec des éclaircissements sur les opinions qu'on leur a faussement attribués...**, La Haye : Faillant, 1721.

REVES (Jacques De). - **Epistres françaises des personnages illustres et doctes à M. J.J. De La Scala.** -Harderwyck : T. Henry, 1624.

RODINSON (Maxime). - **La fascination de l'Islam**. - Paris : Maspero, 1980.

SAID (Edward). - **L'orientalisme : l'Orient crée par l'occident**. trad. Malamond. - Paris : Seuil, 1980.

SCHWAB (Moïse). - **Les incunables orientaux et les impressions orientales au commencement du XVIè siècle**. - Paris : L. Techener, 1883.

SECRET (F). - Guillaume Postel et les études arabes à la Renaissance. In **ARABICA**. T. IX, Janvier 1962. fasc 1 ff. 21-36.

SECRET (F). - **Les Kabbalistes chrétiens de la Renaissance.** - Paris, 1963.

VERVLIET (H.D.L). - **Granjon à Rome. (1578 - 1589) : Notes préliminaires à une histoire de la typographie romaine à la fin du XVIè siècle.** - Amsterdam : HERTZBERGER et Co, 1967.

WILLEMS (Alphonse). - **Les Elzevier. Histoire et Annales typographiques**. NieuwKoop : B. De Graaf, 1962.

ZUMTHOR (Paul). - **La vie quotidienne en Hollande au temps de Rembrandt**, Paris : Hachette, 1959.

3.2 - Les problèmes de l'imprimerie : 3. 2 - مشاكل الطباعة :

3. 2. 1 - Histoire générale de l'imprimerie 2. 1 - التاريخ العام للمطبعة

AUDIN (Maurice). - **Histoire de l'imprimerie : radioscopie d'une**

ère: de Gutenberg à l'informatique. Paris : Picard, 1972, 480 p.

CARTER (Thomas Francis). - **The Invention of Printing in China.** - New York : The Ronald Press Company, 1955.

CHEVILLIER (André). - **L'origine de l'imprimerie de Paris. Dissertation historique et critique.** - Paris : Laulne, 1694.

CLAIR (C). - **A chronology of printing.** London, 1969.

DAHL (Svend). - **Histoire du livre.** - Paris : Poinat, 1960.

DUPONT. - **Histoire de l'imprimerie.** Paris, 1854. 2 vol.

LABARRE (Albert). - **Histoire du livre.** - Paris : P.U.F., 1970. Que Sais-Je "N° 620.

MARTIN (Henri-Jean) et FEBVRE (Lucien). **L'apparition du livre.** - Paris: A. Michel, 1958.

3. 2. 2. Histoire de l'ecriture et du livre arabes

3. 2. 2 - تاريخ الخط والكتاب العربي

- الحلوجي (عبد الستار) ، **المخطوط العربي منذ نشاته الى آخر القرن الرابع الهجري** ، الرياض ، جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، 1978 .

- حمادة (ماهر) ، **المكتبات في الاسلام ، نشاتها وتطورها ومصائرها** ، بيروت ، الرسالة ، 1981 .

- حمودة (محمود عباس) ، **تاريخ الكتاب الاسلامي** ، القاهرة ، مكتبة غريب ، 1980 .

- زيات (حبيب) ، الوراقة والوراقين في الاسلام ، المشرق ، جويلية 1947 .

- عفيفي (فوزي سالم) ، **نشأة وتطور الكتابة الخطية العربية ودورها الثقافي والاجتماعي** ، الكويت : وكالة المطبوعات ، 1980 .

- القلقشندي (ابو العباس) ، **صبح الاعشى في صناعة الانشاء** ، القاهرة : المطبعة الاميرية، 1910-1920 ، اعيد طبعه سنة 1963 ، 14 مجلد وكشاف (نشر سنة 1972) .

- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، **اللجنة الفنية لدراسة الحروف العربية** ، القاهرة 27 نوفمبر - 12 ديسمبر 1971 .

- الباشا (حسن) ، **التصوير الاسلامي في العصور الوسطى** ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، 1959 ، 511 ص .

ECHE (Youssef). - **Les bibliothèques arabes publiques et semi-publiques en Mésopotamie, en Syrie et en Egypte au Moyen-âge.** - Damas : Institut français d'archéologie, 1967.

L'écriture et la psychologie des peuples. XXIIè séminaire de synthèse (Paris 3-11 Mai 1963) Collab. M. Cohen. etc... - Paris : A. Cohen, 1963.

GUIGNES (Joseph De). - **Essai historique sur la typographie orientale et grecque de l'imprimerie royale** (suivi de). **Principes de Composition typographique pour diriger un compositeur dans l'usage.**

In: **Notices et extraits**. T.I, 1787, pp XI - XXXIII.

HAMZAOUI (Rached). - **L'académie de langue arabe du Caire : Histoire et oeuvre.** - Tunis : Université, 1975.

HERBIN (Auguste F. J.). - **Développements des principes de la langue arabe moderne suivis ... d'un essai de calligraphie orientale.** Paris : Baudouin, 1803.

HUART (C.I). - **Les calligraphes et les miniaturistes de l'Orient musulman.** - Paris : Leroux, 1908.

LANGLES (Louis Mathieu). - **Epreuves de caractères arabes gravés et fondus par Molé Jeune sous dir. de Langlès.** - Paris, 1823 in 4è. 14 ff.

LANGLES (L.M.). -"Sur la manière d'orthographier les mots orientaux". In : **Notices et extraits** des manuscrits de la Bibliothèque Nationale T. 5 An VII.

SAUVAGET (Jean). - Suggestion pour une réforme de la typographie arabe. In : **Revue des Etudes Islamiques**, 1951, pp. 127-132.

3 .3 - الاطار العام : الامبراطورية العثمانية في القرنين 11 - 12 هـ .

3.3 - Le cadre général : l'Empire Ottoman aux XVIIè et XVIIIè siècles :

- جامعة دمشق ، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ، دمشق الجامعة ، 1978 جزءان .

- فريد بك (محمد) ، **تاريخ الدولة العلية العثمانية** ، بيروت ، دار الجيل ، 1977

BRAUDEL (Fernand). - **La Méditerrannée et le monde méditerrannéen à l'époque de Philippe II.** - Paris : Colin, 1949. 4° éd., 1979 Colin, 2 vol.

BROCKELMANN (Carl). - **Histoire des peuples et des états islamiques.** - Paris, 1949.

HAMMER-PURGSTALL (Joseph Von). - **Histoire de l'Empire Ottoman depuis son origine jusqu'à nos jours** , trad. Dochez, Paris : Delahays, 1844. 3vol.

HITTI (Philippe). - **Précis d'histoire des arabes** , trad. M. Planiol - Paris : Payot, 1950.

INALCIK (Halil). - **The Ottoman Empire : Conquest Organization and Economy.** - London : Variorum, 1978.

MANTOUX (Paul). - **La Révolution industrielle au XVIIIè siècle.** - Paris : Genin 1973.

MANTRAN (Robert). - **Istanbul dans la seconde moitié du XVIIè siècle: Essai d'histoire institutionnelle, économique et sociale.** - Paris : Maisonneuve, 1962.

- **La vie quotidienne à Constantinople au temps de Soliman le Magnifique et de ses successeurs (XVIè et XVIIè siècles).** - Paris : Hachette, 1965.

MIGNOT (Abbé Vincent). - **Histoire de l'Empire Ottoman depuis son origine jusqu'à la paix de Belgrade en 1740.** - Paris : Le Clerc, 1771. 4 vol.

OHSSON (Ignace Mouradgea D'). - **Tableau général de l'Epire Ottoman.** - Paris, 1787. 3vol.

PARRY (V.J) INALCIK (H) Kurat (A N). - **A History of the Ottoman Empire to 1730.** - Cambridge University Press, 1976.

SHAY (M.L.). - **The Ottoman Empire from 1720 to 1734.** - Urbana : Univ. of Illinois Press, 1944.

VANDAL (A). - **Une ambassade française en Orient sous Louis XV : La mission du M. De Villeneuve 1728-1741.** Paris : Nourrit, 1887.

4.3 - المسيحيون العرب في بلاد الشام : وضعهم السياسي والديني والاجتماعي :

3.4 - Les Chrétiens arabes en Syrie

- حاج (اثناسيوس) ، **الرهبانية الباسيلية الشويرية في تاريخ الكنيسة والبلاد** ، جونيه : مطبعة الكريم الحديثة ، 1973 .

- حتى (فيليب)، **تاريخ سوريه ولبنان وفلسطين**، ترجمة كامل يازجي وجبور، بيروت، دار الثقافة، 1972 ، جزءان .

- رعد (م) ، **مقام الامير فخر الدين المعني في الغرب** ، بيروت : عين الرمانة ، 1980 .

- دبس (يوسف) ، **تاريخ سورية** ، بيروت ، 1890 - 1903 ، جزءان .

- شيخو (لويس) ، " الطائفة المارونية والرهبانية اليسوعية " ، **المشرق** ، ع 17 ، 1914 ، ص321 - 331 ، 345 - 357 ، 754 - 763 ، ع 18 . 1920 . ص 300 - 309 ، 675 - 686 ، 969 - 976 ، ع 19 ، 1921 ، ص 758 - 770 ع 20 - 1920 . تم تجميع هذه المقالات ونشرها في كتاب يحمل نفس العنوان بالمطبعة الكاثوليكية ببيروت في 1923 .

- ضو (بطرس) ، **تاريخ الموارنة الديني والحضاري** ، بيروت ، 1970 ، 4 اجزاء .

- ADEL (Ismaïl). - **Histoire du Liban du XVIIè siècle jusqu'à nos jours.** - Paris, 1955.

BACEL (P), voir JOCK (P. Timothée).

CHARON (P. Cyrille). Voir KARALEVSKY (P. Kirill).

CHEBLI (M). - **Fakreddine II Maan 1572-1635.** - Beyrouth, Imprimerie Catholique, 1946.

CHEVALLIER (Dominique). - **La Société du Mont-Liban à l'époque de la Révolution industrielle en Europe.** - Paris : Geuthner, 1971.

DEHERAIN (H). - La France dans le Levant: l'oeuvre scientifique en Asie Mineure, en Syrie et en Perse du XVIIè siècle au XXè siècle. In Hanoteaux. **Histoire des colonies françaises.** Tome 3.

FAGNIEZ (G). - **Le P. Joseph et Richelieu.** - Paris, 1894, vol. I.

GOYAU (Georges). - **Un précurseur, François Picquet. Consul de**

Louis XIV à Alep et évêque de Babylone. - Paris : Geuthner, 1942.

JOCK (P. Timothée) ou P. Bacel. - **Jésuites et chouérites** ou la Fondation des religieuses basiliennes chouérites de Notre-Dame de l'annonciation à Zouk-Mikaïl (1730-1746). - Paris : Geuthner, 1937.

-" La Congrégation des basiliens chouérites" In : **Echos d'Orient N° 6**, 1903, pp. 174-182, 242-248.

KARALEVSKY (P. Kirill) ou CHARON (Cyrille). - L'église grecque melkite catholique. In : **Echos d'Orient** 1900-1901, pp. 327-330.

Histoire des Patriarcats melkites depuis le schisme monophysite du VIè siècle jusqu'à nos jours. - Rome : M. Brestschneider, 1909-1911.

NASRALLAH (J). - **Histoire du mouvement littéraire dans l'Eglise melchite du Vè au XXè siècle.** - Louvain Paris : chez l'auteur, 1979. Vol. IV T. I.

SAUVAGET (Jean). - **Alep : essai sur le développement d'une grande ville syrienne des origines au milieu du XIXè siècle.** - Paris : Geuthner, 1941. 2 vol.

VAUMAS (G. De). - **L'éveil missionnaire de la France.** - Lyon : Impr. Express, 1942.

3 . 5 - المطبعات والكتب العربية المسيحية :

3. 5 - Les imprimeries et les livres arabes chrétiens:

- ادلبي (نيوفطوس) - " البطريرك اثناسيوس الثالث " ، نشرية الكنيسة الارثودكسية بحلب، 1980 ، ص 107 - 132 .
- البستاني (فؤاد افرام) ، " الشماس عبد الله الزاخر " المسرة ، 1948 ، ص 397 - 405 .
- الرجي (ميخائيل) ، " سفر المزامير بالسريانية " ، المشرق 1934 ، ص 345 - 350 .
- نصر الله (الاب جوزيف) ، " تلاميذ زاخر " ، المسرة ، 1948 ، ص 430 - 436 .
- نصر الله (الاب جوزيف) ، " عبد الله زاخر وآثاره الادبية " ، المسرة ، 1948 ، ص 406 - 423 .
- نصر الله (الاب جوزيف) ، " مطابع الملكيين " ، المسرة ، 1948 ، ص 437 - 462 .
- شيخو (لويس) . " تاريخ الطباعة في المشرق " ، المشرق ، عدد 3 ، 1900 ص 78 - 85 ، 174 - 180 ، 251 - 257 ، 355 - 362 ، عدد 4 ، 1901 ، ص 86 - 90 ، 224 - 229 ، 319 - 325 ، 361 - 381 ، 471 - 474 ، 520 - 524 ، 872 - 877 ، عدد 5 ، 1902 ، ص 69 ، 423 .

ABOUSSOUAN (C). - Une étape capitale dans les relations Orient-Occident : la naissance de l'imprimerie arabe en Europe occidentale et balkanique. In :

Actes du Colloque International de civilisations balkaniques. Sinaï, Bucarest, 1962.

AGGOULA (Basile). - Le livre libanais de 1585 à 1900. In : **Le Livre et le Liban**, pp. 297-320.

CANDEA (Virgil). -, Une politique culturelle commune roumano-arabe dans la première moitié du XVIIIè siècle. In : **Bulletin de l'Association Internationale d'Etudes du Sud-Est Européen**. Bucarest, N°1, 1965. pp.51-55.

- Dès 1701 : dialogue "roumano-libanais" par le livre et l'imprimerie. In : **Le livre et le Liban** pp. 283-294.

Le livre et le Liban jusqu'à 1900 : exposition de l'UNESCO, Paris : UNESCO, AGECOOP 1982.

NASRALLAH (Joseph). - **L'imprimerie au Liban.** - Beyrouth : Harissa, 1949.

PICOT (Emile). - Notice sur l'imprimeur Anthime d'Ivir dans les **Nouveaux Mélanges Orientaux** publiés par l'Ecole des langues Orientales. - Paris : Leroux, 1886 (Ecole L.O. 2è Série. T. XIX) .

RICHARD (F). - Un témoignage sur les débuts de l'imprimerie arménienne à Nor Jula. IN : **Revue des études arméniennes**. T. XIV, 1980 , pp. 483-484.

SIMONESCU (Dan). - Impression de livres arabes et Karamanlis en Valachie et en Moldavie au 18è siècle. In : **Studia et Acta Orientalia 5-6** (1967) pp. 49-75.

3.6 - استانبول : وضعية الاداب والعلوم والتربية والكتب :

3.6 Istanbul : état des lettres et des sciences. Education. Livre:

صابات (خليل) ، تاريخ الطباعة في الشرق العربي ، القاهرة ، دار المعارف ، 1958 .

ADNAN-ADIVAR (Abdulhak). - **La science chez les turcs ottomans.** Paris : Maisonneuve, 1939.

BELLEFOREST (François De). - **Cosmographie universelle.** - Paris : Somnius, 1575. T. II.

BERKES (N). - **The Development of Secularism in Turkey**. - Montreal : Mc. Gill University Press, 1964.

BIRGE (J.K). - The Printing of Books in Turkey in the 18 th Century. In : **Muslim World** ou Moslem World. N° 33, 1943. pp. 292-294.

BOMBACI (Alessio). - **Histoire de la littérature turque**. - Paris : Librairie Klinckoreck, 1968.

BOZIC (M). - Le fonds imprimé turc de la Bibliothèque Nationale. In : **Revue de la Bibliothèque Nationale** N° 1 sep. 1981, pp. 8-16 ; N° 2 déc. 1981. pp. 70-79.

CHAUVIN (Victor). - Notes pour l'histoire de l'imprimerie à Constantinople, In: **Zentralblatt für Bibliothekswesen** T. XXIV, 1907, pp. 255-262.

DEMEERSEMANN (A). - Un Mémoire célèbre qui préfigure l'évolution moderne de l'Islam. In : **IBLA** N° 69. 1955. pp. 5-32.

- Une étape décisive de la culture et de la psychologie sociale islamique : les données de la controverse tour du problème de l'imprimerie. In : **IBLA N° 65**, 1954, pp. 1-48 ; N° 66, 1954. pp. 113-140.

GEISS (A). - Observations à la suite de la note de Bonola Bey. In : **Bulletin de l'Institut Egyptien.** 5ème série, T. III, 1er fasc déc. 1909. pp. 81-84.

GERCEK (Selim Nuzhet). - **Turk Matbaacilligi.** - Istanbul Devletbasimevi, 1939, 111p. ill.

GIBB (Hamilton Alexander Ross Keen) et BOWEN (H). - **Islamic society and the West : a study of the impact of western civilisation ou Moslem Culture in the Near East.** - Londres. New-York. Toronto : Oxford University Press, 1950-1957. 2 vol.

GURBUZ (Atilla). - La création d'une nouvelle culture de masse en Turquie et les moyens de communication. (Thèse de 3ème cycle dactylographiée. - Paris VII, 1979).

HAMMER-PURGSTALL (Josef Von). - Sur un passage curieux de l'Ihatet, sur l'art d'imprimer chez les arabes én Espagne. In : **Journal Asiatique**, N° 2. T. XX, 1852. pp. 252-255.

HOPP (L). - Ibrahim Muteferrika (1674-1746) fondateur de l'imprimerie turque : In : **Acta Orientalia Hungaricae** N° 29, 1975 pp. 107-113.

INALCIK (Halil). - **The Ottoman Empire : The classical age 1300-1600 / trad.** N. Itzkowitz et C. Imb . - London : Weidenfeld and Nicolson, 1973.

KLAPROTH (Julius Von). - **Lettre à M. Le Baron A. De Humboldt sur l'invention de la boussole.** - Paris : Dondey-Dupré, 1834.

LEWIS (Bernard). - **Istanbul and the Civilization of the Ottoman Empire.** - Norman : University of Oklahoma Press, 1963.

- **The Emergence of modern Turkey.** - London-New-York : Oxford University Press, 1961.

SAINT-SIMON (L.R.De). - **Mémoires complets et authentiques... sur le siècle de Louis XIV et la Régence.** - Paris : Sautelet, 1829. 21 vol.

ZIADE (Kaled). - Apports français au mouvement des idées dans l'Empire Ottoman sous le règne de Selim III (thèse de 3è cycle dactylographiée). Paris III, 1980.

3. 7 - المطبعة والصحافة العربية في القرن 13 هـ :

3. 7 - La presse et l'imprimerie arabes au XIX^e^ siècle:

- رضوان (ابو الفتوح) ، تاريخ مطبعة بولاق ، القاهرة ، المطبعة الاميرية ، 1953 .

- زيدان (جورجي) ، تاريخ اداب اللغة العربية ، القاهرة ، دار الهلال ، 1954 ، 4 اجزاء.

- شيخو (لويس) ، الادب العربي في القرن 19 ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، 1908 - 1910 ، جزءان .

- عبدو (ابراهيم) ، **تاريخ الوقائع المصرية 1828 - 1942** ، القاهرة : المطبعة الاميرية ، 1942 .

- عبدو (ابراهيم) ، **تاريخ الطباعة والصحافة في مصر خلال الحملة الفرنسية** ، القاهرة : مكتبة الادب ، 1949 .

- طرازي (فيليب) ، تاريخ الصحافة العربية ، بغداد ، المثنى ، 1967 ، 4 اجزاء .

- المهيدي (محمد الصالح) ، تاريخ الطباعة والنشر بتونس ، تونس : معهد علي باش حانبه ، 1965.

AYACHE (Germaine). - L'apparition de l'imprimerie au Maroc. In : **Hesperis Tamuda**, vol. V, 1964. pp. 143-162.

CHENOUFI (Moncef). - Le problème des origines de l'imprimerie et de la presse arabes en Tunisie dans sa relation avec la Renaissance Nahda. (Thèse de doctorat d'Etat dactylographiée. Paris, Sorbonne 1970).

DEMEERSEMANN (A). - Une étape importante de la culture islamique une parente méconnue de l'imprimerie arabe : la lithographie. In : **IBLA**, 1953. N°64. pp. 347-389.

- Une page nouvelle de l'histoire de l'imprimerie en Tunisie. In : **IBLA**, 1956. N° 75. pp. 275-312.

FLOOR (W.M). - The First Printing Press in Iran. In : **Zeits Chrift der Deutschen Margenlandischen Gesellschraft**, Band 130, Heft 2, 1980. pp. 369-371.

REINAUD ( ). - De la Gazette arabe turque imprimée en Egypte. In : **Journal Asiatique** série 2, T. VIII, 1831. pp. 231.

TLILI (Béchir). - **Les rapports culturels et idéologiques entre l'Orient et l'Occident en Tunisie au XIXè siècle (1830-1880).** - Tunis : Faculté des lettres.

WASSEF (A.S). - **L'information et la presse officielle en Egypte jusqu'à la fin de l'occupation française.** - Le Caire : Institut Français d'Archéologie, 1975.

التقاريض على الرسالة المسماة بوسيلة الطباعه

تقريض حضرت شيخ الاسلام سلمه السلام

هذه مجلة بل درة وهو في بحره مستفرد في سلكه مفرد وروض زخاري النبات وبحر ولكنه عذب فرات فاض ونهر فتبجس منه عيون الآثر حري بان يكون مسقط الانواء براعة القبول وموقع الانواع تقاريض الفحول فلله در منشئه حيث بين ما بين واحسن البيان وهل جزاء الاحسان الا الاحسان حرره الفقير اليه سبحانه وتعالى عبد الله مفتي الدولة العلية العثمانية ابقاها الله تعالى بالعناية الربانيه

تقريض دامادزاده افندي صدر روم سابق

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى وبعد فان هذا الشيء عجاب وامر يستعظمه اولوا الالباب فيالها من صناعة يستحليها كل ناظر ويستحسنها ذووا البصائر ولقد حق بان يجازى صانعها بالاكرام حيث عمت فوائدها وعظمت منافعها لانها وسيلة الى تكثير الكتب من غير حاجة الى مشقة الكتب وكلفة الكتابة ولعمري انها لحقيق بان يحمد اثرها الانام وتعد من حسنات ايام سلطاننا الاعظم مالك ملوك العرب والروم والعجم الا وهو السلطان بن السلطان ابو الفتوحات والمغازي السلطان احمد خان الغازي خلد الله دولته ولا زال الخير بنواصي خيله معقودا والنصر في بحر عرائسه ايامه قلائد وعقودا حرره الفقير الى كرم مولاه ابو الخير احمد القاضي بعسكر روم ايلي في السابق والشهير بين اترابه بداماد زاده غفر الله له ولاسلافه ولاخلافه ولجميع المؤمنين والمؤمنات امين يا رب العالمين

تقريض ميرزازاده افندي صدر روم سابق

الحمد لله حمد المليق بجلاله والصلوة والسلام على نبيه محمد واله وصحبه الفائزين برؤية جماله اما بعد فان الفطن المتوقد ذو المقالة والماهر المتقن المتفنن لنص هذه الرسالة قد ابدع صناعة ابدى فيها البراعة تستغني حلية حال الهامن ان تحرر بالبراعة وانه الطبع اللطيف يستجيد الطباع وبه تهدي به اهل البلاد جدوى وانتفاع اثبت الله تعالى في صحايف اعماله مرقوم المن والاحسان واحرى في صحيفة اعماله اقلام العفو والغفران حررته داعيا لولانا وسيدنا السلطان الاعظم والخاقان المعظم حفظه الله رحمة على العباد وابقاه وحرس وجوده الشريف ووقاه وازاح بسطوته اهل الكفر والفساد واراح برياح معدلته كافة العباد بمنه تعالى وكرمه وانا العبد الفقير ميرزازاده شيخ محمد القاضي سابقا بعسكر روم ايلي غفر له ولوالديه ولجميع المؤمنين والمؤمنات

تقاريض العلماء المسلمين العثمانيين على رسالة ابراهيم متفرقة
طبع هذا النص في أول كتاب صدر باسطنبول سنة 1728.

الكشاف العام *

* هو كشاف عام للموضوعات والأسماء (الاشخاص والمجموعات والاماكن الجغرافية) استخدمت الشرطة المائلة اذ كانت الارقام متتابعة (من / الى)

ن

منشورات المركز

- المجلة التاريخية المغاربية، صدر منها منذ إنشائها (1974)، 64 عددا.

- د. عبد الجليل التميمي، بايلك قسنطينة والحاج أحمد باي 1830-1837، 303 ص + 24 اسما، بالفرنسية تونس، 1978.

- د. عبد الجليل التميمي، موجز الدفاتر العربية والتركية بالجزائر، 116 ص، تونس، 1979.

- د. عبد الجليل التميمي، بحوث و وثائق في التاريخ المغربي، الجزائر، تونس و ليبيا (1816- 1871) 208 ص، الطبعة الثانية تونس، 1980.

- دومينيك مونيي، القنصلية الانقليزية بتطوان أثناء تولي اوتوني هتفيد (1717- 1728) 112 ص، (بالفرنسية)، تونس، 1980.

- د. عبد الجليل التميمي، وثيقة عن الاملاك المحبسة باسم الجامع الاعظم بمدينة الجزائر، 92 ص، (بالعربية و الفرنسية)، تونس، 1980.

- شانتال دو لافارون، مصادر فرنسية عن تاريخ المغرب الاقصى في القرن الثامن عشر (بالفرنسية) ج 2، 128 ص، تونس، 1983.

- د. عبد الجليل التميمي، الروابط الثقافية المتبادلة بين تونس و ليبيا ووسط و غرب إفريقيا خلال العصر الحديث، 80 ص، تونس، 1981.

- د. عبد الرحيم عبد الرحمان عبد الرحيم، المغاربة في مصر في العصر العثماني (1517- ج 2، (بالعربية)، تونس، 1983.

- د. لوى كارداليك، الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون: المجابهة الجدلية، تعريب د. عبد الجليل التميمي 196 ص، الطبعة الثانية، زغوان، 1989.

- الولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني، مع إقامة فهارس لها، ج 1 و 2 610 ص، ج 3، 412 ص (بالفرنسية والانقليزية والعربية)، جمع وتقديم د. عبد الجليل التميمي، تونس، 1984.

- د. عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، الطبعة الثانية، 256 ص، (بالعربية) زغوان، 1985.

- الحياة الإقتصادية للولايات العربية و مصادر وثائقها في العهد العثماني، 3 أجزاء، 970 ص، جمع و تقديم د. عبد الجليل التميمي، (بالعربية و الفرنسية والانقليزية) زغوان، 1986.

- أعمال مؤتمر اللجنة العالمية للدراسات العثمانية المنعقد بكامبريدج سنة 1984، عن الولايات العربية في العهد العثماني، جمع وتقديم د. عبد الجليل التميمي، 183 ص، (بالانقليزية و الفرنسية) زغوان، 1986.

- د. ص. بوبكر، أيالة تونس في القرن السابع عشر و علاقاتها الإقتصادية مع موانئ البحر الأبيض المتوسط: مرسيليا و ليفرونة (بالفرنسية) 224 ص، زغوان، 1988.

- الحياة الإجتماعية في الولايات العربية اثناء العهد العثماني 3 أجزاء، 1068 ص، جمع و تقديم د. عبد الجليل التميمي، (بالعربية و الفرنسية والانقليزية)، تونس، 1988.

- شانتال دو لافارون، مصادرفرنسية عن تاريخ المغرب الاقصي في القرن الثامن عشر 120 ص، ج 3، (بالفرنسية) زغوان، 1990.

- د. عبد الجليل التميمي ، فهرس المجلة التاريخية المغربية من العدد 1 إلى 50 ، 402 ص ، (بالعربية والفرنسية) زغوان ، 1988.

- تطبيق الموريسكيين الاندلسيين للشعائر الإسلامية (1492 - 1609) (النص الإسباني و الفرنسي) جمع و تقديم د. عبد الجليل التميمي ، 200 ص زغوان ، 1989.

- د. بلقاسم الحناشي، الحركات التبشيرية في المغرب الاقصى خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، 224 ص ، تقديم د. عبد الجليل التميمي ، زغوان ، 1989.

- المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، العدد الاول و الثاني ، 452 ص ، زغوان 1990.

- لوث لوباث بارلد ، أثر الإسلام في الادب الإسباني من العصور الوسطى إلى الوقت الحاضر تعريب د.جيب بن جميع، مراجعة وتقديم د. عبد الجليل التميمي ، 224 ص ، زغوان ، 1990.

- الحياة الفكرية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني (3 أجزاء) 920 ص ، جمع وتقديم د. عبد الجليل التميمي ، (بالعربية والانقليزية والفرنسية) زغوان ، 1990.

- د. عبد الجليل التميمي ، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الاندلسيين ، 180 ص ، زغـوان ، 1991.

- مهن الموريسكيين-الاندلسيين وحياتهم الدينية ، جمع وتقديم د. عبد الجليل التميمي ، 408 ص ، (بالفرنسية و الانقليزية و الاسبانية و الموجز بالعربية) ، زغوان ، 1990.

- أعمال الندوة العربية الاولى حول : التكشيف والتصنيف في مراكزالمعلومات العربية، 180 ص ، زغوان 1991.

- د. عبد الرحيم عبد الرحمان عبد الرحيم ، وثائق المغاربة من سجلات المحاكم الشرعية المصرية إبان العصر العثماني ، الجزء الاول ، 387 ص ، سيرمدي 1992 .

- أعمال المؤتمر العالمي الرابع للدراسات العثمانية عن الحياة الإدارية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني ، 700 ص .

المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، عدد 3 - 4 .

المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، عدد 5 - 6.

- د. وحيد قدوره ، بداية الطباعة العربية في إستانبول وبلاد الشام تطور المحيط الثقافي (1707 - 1787) .

تحت الطبع :

- الكتب العربية الاولى المطبوعة باوروبا واكتشاف النسخة العربية للقرآن الكريم.

- المجلة التاريخية المغاربية عدد 65 - 66 .

- اعمال المؤتمر العالمي الخامس للدراسات الموريسكية الاندلسية حول: الذكرى الخمسمائة سنة لسقوط غرناطة 1492 - 1992 .

- - اعمال ندوة : المعلومات في خدمة التنمية بالبلاد العربية .

- اعمال مؤتمر : وضعية الدراسات عن الشرق الاوسط

- اعمال المؤتمر العالمي الخامس للدراسات العثمانية عن : المدن العربية والديمغرافية والبحر الاحمر خلال العهد العثماني .

- Mélanges Prof. Robert Mantran, études réunies et présentées par A.Temimi, 482 p. (en français arabe et Turc) Ceromdi, Zaghouan 1988.

- Las pratricas musulmanes de los moriscos andaluces (1492-1609), études réunies et présentées par A.Temimi, 200 p., Ceromdi-Zaghouan, 1989.

- A. Temimi, Index de la R.H.M. du N °1 à 50. 402 p. Ceromdi - Zaghouan, 1989.

- A. Temimi, Le Gouvernement ottoman et le problème morisque, 180 p. (en français et arabe) Ceromdi -Zaghouan, 1989.

- Arab Historical Review for Ottoman Studies (AHROS) N° 1& 2 452 p. Ceromdi-Zaghouan, 1990.

- Ch. de la Véronne, Sources françaises de l'histoire du Maroc au XVIIIème siècle, t. 3, 120 p. (en français) Ceromdi-Zaghouan,. 1990.

- La vie intellectuelle dans les provinces arabes à l'époque ottomane, études réunies et presentés par A. Temimi, 3 vol., 920 p. (en français, anglais et arabe) Ceromdi- Zaghouan, 1990.

- L. López-Baralt, Influence de l'Islam sur la littérature espagnole du moyen âge j'usqu'à l'époque moderne, traduit de l'espagnol en arabe par M.N. Ben Jemia, revu et préfacé par A.Temimi, Ceromdi-Zaghouan, 1990.

- Metiers , vie religieuse et problématiques d'istoire morisque 408 p. (en français , espagnol,anglais et résumés en arabe) études réunie et présentés par A. Temimi, Ceromdi-Zaghouan, 1990.

- Ch. de la Véronne, Sources françaises de l'histoire du Maroc au XVIIIème siècle, t.4. (en français)

- L'Indication et la Classification dans les centres arabes d'Information, 180 p, CEROMDI, 1991.

- A. Abdulrahim, Les Maghrébins en Egypte, t.1. 387 p. (en arabe).

- Les pratiques musulmanes des morisques (en arabe).

- Les actes du IV symposium international d'études ottomanes sur la vie administrative dans les provinces arabe à l'epoque ottomanes, 3 volumes.

- Arab Historical Review for Ottoman Stadies (AHROS) N ° 3 et 4 .

- Arab Historical Review for Ottoman Stadies (AHROS) N ° 5 et 6 .

- Wahid Gdoura, Le Début de L'Imprimerie arabe à Istanbul et en Syrie Evolution de l'Enveronnement Culturel (1707 - 1787) en arabe .

Sous presse

- Le premiers ouvrages Imprimés en Langue arabe en Occident.

- R.H.M (N° 65-66. 67-68)

- Actes du Ve Symposium International d'Etudes Morisques sur le 500 Centenaire de la Chute de Grenade 1492 - 1992.

- Actes du Ve Symposium International : The State of the Art of Midle East Studies

- Actes du Ve Symposium International d'études Ottomanes sur : Les villes arabes, la démographie et la Mer Rouge à l'époque ottomane

PUBLICATIONS DU CEROMDI

- **Revue d'Histiore Maghrébine N. 1 à 60**
- **A. Temimi, le Beylik de Constantine et Hadj Ahmed Bey (1830- 183v). 303 p. + 24 planches. (en français) Tunis, 1978.**
- **A. Temimi, Sommaire des registres arabes et turc d'Alger, 116 p. (en français) Tunis, 1979.**
- **A. Temimi, Recherches et documents d'Histoire Magrébine, l'Algérie, la Tunisie et la Tripolitaine (1816-1871), 208 p., (en français) 2ème édition, Tunis, 1979.**
- **D. Meunier, Le Consulat Anglais à Tétouan sous Anthony Hatfeild (1717-1728), études et édition de textes 112 p. (en français) Tunis, 1980.**
- **A. Temimi, Un document sur les biens habous au nom de la Grande Mosquée d'Alger, 92 p., (en français et arabe) Tunis, 1980.**
- **Ch. De la Véronne, Sources françaises de l'histoire du Maroc au XVIIIème siècle, t. 1, 118 p., (en français) Tunis, 1981.**
- **A. Temimi, Les affinités culturelles entre la Tunisie, la Libye, le Centre et l'Oest de l'Afrique à l'époque moderne, 80 p., (en français et arabe) Tunis, 1981.**
- A.A. Abdurrahmin. Les Magrébins en Egypte à l'époque ottomane, 208 p.,Tunis,1982.
- Ch. De la Véronne, Sources françaises de l'histoire du Maroc au XVIIIème siècle, t. 2, 128 p., Tunis, 1983.
- Louis Cardaillac, Morisques et Chrétiens, traduit du français en arabe par A. Temimi 196 p., (en arabe) Tunis, 1983, 2ème édition, Zaghouan, 1989.
- Les provinces arabes et leurs sources documentaires à l'époque ottomane (partie arabe, 608 p., avec Index, partie française et anglaise 412 p.,) Tunis, 1984.
- A. Temimi, Recherches et documents d'Histoire Magrébine, 2ème édition (en arabe), 256 p., Zaghouan, 1985.
- La vie économique des provinces arabes et leurs sources documentaires à l'époque ottomane (en français, anglais et arabe), études réunies et présentés par A. Temimi, 3 volumes , 970 p., (en français englais et arabe) Zaghouan, 1986.
- Actes du congrès de Cambridge sur : Les provinces arabes à l'époque ottomane 183 p., (en français et arabe) Zaghouan 1987.
- Sadok Boubaker, La Régence de Tunis au XVIIème siècles : ses relations commerciales avec les ports de l'Europe méditéranénne : Marseille et Livourne, 272p. (en français) Ceromdi- Zaghouan, 1987.
- La vie sociale des provinces arabes à l'époque ottomane, 3 volumes. 1068 p. (en français, anglais et arabe) études réunies et préfacés par A. Temimi, Ceromdi- Zaghouan, 1988.

الفن الاول من الكتاب الاول في حد الطب وموضوعاته من الامور الطبيعية يشتمل على ستة تعاليم

الفصل الاول من التعليم الاول من الفن الاول من الكتاب الاول من كتاب القانون

في حد الطب

اقول ان الطب علم يتعرف منه احوال بدن الانسان من جهة ما يصح ويزول عنها لتحفظ الصحة حاصلة وتسترد زائلة ولقائل ان يقول ان الطب ينقسم الى نظر وعمل وانتم قد جعلتم كله نظرا اذ قلتم انه علم وحينئذ نجيبه ونقول انه يقال ان من الصناعات ما هو نظري وعملي ومن الحكمة ما هو نظري وعملي ويقال ان من الطب ما هو نظري وعملي ويكون المراد في كل قسمة بلفظ النظري والعملي شيئا اخر ولا نحتاج الان الى بيان اختلاف المراد في ذلك الا في الطب واذا قيل ان من الطب ما هو نظري ومنه ما هو عملي فلا يجب ان يظن ان مرادهم فيه هو ان احد قسمي الطب هو تعلم العلم والقسم الاخر هو المباشرة للعمل كما يذهب اليه وهم كثير من الباحثين عن هذا الموضع بل يحق عليك ان تعلم ان المراد من ذلك شي اخر وهو انه ليس ولا واحد من قسمي الطب الا علما لكن احدهما علم اصول الطب والاخر علم كيفية مباشرته ثم يخص الاول منهما باسم العلم او باسم النظر ويخص الاخر باسم العمل فنعني بالنظر منه ما يكون التعليم فيه مفيدا للاعتقاد فقط من غير ان يتعرض لبيان كيفية عمل مثل ما يقال في الطب ان اصناف الحميات ثلثة وان الامزجة تسعة ونعني بالعملي منه لا العمل بالفعل ولا مزاولة الحركات البدنية بل القسم من علم الطب الذي يفيد التعلم فيه رايا ذلك الراي متعلق ببيان كيفية عمل مثل ما يقال في الطب ان الاورام الحارة يجب ان يقرب اليها في الابتدا ما يردع ويبرد ويكثف ثم من بعد ذلك يمزج الرادعات بالمرخيات ثم بعد الانتهاء الى الانحطاط يقتصر على المرخيات المحللة الا في اورام تكون عن مواد تدفعها الاعضا الرئيسة فهذا التعليم يفيدك رايا هو بيان كيفية عمل فاذا علمت هذين القسمين فقد حصل لك علم علمي وعلم عملي وان لم تعمل قط وليس لقائل ان يقول ان احوال بدن الانسان ثلث الصحة والمرض وحالة لا صحة ولا مرض وانت اقتصرت على قسمين فان هذا القائل لعله اذا فكر لم يجد احد الامرين واجبا لا هذا التثليث ولا اخلالنا به ثم انه وان كان هذا التثليث واجبا فان قولنا الزوال عن الصحة يتضمن المرض والحالة الثالثة التي جعلوها ليس لها حد الصحة وهو ملكة او حالة تصدر عنها الافعال من الموضوع لها سليمة ولهم مقابل هذا الحد الا ان يحدوا الصحة كما يشتهون ويشترطون فيه شروطا ما بهم اليها حاجة ثم لا مناقشة مع الاطبا في هذا وما هم ممن يناقشون في مثله ولا تودي هذه المناقشة بهم او بمن يناقشهم الى فايدة في الطب واما معرفة الحق في ذلك مما يلتمس باصول صناعة اخرى فليطلب من هناك

Premiere page du livre de médecine d'Ibn Sina imprimé à Rome

chez les Médecis en 1593.

(Extrait de Vervliet (H) – Granjon à Rome p. 46.)

نموذج من اول كتاب عربي مطبوع: كتاب صلاة السواعي.

نشر بمدينة فانو (ايطاليا) سنة 1514

بسم الاب والابن والروح القدس الاله الواحد
الى حضرة ذى الجناب الرفيع والهمام النبيل
السيد المفخم والشريف الجليل كير كير يواني
قوسطنطين فاصارافا برنكوفان المتقلد ولاية
بلاد انكروفلاخيا المعظم وابننا الروحاني الحبيب
النعمة لك من الاله الضابط الكل وسيدنا يسوع
المسيح والروح القدس المعزى الذى انار
بحلوله الرسل القديسين الاطهار الالهيين
فرح عظيم شمل المسيحيين لما ظهر قسطنطين
العظيم حاملا اشارة الصليب اللايحة على قوة الغلبة
العظيمة حين كانت المومنون قبله مضنوكين من
الاضطهادات اليونانية • ثم اصبحوا بغتة ظافرين
مويدين • اكثر منه يشمل اليوم الفرح الكلي
بل الاكمل كافة المومنين • حين ظهرت يا ايها
الهمام النبيل حاملا بيدك تلك الغيرة الروحانية
الواصلة منك نحو المومنين المقيمين في البلاد
العربية

Début de la Dédicace du Psautier imprimé à Alep en 1706.

(Extrait de : Histoire des patriarcats. T. III p. 111.)

صفحة الاهداء بكتاب المزامير

المطبوع بمدينة حلب سنة 1706

fait qu'elles ont les premières osé surmonter toutes les difficultés, utilisant les premières les caractères arabes et enracinant l'usage de cet art en Syrie, amenant par là une familiarité avec cette façon d'écrire, un goût enfin de la lecture. Mais très vite le rayonnement de ces nouveaux instruments de culture connut ses limites car les imprimeries furent submergées par d'insurmontables difficultés sauf Shuaïr qui résista. Les éditions ne trouvaient en effet que peu de lecteurs du fait de la rareté de lettrés et d'écoles tandis que le contenu des livres ne pouvait contribuer à l'élargissement du champ des diffusions au sein du monde musulman.

Il n'en fut pas de même pour Istanbul où le livre imprimé était consacré à des thèmes non religieux comme le stipulait l'autorisation du sultan Ahmad III ; avaient la préférence les livres d'histoire et qui avaient des buts politiques : assurer le prestige du sultan et la tribune des réformistes. Ainsi le livre imprimé fut mis au service de la Porte pour qu'il renforçât son pouvoir et introduisît des réformes européennes ; il servit aussi bien à l'emprunt du savoir européen qu'à celui des techniques utiles des chrétiens.

Cependant l'imprimerie deut un rayonnement culturel limité car isolée et non accompagnée de création d'écoles ou de bibliothèques pouvant accroître le nombre de lecteurs. De plus le manuscrit rivalisait encore avec le livre imprimé et cela jusqu'à la fin du XIXè siècle, toujours aussi vivace et lu : cela est un fait marquant de la civilisation musulmane où la supériorité du manuscrit maintint l'ancien type de civilisation.

Le débat entre innovateurs et traditionnels sur le devenir de la civilisation musulmane était loin de finir au XVIIIème siècle et les emprunts à l'Occident étaient lents et limités. La réticence de certains uléma vis-à-vis de tout changement qui mettait en cause leurs privilèges et l'ancienne organisation de la société subsista, ainsi donc la technique d'impression ne fut finalement adoptée par tous les musulmans qu'avec l'apparition de la lithographie. Cet art intermédiaire sans rompre avec le véhicule traditionnel du savoir habitua progressivement les esprits à l'utilisation de la typographie qui, il faut de signaler, était encore au XVIIIème siècle une curiosité mais qui fut néanmoins le facteur moteur des grandes rénovations intellectuelles de la Nahda du XIXème siècle.

Le réveil de la société ottomane semble remonter au début du XVIIIème siècle par la suite du commencement des discussions entre les savants musulmans sur la modernité, du développement des controverses entre les chrétiens arabes sur les moyens de relever leurs communautés, de l'adoption de nouvelles techniques importantes et, un peu plus tard de l'apparition du mouvement réformiste puritain en Arabie sous la direction de Muhammad ibn Abd-al-Wahhab ; de nouvelles recherches de sources sur cette imprimerie du XVIIIème siècle pourraient confirmer ces résultats.

W. GDOURA
Tunis

s'ils participèrent à l'élaboration de l'édition arabe à Rome et à Paris et tentèrent d'introduire l'imprimerie au Proche-Orient, n'était-ce pas parce que l'innovation provenait d'une civilisation qui ne leur était pas étrangère et qu'elle leur inspirait confiance puisque leurs coreligionnaires en Occident l'avaient utilisée après s'être persuadés de son utilité. N'était-ce pas parce qu'ils trouvaient dans le livre imprimé le meilleur moyen d'élaborer une activité culturelle florissante et redéfinir la place de leurs communautés dans la société ottomane?

Pour les musulmans, l'imprimerie n'était pas une simple technique, mais un moyen de modifier un type de civilisation et de donner un nouveau contenu à la culture. C'est dans ce cadre que le débat en innovateurs et traditionnels se déroula-entre le livre imprimé et le manuscrit, l'imprimeur et le copiste, les caractères métalliques et la calligraphie - en le manuscrit comme témoin et lien vivant d'un type de civilisation ancienne et le livre imprimé comme le type nouveau d'une civilisation moderne empruntée à l'Occident.

Ainsi, l'ensemble des débats se situait sur le problème de ce renouvellement de la société à partir de nouvelles données et les débatteurs n'étaient pas égaux puisque s'affrontaient uléma traditionnels appuyés par une masse d'ignorants et d'analphabètes et innovateurs qui s'appuyaient sur le pouvoir. Ces derniers qui luttaient depuis la fin du XVIIème siècle pour réformer l'Empire ottoman et mettre fin à l'état du déclin de la société trouvèrent en la personne du sultan Ahmad III et de son ministre les meilleurs partisans de l'ouverture sur les nouveautés de l'Occident, d'où l'Ere des Tulipes qui vit toutefois ce compromis : imprimer, oui, mais pas de livres de croyance islamique.

Malgré le refus, les innovateurs réussirent à introduire l'imprimerie chez les musulmans ; ce succès marque un tournant décisif dans leur histoire puisque le principe d'introduire des techniques de pays européens était admis, de même les idées de modernisation dans d'autres domaines de la vie allaient s'amorcer, pour cela de nouveaux rapports entre le monde musulman et l'Europe chrétienne s'établissaient.

L'Orient et l'Occident étant fondamentalement différents, les résultats de cet art d'imprimer le furent également : la diffusion de livres non scientifiques mais religieux contribua, chez les Melkites comme chez les Maronites, à la cristallisation des communautés et à la consolidation des liens spirituels au sein de ces communautés, moyen de lutte privilégié contre les hérésies propagées en Syrie par les manuscrits ; mais chaque imprimerie fit preuve d'une attitude personnelle dans la lutte : ainsi Shuaïr, ralliée à l'église de Rome, propagea des catéchismes de missionnaires et pour contrecarrer ces ouvrages catholiques les grecs orthodoxes fondèrent leur imprimerie à Beyrouth. Il n'y eut donc pas d'échanges d'idées inter-confessionnels par suite du blocage des rapports culturels. Quoi qu'il en soit ni les uns ni les autres-catholiques ou orthodoxes - n'imprimèrent de livres scientifiques car l'utilité du livre imprimé devait résider dans le fait que soit montré le vrai chemin de " la vie éternelle". Ce que l'on doit surtout aux imprimeries melkites, c'est le

restèrent bloqués.

La typographie de Mutafarrika ne servit pas de modèle à d'autres projets au XVIIIè siècle dans l'Empire ottoman, bien que, pourtant, tous les obstacles fussent aplanis, et réglées les difficultés juridiques après la promulgation du décret d'Ahmad III et de la fatwa du shaykh al-Islam ainsi que les difficultés techniques : façonnement de caractères arabes, acquisition des presses...

Mais il ne faut pas perdre de vue que ce balbutiement de la première entreprise était inévitable dans un milieu très attaché au manuscrit considéré comme un "relais vénéré du passé". La typographie réussit à enraciner progressivement de nouvelles habitudes chez les lettrés : l'usage et le goût de la lecture du livre imprimé, l'utilisation et l'adaptation des techniques d'impression ; et surtout elle fit découvrir l'utilité de cet art concernant le progrès des sciences à la suite d'un débat qui ne prit fin qu'au XIXè siècle. Elle trouva dans la lithographie le relais nécessaire et efficace entre l'usage du manuscrit et celui du livre imprimé.

L'atelier d'Istanbul réussit à provoquer la naissance d'autres projets d'établissement d'ateliers au XIXè siècle en Egypte et dans d'autres pays, elle fut aussi avec les autres imprimeries chrétiennes à l'origine du raz-de-marée de journaux et de livres imprimés à l'époque de la Nahda ou Renaissance arabe au Proche-Orient à la fin du XIXè siècle, elle sauva les anciennes œuvres littéraires, diffusa le savoir moderne, propagea les nouvelles idées, redonna à la société islamique sa vitalité.

Conclusion Générale :

L'introduction de l'imprimerie arabe fut un signe d'ouverture sur le monde occidental des différentes communautés de l'Empire ottoman sans pour cela que le livre imprimé contribuât à la circulation d'idées nouvelles, à la diffusion du savoir à une grande échelle à l'exemple de l'Europe puisque chaque communauté avait sa propre conception de l'art typographique comme elle l'avait du manuscrit ; et si ce traditionnel véhicule du savoir fut l'objet de sévères critique et appelé à céder la place au livre imprimé ce ne fut pas pour les mêmes raisons. Les chrétiens arabes y virent un lieu de préjudice porté à la religion puisque y étaient reproduites les erreurs et les hérésies des autres sectes, défigurées et altérées les versions d'Ecriture sainte et de liturgie, absents les vrais principes de la foi du Christ dans les catéchismes.

Les musulmans y virent quant à eux le lieu de préjudice porté aux lettres et aux sciences puisque n'y étaient plus assurée la transmission des œuvres savantes perdues dans les guerres et les catastrophes naturelles, y étaient altérés les textes remplis de fautes de grammaire tandis que le manuscrit religieux était certes l'objet de mille soins et que l'écriture du Coran était considérée comme un geste de piété. Mais les copistes ne se révélèrent-ils pas en fait négligents et paresseux, enfin avides de gagner rapidement de l'argent sans se soucier pleinement des erreurs commises?

Si les chrétiens furent convaincus de l'utilité de l'imprimerie dès la fin du XVIè siècle et reçurent favorablement le livre arabe imprimé venu d'Europe,

les uléma proches de la cour et les hautes autorités de la Porte.

L'ambassadeur Yirmisekiz Muhammad Efendi qui se rendit avec son fils à Paris en 1721 complètèrent l'image fascinante qu'ils avaient de la typographie. Le sadr-azam Ibrahim Pasha Damad appuya le projet d'Ibrahim Mutafarrika et Saïd Shalabi pour l'installation d'une imprimerie à Constantinople.

Qu'en était-il de l'apport de l'édition d'Istanbul? L'atelier typographique publia vingt et un livres depuis sa fondation en 1726 jusqu'à l'accession au pouvoir de Sélim III en 1787. Les sujets de ces livres traitaient de questions historiques (treize) géographiques (trois) militaire (un) et linguistiques (quatre). La plupart de ces ouvrages étaient en langue turque, le reste en arabe, en persan et en français. Le livre imprimé consacré à des thèmes non religieux, les écrits d'histoire étaient les mieux représentés et retraçaient le prestige des princes de la dynastie ottomane, leurs victoires militaires éclatantes et leurs principales réalisations sociales. Le choix des Annales ottomanes peut s'expliquer par la volonté de la Porte de légitimer l'autorité des empereurs turcs sur l'ensemble des populations de l'Empire. Ibrahim Mutafarrika, directeur de l'imprimerie, bien qu'il semble en apprence rejoindre ce but entend tirer des leçons des périodes sombres de l'histoire : défaites, révoltes et instabilité. Il incita les autorités à réfléchir sur les raisons de la décadence de l'Empire depuis la mort de Sulyman II et proposa la réorganisation de l'armée sur le modèle occidental et la communication des sciences et techniques d'Europe.

Le livre imprimé était alors d'une part un moyen de propagande politique en faveur du sultan et une tribune pour diffuser les idées de réformes et d'ouverture sur l'Occident. L'imprimerie, entreprise politique créée et contrôlée par la Porte lui servit à réaliser ses desseins, au service des hommes politiques beaucoup plus qu'aux hommes de lettres.

Qu'en était-il de son écho dans le monde musulman ?

La diffusion de l'édition d'Istanbul dans les milieux lettrés était limitée. Le peu de débit des ouvrages était dû à la réticence des lettrés musulmans vis-à-vis de l'art d'imprimer et à leur attachement à la calligraphie. Le livre imprimé de plus, par son contenu, ne réussit pas à concurrencer le manuscrit religieux. Il restait en marge de la vie culturelle. La technique d'impression était une nouveauté isolée dans le monde des lettres, et puisqu'elle n'était pas accompagnée d'autres réalisations culturelles telle que la création d'écoles qui auraient pu former une masse de lecteurs, elle n'arrivait pas à supplanter les boutiques de copistes.

Le livre imprimé en caractères arabes n'avait pas pu rayonner sur la vie culturelle, tout d'abord parce qu'il était rare : il n'y avait qu'une seul typographie dans l'Empire ottoman. Cette entreprise qui connut beaucoup de difficultés, était restée fermée plus de temps qu'elle ne fut ouverte: quarante-sept ans d'interruption et treize ans d'activité (entre 1728-1787). De plus l'imprimé n'avait pas servi à échanger les idées ni à communiquer le savoir européen dans tout le monde musulman. Les rapports culturels

l'âme.

Les patriarches d'Antioche, ainsi que Zakhir et les Basiliens, fondateurs de ces imprimeries formulaient des attaques contre le manuscrit qui est accusé d'avoir contribué aux shcismes entre les églises orientales en conservant les écrits des hérétiques, et en donnant des versions liturgiques et bibliques altérées. Les copistes qui étaient en particulier des moines ignorants et négligents multipliaient sans le vouloir ces manuscrits erronnés. Les fautes sont de deux genres : linguistique et dogmatique. De plus, ils transcrivent peu de volumes qui devenaient rares et coûtaient cher. Les imprimeurs font appel aux lecteurs pour qu'ils abandonnent l'ancien véhicule du savoir, source d'erreurs et d'hérésies pour qu'ils le substituent par le livre imprimé. Ce dernier est conçu pour donner des versions liturgiques correctes, montrer le vrai chemin du salut de l'âme.

La typographie inaugura une ère nouvelle, selon leurs conceptions, celle de la fin du schisme pour les uns, celle du retour à l'Eglise de Rome pour les autres. Par ses éditions, elle alla consolider la croyance chrétienne, éclairer les esprits pour connaître la " vie éternelle"...

Le bilan des activités des trois imprimeries n'était pas de la même importance, l'influence des ateliers d'Alep et de Beyrouth dans la vie religieuse et culturelle était très minime car ils ne survécurent pas aux premières difficulté et s'arrêtèrent quelques années après leur fondation. Par contre l'imprimerie de Shuaïr qui arriva à surmonter les handicaps techniques et financiers jusqu'à la fin du XVIIIè siècle est arrivée à quelques résultats : elle a édité vingt-neuf livres arabes de religion chrétienne, arriva à développer le goût de la lecture et à mettre à la disposition des lettrés melkites des livres à bas prix .

Malgré les limites d'action des trois imprimeries, il ne faut pas perdre de vue leur apport pour la culture, l'idée de créer des imprimeries est en elle même une évolution puisque les Melkites s'étaient rendus compte de l'utilité de ce moyen révolutionnaire pour multiplier les livres, développer la lecture et diffuser le savoir. Ils avaient enraciné de nouvelles traditions culturelles chez les arabes en introduisant l'art typographique. Ainsi le livre imprimé devint familier, le goût de la lecture se développa, le manuscrit prit du recul devant le nouveau véhicule de savoir.

Le deuxième chapitre étudie la typographie musulmane d'Istanbul :

L'imprimerie, cette découverte occidentale fut introduite dans l'Empire ottoman dans une période d'ouverture sur l'Europe favorable aux inventions et aux techniques venues de la Chrétienté. C'était une des plus grandes réalisations culturelles des sultans turcs du XVIIIè siècle .

Pendant l'Ere des Tulipes, les innovateurs réussirent à venir à bout de la réticence et de la répugnance des traditionnels pour l'art d'imprimer. Le débat long et controversé connut en la personne d'Ibrahim Mutafarrika une heureuse issue. Ce hongrois était le théoricien et le principal fondateur de l'imprimerie musulmane d'Istanbul. Son traité sur l'utilité de l'imprimerie fut approuvé par

d'ascétisme.

Après l'arrêt de cette imprimerie en 1711, il a fallu attendre vingt-trois ans pour en voir apparaître une autre au Mont-Liban à Shuair. Mais cette fois-ci l'initiative et l'entreprise furent l'oeuvre du jeune parti des grecs catholiques. Les Melkites latins, pour diffuser les principes de la doctrine catholique, recoururent au nouvel art d'écrire, encouragés par la présence dans leurs rangs d'un imprimeur venu d'Alep Abdallah Zakher (1680-1748). L'atelier typographique de Shuair réussit à publier vingt-neuf livres entre 1734 et 1787 dont onze rééditions. Toutes ces éditions traitaient de questions religieuses, elles étaient réparties entre les extraits de la Bible et de la liturgie, des livres d'ascétisme, de morale, de mystique et d'apologie.

La fondation de l'atelier de Beyrouth connut les mêmes péripéties que celles de l'imprimerie d'Alep. Le patriarche d'Antioche Sylvestre De Chypre fit imprimer des livres chez les Roumains à Jassy (1745-1747) avant de fonder une nouvelle typographie, avec l'aide des mécènes de Beyrouth, en particulier Abu Askar. Cet atelier ne publia que deux livres religieux avant de s'arrêter sans une apparente raison et bien avant l'effondrement de l'Eglise Saint Georges, qui l'abrita, survenu en 1766.

Quel était le bilan des activités de ces trois imprimeries? Quel était leur apport dans la vie culturelle et sociale des communautés chrétiennes?

Le livre imprimé, messager rapide des civilisations, ne s'était consacré en fait pour l'Orient chrétien qu'à des questions religieuses, il n'avait pas transmis au cours du XVIIIè siècle les idées nouvelles de liberté que fomentait l'Europe. Il était loin, comme l'a constaté Volney, de stimuler les chrétiens pour aspirer à un changement politique, à se débarrasser de l'hégémonie turque, ou bien encore à profiter de la nouvelle situation économique qu'avaient connu les minorités à Alep et au Mont-Liban qui leur permettra, matériellement de créer des écoles, de répandre le savoir à grande échelle et diffuser les sciences modernes.

Les trois imprimeries d'Alep, de Shuaïr et de Beyrouth, du fait d'être fondées par des religieux, d'être installées dans des monastères, étaient destinées à multiplier des livres chrétiens à l'usage des Melkites pour cristalliser et stimuler leur conscience confessionnelle. Leur conception de l'imprimerie est orientée vers des préoccupations religieuses. Et si les livres liturgiques publiés par les trois ateliers étaient tirés de versions arabes communes, utilisées par l'Eglise grecque, les catéchismes traduisent une volonté de Shuaïr de répandre la doctrine catholique. Les orthodoxes répliquèrent par la diffusion de livres de polémique à partir de Jassy en 1745 et comptèrent poursuivre leurs attaques à partir de l'atelier de Beyrouth fondé en 1751 mais ce dernier ne survécut pas assez longtemps pour élaborer cette tendance de lutte contre l'infiltration catholique.

Malgré les divergences dans ce contenu religieux, le but des trois imprimeries était le même : chaque imprimerie se montre disposée à lutter contre les hérésies à sa manière et à montrer le vrai chemin pour le salut de

et avec des prix bas. La seule différence en Orient c'est qu'elle eut des limites, incapable de toucher au manuscrit religieux ; mais cette concession était loin d'être entièrement néfaste au livre puisque ce dernier avait en fait l'avantage de se consacrer aux thèmes scientifiques. Ainsi donc la définition de l'imprimerie voulait demeurer une définition orientale.

Les discussions se situèrent autour des valeurs de la civilisation islamique puisque le manuscrit représentait son ancienne forme, conservant tout le patrimoine littéraire au long des siècles ; ses partisans le défendirent au nom du respect de la tradition, lien permanent entre le passé et le présent, lien de continuité.

Le livre imprimé est enfin venu proposer une nouvelle forme de civilisation car, il voulut mettre toutes les œuvres littéraires sous la forme imprimée, empruntée à l'Europe, il devait nécessairement entraîner avec lui des valeurs et un savoir occidentaux. De même, diffusé à une plus grande échelle il détrôna rapidement le manuscrit, symbole de l'ancien type de civilisation.

Reste à savoir s'il rompit vraiment avec le passé et si la société musulmane fut en mesure de s'adapter aux influences étrangères, soit de passer à une nouvelle étape dans son histoire. Comment la conception de l'imprimerie fut-elle alors mise en pratique?

La Deuxième partie traite de l'introduction de l'imprimerie arabe au Proche-Orient du XVIIIe siècle

Le Premier chapitre analyse l'installation des imprimeries chrétiennes d'Alep, shuair et Beyrouth

Trois imprimeries furent créées par les chrétiens arabes dans la première moitié du XVIIIè siècle à Alep en 1706, à Shuaïr en 1734 et à Beyrouth en 1751. Ces établissements furent fondés sur l'initiative des grecs et de leurs partis orthodoxe et catholique. Après les tentatives d'introduction de l'imprimerie au Proche-Orient par les Maronites au XVIIè siècle qui se sont soldées par des échecs, les Melkites parvinrent les premiers à introduire l'imprimerie arabe.

Alep avait vu la naissance de la première imprimerie arabe au Proche-Orient, elle fut à l'origine de la fondation de la typographique de Shuair puisque l'initiative en venait de réfugiés alépins installés à Kasrawan. Alep, grande place de commerce du Levant, foyer intellectuel chrétien et une des résidences du patriarche melkite, fut choisie comme abri du premier atelier typographique arabe. Elle bénéficia de l'aide des orthodoxes roumains de la Valachie qui éditèrent de leur part des livres arabes.

Les imprimeries arabes de Bucarest et de Jassy étaient un prélude aux imprimeries d'Alep, de Shuair et de Beyrouth. En effet, le patriarche d'Antioche Athanase III Dabbas se rendit à Bucarest pour faire imprimer des livres religieux avant de parvenir à fonder un atelier typographique à Alep en 1706 grâce à l'aide du Voïvode de Valachie et à publier dix livres de liturgie et

(1675-17) chef de file du courant moderniste est à cet égard une source de première main .

Le débat sur l'imprimerie qui opposait rénovateurs et traditionnels se situa sur le terrain de la civilisation musulmane, il se déroula sur le degré d'utilité des anciens et des nouveaux instruments du travail intellectuel, le manuscrit et le livre imprimé, l'écriture cursive et les caractères d'imprimerie ; sur ceux encore qui les mettaient en œuvre : le copiste et l'imprimeur.

Si le manuscrit fut défendu c'est parce qu'il était fidèle aux valeurs de l'Islam qu'il continuait à propager par écrit depuis la révélation du Coran. Ce livre même fut l'objet de soins particuliers par les copistes et les croyants. Le manuscrit était écrit en alphabet arabe qui était l'objet de respect puisqu'il était la transcription graphique des versets coraniques ; à partir de cette conception les musulmans s'intéressèrent à l'art de la calligraphie. Le livre imprimé représentait une menace, aux yeux des traditionnels, pour les manuscrits religieux. Il était méprisé parce qu'il venait des "pays des infidèles" et écartait la belle écriture à la main au profit de caractères métalliques grossiers. Il fut suspecté car il n'inspirait pas confiance quant à l'authenticité de la reproduction du livre du Coran Il introduisit de mauvaises idées qui troublèrent les esprits beaucoup plus qu'elles n'apprirent la sagesse et la science. L'art d'imprimer en dernier lieu ruina le métier des copistes puisqu'il pouvait se passer des services de milliers de gens par l'usage de presses.

Les innovateurs considéraient le manuscrit sous un autre angle : il n'était pas en mesure de transmettre les valeurs et les acquis de la civilisation islamique. Il n'avait pas assuré non plus la transmission des anciennes œuvres musulmanes qui étaient en voie de disparition à cause des tristes événements historiques ; de plus les copistes négligents et ignorants avaient aggravé l'état déjà désastreux des domaines de la culture et de la religion. Le manuscrit, reproduit par des moyens lents, se trouva erronné, rare et cher, et par là il ne fut plus à la portée de tout le monde ; en conséquence l'analphabétisme s'aggrava.

Le livre imprimé tel qu'il est vu par ses partisans était le véhicule du savoir de l'avenir, capable tout d'abord de reproduire le mieux l'écriture cursive et de garder ensuite le charme de la calligraphie, de propager enfin les sciences et les arts aux masses des lettrés grâce à des exemplaires nombreux et peu coûteux.

Les partisans du nouvel art d'écrire exprimèrent une attitude favorable en se référant eux-aussi à la civilisation musulmane, en montrant que la technique d'impression contribuait à son renouveau et à son épanouissement par une ouverture sur l'autre et la connaissance d'un monde avancé. C'est par ce moyen qu'ils purent répondre au défi de l'Occident.

La définition de l'imprimerie donnée par les innovateurs était proche de celle qui était répandue en Occident. C'est à dire moyen rapide de multiplication et de diffusion de livres de sciences et de lettres, ceci sur une grande échelle

Rome et à Paris a pris plusieurs formes allant de la traduction des livres, au façonnement des caractères arabes et à la surveillance des éditions jusqu'aux impressions. La plupart de ces Maronites était d'anciens élèves du Collège maronite de Rome, crée par le Pape Grégoire XVIII en 1584, et qui n'étaient pas retournés au Mont-Liban. Ils furent sollicités, en fonction de leur érudition et de leur compétence par les autorités religieuses et politiques de Paris qui leur enjoignirent de rester plus particulièrement dans ces deux villes. Leur tâche consiste à enseigner l'arabe, le syriaque et autres langues, à traduire des ouvrages de langues orientales en latin et surtout à éditer des livres arabes. Parmi ces savants maronites on peut citer Djibrail as-Sahyuni, Yuhanna al-Hasruni, Ibrahim al-Hakilani ; Djirdjis Amira, Sarkis ar-Rizzi, etc.

Certains Maronites avaient même dirigé des imprimeries à Rome avec le consentement du Pape, tels que Yakūb ibn Hilāl qui fonda en 1595 La Tipographia Linguarum externarum et Mikhail al-Mtūshi qui créa en 1696 la Typographia Michel Metoscita. Les Maronites acquièrent une grande expérience dans l'art typographique, ce qui les mena à vouloir implanter des imprimeries au Mont-Liban. Ils réussirent à installer une typographie à Kūzhaya en 1610 qui ne publia qu'un Psautier syriaque avant de s'arrêter. D'autres initiatives échouèrent par manque d'organisation et de moyens, les Maronites continuèrent à se procurer les livres religieux de l'Occident.

Les orthodoxes melkites pour leur part ne réussirent à créer leur première typographie arabe en Syrie que tardivement : le début du XVIII siècle, époque propice aux inventions, permit à ces chrétiens de réaliser leur désir de prendre à leur compte l'art d'imprimer.

Le deuxième chapitre étudie l'attitude des musulmans à l'égard de l'imprimerie et analyse leur débat sur cette invention. Si les chrétiens arabes avaient jugé utile d'imprimer leurs livres religieux depuis le début du XVIIe siècle, les musulmans quant-à-eux avaient rejeté l'art typographique jusqu'au premier quart du XVIIIe siècle. Pourtant ils connaissaient en détail l'art d'imprimer chinois tout comme ils connurent la technique européenne de Gutenberg, mais à chaque fois le pouvoir politique rejeta toute tentative d'introduction de cette invention dans le pays, continuant cependant à s'intéresser tout de même à la calligraphie dans la reproduction des livres. Les Ottomans n'empruntèrent la typographie que seulement plus de deux siècles et demi après la découverte de Gutenberg, bien qu'il utilisèrent d'autres inventions occidentales au XVe siècle et les sultans turcs s'entouraient de plusieurs savants, architectes et ingénieurs européens. L'art d'imprimer n'était pas une nouveauté comme les autres, il avait pris beaucoup de temps pour pénétrer dans le monde musulman. Son usage rencontra une vive opposition de la part des traditionnels et entraîna les savants à des controverses. Il y avait donc un long débat qui s'était engagé chez les musulmans de l'Empire ottoman depuis l'apparition de l'imprimerie en Europe où conservateurs et rénovateurs s'affrontaient. L'étude du procès de la typographique permet d'émettre certains arguments propres à expliquer le "retard" dans l'introduction de l'imprimerie chez les musulmans. Le "mémoire sur la manière d'imprimer" la Risāla wasīla tibāa d'Ibrahim Mutafarrika

quelques oeuvres littéraires et scientifiques des musulmans mais la grande partie de l'édition arabe était religieuse et fut diffusée en Orient. Les imprimeries de Rome et de Paris publièrent des livres arabes religieux destinés aux chrétiens arabes, ils réfutaient les " erreurs " des versions liturgiques orientales et répandaient en même temps la doctrine catholique. Les protestants, quant-à-eux tentèrent vainement au XVIIe siècle de propager au Levant, grâce aux livres imprimés, les idées de la Réforme. L'orientalisme arabisant était défini par l'édition arabe comme religieux.

Les chrétiens arabes qui donnèrent leur avis sur cette édition étaient surtout les Maronites ralliés à l'Eglise de Rome et ceux en voie d'établir leur Union avec la papauté c'est-à-dire une fraction des Orthodoxes Melkites. Ces deux communautés réservèrent un accueil favorable à l'édition arabe d'Europe. Les Maronites n'avaient pas hésité à accueillir le nouvel art typographique avec satisfaction. La technique d'impression était utilisée par les chrétiens d'Europe, et, de ce fait leur inspirait confiance puisqu'elle venait des peuples avec lesquels ils avaient en commun la religion. Ils exprimèrent leur reconnaissance au Pape en recevant des catéchisme et des psautiers imprimés par les Jésuites, les Medicis et la Congrégation de la propagande de la Foi et envoyèrent leurs manuscrits liturgiques pour qu'ils fussent édités en Italie. Les Maronites trouvaient dans ces éditions le moyen efficace de pouvoir réviser d'après plusieurs manuscrits répandus dans l'ensemble des couvents disséminés dans la montagne libanaise et dans les grandes villes syriennes. Le livre imprimé contribuera à rassembler tous les Maronites autour de leur Patriache et en traduira le désir de consolider leurs liens avec le Siège épiscopal. L'imprimerie détourna les regards des Maronites de l'Orient vers l'Occident et les encouragera à se détacher de l'emprise des autres communautés chrétiennes et musulmanes de l'Empire Ottoman.

De leur côté, les Melkites approuvèrent l'utilisation du livre imprimé, comme les Maronites, et n'hésitèrent pas à remercier la Papauté pour leur avoir envoyé des ouvrages arabes imprimés. Ils trouvèrent dans l'art typographique le moyen efficace de reproduire les livres de leur Eglise et ainsi de consolider les principes doctrinaux de leur Communauté, ils comptaient instruire les fidèles et maintenir le contact avec les "dissidents" pour retrouver l'Unité de tous les chrétiens autour de l'Eglise melkite.

Les chrétiens arabes trouvaient dans l'imprimerie un moyen efficace de s'identifier au sein du vaste monde musulman et aussi de consolider leur communauté par rapport aux autres confessions. Cependant ils désapprouvaient parfois le contenu des éditions venues de Rome et de Paris, car les textes n'étaient pas imprimés conforménent aux versions bibliques et liturgiques en usage chez les Maronites et les Melkites. L'Eglise romaine chercha à "latiniser" les liturgies orientales pour rapprocher les pratiques rituelles et réussir la politique d'Union avec les Eglises du Levant.

Les chrétiens arabes ne se contentèrent pas d'exprimer leur soutien aux efforts des Européens en matière d'impressions arabes, mais participèrent activement à l'élaboration de cette édition au point qu'à un certain moment cette collaboration devînt indispensable. La participation des Maronites à

partiels dans l'analyse des problèmes soulevés par l'imprimerie dans la société ottomane. Ils observèrent le phénomène de l'extérieur d'autant plus qu'ils ne parlaient pas tous une des langues orientales et ignoraient le mode de pensée des Orientaux. Ils se bornèrent alors à rapporter des remarques générales, sans se dégager des préjugés sur les Ottomans, passant alors sous silence le débat qui se déroulait entre les forces traditionnelles et rénovatrices sur le projet de société moderne à adopter.

La reconstitution des péripéties de ces discussions a soulevé des difficultés car nous n'étions guidé que par de rares études sur la question.

La premier travail dans notre recherche consiste à dépouiller les livres arabes imprimés au Proche-Orient au XVIIIe s, et pour accéder à ce fonds arabe dans les grandes bibliothèques, nous avons dressé un catalogue général de ces ouvrages en consultant des manuels de bibliographies arabes rétrospectives, des chroniques de voyageurs européens puis des catalogues des grandes bibliothèques du monde.

Le fonds arabe de la Bibliothèques Nationale de Paris se révèle très riche en ces incunables, il a été complété par une consultation de collections syriennes (1).

Nous ne sommes pas en mesure de donner des réponses définitives mais seulement de soulever des problèmes, de les situer dans le contexte du XVIIIème siècle ottoman, de contribuer à la recherche de solutions. C'est ainsi que ce travail tel qu'il se présente est divisé en deux grandes parties. Dans la première il est traité des préliminaires de l'imprimerie arabe au Proche-Orient et dans la seconde de l'installation des quatre premiers ateliers typographiques arabes du XVIIIème siècle.

La première partie étudie les préparatifs des arabes pour utiliser la typographie, à travers l'analyse de leurs attitudes vis à vis du nouvel art d'écrire. Le premier chapitre a révélé que les chrétiens arabes étaient les premiers à réagir favorablement à cet égard. En effet, dès le XVI° siècle, ils approuvèrent sans réserve l'art d'imprimer puisqu'ils avaient reçu et utilisé les premiers imprimés arabes venus d'Europe. Il est important de remarquer que la typographie arabe avait démarré dans des pays étrangers à la langue arabe. Ainsi, l'Europe avait imprimé les premiers incunables arabes dès le début du XVI° siècle. Plusieurs raisons avaient motivé les Européens à développer les études arabes en Europe et à s'adonner à l'art d'imprimer en langue arabe. Le premier livre imprimé en entier en arabe était le Livre d'Heures des Melkites, Kitab salat Sawaii, publié à Fano au sud de Venise en 1514. Le Coran fut imprimé pour la première fois dans sa langue originale à Venise en 1537-1538. Après les premières tentatives, l'édition arabe en Europe se mit à être florissante à partir du XVIIe siècle. Plusieurs imprimeries orientales dans des villes italiennes, françaises, anglaises, allemandes et hollandaises publièrent des livres arabes.

---

(1) Celles de l'Eglise grecque catholique d'Alep, et de Mgr Joseph Nasrallah à Paris.

Le livre arabe imprimé en Europe avait révélé aux arabisants d'Europe

même angle. De par la nature de leur société, de leur histoire, de leur façon de juger les phénomènes qui se produisirent dans leur milieu social selon des critères propres à leur culture, ils donnaient au contenu du livre imprimé une orientation différente et la typographie se voyait imprégnée de traits spécifiques de leur civilisation. Nous nous demandons alors si le livre avait servi tout comme en Europe aux échanges des idées, à la diffusion du savoir moderne ; s'il avait provoqué des conflits intellectuels enrichissants auprès des différentes confessions sur le sol ottoman du Proche-Orient?

Il est intéressant de savoir si les débats entre traditionnels et innovateurs musulmans sur l'utilité de l'imprimerie n'avaient pas servi de prélude aux grands courants de pensée du XIXème siècle qui animèrent le mouvement de la "Nahda" (Renaissance littéraire arabe). Celle-ci doit son épanouissement au développement de la presse et du livre imprimé. On a tendance à situer cette renaissance au moment où elle est déjà en pleine évolution et non pas à son début et justement ne faut-il donc pas faire remonter ce début au XVIIIème siècle?

Il est donc essentiel de ne pas isoler le phénomène de l'imprimerie en tant que technique pure mais de l'intégrer dans le contexte socio-historique du Proche-Orient du XVIIIème siècle, de le situer dans le cadre des transformations qui commencèrent à bouleverser la société ottomane à l'époque où l'Europe se prépare à la Révolution industrielle.

L'étude de ce moment de transition est capitale pour comprendre le début de l'émergence de la société ottomane moderne. Le dix-huitième siècle est à cet égard une époque charnière entre une période de stagnation intellectuelle et une période de réveil de la société, ce qui permet d'analyser les premières adoptions et réactions.

Le choix de la périodisation pour ce travail risque en fait de fausser quelques données, et la chronologie est certes importante dans la recherche historique mais nous oblige de fixer des dates peu révélatrices. Le début des controverses au sujet de l'imprimerie avait commencé avant 1706 et continuait à prendre de nouvelles dimensions au XIXème siècle. La première phase du renouveau de la société ottomane semble se terminer vers 1787 avec l'accession au trône du sultan Selim III qui établit le "Nizam djadid" (le Nouvel ordre) et continua à réorganiser les structures de l'Etat. Son action était influencée par les idées de la Révolution française.

Les imprimés arabes du XVIIIe siècle constituent une source de première main pour ce travail, riche en informations sur la fondation des imprimeries, les intérêts, les motivations des éditeurs, le contenu, la destination et la diffusion des livres, bref, sur plusieurs aspects de la vie de ces premières imprimeries arabes. Les préfaces des premières éditions du Proche-Orient fournissent des éléments importants sur la progression des activités de ces ateliers ainsi que sur les projets des imprimeurs et les difficultés rencontrées.

Le recours aux chroniques des voyageurs européens qui se rendirent en Orient à cette époque est très important, mais leurs témoignages restent

l'imprimerie que les opinions se trouvaient controversées et les savants conservateurs et innovateurs défendaient avec acharnement leurs opinions. La tendance traditionnelle s'opposait à l'utilisation de techniques modernes venues des pays des "infidèles" et considérait l'abandon des procédés en usage comme étant une rupture avec le passé qu'elle vénère. Elle réagit en même temps contre le défi de l'Occident chrétien qui voulait envahir leur société par ses découvertes et ses nouvelles idées.

La tendance innovatrice cherchait à défendre la société musulmane tout en réfléchissant sur les raisons du déclin et montrait que l'utilisation de techniques perfectionnées signifierait le passage vers une nouvelle étape de leur civilisation celle du modernisme. Elle invitait les lettrés à étudier les raisons du progrès de l'Europe.

Le débat entre les musulmans sur la nouvelle forme de société à adopter ne faisait que commencer et à cet effet s'affrontaient traditionnels et modernistes, manuscrit et livre imprimé, évolution et stagnation, acquis et acquisition, bref, valeurs anciennes et modernes.

Les chrétiens arabes pour leur part se soucièrent de la réorganisation de leurs communautés, de l'élaboration d'une activité culturelle et religieuse par l'intermédiaire du livre imprimé dans le but de stimuler leur conscience confessionnelle au sein des nombreuses "taïfa". Mais les controverses n'avaient pas tardé à se déclencher entre orthodoxes et catholiques puisqu'ils étaient amenés à se prononcer sur les nouveaux rapports qu'ils devaient entretenir avec l'Occident chrétien; s'il fallait se rallier à l'Eglise romaine et se rapprocher des Européens : commerçants et missionnaires présents dans les grandes villes syriennes, bref, s'il fallait lier le sort de leurs communautés à l'Europe.

Une fois la typographie arabe introduite au Proche-Orient, il sera important de s'interroger sur la façon selon laquelle les orientaux s'étaient aperçus de ses avantages, ce qui permettra de définir leur conception de l'imprimerie et de savoir si le contenu du livre avait traduit leurs représentations de la société.

L'apport de l'imprimerie arabe du Proche-Orient au niveau culturel et social ne pourrait pas être identique à celui de l'Europe du XVIIème siècle, du fait que celle-ci avait connu auparavant plusieurs expériences pour pouvoir définir les avantages de cette technique. L'utilité de la typographie n'était pas chose évidente en Europe au départ, elle était considérée comme une curiosité plus agréable que l'écriture à la main, mais par la suite et à la lumière des résultats qu'elle a donnés, l'Occident s'était constitué une idée cohérente sur elle (*).

En revanche les Orientaux n'avaient pas considéré l'imprimerie sous le

---

(*) Volney définissait l'imprimerie à la fin du XVIIème siècle, et considérait la technique comme étant "le vrai mobile des révolutions qui depuis trois siècles sont arrivées dans le système moral de l'Europe. C'est elle qui rendant les livres très communs, a répandu une somme plus égale de connaissances dans toutes les classes ...".

LE DEBUT DE L'IMPRIMERIE ARABE A ISTANBUL ET EN SYRIE: EVOLUTION DE L'ENVIRONNEMENT CULTUREL (1707 - 1787)

W. GDOURA
Tunis

L'objet de notre travail consiste à étudier les problèmes soulevés par la naissance de la typographie arabe au Proche-Orient et son influence sur la vie culturelle au XVIIIème siècle.

L'art d'imprimer en caractères arabes n'a vu le jour au Levant que deux siècles et demi après son apparition en Europe. Le manuscrit était le seul véhicule écrit du savoir chez les lettrés jusqu'au moment où les Melkites installèrent leur première imprimerie arabe à Alep en 1706 et les musulmans fondèrent la leur à Istanbul en 1726, puis suivit l'apparition de deux autres ateliers chrétiens au Mont-Liban : à Shuaïr en 1734 et à Beyrouth en 1751.

La fondation de ces quatre typographies au bout d'un demi-siècle est un signe révélateur de changement important dans la société ottomane puisqu'il montre l'aspiration de celle-ci d'adhérer à une nouvelle ère de son histoire : l'ère du renouveau culturel auquel le livre imprimé sera un élément capital dans son rayonnement. Le fait d'adopter une nouvelle forme au véhicule du savoir traduit la volonté de lui donner un nouveau contenu et de faire connaître par son moyen les préoccupations des gens éclairés sur les orientations à venir de la société. Cette nouvelle vision a contribué à mettre un terme à l'absence des techniques d'impression chez les musulmans et les chrétiens arabes. Il est nécessaire de chercher les raisons du "retard" enregistré dans l'introduction de la typographie arabe en Orient. Ceci d'autant plus que les musulmans furent d'une part, fort bien informés et très tôt de l'apparition des caractères mobiles en Europe et même de l'art d'imprimer inventé par les Chinois au XIème siècle. Les chrétiens arabes d'autre part, connaissaient les ateliers typographiques des autres minorités de l'Empire ottoman et qui appartenaient aux Juifs, Arméniens et Grecs dès les XVème et XVIème siècles. Il est important alors de définir ces réserves formulées contre l'utilisation de l'art d'imprimer, voire cette opposition au remplacement du manuscrit par le livre imprimé, cette crainte de voir l'imprimeur évincer le copiste...

Pour mieux cerner ce problème, il ne faut pas perdre de vue l'importance de la période qui avait précédé l'introduction du nouvel art d'écrire chez les musulmans et qui était déterminante dans la réflexion sur le devenir de leur civilisation. Le désir de changer les instruments de culture signifie la volonté d'adopter une nouvelle méthode de travail intellectuel et une façon de voir la société ottomane ainsi que le monde occidental qui se traduirait par une ouverture sur ses techniques et ses idées.

L'emprunt des techniques d'impression était une occasion pour les musulmans de débattre sur les problèmes de renouvellement de leur société sur tous les plans et de revaloriser les acquis de leur civilisation. C'est devant ce choix difficile qui avait précédé et accompagné l'introduction de

bibliothéconomie et sciences de l'information. Ses multiples travaux de recherche publiés, jusqu'à nos jours, en arabe et en français, ont fait de lui l'un des remarquables chercheurs pleins de promesses en vue d'enrichir la littérature bibliothéconomique, non seulement à l'échelle de la Tunisie et du Maghreb mais aussi à l'échelle du Monde arabe. Au départ, il a eu l'occasion de fréquenter les principales bibliothèques françaises, et à repérer et exploiter le fonds arabe ancien. L'accès aux premiers livres arabes imprimés, lui a permis d'étudier le début de l'imprimerie arabe dans la société ottomane. Je ne puis m'empêcher de souligner, pour le lecteur, que l'étude présente est une étude rigoureuse dans laquelle l'auteur a étudié les problèmes de la mutation de la société arabo-ottomane en vue d'adopter l'imprimerie. Il a analysé les obstacles rencontrés par les précurseurs de ce nouvel art d'écrire, les arguments qu'ils ont avancés pour venir à bout de la réticence des autorités ottomanes et surtout des savants conservateurs à l'égard de l'imprimerie, et ceci dans le but de l'utiliser comme moyen pour relancer la vie culturelle et scientifique, enrichir la civilisation arabo-musulmane et adhérer à l'ère de la renaissance intellectuelle. Car l'imprimerie constitue un important élément dans la mutation sociale, politique et intellectuelle de la nation arabo-musulmane.

Le lecteur aura l'occasion, en consultant ce travail passionnant et bien documenté, de se rendre compte des particularités du conflit religieux d'Orient, qui a abouti à l'introduction de l'imprimerie. Il découvrira les raisons du choix des titres des premiers incunables arabes et le degré de conviction des Arabes, du rôle décisif de l'art typographique dans le réveil de la nation, et ceci, avant même l'expédition de Napoléon Bonaparte. La preuve en est que les imprimeries de la Syrie et d'Istanbul ont publié des dizaines de livres arabes au cours du XVIIIe siècle.

Je crois qu'avec l'édition en arabe de cet ouvrage, notre bibliothèque d'histoire va s'enrichir. Mes remerciements vont à cet égard, au chercheur Dr. Wahid Gdoura, pour sa modestie, pour l'effort qu'il a fourni et pour sa sincérité au service de la recherche historique et bibliothéconomique. Cette édition scientifique peut servir dans l'avenir de modèle pour les publications académiques arabes futures. Je saisis, aussi, cette occasion pour rendre hommage au Comité Directeur de la Bibliothèque Nationale du Roi Fahd de Riyadh, sans leur précieux concours de qui, par le biais de cette co-édition, ce travail n'aurait pas vu le jour. Puisse Dieu nous prêter son concours pour accomplir notre mission scientifique du mieux que nous pouvons.

Abdeljelil Temimi

Zaghouan le 24 Mai 1992

Préface

Abeljelil TEMIMI

Nul doute que le rôle de l'imprimerie constitue avec le début de la Renaissance Européenne, un des principaux tournants décisifs du développement des civilisations et des activités intellectuelles de toute l'Humanité. C'est grâce à la typographie que les canaux et les instruments de la créativité scientifique et culturelle ont pu être diversifiés et transmis à tous les centres, organismes et individus. Alors que la créativité intellectuelle était autrefois accaparée par une minorité de lettrés appartenant aux couvents, aux églises et aux universités, pour le Monde latin, et aux écoles, aux mosquées et aux palais, pour le Monde musulman.

En effet le Monde arabo-musulman a connu au Moyen âge une rapide divulgation de l'information par le biais de la transcription des manuscrits. Toutefois, cette diffusion reste relativement limitée dans le temps et l'espace, compte tenu du nombre élevé de gens instruits, avides d'informations pendant l'âge d'or de l'Islam. Cependant, l'opinion publique n'était pas en mesure de se désaltérer tant le manuscrit était rare et sa transmission était lente. Et ceci, en dépit du rôle des scribes qui reste à son tour limité, face à l'importance et à la diversité du patrimoine de la civilisation arabo-musulmane écrite à travers les âges.

En prenant en considération l'existence d'environ trois millions de titres de manuscrits arabo-musulmans dans toutes les disciplines à travers le monde, on se demande comment on peut en tirer profit sans qu'une nouvelle méthode ne soit disponible, telle que la typographie, pour assurer le transfert et l'usage de ce patrimoine civilisationnel sur une grande échelle? L'imprimerie, cette aventure révolutionnaire de l'Homme, a permis, sans doute à l'individu, ainsi qu'aux groupes et aux organismes, le droit d'accès à la production intellectuelle de l'Humanité à travers le livre imprimé.

Les chercheurs occidentaux ont analysé l'avènement de l'imprimerie européenne dans le Monde latin, et publié sur ce sujet des centaines de travaux intéressants. Par contre, dans la société arabo-musulmane, cette question n'a pas toujours été tranchée et n'a pas fait l'objet d'étude scientifique exhaustive, et ce en dépit de l'importance de ce sujet délicat et de son incidence directe sur la Renaissance arabe et le mouvement des réformes.

Je suis très heureux de présenter, dans le cadre des publications du CEROMDI, la traduction arabe mise à jour de l'étude du Dr. Wahid Gdoura, maître-assistant à l'Institut Supérieur de Documentation de l'Université de Tunis I, intitulée : " **Le Début de l'imprimerie arabe à Istanbul et en Syrie : évolution de l'environnement culturel : 1706-1787.**

Le Dr. Wahid Gdoura est considéré pami les chercheurs spécialistes en

Wahid GDOURA
Maître - Assistant
I.S.D. Université de Tunis

Le Début de l'Imprimerie Arabe à Istanbul et en Syrie : Evolution de l'Environnement Culturel (1706-1787)

préface de
Abdeljelil TEMIMI
Prof. à la Faculté des Sciences
Humaines et Sociales - Université de Tunis

Publications du :
Centre d'Etudes et de Recherches Ottomanes, Morisques,
de Documentation et d'Information.
et King Fahd National Library
Juin, 1992

Publications du Centre d'Etudes et de Recherches Ottomanes, Morisques, de Documentation et d'Information (Ceromdi)

Directeur Responsable
Prof. Abdeljelil Temimi

Des objectifs du CEROMDI :

- La création d'un centre d'information d'histoire ottomane, morisco-andalouse , de documentation et d'une banque de données bibliographiques relatives à ces sujets
- L'ouverture d'une bibliothèque spécialisée : celle-ci fut inaugurée le 15 mars 1989.
- L'exécution d'études et de recherches sur l'histoire ottomane, morisque de documentation, et publications de tous les Actes des Symposiums organisés par le Ceromdi . (Voir sa liste de publications pp. 23 - 24).
- La consolidation des liens de collaboration scientifique entre les chercheurs arabes, turcs, français, espagnols, américains, et avec tous les autres spécialistes internationaux.
- Le Ceromdi veille à la publication de deux revues académiques : **Revue d'Histoire Maghrébine,** depuis 1974 et dont le 64 ème numéro vient de paraitre et **Arab Historical Review for Ottoman Studies(AHROS)**, 6 numéros sont déja parus (1992)
- Le Ceromdi à déjà organisé onze Symposiums Internationaux sur l'histoire de l'Empire Ottoman, la Moriscologie et la Bibliothéconomie.

- La composition de cet ouvrage a été réalisée sur l'Unité Apple Macintosh du Ceromdi; quant au tirage, il fut réalisé à l'Imprimerie Papyrus Nabeul : (Juin 1992).

- Pour toute information , s'adresser au : **Ceromdi** ; BP 50, Zaghouan (1118) - Tunisie.
Tel: 02 76 446 (à partir de la Tunisie) et 216 2 76 446 (de l'étranger)
Fax: 00216 2 76 710

I.S.B.N. 9973-719-20-4

Le Début de l'Imprimerie Arabe à Istanbul et en Syrie : Evolution de l'Environnement Culturel (1706-1787)

حسن يوسف الملوشي

Wahid GDOURA
Maître - Assistant
I.S.D. Université de Tunis

Le Début de l'Imprimerie Arabe à Istanbul et en Syrie : Evolution de l'Environnement Culturel (1706-1787)

préface de
Abdeljelil TEMIMI
Prof. à la Faculté des Sciences
Humaines et Sociales - Université de Tunis